المحاسن والأضداد

تأليف

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري
المتوفى سنة ٢٥٥ هـ

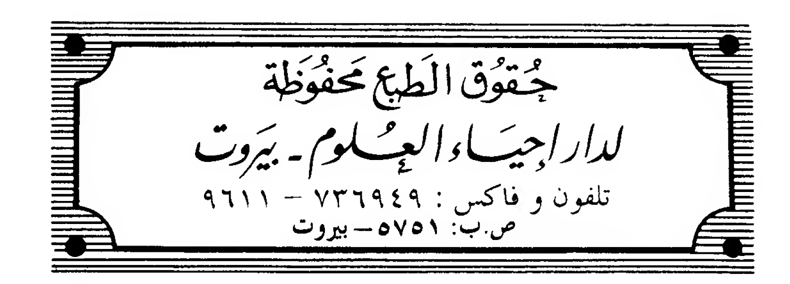
قدم له وحققه

الشيخ محمد سويد
المستشار الأول في المحكمة الشرعية السنية العليا
بيروت - لبنان

دار إحياء العلوم
بيروت

الطبعة الثانية

١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م



تلفون و فاكس : ٧٣٦٩٤٩ - ٩٦١١
ص.ب: ٥٧٥١ - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد خير المرسلين وعلى آله وأصحابه والتابعين.

وبعد، فهذا كنز آخر من كنوز العلم والمعرفة التي خلفها لنا من بعض ما خلف شيخ أدباء العرب عمرو بن بحر بن محبوب أبو عثمان الجاحظ المولود في البصرة عام ١٦٠ هجرية أي عام ٧٧٥م من أبوين فقيرين لم يأت التاريخ على ذكرهما، غير أن ما أجمع عليه المؤرخون أن الجاحظ نشأ فقيراً معدماً لا يجد ما يعتاش منه فاضطر إلى بيع السمك والخبز على ضفاف نهر البصرة، ولهذا لم يستطع أن يتفرغ للعلم الذي شعر منذ صغره بميل جارف إليه وتلهف شديد للحصول عليه فقاده تفكيره إلى اكتراء دكان لأحد الورّاقين حيث كان ينام فيه ليلاً فيطالع ما يجد من كتب أو ينسخها فتعلق في ذهنه ويستوعبها بسهولة ويسر ثم ينهض نهاراً إلى العمل والكسب ومخالطة الناس وكثيراً ما كان ينقطع إلى الدكان في النهار ثم يرجع إلى أمه تعباً مكدوداً ليتناول طعامه وحدث مرةً أنه عاد وانتظر الغداء وإذا بأمه تحضر صحناً مملوءاً بالأوراق وتضعه أمامه فاستغرب وسألها: ما هذا يا أماه؟ فقالت: هذا هو الطعام الذي تأتينا به يا بني.

غير أن الجاحظ بجده وعمله هذا استطاع أن يحصل على معرفتين

لا بد منهما لتكوين شخصية أي أديب أولاهما: احتكاكه بسائر طبقات الشعب والتعرف على عاداتهم وميولهم وأعمالهم. وثانيهما: وقوفه على ما كتبه الأدباء السابقون أو المعاصرون من شعر وأدب، ولم يكتف الجاحظ بذلك بل أضاف إلى عمله هذا اختلافه إلى حلقات العلم والأدب، والدين واللغة، والشعر والفقه والحديث والمناظرات في القضايا المستجدة في عصره بين علماء الكلام والمذاهب التي كانت تقام في المساجد فاكتسب من ذلك الكثير، ثم انتقل من البصرة إلى بغداد التي كانت محجة الأدب والأدباء في العصرين العباسيين الأول والثاني اللذين قدّر للجاحظ أن يعيشهما، وعندما بدأت باكورة أدبه تخرج كتباً للناس لمع نجمه الأدبي، واتسعت شهرته العلمية بين أدباء عصره، وتحدث الناس بفضله وغزارة علمه، وكان اتصاله بالخليفة المأمون، وابن الزيات، والقاضي ابن أبي دواد، والفتح بن خاقان، وإبراهيم بن عباس الصولي فأهدى إلى بعضهم كتبه وارتفعت منزلته وعلا ذكره وطار صيته في الأقطار، وشاء الله أن يمد في عمره ليعاصر أحد عشر خليفة من خلفاء المسلمين من (المهدي حتى المهتدي) كما شاء الله له أن يشهد الصراع الفكري والديني والسياسي في هذين العصرين، لا سيما ذلك التنافس والتنافر الناتجين عن التفاعل بين العرب والعجم وهو ما أطلق عليه اسم «الشعوبية» وكان للجاحظ في ذلك كله موقف بارز بالانتصار للعرب. واتصاله هذا بالخلفاء والقادة والأدباء الكبار منهم والصغار، ولعامة الشعب من النخبة والسوقة أنضج مواهبه فراح يتحف المكتبة العربية بالكثير من مؤلفاته وكتبه المتوَّجة باسمه بعد أن كان في بدء حياته الأدبية ينتحل لها بعض أسماء الأدباء المشهورين الذين سبقوه كابن المقفع وسهل بن هارون وسواهما فيقرأ الناس تلك الكتب ويستسيغونها ويقدّرون ما فيها من أدب وفن عاليين ثم يكيلون لمؤلفيها المديح والثناء.

بعد أن انتقل الجاحظ من وضعه المادي المتردي إلى الغنى والشبع واقتناء الخدم والعبيد أخذ يتنقل في البلدان المجاورة كدمشق واللاذقية وأنطاكية وسواها فصقلت تلك الرحلات نفسه، وأرهفت حسه وزادته معرفة على معرفة بالناس وطبائعهم وتقاليدهم الحسن منها والسيىء والمضحك والمبكي فكان أن ملأ المكتبة العربية، وأتحفها بما لا يقل عن المئة والسبعين كتاباً في مختلف العلوم من فلسفة وأدب، واجتماع ودين، وصناعة وسياسة، وتاريخ إنسان وبلدان، وحياة حيوان ونبات ومذاهب وأجناس، وطبائع وعادات عربية وأعجمية إلى غير ذلك من علوم وفنون، غير أن معظم هذه الكتب لم يصل إلينا بسبب عوامل كثيرة منها الحروب التي شاهدتها بلاد العرب ودمرت كثيراً من مكاتبهم، ومنها الجهل فقد أحرق «هولاكو» كثيراً من المكتبات ـ وللجاحظ كما لغيره من الأدباء الكثير من المؤلفات ـ كما أتلف الإهمال وعدم الصيانة تلك الكنوز الفكرية الثمينة. أما الذي نجا منها فنشر، ولا يزال قسم كبير منها موزعاً في المكتبات لم تصل إليه أيدي الناشرين والمحققين بعد، ومن أجل هذا كله بقي الكثير من آثار الجاحظ وسواه من أدباء العرب وشعرائهم ومفكريهم غير معروف حتى الآن.

لقد كان الجاحظ دميم الخلقة قبيح المنظر وقد سمي بالجاحظ لجحوظ عينيه وبروزهما ومع ذلك فقد كان خفيف الظل، سريع النكتة لأن الله عوض عليه فوهبه نفساً مرحة وذكاءً متوقداً، وقدرة على الفهم والاستيعاب فكان في كل ما كتبه محبباً إلى نفس القارىء، عظيم التأثير فيه، ومع ما كان عليه من دمامة وقبح وفقر مدقع في أول نشأته فقد كانت البسمة لا تفارق كلمته بالإضافة إلى واقعيته وجديته حيث كان ينظر حوله بعينين نافذتين إلى عمق الأشياء فيراها على حقيقتها، فيرى في الألم عزاءً، وفي الشدة رخاءً، وفي الجد هزلاً وكانت هذه الرؤية تنعكس على

قلمه فيمزج الجد بالهزل والضحك بالبكاء حتى يحمل القارىء على الضحك في موضع البكاء. وإلى ذلك كله كان ذا شخصية قوية وعقل كبير لا يقتنع إلا بما يقبله عقله بعد مناقشة علمية صحيحة حتى قال فيه ابن العميد: كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً.

لقد عاش الجاحظ في العصر العباسي وكانت المعرفة والعلم سيماء هذا العصر وكان التفاعل على أشده بين العرب وغيرهم من الشعوب الغريبة التي اعتنقت الإسلام فاستطاع بما أوتيه من ذكاء خارق وحب للاطلاع أن يستوعب علوم العرب والعجم جميعاً، ولذلك كان إنتاجه الأدبي غزيراً ومؤلفاته أكثر من أن تحصى ومنها هذا الكتاب «المحاسن والأضداد» الذي نحن بصدده وإن كان بعض كتّاب العرب ونقادهم يستبعدون نسبته إليه.

لقد سبق لي أن حققت كتاباً بهذا الاسم «المحاسن والمساوىء» للشيخ إبراهيم بن محمد البيهقي وأقول بهذا الاسم لأن المساوىء هي نفسها أضداد المحاسن، وقد اكتشفت في ذلك الكتاب ما يقرب من ثلاثين صفحة كانت موضع تساؤل واستغراب محققه الأول العالم الألماني (فريدريك شفالّي) الذي يقول في مقدمته: إنه عثر على نسختين من كتاب المحاسن والمساوىء إحداهما في «كلكوتا» بالهند، والثانية في جامعة «لايدن» في هولنده وأنه وجد في النسخة الأولى ثلاثين صفحة زائدة غير موجودة في النسخة الثانية وأنه لا يعلم من أين أتت، وأثناء تحقيقي الكتاب المذكور رأيت أن البيهقي متأثر إلى حد كبير بأدب الجاحظ فأجريت مقابلة بين كتابه وبين المحاسن والأضداد فوجدت أن الموضوعات الزائدة في نسخة كلكوتا منقولة كلها عن كتاب المحاسن والأضداد وقد أشرت إلى ذلك في الكتاب المشار إليه.

إن المؤرخين يتفقون على أن البيهقي عاش ما بين ٢٦٥ و ٣٢٠ هجرية أي ٨٧٩ - ٩٣٢م والجاحظ ولد عام ١٦٠ هـ أي ٧٧٥م فيكون البيهقي الذي جاء بعد الجاحظ أو أحد الذين حققوا كتابه هو الذي أضاف القطع التي تبلغ بمجموعها ثلاثين صفحة إلى كتابه نقلاً عن كتاب «المحاسن والأضداد». وإذا كان العصر العباسي كما قيل فيه بحق هو عصر الأدب الذهبي، فمن الطبيعي أن يكون التنافس على أشده بين أدبائه يومذاك، وأن يبذل كل منهم قصارى جهده وطاقته ليرى نفسه متفوقاً على منافسيه. وبما أن الجاحظ كان أقدرهم على تصوير الأشياء بحيث يزوج الكلمة الكلمة فتلدان الصور الملوَّنة والأفكار الرائعة، والكلمة وضدها كالقبح والحسن، والصدق والكذب، والوفاء والخيانة مثلاً حتى ليختلط عليك الأمر بتساوي الضّدين بالرغم من إيمانك بتفضيل أحدهما على الآخر، هذه المقدرة الأدبية لا نجد لها مثيلاً إلا فيما تركه الجاحظ في الحيوان والبخلاء وغيرهما، ودليلنا على أن المنافسة بلغت ذروتها في ذلك العصر هو رد الجاحظ في مقدمة كتابه الحيوان على منتقدي كتبه: كالصرحاء والهجناء، والقحطانية والعدنانية، والعرب والموالي، وغيرها. بنفس الأسلوب الذي يتميز به أبو عثمان فدعا لمنتقديه بالهداية والرشد دعاء ظاهره الرحمة وباطنه العذاب والسخرية والهجاء المرير.

واستناداً لهذا كله، وللأسلوب المميز الجدي الساخر، ومقارنةً الأشياء بأضدادها يمكنني القول بأن الجاحظ هو صاحب كتاب «المحاسن والأضداد».

أما عملي في الكتاب: فقد كان شرح الكلمات الغريبة، والتعريف بالأعلام، والأماكن، وتصحيح بعض الكلمات، من حيث اللغة، أو وضع بديل عنها يتناسب مع الجملة والمعنى، ووضعت ذلك بين [معقفين]

إشارة إلى أنه مني وليس من الكاتب، كما شـرحت بعض معاني الجمـل المبهمة، وحركت وشكلت كلمات الأشعار الواردة فيه، وخـرَّجت الآيات القرآنية فأعدتهـا إلى سورهـا وأرقامهـا، والأحاديث النبـوية إلى مـراجعها ورواتها بقدر ما تيسر لي من مراجع.

والله الكريم أسأل أن يكون عملي هذا مفيداً لشباب أمتنـا الصاعـد وفي خدمة لغتنا العربية المجيدة وهو ولي التوفيق والسداد.

١٧ رجب ١٤١١
٢ كانون الثاني ١٩٩١

محمّد سُوَيْد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين وصلّى الله على رسوله سيدنا محمد وآله أجمعين.

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: إني ربما ألّفت الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقه، والرسائل، والسيرة، والخطب، والخراج، والأحكام، وسائر فنون الحكمة وأنسبه إلى نفسي، فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم بالحسد المركّب فيهم، وهم يعرفون براعته وفصاحته، وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلفاً لملكٍ معه المقدرة على التقديم والتأخير، والحط والرفع، والترهيب والترغيب، فإنهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلمة[1]، فإن أمكنتهم الحيلة في إسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذي أُلِّف له، فهو الذي قصدوه وأرادوه، وإن كان السيد المؤلف فيه الكتاب نحريراً نقاباً، ونقريساً[2] بليغاً، وحاذقاً فطناً، وأعجزتهم الحيلة، سرقوا معاني ذلك الكتاب وألّفوا من أعراضه

---

(١) الإبل المغتلمة: المنقادة، الهائجة بالشهوة.

(٢) النحرير: الحاذق الفطن، العالم بالشيء، المجرب، والنقّاب: النافذ، المبالغ في البحث، والنقريس: الداهية العظيم، والطبيب الماهر النظّار المدقّق، الحاذق.

وحواشيه كتاباً وأهدوه إلى ملك آخر، ومنّوا إليه به[1]، وهم ذمّوه وثلبوه[2] لما رأوه منسوباً إليَّ وموسوماً بي . . وربما ألّفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه، فأترجمه باسم غيري وأحيله على من تقدّمني عصره مثل: ابن المقفع[3]، والخليل[4]، وسلم صاحب بيت الحكمة، ويحيى بن[5] خالد، والعتّابي[6]، ومن أشبه هؤلاء من مؤلفي الكتب. فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم، الطاعنون على الكتاب الذي كان أحكم من هذا الكتاب لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته علي، ويكتبونه بخطوطهم، ويصيّرونه إماماً يقتدون به ويتدارسونه بينهم ويتأدّبون به، ويستعملون ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ويروونه عني لغيرهم من طلاب ذلك الجنس، فتثبت لهم به رياسة يأتمّ بهم قوم فيه لأنه لم يترجم باسمي ولم ينسب إلى تأليفي . . . وهذا كتاب وَسَمْتُه (بالمحاسن والأضداد) لم أسبق إلى نحلته، ولم يسألني أحد صنعه . . . ابتدأته بذكر محاسن الكتابة والكتب، وختمته في ذكر شيءٍ من محاسن الموت والله يكلؤه من حاسدٍ إذا حسد .

المؤلـــف

---

(١) مَنُّوا به إليه: المنّ كل ما ينعم به، يعني: أنعموا عليه به.

(٢) ثلبوه: من ثلب: عاب، لامَ.

(٣) ابن المقفع: عبد الله بن المقفع: كاتب عباسي من أصل فارسي له كتاب كليلة ودمنة.

(٤) الخليل بن أحمد الأزدي: نحوي ولغوي أصله من عُمان علَّم سيبويه والأصمعي وغيرهما من أئمة العربية واكتشف علم العروض توفي في البصرة (٧١٢ ـ ٧٧٨).

(٥) يحيى بن خالد البرمكي: وزير الخليفة هارون الرشيد وزعيم البرامكة.

(٦) العتّابي: كلثوم بن عمرو بن أيوب: شاعر عربي عباسي من بني تغلب.

محاسن الكتابة والكتب

كانت العجم تقيّد مآثرها بالبنيان والمدن والحصون، مثل بناء أردشير[١] وبناء اصطخر[٢] وبناء المدائن والسدير[٣] والمدن والحصون. . . ثم إن العرب شاركت العجم في البنيان، وتفرّدت بالكتب والأخبار والشعر والآثار، فلها من البنيان غمدان[٤] وكعبة نجران، وقصر مأرب، وقصر مارد، وقصر شعوب، والأبلق الفرد، وغير ذلك من البنيان. وتصنيف الكتب أشدّ تقييداً للمآثر على ممر الأيام والدهور من البنيان. لأن البناء لا محالة يُدرس وتُعفى رسومه، والكتاب باق يقع من قرن إلى قرن،

---

(١) أردشير: هو أردشير بن بابك مؤسس الطبقة الرابعة من ملوك الفرس (آل ساسان) أو الأكاسرة.

(٢) اصطخر: مدينة في إيران كانت قديماً عاصمة الساسانيين فتحها أبو موسى الأشعري وعثمان بن العاص. وتُعرف اليوم باسم « مشهد » .

(٣) المدائن: مجموعة مدن في العراق جنوبي بغداد، والسدير: قصر في الحيرة قريب من الخورنق اتخذه النعمان الأكبر لبعض ملوك العجم وسمي كذلك لكثرة شجره ونخله.

(٤) غمدان: قصر في صنعاء اليمن كان يعتبر من عجائب الدنيا. وكعبة نجران: اسم البيعة التي بناها النصارى في نجران لمضاهاة الكعبة المشرفة (ياقوت) وقصر مأرب: هو قصر ملكة سبأ في اليمن، وقصر مارد: حصن بدومة الجندل، والأبلق حصن بتيماء قصدتها الزَّبَّاء فعجزت فقالت: «تمرد ماردٌ وعزَّ الأبلقُ» وقصر شعوب: قصر في اليمن معروف بالارتفاع.

ومن أمّة إلى أمة. فهو أبداً جديد، والناظر فيه مستفيد، وهو أبلغ في تحصيل المآثر من البنيان والتصاوير. وكانت العجم تجعل الكتاب في الصخور، ونقشاً في الحجارة، وخلقة مركّبة في البنيان، فربما كان الكتاب هو الناتىء، وربما كان هو المحفور إذا كان ذلك تاريخاً لأمر جسيم، أو عهداً لأمر عظيم، أو موعظة يرتجى نفعها، أو إحياء شرف يريدون تخليد ذكره، كما كتبوا على قبّة غمدان، وعلى باب القيروان[1]، وعلى باب سمرقند، وعلى عمود مأرب، وعلى ركن المشقر، وعلى الأبلق الفرد، وعلى باب الرها، يعمدون إلى المواضع المشهورة، والأماكن المذكورة، فيضعون الخط في أبعد المواضع من الدثور[2] وأمنعها من الدروس، وأجدر أن يراه من مرّ به ولا يُنسى على وجه الدهور. ولولا الحِكَمُ المحفوظة والكتب المدوّنة لبطل أكثر العلم، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر، ولما كان للناس مفزع إلى موضع استذكار، ولو لم يتم ذلك لحُرِمنا أكثر النفع. ولولا ما رسمت لنا الأوائل في كتبها، وخلّدت من عجيب حكمتها، ودوّنت من أنواع سيرها حتى شاهدنا بها ما غاب عنا، وفتحنا بها كلّ مستغلقٍ فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلّا بهم، لقد كان بخس حظنا منه. وأهل العلم والنظر وأصحاب الفكر والعبر والعلماء بمخارج الملل وأرباب النحل، وورثة الأنبياء وأعوان الخلفاء، يكتبون كتب الظرفاء، والصلحاء، وكتب الملاهي، وكتب أعوان الصلحاء، وكتب أصحاب المراء والخصومات، وكتب السخفاء وحمية

---

(١) القيروان: مدينة في تونس. وسمرقند: مدينة في خراسان بناها الملك الحميري شمر يرعش مكان مدينة (صغد) التي خرَّبها. وعمود مأرب: بين صنعاء وحضرموت في اليمن، وركن المشقر: حصن كان في البحرين، والرها: مدينة بين النهرين في تركيا.

(٢) الدثور: الانمحاء. والدروس: من درس: عفى، انمحى.

الجاهلية، ومنهم من يفرط في العلم أيام خموله وترك ذكره وحداثة سنّه، ولولا جياد الكتب وحسانها لما تحرّكت همم هؤلاء لطلب العلم، ونازعت إلى حبّ الكتب، وأنفت من حال الجهل وأن يكونوا في غمار الوحش، ولدخل عليهم من الضرر والمشقة وسوء الحال ما عسى أن يكون لا يمكن الإخبار عن مقداره إلا بالكلام الكثير، وسمعت محمد بن الجهم يقول: «إذا غشيني النعاس في غير وقت النوم تناولت كتاباً فأجد اهتزازي للفوائد الأريحية التي تعتريني من سرور الاستنباه أشد إيقاظاً من نهيق الحمار وهدّة[1] الهدم فإني إذا استحسنت كتاباً واستجدته ورجوت فائدته لم أوثر عليه عوضاً ولم أبغ به بدلاً، فلا أزال أنظر فيه ساعةً بعد ساعة كم بقي من ورقه مخافة استنفاده وانقطاع المادة من قبله» وقال ابن داحة: «كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لا يجالس الناس. فنزل مقبرة من المقابر وكان لا يزال في يده كتاب يقرؤه فسئل عن ذلك فقال: لم أر أوعظ من قبر، ولا آنس من كتاب، ولا أسلم من الوحدة». وأهدى بعض الكتّاب إلى صديقٍ له دفتراً وكتب معه: هديتي هذه أعزّك الله، تزكو على الإنفاق وتربو على الكد، لا تفسدها العواري[2] ولا تخلقها كثرة التقليب، وهي إنسٌ في الليل والنهار والسفر والحضر تصلح للدنيا والآخرة تؤنس في الخلوة وتمنع من الوحدة، مسامر مساعد ومحدث مطاوع ونديم صدق. وقال بعض الحكماء: « الكتب بساتين العلماء » . وقال آخر: الكتاب جليس لا مؤونة له، وقال آخر: الكتاب جليسٌ بلا مؤونة، وقال آخر: ذهبت المكارم إلّا من الكتب .

---

(١) الهَدّة: المرة من هدَّ: صوت وقع الحائط ونحوه.

(٢) العارية، والعارة، والعاريّة بتشديد الياء ج: عواري، وعوارٍ. والإعارة ما تعطيه غيرك شرط أن يعيده لك.

قال الجاحظ: وأنا أحفظ وأقول: الكتاب نِعْمَ الذخر والعقدة، والجليس والعمدة[1]، ونِعْمَ النشرة ونِعْمَ النزهة، ونِعْمَ المشتغل والحرفة، ونِعْمَ الأنيس ساعة الوحدة، ونِعْمَ المعرفة ببلاد الغربة، ونِعْمَ القرين والدخيل[2] والزميل، ونِعْمَ الوزير والنزيل. والكتاب وعاءٌ مليء علماً وظرفٌ حشي ظرفاً وإناءٌ شحن مزاحاً، إن شئت كان أعيى من باقل[3]، وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل[4]، وإن شئت سرّتك نوادره وشجتك مواعظه، ومن لك بواعظٍ مُلْهٍ[5] وبناسكٍ فاتك[6] وناطقٍ أخرس؟ ومن لك بطبيبٍ أعرابي ورومي هندي وفارسي يوناني ونديم مولد[7] ونجيب ممتع؟ ومن لك بشيء يجمع الأوّل والآخر، والناقص والوافر، والشاهد[8] والغائب، والرفيع والوضيع، والغث والسمين، والشكل وخلافه، والجنس وضده؟ وبعد، فما رأيت بستاناً يحمل في رُدن[9]، وروضة تنقل في حجر، ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء، ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك، ولا ينطق إلا بما تهوى؟ آمنُ من الأرض، وأكتم للسر من صاحب

---

(١) العمدة: ما يعتمد عليه، أي يتكأ عليه يقال: «أنت عمدتنا في الشدائد».

(٢) الدخيل: من دخل في قوم وانتسب إليهم وهو ليس منهم، أو دخل في شيءٍ ليس منه.

(٣) أعيى من باقل: باقل: هو باقل الربعي ابن عمرو بن ربيعة الإيادي يضرب به المثل في البلاهة والعي.

(٤) سحبان: هو سحبان وائل خطيب يضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة.

(٥) واعظ مله: الواعظ: الناصح، الداعي إلى إصلاح السيرة، واللهو: ما لهوت به من هوى وطرب وألهاك: شغلك، أنساك.

(٦) ناسك فاتك: الناسك: هو العابد المنقطع للعبادة، والفاتك: هنا بمعنى: الماجن.

(٧) المولّد: المحدَث من كل شيء ومنه المولَّدون من الشعراء أو الأدباء سموا بذلك لأنهم ولدوا من أب عربي وأم أعجمية.

(٨) الشاهد: الحاضر.

(٩) ردن: جمع أردان: طرف الكُمّ الواسع كانت العرب تضع فيه الدراهم والدنانير.

السر، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة، ولا أعلم جاراً آمن، ولا خليطاً أنصف، ولا رفيقاً أطوع، ولا معلماً أخضع، ولا صاحباً أظهر كفاية وعناية، ولا أقل إملالاً ولا إبراماً، ولا أبعد من مراء، ولا أترك لشغب، ولا أزهد في جدال، ولا أكف عن قتال من كتاب. ولا أعمّ بياناً ولا أحسن مواتاة ولا أعجل مكافاة، ولا شجرة أطول عمراً ولا أطيب ثمراً ولا أقرب مجتنى ولا أسرع إدراكاً ولا أوجد في كل إبّان من كتاب. ولا أعلم نتاجاً في حداثة سنّه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وإمكان وجوده، يجمع من السِّيَر العجيبة والعلوم الغريبة وآثار العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة ومن الحِكَمِ الرفيعة والمذاهب القويمة والتجارب الحميدة والأخبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة والأمثال السائرة والأمم البائدة ما يجمعه كتاب. ومن لك بزائرٍ إن شئت كانت زيارته غِبًّا ووروده خمساً[1]. وإن شئت لزمك لزوم ظلّك وكان منك كبعضك. والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يقليك[2]، والرفيق الذي لا يملّك، والمستمع الذي لا يستزيدك، والجار الذي لا يستبطئك، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق ولا يعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق. والكتاب هو الذي إنْ نظرت فيه أطال إمتاعك وشحذ طباعك وبسط لسانك وجوّد بيانك وفخّم ألفاظك وبجّح نفسك [3] وعمّر صدرك ومنحك تعظيم العوام وصداقة الملوك، يطيعك بالليل طاعته بالنهار، وفي السفر طاعته في الحضر، وهو المعلّم إن افتقرت إليه لم يحقّرك، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة، وإن عزلت لم يدع طاعتك، وإن هبّت ريحُ أعدائك لم

---

(١) غِبًّا: أتاه يوماً وتركه آخر ومنه الحديث «زر غباً تزدد حباً» والخمس: بكسر الخاء وهو أن ترعى الإبل يوماً وتترك الماء ثلاثة أيام ثم ترد في اليوم الخامس.

(٢) يقليك: من قلى: أبغضَ.

(٣) بجّح نفسَك: زاد نفسك غنىً وفرحاً وتفاخراً بالمعرفة.

ينقلب عليك، ومتى كنت متعلقاً منه بأدنى حبل لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء. وإنّ أمثَلَ ما يقطع به الفرّاغ[1] نهارهم وأصحاب الكفايات ساعات ليلهم نظرٌ في كتاب لا يزال لهم فيه ازدياد في تجربة وعقل ومروءة وصون عرض وإصلاح دين وتثمير مال، وربّ صنيعة[2] وابتداء إنعام. ولو لم يكن من فضله عليك وإحسانه إليك إلا منعه لك من الجلوس على بابك والنظر إلى المارة بك مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم ومن فضول النظر وملابسة صغار الناس ومن حضور ألفاظهم الساقطة ومعانيهم الفاسدة وأخلاقهم الردية وجهالتهم المذمومة لكان في ذلك السلامة والغنيمة وإحراز الأصل مع استفادة الفرع، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يشغلك عن سخف المنى واعتياد الراحة وعن اللعب وكل ما تشتهيه، لقد كان له في ذلك على صاحبه أسبغ النعم وأعظم المنّة. وجملة الكتاب وإن كثر ورقه فليس مما يمل لأنه وإن كان كتاباً واحداً فإنه كتبٌ كثيرة في خطابه والعلم بالشريعة والأحكام والمعرفة بالسياسة والتدبير. وقال مصعب بن الزبير: «إن الناس يتحدثون بأحسن ما يحفظون ويحفظون أحسن ما يكتبون ويكتبون أحسن ما يسمعون فإذا أخذت الأدب فخذه من أفواه الرجال فإنك لا ترى ولا تسمع إلا مختاراً ولؤلؤاً منظوماً». وقال لقمان لابنه: «يا بني نافس في طلب العلم فإنه ميراث غير مسلوب وقرين غير مغلوب ونفيس حظ من الناس وفي الناس مطلوب». وقال الزهري: «الأدب ذكرٌ لا يحبّه إلا الذكور من الرجال ولا يبغضه إلا مؤنّثهم». وقال: «إذا سمعت أدباً فاكتبه ولو في حائط». وقال منصور بن المهدي للمأمون: «أيحسن بنا طلب العلم والأدب؟

---

(١) الفرَّاغ: الذين لا عمل لهم. فرغ فروغاً وفراغاً من العمل: خلا منه.

(٢) الصنيعة: الإحسان.

قال : والله لأن أموت طالباً للأدب خير لي من أن أعيش قانعاً بالجهل
قال : فإلى متى يحسن بي ذلك؟ قال: ما حسنت الحياة بك» .

ضده

الحديث المرفوع: «رَحِمَ اللَّهُ عَبْداً أَصْلَحَ مِنْ لِسَانِهِ»[1] . وكان الوليد بن عبد الملك لحنة فدخل عليه أعرابي يوماً فقال: أنصفني من خِتني[2] يا أمير المؤمنين فقال: ومن ختنك؟ قال: رجل من الحي لا أعرف اسمه، فقال عمر بن عبد العزيز: إن أمير المؤمنين يقول لك من خَتنك؟ فقال هُوَذَا بالباب، فقال الوليد لعمر: ما هذا؟ قال: النحو الذي كنت أخبرتك عنه، قال: لا جرم فإني لا أصلّي بالناس حتى أتعلمه .

قال: وسمع أعرابي مؤذّناً يقول: أشهد أن محمداً رسول الله فقال: يفعل ماذا؟

وقال رجل لزياد: أيها الأمير إنّ أبينا هلك وأن أخينا غصبنا على ميراثنا من أبانا، فقال زياد: ما ضيّعت من نفسك أكثر مما ضاع من ميراث أبيك فلا رحم الله أباك حيث ترك ابناً مثلك.

وقال مولى لزياد : أيها الأمير أهدوا لنا همار وهش ، فقال : ما تقول ؟ فقال : أهدوا لنا أيراً[3] ، فقال زياد : الأول خيرٌ من الثاني .

قال: واختصم رجلان إلىٰ عمر بن عبد العزيز فجعلا يلحنان فقال

---

(١) الحديث رواه ابن عساكر، وابن عدي، والخطيب عن أنس رضي الله عنه (الجامع الصغير للسيوطي جـ ٢، عدد : ٤٤٢٣).
(٢) قال له أنصفني من خِتْني بكسر الخاء وسكون التاء: أي صهري فسأله الوليد: ومن خَتَنَكَ؟ بفتح الخاء والتاء من ختن: والختان هو قطع قلفة الصبي.
(٣) يريد أن يقول: أهدوا لنا عيراً .

الحاجب : قما فقد أوذيتما[١] أمير المؤمنين ، فقال عمر للحاجب : أنت والله أشد إيذاءً منهما . قال : وقال بشر المريسي : وكان كثير اللحن : قضى لكم الأمير على أحسن الوجوه وأهنؤها[٢] ، فقال القاسم التمار : هذا على قوله :

إنَّ سُلَيْمَى واللَّهُ يكلؤها ضنتْ بشيءٍ ما كان يرزؤها

فكان احتجاج القاسم أطيب من لحن بشر .

قال : وكان زياد النبطي شديد اللّكنة وكان نحوياً فدعا غلامه ثلاثاً فلمّا أجابه قال : من لدن دأوتك إلى أن ديتني ما كنت تصنأ[٣] ، يريد دعوتك وجئتني وتصنع .

ومرّ ماسرجويه الطبيب بمعاذ بن مسلم فقال : يا ماسرجويه إني لأجد في حلقي بححاً، قال: هو من عمل بلغم، فلما جاوزه قال: تراني لا أحسن أن أقول بلغم ولكنه قال بالعربية فأجبته بضدها .

محاسن المخاطبات

حكوا عن ابن القَرِيَّة[٤]، أنه دخل على عبد الملك بن مروان فبينا هو عنده إذ دخل بنو عبد الملك عليه فقال: من هؤلاء الفتية يا أمير المؤمنين، قال: ولد أمير المؤمنين، قال: بارك الله لك فيهم كما بارك لأبيك فيك، وبارك لهم فيك كما بارك لك في أبيك، قال: فشحن فاه دُرًّا .

قال: وقال عمارة بن حمزة لأبي العباس وقد أمر له بجوهرٍ نفيس: وَصَلَكَ الله يا أمير المؤمنين وبرّك فوالله لئن أردنا شكرك على إنعامك

(١) يريد أن يقول: قوما فقد آذيتما أمير المؤمنين.
(٢) يقتضي القول وأهنئها : معطوفة على المجرور بعلى .
(٣) يريد أن يقول: منذ دعوتك إلى أن جئتني ، ما كنت تصنع؟
(٤) ابن القريّة: هو أبو سليمان بن أيوب أحد فصحاء العرب خطيب يضرب به المثل (الأعلام لخير الدين الزركلي: جـ ١، ص ٣٨١).

لَيُقَصِّرَن شكرنا على نعمتك كما قَصَّرَ الله بنا عن منزلتك.

قيل ودخل إسحاق بن إبراهيم الموصلي[1] على الرشيد فقال: ما لك؟ قال:

سوامي سوامُ المكثرينَ تَجَمُّلاً ... وما لي كما قد تعلمينَ قليلُ
وآمرةٍ بالبخل قلتُ لها آقصُري ... فذلك شيءٌ ما إليه سبيلُ
وكيف أخافُ الفقْرَ أو أُحْرمُ الغنى ... ورأيُ أميرِ المؤمنينَ جميلُ
أرى الناسَ خلّان الجَوَادِ ولا أرى ... بخيلاً لهُ في العالمينَ خليلُ

فقال الرشيد: هذا والله الشعر الذي صحّت معانيه وقويت أركانه ومبانيه ولذّ على أفواه القائلين وأسماع السامعين يا غلام احمل إليه خمسين ألف درهم، قال إسحاق: يا أمير المؤمنين كيف أقبل صلتك وقد مدحت شعري بأكثر مما مدحتك به. قال الأصمعي[2]: فعلمت أنه أصيد للدراهم مني.

قال: ودخل المأمون ذات يوم الديوان، فنظر إلى غلام جميل على أذنه قلم فقال: من أنت؟ قال: أنا الناشىء في دولتك المتقلّب في نعمتك المؤمّل لخدمتك الحسن بن رجاء، فقال المأمون: بالإحسان في البديهة تفاضل العقول، يُرْفَعُ عن مرتبة الديوان إلى مراتب الخاصة ويعطى مائة ألف درهم تقويةً له .

قال: ووصف يحيى بن خالد[3] الفضل بن سهل[4] وهو غلام على المجوسية للرشيد وذكر أدبه وحسن معرفته فعمل على ضمه إلى المأمون

---

(١) إسحاق الموصلي: هو إسحاق بن إبراهيم الموصلي أحد كبار المُغنّين في العصر العباسي.
(٢) الأصمعي: عبد الملك بن علي بن أصمع من البصرة، أشهر لغويي العرب .
(٣) يحيى بن خالد: مؤدب الرشيد ومعلمه وسيد بني برمك.
(٤) الفضل بن سهل: وزير المأمون.

فقال ليحيى يوماً: أدخل إليّ هذا الغلام المجوسي حتى أنظر إليه فأصله، فلما مثل بين يديه ووقف تحيّر فأراد الكلام فارتج عليه[1] فأدركته كبوة فنظر الرشيد إلى يحيى نظرة منكرة لما كان تقدم من تقريظه إياه فانبعث الفضل بن سهل فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ من أبين الدلائل على فراهة[2] المملوك شدة إفراط هيبته لسيّده، فقال له الرشيد: أحسنت والله لئن كان سكوتك لتقول هذا إنه لحسن، ولئن كان شيئاً أدركك عند انقطاعك إنه لأحسن وأحسن. ثم جعل لا يسأله عن شيء إلا رآه فيه مقدماً فضمه إلى المأمون.

وقال الفضل بن سهل للمأمون: وقد سأله حاجة لبعض أهل بيوتات دهاقين[3] سمرقند كان وعده تعجيل إنفاذها فتأخر ذلك، هب لوعدك مذكراً من نفسك وهنىء سائلك حلاوة نعمتك واجعل ميلك إلى ذلك في الكرم حثاً على اصطفاء شكر الطالبين تشهد لك القلوب بحقائق الكرم والألسن بنهاية الجود، فقال: قد جعلت إليك إجابة سؤالي عني بما ترى فيهم وآخذك في التقصير فيما يلزم لهم من غير استثمار أو معاودة[4] في إخراج الصكاك[5] من أحضر الأموال متناولاً، قال: إذاً لا تجدي معرفتي بما يجب لأمير المؤمنين الهناء به بما يديم له منهم حسن الثناء ويستمد بدعائهم طول البقاء.

وقال الفضل بن سهل للمأمون: يا أمير المؤمنين اجعل نعمتك

---

(١) ارتج على الخطيب: استغلق عليه الكلام.

(٢) الفراهية، والفراهة، والفروهة: الحذق بالشيء، المهارة.

(٣) دهاقين: تجار، رؤساء أقاليم (فارسية).

وسمرقند: مدينة في بلاد خراسان بناها أحد ملوك حمير (شمر يرعش) مكان مدينة الصغد التي خرَّبها.

(٤) معاودة: مراجعة.

(٥) الصكاك: ج صك: سندات الأموال (فارسية).

صائنة لوجوه خدمك عن إراقة مائها في غضاضة السؤال فقال : والله لا كان ذلك إلاَّ كذلك .

قال : ودخل العتابي على المأمون فقال : خبرت بوفاتك فغمّتني ثم جاءتني وفادتـك فسرّتني فقـال يا أميـر المؤمنين : كيف أمدحـك أم بماذا أصفك ولا دِينٌ إلا بك ولا دنيا إلاَّ معك ، قال : سلني ما بدا لك ، قال : يداك بالعطية أطلق من لساني بالمسألة .

قال : وقدم السعدي أبو وجزة على المهلب بن أبي صفرة[1] ، فقال : أَصلَحَ اللَّهُ الأميرَ إني قد قطعت إليك الدهناء[2] وضربت إليك آباط الإبل من يثرب، قال : فهل أتيتنا بوسيلة أو عشرة أو قرابة قال : لا ولكني رأيتك لحاجتي أهلاً فإن قمت بها فأهل ذلك وإن يحل دونها حائل لم أذمم يومك ولم أيأس من غدك . فقال المهلب : يعطى ما في بيت المال فوجد مـائة ألف درهم فدفعت إليه فأخذها . وقال :

يا منْ على الجودِ صـاغَ اللَّهُ راحَتَهُ فليس يُحسِنُ غيـرَ البـذلِ والجـودِ
عمّتْ عـطاياك مَنْ بـالشرقِ قـاطبـةً فـأنتَ والجـودُ منحـوتـانِ من عـودِ

وقد يجب على العاقل الراغب في الأدب أن يحفظ هذه المخاطبات ويدمن قراءتها . . . وقد قال الأصمعي :

أمَـا لــو أعِـي كـلَّ مـا أسمـعُ وأحــفظُ مــن ذاك مــا أجـمـعُ
ولم أستفــدْ غيـرَ مـا قـد جَمَعْتُ لَقيـلَ أنــا هــو العـالمُ المُقْنِعُ
ولـكنَّ نـفسـي إلـى كـلِّ شـيءٍ مـن الـعلمِ تـسمعُـهُ تَـنْـزِعُ
فـلا أنــا أحفظُ مـا قـد جَمَعْتُ ولا أنــا مِــنْ جَـمـعـهِ أشـبـعُ

---

(١) أبو وجزة السعدي : يزيد بن عبيد شاعر والمهلب بن أبي صفرة : أحد كبار قواد بني أمية غزا في عهد معاوية بلاد أفغانستان والهند وسمرقند.

(٢) الدهناء : الفلاة.

وأقعدُ للجهلِ في مجلسٍ وعِلْميَ في الكُتْبِ مُسْتودعُ
ومَنْ يكُ في عِلْمه هكذا يكنْ دهرَه القهقرى يَرجِعُ
يَضِيعُ من المالِ ما قد جمعتَ وعلمُك في الكتبِ مستودعُ
إذا لم تكنْ حافظاً واعياً فَجَمْعُكَ للكُتْبِ ما يَنْفَعُ؟

وقال بعضهم: الحفظ مع الإقلال أمكن وهو مع الإكثار أبعد وتغيير الطبائع زمن رطوبة الغصن أقبل، وفيها قال الشاعر:

أتاني هواها قبلَ أنْ أعرِفَ الهوى فصادفَ قلباً خالياً فتمكَّنا

وقيل: العلم في الصغر كالنّقش في الحجر، والعلم في الكبر كالعلامة على المدر[1] فسمع ذلك الأحنف فقال: الكبير أكثر عقلاً ولكنه أكثر شغلاً كما قال:

وإنَّ مَنْ أَدّبتَهُ في الصِّبا كالعود يُسقى الماءَ في غَرسِهِ
حتى تراهُ مُورقاً ناضراً بعد الذي أبصرتَ من يُبسِهِ

والصبي عن الصبي أفهم وهو له آلف وإليه أنزع، وكذلك العالم عن العالم والجاهل عن الجاهل وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾[2] لأن الإنسان عن الإنسان أفهم وطباعه بطباعه آنس.

ضده

قال: دخل أبو علقمة النحوي على أَعْينَ الطبيب فقال: إني أكلت من لحوم الجوازىء[3] وطسئت طسأة[4] فأصابني وجع بين الوابلة إلى دأية

(١) المدر: الطين العَلك الذي لا يخالطه رمل.
(٢) سورة الأنعام الآية: ٩.
(٣) الجوازي: المواشي التي تذبح. وردت في العقد الفريد لابن عبد ربه (الجوازل) جـ ٢، ص ٢٢، المطبعة الأزهرية بمصر ١٩٢٨..
(٤) طسىء طسئاً وطسأ: أصابته التخمة والشبع.

العنق[1] فلم يزل يربو وينمو حتى خالط الشراسيف[2] فهل عندك دواء؟ قال: نعم، خذ خوفقاً[3] وسربقاً ورقرقاً[4] فاغسله واشربه بماء، فقال لا أدري ما تقول قال: ولا أنا دريت ما قلت. . قال: وقال يوماً آخر: إني أجد معمعة في قلبي وقرقرة في صدري فقال له: أمّا المعمعة فلا أعرفها وأمّا القرقرة فهي ضراط غير نضيج.

قال: وأتى رجل الهيثم بن العريان بغريم له قد مطله حقه فقال: أصلح الله الأمير إن لي على هذا حقاً قد غلبني عليه فقال له الآخر: أصلحك الله إن هذا باعني عنجداً[5] واستنسأته حولاً[6] وشرطت عليه أن أعطيه مياومة فهو لا يلقاني في لقم إلا اقتضاني ذهباً[7]. فقال له الهيثم: أمن بني أمية أنت؟ قال: لا. قال: أفمن بني هاشم أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أكفائهم من العرب؟ قال: لا. قال: ويلي عليك انزعوا ثيابه فلما أرادوا أن ينزعوا ثيابه قال: أصلحك الله إن إزاري مرعبل[8]. قال: دعوه

---

(١) الوابلة، مؤنث الوابل: طرف رأس العضد والفخذ، ودأية العنق ج دأيات: ملتقى ضلوع الصدر عند العنق.

(٢) الشراسيف ج شرسوف: غضروف معلق بكل ضلع.

(٣) خوفقاً: وردت في المحاسن والمساوىء للبيهقي ص ٤٩٤ خرفقاً، وفي العقد الفريد: خربقاً. أما خوفقاً فلم أجد لها معنى، والخرفق: الخردل الفارسي، والخربق: نبات ورقه كلسان الحمل أبيض وأسود.

(٤) سربقاً ورقرقاً: سربقاً لم أجد لها معنى. رقرق الماء وغيره: صبه رقيقاً ورقرق الثريد بالسمن حركه وعجنه مع السمن. وقد وردت العبارة في العقد الفريد باب الغريب والتعقيب: خذ خربقاً وسلفقاً وشبرقاً فرقرقه وأغسله بماء روب وأشربه، جـ ٢، ص ٢٢.

(٥) العنجد: الزبيب أو الأسود الرديء منه.

(٦) استنسأه حولاً: استأخره عاماً.

(٧) اللقم: الطريق، واقتضاه: طالبه.

(٨) مرعبل: ممزق.

فلو ترك الغريب في موضع لتركه في هذا الموضع.

قال: ومر أبو علقمة ببعض الطرق فهاجت به مرّة[1] فوثب عليه قوم فجعلوا يعصرون إبهامه ثم يؤذّنون في أذنه فأفلت من أيديهم فقال: ما لكم تتكأكؤون عليّ كتكأكُئِكم على ذي جنة افرنقعوا عني[2] فقال رجل منهم: دعوه فإن شيطانه يتكلم بالهندية.

قال: وقال لحجّامٍ يحجمه: أشدد قصب الملازم وأرهف ظبة المشارط[3] وخفف الوضع وعجل النزع وليكن شرطك وخزاً ومصّك نهزاً ولا تكرهن أبيًّا ولا تردّن آتيًّا[4] فوضع الحجام محاجمه في جونته[5] وانصرف.

محـــاسن المكاتبات

قال كعب العبسي لعروة بن الزبير: قد أذنبت ذنباً إلى الوليد بن عبد الملك وليس يزيل غضبه شيء فاكتب لي إليه فكتب إليه: لو لم يكن لكعب من قديم حرمته ما يغفر له عظيم جريرته لوجب أن لا تحرمه التفيؤ[6] بظلّ عفوك الذي تأمله القلوب ولا تعلّق به الذنوب وقد استشفع بي إليك فوثقتُ له منك بعفو لا يخالطه سخط فحقّق أمله وصدّق ثقتي بك تجد الشكر وافياً بالنعمة. فكتب إليه الوليد: قد شكرت رغبته إليك وعفوت عنه لمعوله عليك وله عندي ما يحب فلا تقطع كتبك عني في أمثاله وفي سائر أمورك.

---

(١) المِرَّة: خلط من أخلاط البدن.
(٢) يقول: ما لكم اجتمعتم علي كأنني مجنون، انصرفوا، تفرقوا.
(٣) ظبة المشارط: حد المباضع.
(٤) آتيًّا: الغريب، يقال سيل أتيٌ (يأتي من حيث لا يدرك).
(٥) الجونة: سلة صغيرة مغشّاة بالجلد تكون مع العطارين.
(٦) التفيؤ بالشجرة: استظلّ بها.

وكتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى بعض إخوانه: أما بعد فقد عاقني الشك عن عزيمة الرأي ابتدأتني بلطف من غير خبرة ثم أعقبتني جفاء من غير ذنب فأطمعني أوّلك في إحسانك وأيأسني آخرك من وفائك فلا أنا في غير الرجاء مجمع لك آطِّراحاً، ولا في غد أنتظره منك على ثقة فسبحان من لو شاء كشف إيضاح الرأي فيك فأقمنا على ائتلاف أو افترقنا على اختلاف.

قال: وسخط مسلمة بن عبد الملك على العريان بن الهيثم فعزله عن شرطة الكوفة فشكا ذلك إلى عمر بن عبد العزيز فكتب إليه: إنَّ مِنْ حِفْظِ أنعمِ الله رعايةَ ذوي الأسنان[1]، ومن إظهار شكر الموهوب صفح القادر عن الذنوب، ومن تمام السؤدد حفظ الودائع واستتمام الصنائع وقد كنت أودعت (العريان) نعمة من أنعمك فسلبتها عجلةُ سخطك وما أنصفته إذ غصبته على أن ولّيته ثم عزلته وخلّيته وأنا شفيعه فأحب أن تجعل له من قلبك نصيباً، ولا تخرجه من حسن رأيك فتضيع ما أودعته وتتوي[2] ما أفدته. فعفا عنه ورده إلى عمله.

قال: وغضب سليمان بن عبد الملك على ابن عبيد مولاه فشكا إلى سعيد بن المسيب ذلك فكتب إليه: أما بعد فإن أمير المؤمنين في الموضع الذي يرتفع قدره عما تقتضيه رعيته وفي عفو أمير المؤمنين سعة للمسيئين. فرضي عنه.

قال: وطلب العتابي من رجلٍ حاجة فقضى له بعضها ومطله ببعض فكتب إليه: أما بعد فقد تركتني منتظراً لوعدك منتجزاً لرفدك وصاحب

---

(١) الأسنان: الأعمار.

(٢) توي: يتوي: هلك، ضاع.

الحاجة محتاج إلى « نعم » هنيئة أو « لا » مريحة والعذر الجميل أحسن من المطل الطويل . . وقد قلت بيتي شعر :

بسطتَ لساني ثم أوثقتَ نصفه فنصفُ لساني بامتداحِكَ مُطلقُ
فإنْ أنتَ لَمْ تُنْجِز عِداتي تركتني وباقي لسانِ الشكرِ باليأسِ مُوثَقُ

قال : وكتب عمرو بن مسعدة إلى المأمون في رجل من بني ضبة يستشفع له بالزيادة في منزلته وجعل كتابه تعريضاً : أما بعد فقد استشفع بي فلان يا أمير المؤمنين لتطولك[1] علي في إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون به ، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين وفي ابتدائه بذلك تعدّي طاعته والسلام . . . فكتب إليه المأمون قد عرفنا تصريحك له وتعريضك لنفسك وأجبناك إليهما ووقفناك عليهما .
قال : وكتب عمرو بن مسعدة إلى المأمون كتاباً يستعطفه على الجند : كتابي إلى أمير المؤمنين ومن قِبَلي من أجناده وقواده في الطاعة والانقياد على أحسن ما تكون عليه طاعة ، جندٌ تأخرت أرزاقهم واختلت أحوالهم . فقال المأمون : والله لأقضين حق هذا الكلام وأمر بإعطائهم لثمانية أشهر .

قال : وقدم رجل من أبناء دهاقين قريش على المأمون لِعِدَةٍ[2] سلفت منه فطال على الرجل انتظار خروج أمر المأمون فقال لعمرو بن مسعدة : توصل في رقعة مني إلى أمير المؤمنين تكون أنت الذي تكتبها ، تكون لك علي نعمتان . فكتب : إن رأى أمير المؤمنين أن يفك أسر عبده من ربقة المطل بقضاء حاجته ويأذن له في الانصراف إلى بلده فعل إن شاء الله ؛ فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمْراً فجعل يعجبه من حسن لفظها وإيجاز المراد ، فقال

---

(١) تطول تطولاً عليه : امتن عليه وأنعم .
(٢) عِدَة : من وعد يعد وعْداً وعِدَةً ومَوْعداً أي حدد له يوماً لمقابلته ، وعده بأمر ، قال : إنه يجريه له .

عمرو: فما نتيجتها يا أمير المؤمنين؟ قال: الكتاب له في هذا الوقت بما وعدناه لئلا يتأخر فضل استحساننا كلامه وبجائزة ألف درهم صلة على دناءة المطل وسماجة الإغفال ففعل ذلك له.

وحدثنا إسماعيل بن شاكر قال: لمّا أصاب أهل مكة السيل الذي شارف الحِجر[1] ومات تحته خلق كثير كتب عبيد الله بن الحسن العلوي وهو والي الحرمين إلى المأمون: ان أهل حرم الله وجيران بيته وألّاف[2] مسجده وعمرة بلاده قد استجاروا بعزِّ معروفك من سيلٍ تراكمت أخرباته[3] في هدم البنيان وقتل الرجال والنسوان واجتياح الأصول وجرف الأبقال[4]، حتى ما ترك طارفاً ولا تالداً[5] للراجع إليهما في مطعم ولا ملبس فقد شغلهم طلب الغذاء عن الاستراحة إلى البكاء على الأمهات والأولاد والآباء والأجداد، فأجرهم يا أمير المؤمنين بعطفك عليهم وإحسانك إليهم تجد الله مكافئك عنهم ومثيبك عن الشكر منهم. قال: فوجّه إليهم المأمون بالأموال الكثيرة.. وكتب إلى عبيد الله أما بعد فقد وصلت شكيتك لأهل حرم الله أمير المؤمنين، فبكاهم بقلب رحمته وأنجدهم بسيب[6] نعمته وهو متبع ما أسلف إليهم بما يخلفه عليهم عاجلاً وآجلاً إن أَذِنَ الله في تثبيت عزمه على صحة نيته. قال: فصار كتابه هذا آنس لأهل مكة من الأموال التي أنفذها إليهم.

قال: وكتب جعفر بن محمد بن الأشعث إلى يحيى بن خالد يستعفيه

---

(١) الحجر: هو حِجر إسماعيل في الكعبة المشرفة.
(٢) الألّاف: ج أليف، الصديق المؤنس، وهنا المصلون الملازمون للمسجد.
(٣) أخرباته: ج خربة، ما خرب من البيوت، ما خرب من كل شيء.
(٤) الأبقال: ج بقل، النباتات العشبية التي يتغذى بها الإنسان والحيوان.
(٥) الطارف: المال المستحدث، والتالد: المال القديم.
(٦) سيب: من ساب سيباً ج سيوب: الماء جرى وذهب كل مذهب.

من العمل: شكري لك على ما أريد الخروج منه شكر من سأل الدخول فيه. قال: وكتب علي بن هشام إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلي. ما أدري كيف أصنع؟ أغيب فأشتاق وألتقي ولا أشتفي ثم يحدث لي اللقاء الذي طلبت منه الشفاء نوعاً من الحرقة للوعة الفرقة. قال: وكتب معقل إلى أبي دلف: فلان جميل الحال عند الكرام فإن أنت لم ترتبطه بفضلك عليه فعل غيرك.

وكتب أبو هاشم الحربي إلى بعض الأمراء: غرضي من الأمير مُعْوِزٌ والصبر على الحرمان مُعْجِزٌ. وكتب آخر إلى صديق له: أما بعد فقد أصبح لنا من فضل الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه وما ندري ما نشكر أجميلَ ما نَشَر أم كثيرَ ما سَتَر أم عظيمَ ما أبلى أم كثيرَ ما عفى؟ غير أنه يلزمنا في كل الأمور شكره ويجب علينا حمده فاستزد الله في حسن بلائه كشكرك على حسن آلائه.

ضــده

« قال الجاحظ » : كتب ابن المراكبي إلى بعض ملوك بغداد : « جعلت فداك برحمته »[1] . قال : وقرأت على عنوان كتاب لأبي الحسن الشمري : « للموت لنا قِبلة »[2] .

محاسن الجواب

قال: دخل رجل على كسرى أبرويز، فشكا إليه عاملاً غصبه على ضيعة له. فقال له كسرى: منذ كم هي في يدك؟ قال: منذ أربعين سنة،

---

(١) جعلت فداك برحمته: اعتبرها الكاتب من المساوىء لأن ابن المراكبي تمنى أن تكون رحمة الله له بدلاً عن المخاطَب.

(٢) للموت لنا قبلة: اعتبرت أيضاً من المساوىء للتوْرية غير المستحبة حيث أن القبلة واحدة يتجه إليها المسلمون في صلواتهم.

قال: فأنت تأكلها أربعين سنة ما عليك أن يأكل عاملي منها سنة واحدة؟ فقال: وما كان على الملك أن يأكل بهرام جُور المُلْك سنة واحدة! فقال: ادفعوا في قفاه فأخرجوه فلما خرج أمكنته التفاتة فقال: دخلتُ بمَظْلمة وخرجت باثنتين، فقال كسرى: ردّوه وأمر برد ضيعته وصيّره في خاصته.

ويقال: إن سعيد بن مرّة الكندي حين أتى معاوية، قال له: أنت سعيد؟ قال: أمير المؤمنين سعيد وأنا ابن مرة. قال: ودخل السيد بن أنس الأزدي على المأمون. فقال: أنت السيد؟ فقال: أنت السيد يا أمير المؤمنين وأنا ابن أنس.

قال: وقيل للعباس بن عبد المطلب: أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ قال: هو عليه الصلاة والسلام أكبر مني وأنا ولدت قبله.

قال: وقال الحجاج للمهلب: أنا أطول أم أنت؟ قال: الأمير أطول وأنا أبسط قامة منه.

قيل: ووقف المهدي على امرأة من بني ثعل فقال لها: ممن العجوز؟ قالت: من طيّىء، قال: ما منع طيّئاً أن يكون فيها آخر مثل حاتم؟ قالت: الذي منع العرب أن يكون فيها آخر مثلك، فأعجب بقولها ووصلها.

قيل: ولما استوثق أمر العراق لعبد الله بن الزبير وجّه مصعب إليه وفداً فلما قدموا عليه قال لهم: وددتُ أنَّ لي بكلِّ خمسةٍ منكم رجلاً من أهل الشام فقال رجل من أهل العراق: يا أمير المؤمنين عَلِقْنَاكَ وَعَلِقْتَ[1]

---

(١) علق: علوقاً وعلقاً وعلاقة به: أحبه وهو به وتعلق به.

بـأهل الشـام وَعَلِقَ أهل الشـام بآل مـروان فما أعـرف لنـا مثـلاً إلا قـول الأعشى[١]:

علّقتهـا عـرضـاً وعلقـت رجـلاً غيـري وعلّق أخرى غيـرها الـرجل

فما وجدنا جواباً أحسن من هذا. قال: وقال مسلمة بن عبد الملك: ما شيءٌ يُؤتى العبدَ بعد الإيمان بالله تعالى أحبَّ إلي من جوابٍ حاضر فإن الجواب إذا انعقب[٢] لم يكن شيئاً.

ضـــده

قال: اجتمع عند رسول الله ﷺ الزبرقان بن بدر وعمـرو بن الأهتم فذكر عمرو الزبرقان قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله إنـه لمطعـام جواد الكف مطاع في أدانيه[٣] شديد العـارضة مـانع لمـا وراء ظهره[٤]، فقـال الزبرقان[٥]: بأبي أنت وأمي يـا رسول الله : إنه ليعرف مني أكثـر من هذا ولكنه يحسدني. فقال عمرو: والله يا نبي الله إن هذا لَـزمِرُ المـروءة ضيق العطن[٦] لئيم العم أحمق الخال، فرأى الكراهية في وجه رسـول الله ﷺ لما اختلف قوله فقال: يا رسول الله ما كذبتُ في الأولى ولقد صدقتُ في الأخـرى ولكني رضيتُ فقلتُ: أحسنَ مـا علمتُ وسَخِـطْتُ فقلتُ أسـوأ

---

(١) الأعشى: هو ميمون بن قيس بن جندل عُمي في أواخر عمره، ويكنى أبا بصير. شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات أدرك الإسلام ولم يسلم.

(٢) انعقب: وردت في المحاسن والمساوىء (تعقب) ص ٥١٥ والمقصود: تأخر، انحبس يقال: اعتقب البائع السلعة أي حبسها عن المشتري حتى يقبض الثمن.

(٣) أدانيه: أقرب عشيرته إليه.

(٤) العارضة: ج عوارض، ما يستقبلك من الشيء، ومانع لما وراء ظهـره أي يحمي من هم دونه.

(٥) الزبرقان: هو الحصن بن بدر، صحابي لقب بالزبرقان لجماله.

(٦) زمر المروءة: قليل المروءة، العطن: هي للإبل كالوطن للناس وغلب على مبركها حول الحوض ج أعطان: يريد أن يقول: ساحة فكره ضيّقة كمبرك الناقة.

مـا أعلم. فقـال رسـول الله ﷺ: «إن من البيـان لسحـراً وإن من الشعـر لحكماً»(١). وذكروا أن الوليد بن عقبة قال لعقيـل بن أبي طالب: غلبـك عليٌّ على(٢) الثـروة والعـدد... قـال: وسبقني وإيـاك إلى الجنـة، قـال الوليد: أمـا والله إن شدقيـك لمتضمخان(٣) من دم عثمـان، قال عقيـل: ما لك ولقريش؟ وإنما أنت فيهم كمنيح الميسر(٤)، فقال الوليد: والله إني لأرى لو أن أهل الأرض اشتركوا في قتله لوردوا صعوداً(٥)، فقال له عقيل: كلا أما ترغب عن صحبة أبيك.

قال: وقال رجـل من قريش لخـالد بن صفـوان: ما اسمـك؟ قال: خالد بن صفوان بن الأهتم، قال: إن اسمك لكذب، ما أنت بخالـد وإن أباك لصفوان وهو حجر، وإن جدك لأهتم والصحيح خيـر من الأهتم(٦)، قال له خالد: من أي قريش أنت؟ قال: من عبد الدار بن قصي بن كلاب، قال: لقد هشمتك هاشم وأمتك أمية وجمحت بك جمح وخزمتك مخزوم وأقصتك قصي فجعلتك عبد دارها تفتح إذا دخلوا وتغلق إذا خرجوا.

قيل: ومر الفرزدق(٧) فرأى خليفة الشاعر(٨) فقال له: يا أبا فراس من القائل:

---

(١) الحديث ورد في الجامع الصغير للسيوطي جـ ١، ص ٣٧٦ بلفظ: إن من البيان سحراً وإن من الشعر حكماً» وأورده البخاري في باب الأدب: إنّ من الشعر حكمة.

(٢) عليّ: وردت في المحاسن والمساوىء ص ٥١٦ (أبو تراب) أي عليٌّ رضي الله عنه.

(٣) متضمّخان: من ضمَّخ: لطَّخ.

(٤) المنيح: سهم من سهام الميسر لا نصيب له.

(٥) صعوداً: جبل في جهنم، وقيل عقبة شاقة المصعد.

(٦) الأهتم: من سقط مقدم أسنانه.

(٧) الفرزدق: هو الشاعر همَّام بن غالب من دارم لقب بالفرزدق لغلظه وقصره شبه بـالفتيتة التي تشربها النساء وهي الفرزدقة وكنيته أبو فِراس.

(٨) خلف بن خليفة: شاعر ظريف.

هُوَ القَيْنُ[1] وابنُ القينِ لا قينَ مثلهُ   لفطحِ المساحي أو لجدلِ الأداهم

قال الفرزدق الذي يقول:

هُـوَ اللصُّ وابنُ اللصِّ لا لصَّ مثلُهُ   لنقبِ جـدارٍ أو لـطرٍّ[2] الـدراهم

محاسن حفظ اللسان

قـال أكثم بن صيفي[3] : مقتل الـرجـل بين فكّيـه ـ يعني لسـانـه ـ وقال: رُبّ قولٍ أشد من صول، وقال: لكل ساقطة لاقطة.

وقال المهلب لبنيه: اتّقوا زلّة اللسان فإني وجدت الرجل تعثر قدمه فيقوم من عثرته ويزلّ لسانه فيكون فيه هلاكه.

قال يونس بن عبيد: ليست خلة من خلال الخيـر تكون في الـرجل هي أحرى أن تكون جامعة لأنواع الخير كلها من حفظ اللسان.

وقال قسامة بن زهير: يا معشر الناس إن كلامكم أكثـر من صمتكم فاستعينوا على الكلام بالصمت وعلى الصواب بالفكر. وكان يقـال ينبغي للعاقل أن يحفظ لسانه كما يحفظ موضع قدمه، ومن لم يحفظ لسانـه فقد سلّطه على هلاكه. وقال الشاعر:

عليـكَ حِفظَ اللســانِ مجتهـداً   فــإنّ جُـلَّ الـهَـلاكِ فـي زلـلهْ

غيره:

وجــرحُ السيـفِ تـأســوه فيبـرا   وجـرحُ الـدهـر مـا جَـرَحَ اللسـانُ
جِــراحـاتُ الـطِّعـان لهــا التئـامٌ   ولا يـلـتـامُ مَـا جَـرَح الـلسـانُ

---

(١) القين : ج قيـون وأقيان : الحـداد ، والمسـاحي : الحـديـد المعـرَّض الـذي يُسـوَّى كالمسحاة ، أو المعزق ، والأدهم : قيد الحديد .

(٢) طر: سلب، والطرار: النشّال.

(٣) أكثم بن صيفي : أحد حكماء العرب وأكثرهم ضرب مثل.

غيره:

إِحفظ لسـانَـكَ لا تقـول فتبتـلى　　إنَّ البـلاءَ مـوكَّـلٌ بـالمنـطقِ

غيره:

لعمْـرُكَ مـا شيءٌ علمتُ مكـانـه　　أحقُّ بسِجْنٍ من لسـانٍ مُـذلَّـلِ[1]

على فيـك مما ليس يَعنيـك قـولُـهُ　　بقفلٍ شديدٍ حيثُ ما كنتَ فأقفِلِ

قيل: تكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات كأنّما رميت عن قوس واحد. قال كسرى: أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت؛ وقال ملك الهند: إذا تكلمت بكلمة ملكتني وإن كنت أملكها؛ وقال قيصر: لا أندم على ما لم أقل وقد ندمت على ما قلت؛ وقال ملك الصين: عاقبة ما قد جرى به القول أشدّ من الندم على ترك القول. وقال بعضهم: من حصافة[2] الإنسان أن يكون الاستماع أحب إليه من النطق إذا وجد من يكفيه فإنه لن يعدم الصمت والاستماع سلامة وزيادة في العلم.

وقال بعض الحكماء: من قدر على أن يقول فيحسن فإنه قادر على أن يصمت فيحسن.

وقال بعضهم: كان ابن عبيدة الريحاني[3] المتكلم الفصيح صاحب التصانيف يقول: الصمت أمان من تحريف اللفظ وعصمة من زيغ المنطق وسلامة من فضول القول.

وقال أبو عبيد الله كاتب المهدي: كُنْ على النماسِ الحظ بالسكوت

---

(١) لسان مذلل: سهل له الكلام وانقاد. يقال: ذلت له القوافي: أي سهلت وانقادت.

(٢) أحصف حصافة: كان جيد الرأي محكم العقل فهو حصيف.

(٣) ابن عبيدة الريحاني: هو علي بن عبيدة كاتب المهدي.

أحرص منك على التماسه بالكلام. وكان يقال: من سكت فسلم كان كمن قال فغنم[1].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يكره الانبعاق في الكلام، فرحم الله امرءاً أوجز في كلامه، واقتصر[2] على حاجته».

قيل: وكلّم رجل سقراط عند قتله بكلام أطاله فقال: أنساني أوّلَ كلامك طولُ عهده فارق آخره فهمي لتفاوته. ولما قدم ليقتل بكت امرأته فقال لها: ما يبكيك؟ قالت: تقتل ظلماً. قال: وكنت تحبين أن أقتل حقاً أو أقتل ظالماً؟ وشتم رجل المهلب فلم يجبه فقيل له: حلمت عنه؟ فقال: ما أعرف مساويه وكرهت أن أبهته بما ليس فيه.

وقال سلمة بن القاسم عن الزبير قال: حملت إلى المتوكل وأدخلت عليه فقال: يا أبا عبد الله اِلزم أبا عبد الله يعني المعتز حتى تعلّمه من فقه المدنيين فأدخلت حجرة فإذا أنا بالمعتز قد أتى في رجله نعل من ذهب وقد عثر فسال دمه فجعل يغسل الدم ويقول:

يصابُ الفتى من عَثْرةٍ بلسانِهِ ... وليسَ يصابُ المرءُ من عثْرةِ الرِّجْلِ

فعثرتُهُ من فيه ترمي برأسِهِ ... وعثرتُهُ بالرجلِ تبرا على مَهْلِ

فقلت في نفسي: ضُمِمْتُ إلى من أريد أن أتعلم منه.

ضده

سُئِلَ بعض الحكماء عن المنطق، فقال: إنك تمدح الصمت بالمنطق ولا تمدح بالصمت المنطق وما عبّر به عن شيء فهو أفضل منه.

---

(١) من سكت فسلم: هذا القول مأخوذ عن حديث رسول الله ﷺ: «رحم الله امرءاً تكلم فغنم، أو سكت فسلم».

(٢) الحديث ورد في لسان العرب جـ ١٠، ص ٢٢، ومعناه التوسع في الكلام والإكثار منه.

وسئل آخر عنهما فقال: أخزى الله المساكتة ما أفسدها للسان وأجلبها للعي ووالله للممـاراة[١] في استخـراج حق أهـدم للعي من النـار في يـابس العرفج[٢] فقيل له: قد عرفت ما في المماراة من الذم فقال: ما فيها أقـل ضـرراً من السكتة التي تـورث عللاً وتولـد داءً أيسـره العي. وقـال بعض الحكماء: اللّسان عضوٌ فإن مرّنته مرن وإن تركتـه حرن. وممن أفـرط في قوله فاستقبل بـالحلم، ما حكي عن شهـرام المروزي فـإنه جـرى بينه وبين أبي مسلم صاحب الدولة كلام فمـا زال أبو مسلم يحـاوره إلى أن قال لـه شهـرام: يا لقـطة[٣] فصمت أبو مسلم ونـدم شهرام على مـا سبق به لسـانه وأقبل معتذراً خاضعاً ومتنصـلاً. فلمّا رأى ذلـك أبو مسلم قـال: لسان سبق ووهم أخـطأ وإنما الغضب شيـطان والذنب لي لأنني جـرّأتك على نفسي بطول احتمالي منك فإن كنت متعمـداً للذنب فقد شـركتك فيـه وإن كنت مغلوباً فالعذر يسعك وقد غفرنا لك على كل حال، قال شهرام: أيها الملك عفو مثلك لا يكون غروراً قال: وإنَّ عظيم ذنبي لن يدع قلبي يسكن ولجّ في الاعتذار فقال أبو مسلم: يا عجباً كنت تسيء وأنا أحسن فإذا أحسنت أسأت!

محاسن كتمان السر

قال: كان المنصور يقول: الملِكُ يحتمل كل شيء من أصحابه إلا ثلاثاً: إفشاء السر، والتعرّض للحرم، والقـدح في الملك. وكان يقـول: سرّك من دمك فٱنظرْ من تملكه، وكان يقول: سرك لا تطلع عليه غيرك وإنّ من أنفذ البصائر كتمان السر حتى يبرم المبروم.

---

(١) المماراة: ماری: جادل ونازع ولاجَّ.

(٢) العرفج: مفرده عرفجة: شجر ينبت في السهل.

(٣) لقطة: بسكون القاف أو فتحها: ما تجده ملقى فتلتقـطه، أو هو الشيء المتـروك الذي لا يعرف مالكه.

وقيل لأبي مسلم: بأي شيء أدركت هذا الأمر؟ قال: ارتديت بالكتمان واتّزرت بالحزم وحالفتُ الصبر وساعدتِ المقاديرُ فأدركت طلبتي وحزْتُ بغيتي. وأنشد في ذلك:

أدركتُ بالحزمِ والكتمانِ ما عجزتْ عنهُ ملوكُ بني مروانَ إذْ حَشَدوا
مـا زلتُ أسعى عليهمْ في ديارهمُ والقومُ في مُلكهم بالشامِ قد رَقَدوا
حتى ضربْتُهُم بالسيفِ فانتبهوا منْ نومةٍ لم يَنَمْها قبلهمْ أحدُ
ومن رعى غنماً في أرضِ مَسْبعةٍ ونامَ عنها تولّى رَعْيَها الأسدُ

قال: وقال عبد الملك بن مروان للشعبي لما دخل عليه: جنّبني خصالاً أربعاً: لا تطريني في وجهي ولا تجرينَّ عليَّ كذبةً ولا تغتابنَّ عندي أحداً ولا تفشينَّ إليّ سراً

وقال النبي ﷺ: «اِستعينوا على إنجازِ حوائجكم بكتمان السر فإن كل ذي نعمةٍ محسود»[1]. وأنشد اليزيدي في ذلك:

النجمُ أقربُ من سرٍ إذا اشتملتْ مني على السرِّ أضلاعٌ وأحشاءُ

غيره:

وَنَفَسَكَ فاحفظْها ولا تفشِ للعدى من السرِّ ما يطوِي عليهِ ضميرُها
فما يحفظ المكتومَ من سرِّ أهله إذا عُقَدُ الأسرارِ ضاع كثيرُها
من القوم إلاَّ ذو عفافٍ يُعِينُهُ على ذاك منه صِدقُ نفسٍ وخِيرُها

قال معاوية بن أبي سفيان: أُعِنْتُ على عليّ بن أبي طالب بأربع خصال: كان رجلاً ظهرةً علنة[2] لا يكتم سراً، وكنت كتوماً لسري، وكان

(١) الحديث ورد في الجامع الصغير بلفظ «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمةٍ محسود» جـ ١، ص ١٥٠ حديث ضعيف.

(٢) ظِهْرَةً: مشتقة من الظَّهر: يقال: جعل حاجتي ظِهْرته: أي خلف ظهره، نسيها لا يهتم بالأمور. وعُلَنَة أي لا يكتم سراً.

لا يسعى حتى يفاجئه الأمر مفاجأة ، وكنت أبادر إلى ذلك، وكان في أخبث جند وأشدهم خلافاً وكنت في أطوعِ جُندٍ وأقلَّهم خِلافاً، وكنت أحبَّ إلى قريش منه فنلت ما شئت فللّه من جامع إليَّ ومفرّق عنه .

وكان يقال: لِكاتم سرِّهِ من كتمانه إحدى فضيلتين الظفرُ بحاجته والسلام[1] من شره، فمن أحسن فليحمد الله وله المنّة عليه ومن أساء فليستغفر الله .

وقال بعضهم: كتمانك سرك يعقبك السلامة وإفشاؤك سرك يعقبك الندامة والصبر على كتمان السر أيسر من الندم على إفشائه .

وقال بعضهم: ما أقبح بالإنسان أن يخاف على ما في يده من اللصوص فيخفيه ثم يمكّن عدوّه من نفسه بإظهاره ما في قلبه من سر نفسه وسرّ أخيه . ومن عجز عن تقويم أمره فلا يلومنّ إلا نفسه إن لم يستقم له .

وقال معاوية: ما أفشيت سرّي إلى أحد إلا أعقبني طول الندم وشدة الأسف، ولا أودعته جوانح صدري فحكمته بين أضلاعي إلا أكسبني مجداً وذكراً وسناءً ورفعةً. فقيل: ولا ابن العاص؟ قال: ولا ابن العاص. وكان يقول: ما كنت كاتمه من عدوّك فلا تظهر عليه صديقك.

وقال رسول الله ﷺ: «من كَتَمَ سرَّه كانت الخيرة في يده[2] ومن عرض نفسه للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن، وضع أخيك على أحسنه ولا تظنن بكلمة خرجت منه سوءاً ما كنت واجداً لها في الخير مذهباً

---

(١) السلام : السلامة .

(٢) من كلام الشافعي، راجع مختصر المقاصد الحسنة للزرقاني تحقيق الصباغ ص ١٩٧، وأورده البيهقي في (مناقب الشافعي) بلفظه. انظر كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني تحقيق القلاش جـ ٢ ، ص ٣٥٩.

وما كافأت من عصى الله فيك بأفضل من أن تطيع الله جل اسمه فيك. وعليك بإخوان الصدق فإنهم زينة عند الرخاء وعصمة عند البلاء».

وحدّث إبراهيم بن عيسى قال: ذاكرت المنصور ذات يوم في أبي مسلم وصونه السر وكتمه حتى فعل ما فعل، فأنشد:

تقسَّمني أمرانِ لم أقتحمهما ... بحزم ولم تعركهما لي الكراكرُ[1]
وما ساور الأحشاءَ مثلُ دفينةٍ ... من الهم ردتها إليك المعاذر[2]
وقد علمتْ أفناءُ عدنانَ أنني ... على مثلها مقدامة[3] متجاسر

وقال آخر:

صُنِ السرَّ بالكتمان يُرضِكَ غِبُّهُ[4] ... فقد يُظْهِرُ السرَّ المُضيعُ فيندمُ
ولا تَفشينْ سراً إلى غير أهلهِ ... فَيظهَر خرقُ الشر من حيثُ يُكتم
وما زلتُ في الكتمان حتى كأنني ... بِرجعِ جوابِ السائلي عنه أعجم
لأسلم من قولِ الوُشاةِ وتسلمي ... سَلمتِ وهل حيٌّ على الدهر يسلم؟

وقال آخر:

أمنّي تخافُ آنتشارَ الحديثِ ... وحظّيَ في سَترهِ أوفرُ؟
ولو لم أصنْه لِبُقيا عليكَ ... نظرت لنفسي كما تنظر

(١) الكراكر: كراديس الخيل.
(٢) المعاذر: ج معذرة ودفينة ج دفائن: ما يدفن، ما يخفى من سرٍ وغيره.
(٣) المقدامة: كثير الإقدام والتاء للمبالغة.
(٤) غِبُّه: نتيجته.

وقال أبو نواس[1] :

لا تـفشِ أسـرارَكَ لـلنـاس ... وداوِ أحـزانَـك بـالـكـاسِ
فـإنّ إبـليسَ عـلى مـا بـه ... أرأفُ بـالنـاس من الـنـاسِ

وقال المبرد[2] : أحسن مـا سمعت في حفظ اللسان والسر ما رُوِيَ لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه :

لـعـمـرُكَ إنّ وُشـاةَ الـرجـا ... ل لا يتـركـون أديمـاً صـحيحـا
فـلا تُـبْـدِ سـرّك إلا إلـيـكَ ... فـإنَّ لكـل نصـيـح نصـيحـا

وقال العتبي :

ولي صـاحبٌ سـري المكَتَّمُ عنـده ... محـاريق[3] نيرانٍ بليـلٍ تُحَـرَّقُ
غـدوت على أسـراره فكسـوتهـا ... ثيابـاً من الكتمـان مـا تَتَخَـرَّق[4]
فمن كـانت الأسرار تـطفـو بصـدره ... فأسرار صدري بالأحاديث تُغْرق
فـلا تـودعنَّ الـدهـرَ سـرَّك أحمقـاً ... فـإنـك إن أودعتَـه منهُ أحمق
وحسبُـك في سَترِ الأحـاديث واعظاً ... من القول ما قال الأديبُ الموفَّق
إذا ضاق صدرُ المَرءِ عن سر نفسه ... فصدرُ الذي يُستودعُ السرَّ أضْيق

---

(١) أبو نواس : الحسن بن هانىء الشاعر المعروف.

(٢) المبرد : أبو العباس علم في بغداد، ممثل لمذهب البصرة باللغة، أهم مؤلفاته «الكامل».

(٣) محاريق : وردت في المحاسن والمساوىء ص ٤٢٦ ، مخاريق : ما يلعب به الصبيان من الخرق المفتولة والمعنى : يشتكي أمر صاحبه بأنه يكشف أسراره كما تكشف مخـاريق الصبيـان التي يشعلونها في ظـلامَ الليل، ويقـول في البيت الثاني : إنـه يحفظ أسـرار صاحبه فلا يخرقها ولا يبوح بها.

(٤) تَتَخَـرَّق : تتمزق .

وقال آخر:

لا يكتُمُ السـرَّ إلا كـلُّ ذي خَـطرٍ والسرُّ عنـدَ كـرامِ النـاسِ مَكْتـومُ

والسـرُّ عنـديَ في بيتٍ لـه غَلَقٌ قـد ضـاع مفتـاحُـهُ والبـابُ مـردومُ

قيل: ودخل أبو العتاهية[1] وقد ذاع شعره في عُتْبَة فقال: ما أحسنتَ في حبِّكَ ولا أجملتَ في إذاعةِ سركَ.. فقال:

من كـان يـزعُمُ أنْ سيكتمُ حُبَّـهُ أو يستـطيعُ السَّتـر فهْـوَ كـذوبُ

الـحبُّ أغلبُ لـلرجـال بـقهـره من أن يُـرى للسـر فيـه نصيب

وإذا بـدا سـرُّ اللبـيـبِ فـإنـه لـم يَبْـدُ إلاَّ والـفتـى مـغلـوب

إني لأحسُـدُ ذا هـوًى مستَحفـظاً لـم تَتّـهـمْـهُ أعـيـنٌ وقـلـوب

فـاستحسن المهدي شعـره وقال: قـد عـذرنـاك على إذاعـة سـرك ووصلناك على حسن شعرك إن كتمان السر أحسن من إذاعته.

وقال زياد: لكل مستشير ثقة وإن الناس قـد ابتدعت بهم خصلتـان إذاعة السر وترك النصيحة[2] وليس موضع السر إلاَّ أحد رجلين: إما آخري يرجو ثواب الله أو دنيوي له شرف في نفسـه وعقل يصـون به حسبـه وهما معدومان في هذا الدهر.

وقال المهلب: ما ضاقت صدور الـرجال عن شيء كمـا تضيق عن السر... كما قال الشاعر:

ولـربَّمـا كتم الـوقـورُ فصـرَّحت حـركـاتُـهُ للنـاسِ عن كتمـانِـهِ

---

(١) أبو العتاهية: هو إسماعيل بن القاسم الشاعر مولى لعنزة ويكنى أبا إسحاق وأبو العتاهية لقبه وكان جرَّاراً ويرمى بالزندقة، وعتبة التي كان يشبب بهـا كانت جـارية لـريْطة بنت أبي العباس السفَّاح وكانت تحت المهدي وقد حبسه من أجلها.

(٢) الجملة وردت في المحاسن والمساوىء ص ٤٢٧: وليس موضع السر إلا أحد رجلين: رجل أخروي يرجو ثواب الله، ورجل دنيوي ... إلى آخر الجملة.

ولـربَّمـا رُزقَ الفتى بسكـوتـه ولـربَّمـا حُـرِمَ الفَتَى ببيـانـه

وقال آخر:

إذا أنتَ لم تحفظْ لنفسِك سرّهـا فسرُّك عند النـاسِ أفشى وأضْيعُ

وقال آخر:

لسـانـي كتـومٌ لأسـراركـمْ ودمعي نمـومٌ لسـري مـذيـعْ

فلولا الـدمـوعُ كتمتُ الـهـوى ولـولا الهوى لم تكنْ لي دمـوع

محاسن المشورة

يقال: إذا استخار الرجل ربه واستشار نصيحه واجتهد فقد قضى ما عليه ويقضي الله في أمره ما يجب... وقال آخر: حسن المشورة من المشير قضاء حق النعمة.

وقيل: إذا استُشِرتَ فانصحْ وإذا قدرتَ فاصفح. وقيل: من وعظ أخاه سراً زانه ومن وعظه جهراً شانه[1]. وقال آخر: الاعتصام بالمشورة نجاة. وقال آخر: نصف عقلك مع أخيك فاستشره. وقال آخر: إذا أراد الله لعبد هلاكاً أهلكه برأيه. وقال آخر: المشورة تقوّم اعوجاج الرأي. وقال آخر: إياك ومشورة النساء فإن رأيهنّ إلى أفْن وعزمهنّ الى وَهَن[2].

ضـــده

قال بعض أهل العلم: لو لم يكن في المشورة إلا استضعاف صاحبك لك وظهور فقرك إليه لوجب اطّراح ما تفيده المشورة وإلقاء ما يكسبه الامتنان، وما استشرت أحداً إلا كنت عند نفسي ضعيفاً وكان عندي قوياً وتصاغرت له ودخلته العزة، فإياك والشورى وإن ضاقت بك

(١) زانه زيناً: حسَّنه وزخرفه. وشانه: عابه.

(٢) قول لعلي رضي الله عنه. الأفْن بسكون الفاء: النقص. والوهَن: الضعف في العمل أو الأمر أو البدن.

المذاهب واختلفت عليك المسالك وأداك الاستبهام إلى الخطأ الفادح فإن صاحبها أبداً مستذل مستضعف. وعليك بالاستبداد فإن صاحبه أبداً جليل في العيون مهيب في الصدور ولن تزال كذلك ما استغنيت عن ذوي العقول فإذا افتقرت إليها حقّرتك العيون ورجفت بك أركانك وتضعضع بنيانك وفسد تدبيرك واستحقرك الصغير واستخفّ بك الكبير وعُرفت بالحاجة إليهم . وقد قيل: نِعْمَ المستشار العلم ونِعْمَ الوزير العقل.

وممن اقتصر على رأيه دون المشورة «الشعبي» فإنه خرج مع ابن الأشعث فقدم به على الحجاج فلقيه يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج فقال له: أشر عليَّ فقال: لا أدري بما أشير ولكن أعتذر بما قدرت عليه وأشار بذلك عليه كافة أصحابه، قال الشعبي: فلما دخلت خالفت مشورتهم ورأيتُ والله غير الذي قالوا، فسلّمت عليه بالإمرة ثم قلت: أيَّد الله الأمير، إن الناس قد أمروني أن أعتذر بغير ما يعلم الله أنه الحق ولك الله أن لا أقول في مقامي هذا إلا الحق، قد جهدنا وحرّضنا فما كنا بالأقوياء الفجَرة ولا بالأتقياء البررة ولقد نصرك الله علينا وأظهرك بنا فإن سَطَوْتَ فبذنوبنا وإن عفوت فبحلمك والحجّة لك علينا. فقال الحجاج: أنت والله أحبّ إلينا قولاً ممن يدخل علينا وسيفه يقطر من دمائنا ويقول والله ما فعلتُ ولا شهدت أنت آمنٌ يا شعبي. فقلت: أيها الأمير اكتحلت والله بعدك السهر واستحلست الخوف[1] وقطعت صالح الإخوان ولم أجد من الأمير خُلْفاً. قال: صدقت. وانصرف وانصرفت.

محاسن الشكر

قال بعض الحكماء: صنْ شكرك عمّن لا يستحقه واستر ماء وجهك بالقناعة.

---

(١) استحلس الخوفُ فلاناً: لم يفارقه، وحلس حَلْساً الرجل بالشيء: تولّع.

وقال الفضل بن سهل[1] : من أحبّ الازديادَ من النعم فليشكر ، ومن أحبّ المنزلة فليكف ، ومن أحب بقاء عزّه فليسقط دالّته[2] ومكره .

ومن ذلك قول رجل لرجل شكره في معروف :

لقد ثبتتْ في القلبِ منك مودّة كما ثبتتْ في الراحتينِ الأصابعُ

قال: واصطنع رجل رجلاً فسأله يوماً أتحبني يا فلان؟ قال: نعم أحبك حباً لو كان فوقك لأظلّك أو كان تحتك لأقلّك[3] .

وقال كسرى أنو شروان: المنعم أفضل من الشاكر لأنه جعل له السبيل إلى الشكر. واختصر حبيب بن أوس هذا في مصراع واحد فقال:

لهانَ علينا أن نقولَ وتفعلا[4]

الباهلي عن أبي فروة قال: مكتوب في التوراة: أُشكرْ من أنعم عليك وأَنعمْ على من شكركَ[5] فإنه لا زوال للنّعم إذا شكرت ولا إقامة لها إذا كفرت والشكر زيادة في النعم وأمان من الغِيَر.

وقال رسول الله ﷺ : « خمسٌ تعاجل صاحبهن بالعقوبة : البغي والغدر وعقوق الوالدين وقطيعة الرحم ومعروف لا يشكر »[6] .

وأنشد الحطيئة[7] عمر وكعب الأحبار عنده :

من يفعلِ الخيرَ لا يعدمْ جوازيَهُ لا يذهبُ العرفُ بين الله والناسِ

---

(١) الفضل بن سهل: وزير المأمون أصله من فارس كان موالياً للبرامكة قتله المأمون.

(٢) دالّته : هي مؤنث دالّ : ما تُدِلُّ به على صديقك بجرأة لوجاهتك عنده .

(٣) لأقلّك : لحملك .

(٤) وتفعلا : بمعنى نحن نشكر وأنت تفعل المعروف.

(٥) هذه الجملة وردت في العقد الفريد ج ١ ، ص ١٤٠ .

(٦) الحديث عن زيد بن ثابت أخرجه ابن لال (الجامع الصغير ٣٩٦٨ حديث ضعيف).

(٧) الحطيئة: جرول بن أوس العبسي لقب بالحطيئة لقصره. وعمر: هو عمر بن الخطاب =

فقال كعب: يا أمير المؤمنين من هذا الذي قال هذا؟ فإنه مكتوب في التوراة فقال عمر: كيف ذلك؟ قال: في التوراة مكتوب: «من يصنع الخير لا يضيع عندي لا يذهب العرف بيني وبين عبدي».

وقيل لرسول الله ﷺ: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخّر فما هذا الاجتهاد؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟»[1] وفي الحديث أن رجلاً قال في الصلاة خلف رسول الله ﷺ: «اللهم ربّنا لك الحمد حمداً مباركاً طيباً زكياً» فلما انصرف ﷺ قال: «أيكم صاحب الكلمة؟» قال أحدهم: أنا يا رسول الله، فقال: «لقد رأيت سبعة وثلاثين ملكاً يبتدرون أيهم يكتبها أوّلاً»[2].

وقيل نسيان النعمة أولى درجات الكفر. وقال أمير المؤمنين عليٌّ رضي الله عنه: «لا تدع المعروف لكفر من كفره لأنه يشكرك عليه أشكر الشاكرين». وقد قيل في ذلك:

يـدُ المعـروفِ غُنْمٌ حيثُ كـانتْ ... تحـمّـلها كفـورٌ أم شـكـورُ
فعنـد الشَّـاكـرينَ لـهـا جـزاءٌ ... وعنـد اللَّهِ مـا كـفـرَ الكفـور

وقال بعض الحكماء: ما أنعم الله على عبد نعمة فشكر عليها إلا ترك حسابه عليها.

= رضي الله عنه. وكعب الأحبار: هو أبو إسحاق كعب بن ماتع أقدم رواة الحديث، كان يهودياً فأسلم ولقب بكعب الأحبار لمعرفته الواسعة بالتوراة.

(١) الحديث عن عائشة رضي الله عنها (متفق عليه) في الصحيحين مختصر من حديث المغيرة بن شعبة.

(٢) عن رفاعة بن رافع الزرقي قال: كنا نصلي وراء النبي ﷺ فلما رفع رأسه من الركعة قال: سمع الله لمن حمده، قال رجل من ورائه: ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فلما انصرف قال النبي: من المتكلم؟ قال أحدهم: أنا... إلى آخر الحديث رواه البخاري ومالك وأبو داود والنسائي.

وقال بعض الحكماء: عند التراخي عن شكر النعم تحلّ عظائم النقم..

وكان رسول الله ﷺ كثيراً ما يقول لعائشة: «ما فعل بيتك؟» فتنشده:

يُجْـزِيـكَ أو يُثني عليـكَ وإنَّ منْ أثنى عليـكَ بما فعلتَ كمنْ جزى

فيقول ﷺ: «صدق القائل يا عائشة إنّ الله إذا أجرى على يد رجل خيراً فلم يشكره فليس لله بشاكر»[1].

وقيل لذي الرمة[2]: لِمَ خصصت بلال بن أبي بردة بمدحك؟ قال: لأنه وطأ مضجعي وأكرم مجلسي وأحسن صلتي فحقّ لكثير معروفه عندي أن يستولي على شكري.

ومنهم من يقدم ترك مطالبة الشكر وينسبه إلى مكارم الأخلاق.. من ذلك ما قاله بزرجمهر: من انتظر بمعروفه شكرك فقد استدعى عاجل المكافأة.

وقال بعض الحكماء: إن الكفر يقطع مادة الإنعام فكذلك الاستطالة بالصنيعة تمحق الأجر.

وقال علي بن عبيدة: من المكارم الظاهرة وسنن النفس الشريفة ترك طلب الشكر على الإحسان، ورفع الهمة عن طلب المكافأة واستكثار القليل من الشكر واستقلال الكثير مما يبذل من نفسه.

وفي فصل من كتاب: ولست أقابل أياديك ولا أستديم إحسانك إلا

---

(١) الحديث: أشار إليه ابن عبد ربه في العقد الفريد: «أن رسول الله ﷺ سمع عائشة تنشد أبيات زهير بن خُباب:

يجزيك أو يثني عليك فإنَّ من أثنى عليك بما فعلت كمن جزى

فقال: صدق يا عائشة من لم يشكر الناس لم يشكر الله. جـ ١، ص ١٤١.

(٢) ذو الرمة: هو غيلان بن عقبة أحب مية والخرقاء، عاصر جريراً والفرزدق له ديوان شعر.

بالشكر الذي جعله الله للنعم حارساً وللحق مؤدّياً وللمزيد سبباً.

ضـــده

قال بعض الحكماء: المعروف إلى الكرام يعقب خيراً وإلى اللئام يعقب شراً ومثل ذلك مثل المطر يشرب منه الصدف فيعقب لؤلؤاً وتشرب منه الأفاعي فيعقب سماً.

وقال سفيان: وجدنا أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام.

وقال: أثار جماعة من الأعراب ضَبُعاً فدخلت خِباءَ شيخٍ منهم فقالوا: أخرجها فقال: ما كنت لأفعل وقد استجارت بي فانصرفوا، وقد كانت هزيلاً فأحضر لها لقاحاً. وجعل يسقيها حتى عاشت فنام الشيخ ذات يوم فوثبت عليه فقتلته فقال شاعرهم في ذلك:

ومن يصنع المعروفَ في غير أهلِهِ ... يلاق الذي لاقى مجيرُ أمِّ عامرِ[1]
أعـدَّ لها لمّا أناختْ ببابه ... لتسمنَ ألبان اللقاح الدرائرِ
فأسْمنها حتى إذا ما تمكّنتْ ... فرتهُ بأنيابٍ لها وأظافرِ
فقل لذوي المعروفِ هذا جزاءُ منْ ... يجود بإحسانٍ إلى غير شاكرِ

قيل: وأصاب أعرابي جرو ذئب فاحتمله إلى خبائه وقرّب له شاة فلم يزل يمتص من لبنها حتى سمن وكبر ثم شدّ على الشاة فقتلها فقال الأعرابي يذكر ذلك:

غَذَتْكِ شويهتي ونشأتَ عندي ... فمنْ أدراك أنَّ أباك ذيب؟
فجعتَ نُسَيَّةً وصِغارَ قومٍ ... بشاتهمُ وأنتَ لها ربيب
إذا كان الطباعُ طباعَ سوءٍ ... فليس بنافعٍ أدباً أديبُ

---

(١) أم عامر: لقب الضبع.

وفي المثل: سَمِّن كلبك يأكلك. . وأنشد:

هُمْ سمّنوا كلباً ليأكلَ بعضَهم ... ولو عملوا بالحزمِ ما سمّنوا كلبا

وقال آخر:

وإني وقيساً كالمسمّن كلبَهُ ... فخدَّشه أنيابُه وأظافرُه

ويضرب المثل بسنّمار[1]، وكان بنى للنعمان بن المنظر الخورنق فأعجبه وكره أن يبني لغيره مثله فرمى به من أعلاه فمات فقيل فيه:

جزيْنا بني سعدٍ بحسن بَلائهمْ ... جزاءَ سنمارَ وما كان ذا ذنْبِ

وقال بشار:

أُثني عليكَ ولي حالٌ تكذِّبني ... فيما أقول فأستحي من الناسِ

قد قلتُ إنّ أبا حفصٍ لأكرمُ من ... يمشي فخاصمني في ذاك إفلاسي

حتى إذا قيلَ ما أعطاكَ من صَفَدٍ[2]؟ ... طأطأتُ من سوءِ حالي عندها راسي

ولأبي الهول:

كأنّي إذ مدحتُك يابْنَ مَعْنٍ ... رآني الناسُ في رمضانَ أزني

فإن أك رحت عنك بغير شيءٍ ... فلا تفرح كذلك كان ظني

وقال آخر:

لحى اللّهُ قوماً[3] أعجبتْهُمْ مدائحي ... فقالوا مقالاً في مَلام وفي عُتْبِ

---

(١) سنمار: فارسي بني قصر الخورنق للنعمان بن امرىء القيس الذي يقال له الأعور وهو الذي لبس المسوح وساح في الأرض - وبعد إتمام البناء تعجب الناس من حسنه وإتقانه فقال سنمار: لو علمت أنكم توفونني أجري لبنيت بناءً يدور مع الشمس حيث دارت فقال النعمان: وإنك لتقدر على أن تبني ما هو أفضل ولم تبنِه؟ فأمر به فطرح من رأس الخورنق وأصبح مضرباً للمثل: فيقال: «جزاه جزاء سنمار» أنظر تاريخ الإسلام السياسي للدكتور حسن إبراهيم حسن جـ ١، ص ٣٤ و ٣٦.

(٢) الصفد: العطاء.

(٣) لحى: لعن.

أبـا حـازمٍ تمـدَّحْ فقلتُ معـذِّراً هبوني امرءاً جرَّبتُ سيفيَ في كلبِ

وقال آخر:

عثمـانُ يعلمُ أنَّ الحمـدَ ذو ثـمن لكنّـه يـشتـهي حـمـداً بمـجّـانِ
والناسُ أكيسُ من أنْ يمدحوا رجلاً حتى يـروا عـنـده آثـارَ إحسـانِ

وقال آخر:

يُـحِـبُّ الـمـديـحَ أبـو خـالـد ويَـغـضَـبُ مـن صـلـةِ الـمـادحِ
كـبكـرٍ تـحبُ لـذيـذَ الـنكـاحِ وتجـزعُ من صَـوْلَـةِ الـنَّـاكِـحِ

وقال آخر:

ولـو كان يستغني عن الشكـر سيـدٌ لـعـزّةِ مُـلْكٍ أو عـلوِّ مـكـانِ
لـمـا أمـرَ اللَّهُ الـعبـادَ بـشكـرهِ فقـالَ اشكـروني أيهـا الثَّقـلانِ[1]

محاسن الصدق

قال بعض الحكماء: عليـك بالصـدق فما السيف القـاطع في كف الرجل الشجاع بأعـز من الصدق ، والصـدق عزّ وإن كـان فيه مـا تكره ، والكذب ذلّ وإن كان فيه ما تحب ، ومن عُرفَ بالكذب اتُّهِمَ في الصدق .

وقيل: الصدق ميزان الله الذي يـدور عليه العدل، والكذب مكيـال الشيطان الذي يدور عليه الجوْر.

وقال ابن السماك: ما أحسبني أوجر[2] على ترك الكذب لأني أتركه أَنَفةً.

وقال آخر: لو لم يترك العاقل الكذب إلا مروءة لكـان بذلـك حقيقاً

---

(١) الثقلان: الإنس والجن.
(٢) أوجر : أؤجر .

فكيف وفيه المأثم والعار؟ وقال الشعبي: عليك بالصدق حيث ترى أنه يضرّك فإنه ينفعك واجتنب الكذب حيث ترى أنه ينفعك فإنه يضرك.

وقال بعضهم: الصدق عزّ والكذب خضوع.

ومُدِحَ قومٌ بالصدق منهم: أبو ذر رضي الله عنه فإن رسول الله ﷺ قال: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء ولا طلعت الشمس على ذي لهجة أصدق من أبي ذر»[1]. ومنهم العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه فإنه روي أنه اطلع على رسول الله ﷺ وعنده جبريل فقال له جبريل: هذا عمّك العباس؟ قال نعم: قال إن الله تعالى يأمرك أن تقرأ عليه السلام وتعلمه أن اسمه عند الله الصادق وأن له شفاعة يوم القيامة، فأخبره رسول الله ﷺ بذلك فتبسّم فقال: إن شئت أخبرتك مما به تبسمت وإن شئت أن تقول: فقال بل تعلمني يا رسول الله فقال: لأنك لم تحلف يميناً في جاهلية ولا إسلام برة ولا فاجرة ولم تقل لسائل لا، قال: والذي بعثك بالحق نبياً ما تبسمت إلّا لذلك.

ويروى أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: إني استسر بخلال الزنا والسرقة وشرب الخمر والكذب فأيهن أحببت تركته، قال: «دع الكذب»؛ فمضى الرجل فهمّ بالزنا فقال: يسألني رسول الله ﷺ فإن جحدت نقضت ما جعلته له وإن أقررت حُدِدتُ[2] فلم يزن، فهمّ بالسرقة وشرب الخمر ففكر في ذلك فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال له: قد تركتهن أجمع[3]، فأما

---

(١) الحديث: «ما أظلّت الخضراء ولا أقلّتِ الغبراء من ذي لهجةٍ أصدقَ من أبي ذر» (متفق عليه). وأبو ذر هو جندب بن جنادة الغفاري الصحابي المحدث الكبير.

(٢) الحد: العقوبة.

(٣) الحديث عن عبد الله بن جراد قال: سألت رسول الله ﷺ: هل يزني المؤمن؟ قال: «قد يكون ذلك» قال: يا نبي الله، هل يكذب المؤمن؟ قال: لا «إنما يفتري الكذب الذين =

من رُخّص لـه في الكذب فيـروى عن رسول الله ﷺ أنـه قال: «لا يصلح الكذب إلا في ثلاث كـذب الرجـل لأهله ليرضيهـا، وكذب في إصـلاح ما بين الناس، وكذب في حرب»[1].

وروي عن المغيرة بن إبراهيم أنه قال: لم يرخص لأحد في الكذب إلا للحجاج بن علاط فإنه لما فتحت خيبر قال: يا رسـول الله إن لي عند امرأة من قريش وديعـة فأأذن لي يـا رسول الله أن أكـذب عليك كـذبة لعلّي أستل وديعتي فرخّص له في ذلك، فقـدم مكة فـأخبرهم أنـه ترك رسـول الله ﷺ أسيراً في أيديهم يأتمرون فيه فقائل يقول: يقتل وقائل يقول: لا بل يبعث بـه إلى قومـه فنكون منـه، فجعـل المشـركـون يتبـاشـرون بـذلـك ويؤيسون[2] العباس عمّ رسول الله ﷺ والعباس يريهم التجمل. وأخذ الرجل وديعته فاستقبله العباس وقال: ويحك ما الذي أخبرت به فأعلمه السبب ثم أخبره أن رسول الله ﷺ قد فتح خيبر ونكح صفيّة بنت حيي بن أخطب وقتل زوجها وأباها، ثم قال: أكتم علي اليوم وغداً حتى أمضي ففعل ذلك فلما مضى يومان أخبرهم العباس بالذي أخبره فقالوا: ومن أخبرك بهذا؟ قال: من أخبركم بضده.

لا يؤمنون بآيات الله» أخرجه ابن عبد البر في التمهيد وابن أبي الدنيا في الصمت وجعل السائل أبا الدرداء (إحياء علوم الدين للغزالي، جـ ٣، ص ١٣٥).

(١) الحديث عن أم كلثوم قالت: ما سمعت رسول الله يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث: الرجل يقول القول يريد به الإصلاح، والرجل يقول القول في الحرب، والرجل يحـدث امرأتـه والمـرأة تحـدثُ زوجهـا، أخـرجـه مسلم: (انـظر المـرجـع السـابق، ص ١٣٧).

(٢) لما افتتح رسول الله ﷺ «خيبر» قال الحجاج بن علاط: يا رسول الله إنَّ لي بمكة مـالاً وإنَّ لي بها أهلاً، وإني أريد أن آتيهم، فأنا في حلٍّ إنْ أنا نلتُ منك أو قلتُ شيئاً؟ فأذن له رسول الله ﷺ أن يقول ما شـاء (الأذكياء لـلإمام الحـافظ عبـد الـرحمٰن بن علي بن الجوزي) ص ٥٠ . ويؤيسون العباس : من اليأس .

ضـــده

قيل: وجد في بعض كتب الهند ليس لكذوب مروءة، ولا لضجور رياسة، ولا لملول وفاء، ولا لبخيل صديق.

وقال قتيبة بن مسلم[1]: لا تطلبن الحوائج من كذوب فإنه يقربها وإن كانت بعيدة ويبعدها وإن كانت قريبة، ولا إلى رجل قد جعل المسألة مأكلة فإنه يقدم حاجته قبلها ويجعل حاجتك وقاية لها ولا إلى أحمق فإنه يريد نفعك فيضرك. وقيل: أمران لا ينفكان من كذب كثرة المواعيد وشدة الاعتذار.

وقيل: كفاك موبخاً على الكذب علمك بأنك كاذب. وقال رجل لأبي حنيفة: ما كذبت قط، قال: أما هذه فواحدة. وفي المثل هن أكذب من أخيذ السند[2]، وذلك أنه يؤخذ الخسيس منهم فيزعم أنه ابن الملك. وكذلك يقال: أكذب من سياح خراسان، لأنهم يجتازون في كل بلد ويكذبون للسؤال والمسألة ويقال: هو أكذب من الشيخ الغريب، وذلك أنه يتزوج في الغربة وهو ابن سبعين سنة فيزعم أنه ابن أربعين. ويقال: هو أكذب من مسيلمة وبه يضرب المثل. ومما قيل في ذلك من الشعر:

حسبُ الكذوبِ مِنَ البليّةِ ... بعضُ ما يُحكى عليهِ
ما إنْ سمعتَ بكذْبةٍ ... من غيرِهِ نسبت إليهِ

وقال آخر:

لقد أخْلفتني وحلفتَ حتى ... أخالُكَ قد كذبْتَ وإنْ صدقْتا

---

(١) قتيبة بن مسلم: من كبار القادة المسلمين.

(٢) المثل ورد في باب الأمثال: أكذب من الأخيذ (راجع المنجد للأب لويس معلوف ص ٩٨٦).

ألا لا تحلفنَّ على كلامٍ ... فأكذبُ ما تكونُ إذا حلفْتا

وقال آخر:

قد كنتُ أُنجِزُ دهراً ما وعدتُ إلى ... أنْ أتْلَفَ الوعدُ ما جمَّعْتُ من نشبِ[1]
فإنْ أكنْ صرتَ في وعدي أخا كذبٍ ... فَنُصْرةُ الصّدق أفضتْ بي إلى الكذبِ

قال الأصمعي: قال الخليل بن سهل: يا أبا سعيد أعلمتَ أنَّ طول رمح رستم كان سبعين ذراعاً من حديد مصمت في غلظ الراقود[2] فقلت: ها هنا أعرابي له معرفة فاذهب بنا إليه فحدثه بهذا، فذهبت به إلى الأعرابي فحدثه فقال الأعرابي: قد سمعت بذلك وبلغنا أن رستم هذا كان هو واسفنديار أتيا لقمان ابن عاد بالبادية فوجداه نائماً ورأسه في حجر أمه فقالت لهما: ما شأنكما؟ فقالا: بلغنا شدة هذا الرجل فأتيناه فانتبه فزعاً من كلامهما فنفخهما فألقاهما إلى إصبهان[3] فقبرهما اليوم فيها، فقال الخليل: قبحك الله ما أكذبك؟ قال: يا ابن أخي ما بَيّنّا شيئاً إلا وهو دون الراقود.

قيل: وقدم بعض العمال من عمل فدعا قوماً إلى طعامه وجعل يحدثهم بالكذب فقال بعضهم: نحن كما قال الله عزّ وجل: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾[4].

قيل: وكان رجال من أهل المدينة من بين فقيه وراوية وشاعر يأتون

---

(١) نجز نجزاً الحاجة: قضاها، والوعد: عجَّله. وأنجز الوعد: وفى به. والعمل: أتمّه. والنَّشب: المال والعقار.

(٢) الراقود: الدف الكبير (فارسية) ومصمت: مُغْلق لا ثغرة فيه.

(٣) إصبهان أو أصفهان: مدينة في إيران.

(٤) سورة المائدة الآية: ٤٢. والسحت: الحرام، أو ما خبث من المكاسب فلزم عنه العار.

بغداد فيرجعون بحظوة[1] وحال حسنة فاجتمع عدة منهم فقالوا لصديق لهم لم يكن عنده شيء من الأدب: لو أتيت العراق فلعلك أن تصيب شيئاً قال: أنتم أصحاب آداب تلتمسون بها فقالوا: نحن نحتال لك فأخرجوه. فلما قدم بغداد طلب الاتصال بعلي بن يقطين وشكا إليه الحاجة فقال: ما عندك من الأدب؟ فقال: ليس عندي من الأدب شيء غير أني أكذب الكذبة وأخيل إلى من يسمعها أني صادق، وكان ظريفاً مليحاً فأعجب به وعرض عليه مالاً فأبى أن يقبله وقال: ما أريد منك إلا أن تسهل إذني وتدني مجلسي قال: ذاك لك، وكان من أقرب الناس إليه مجلساً حتى عرف بذلك، وكان المهدي قد غضب على رجل من القواد واستصفى ماله وكان يختلف إلى علي بن يقطين[2] رجاء أن يكلم له المهدي وكان يرى قرب المديني[3] ومكانه من علي فأتى المديني القائد عشياً[4] فقال: ما البشرى؟ قال: لك البشرى وحكمك، قال: أرسلني علي بن يقطين إليك وهو يقرؤك السلام ويقول: قد كلمت أمير المؤمنين في أمرك ورضي عنك وأمر بردّ مالك وضياعك ويأمرك بالغدو إليه لنغدو معه إلى أمير المؤمنين متشكراً فدعا له الرجل بألف دينار وكسوةٍ وحملان وغدا على عليٍّ مع جماعة من وجوه العسكر متشكراً فقال له علي: وما ذاك؟ قال: أخبرني أبو فلان ـ وهو إلى جنبه ـ كلامك أمير المؤمنين في أمري ورضاه عني فالتفت إلى المديني وقال: ما هذا؟ فقال: أصلحك الله هذا بعض ذلك المتاع نشرناه فضحك علي وقال: عليّ بدابتي وركب إلى المهدي وحدّثه الحديث فضحك المهدي. وقال: إنّا قد رضينا عن الرجل ورددنا

---

(١) الحظوة: بضم الحاء وفتحها وكسرها: المكانة، الحظ من الرزق.

(٢) وكان يختلف: (أي القائد المعزول): أي يأتي إليه ويزوره.

(٣) المديني: نسبة إلى المدينة.

(٤) عشياً: عشية.

عليه ماله. وأجرى على المديني رزقاً واسعاً واستوصى به خيراً ثم وصله.. وكان يعرف بكذاب أمير المؤمنين.

محاسن العفو

قيل: أسر مُصْعَبُ بن الزبير رجلًا من أصحاب المختار فأمر بضرب عنقه. فقال: أيها الأمير ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة فأتعلق بأطرافك وأقول: ربِّ سل مصعباً فيمَ قتلني؟ فقال: أطلقوه فقال: أيها الأمير اجعل لي ما وهبت لي من عمري في خفض عيش، فقال: أعطوه مائة ألف درهم قال: بأبي أنت وأمي أشهدك أن لابن قيس الرقيات[1] منها خمسين ألفاً قال: لِمَ؟ قال: لقوله فيك:

إنما مُصعبٌ شهابٌ مِنَ الله ... تجلّتْ عن وجهه الظلماءُ
ملْكُهُ مُلْكُ رأفةٍ ليس فيه ... جَبروتٌ ولا له كبرياءُ

فضحك مُصعب وقال: لقد تلطفت وإنَّ فيك لموضعاً للصنيعة، وأمر له بالمائة ألف ولابن قيس الرقيات بخمسين ألف درهم. قيل: وأمر الرشيد يحيى بن خالد بحبس رجل جنى جناية فحبسه ثم سأل عنه الرشيد فقيل: هو كثير الصلاة والدعاء فقال للموكل به: عرِّضْ له بأن تكلمني وتسألني إطلاقه فقال له الموكل ذلك فقال: قل لأمير المؤمنين إن كل يوم يمضي من نعمتك ينقص من محنتي والأمر قريب والموعد الصراط[2] والحاكم الله فخر الرشيد مغشياً عليه ثم أفاق وأمر بإطلاقه.

---

(١) ابن قيس الرقيات: شاعر اسمه عبيد الله بن قيس من بني عامر سمي كذلك لأنه كان يشبّب بثلاث نسوة يقال لهن جميعاً «رُقيّة».

(٢) الصِّراط: الطريق، وجسر ممدودة على متن جهنم، منعوت في الحديث الصحيح. (القاموس المحيط للفيروزابادي).

وقيل: ظفر المأمون برجل كان يطلبه فلما دخل عليه قال: يا عدو الله أنت الذي تفسد في الأرض بغير الحق! يا غلام خذه إليك فاسقه كأس المنية فقال: يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تبقيني حتى أؤيدك بمال قال: لا سبيل إلى ذلك فقال: يا أمير المؤمنين فدعني أنشدك أبياتاً، قال: هات، فأنشده:

زعموا بأنَّ البازَ علّق مرةً ... عصفورَ بز ساقه المقدورُ
فتكلمَ العصفورُ تحت جناحه ... والباز مُنْقضٌّ عليه يطير
ما بي لما يُغني لمثلك شَبْعةً ... ولئن أُكْلتُ فَإنني لحقير
فتبسّم الباز المدلُّ بنفسه ... كرماً وأُطْلِقَ ذلك العصفور

فقال له المأمون: أحسنت ما جرى ذلك على لسانك إلا لبقية بقيت من عمرك فأطلقه وخلع عليه ووصله.

وعن بعضهم أن والياً أتى برجل جنى جناية فأمر بضربه فلما مُدَّ قال: بحق رأس أمك إلا ما عفوت عني قال: أوجعْ فقال: بحق خدّيها ونحرها قال: إضرب، قال: بحق ثدييها، قال: إضرب، قال: بحق سرتها، قال: ويلكم دعوه لا ينحدر قليلاً. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الرجل إذا ظلم فلم ينتصر ولم يجد من ينصره فرفع طرفه إلى السماء ودعا قال الله له: لبيك عبدي أنصرك عاجلاً وآجلاً»[1].

وقال ﷺ في قولهم: «أُنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». وقد سئل عن

---

(١) لم أعثر على هذا الحديث بلفظه وإنما وردت بعض الأحاديث في معناه: فمن حديث: ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب: «وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين» عن أبي هريرة رواه أحمد، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن خزيمة، وابن حبان، والبزار. الترغيب والترهيب للمنذري، جـ٣، ص ١٨٧.

ذلك فقيل: أنصره مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟ فقال: تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه»[١].

وقال فضيل بن عياض: بكى أبي فقلت: ما يبكيك؟ فقال: أبكي على ظالمي ومن أخذ مالي أرحمه غداً إذا وقف بين يدي الله عز وجل وسأله فلا تكون له حجة.

وقال الحسن البصري[٢]: أيها المتصدق على السائل يرحمه اِرحم أولاً من ظلمت.

ورُوي عن عبد الله بن سلام قال: قرأت في بعض الكتب قال الله عز وجل: «إذا عصاني من يعرفني سلّطت عليه من لا يعرفني»[٣]. قال خالد بن صفوان: إياكم ومجانيق الضعفاء[٤] ـ يعني الدعاء ـ.

ضـــده

قيل: لما قالت التغلبية للجحاف بن حكيم السلمي[٥] في وقعته بالبشر[٦]: قوّض الله عمادك وأطال سهادك وأقلّ رقادك، والله إن قتلت إلا نساء أسافلهن دمي وأعاليهن ثديي فقال لمن حوله: لولا أن تلد مثلها لخليت سبيلها فبلغ ذلك الحسن البصري فقال: أما الجحاف فجذوة من نار جهنم.

---

(١) الحديث: انصر أخاك إلى آخره حديث صحيح عن أنس رضي الله عنه رواه أحمد، والبخاري، والترمذي بلفظ: (فإن ذلك نصره).

(٢) الحسن البصري ولد في المدينة ونشأ في مكة ثم استقر في البصرة كان ورعاً تقياً متقشفاً أثر في الحركة الدينية الإسلامية.

(٣) حديث قدسي.

(٤) المناجيق: ج منجنيق، آلة حربية كانوا يرمون بها الحجارة على العدو (يونانية).

(٥) الجحّاف: اسم رجل من العرب معروف.

(٦) وقعته بالبشر: المبالغة في قتله الناس.

قال: ولما بنى زياد بناء البصرة أمر أصحابه أن يسمعوا من أفواه الناس، فأتى برجل تلا آية: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[1] قال: وما دعاك إلى هذا؟ قال: آية من كتاب الله عز وجل خطرت على بالي فتلوتها قال: والله لأعملن فيك بالآية الثانية ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾[2] ثم أمر به فَبُنِيَ عليه ركن من أركان القصر.

قال: وبعث زياد إلى رجل من بني تميم فقال: أخبروني بصلحاء كل ناحية فأخبروه فاختار منهم رجالاً فضمنهم الطريق، وقال: لو ضاع بيني وبين خراسان حبل لعلمت من لقطه. وكان يدفن الناس أحياء وينزع أضلاع اللصوص.

قال: وقال عبد الملك للحجاج: كيف تسير في الناس؟ قال: أنظر إلى عجوز أدركت زياداً[3] فاسألها عن سيرته فأعمل بها، فأخذ والله بسنته حتى ما ترك منها شيئاً.

وذكروا أن الحجاج لما أتى المدينة أرسل إلى الحسن بن الحسن رضي الله عنه فقال: هات سيف رسول الله ﷺ ودرعه قال: لا أفعل، قال: فجاء الحجاج بالسيف والسوط فقال: والله لأضربنك بهذا السوط حتى أقطعه ثم لأضربنك بهذا السيف حتى تبرد أو تأتيني بهما، فقال الناس: يا أبا محمد لا تعرض لهذا الجبار قال: فجاء الحسن بسيف رسول الله ﷺ ودرعه فوضعهما بين يدي الحجاج، فأرسل الحجاج إلى رجل من بني أبي رافع مولى رسول الله ﷺ فقال له: هل تعرف سيف رسول الله ﷺ؟

---

(١) سورة الشعراء الآيتان: ١٢٨، ١٢٩، والريع: المكان المرتفع، الجبل المرتفع جمع رياع.

(٢) سورة الشعراء الآية: ٣٠.

(٣) زياد: زياد بن أبيه كان والياً لمعاوية على العراق.

قال: نعم. فخلطه بين أسيافه ثم قال: أخرجه ثم جاء بالدرع فنظر إليها ثم قال: هناك علامة كانت على الفضل بن العباس يوم اليرموك فطعن بحربة فخرقت الدرع فعرفناها فوجد الدرع على ما قال، فقال الحجاج: أما والله لو لم تجئني به وجئت بغيره لضربت به رأسك.

وذكروا أن الحجاج قال ذات ليلة لحاجبه: أعسس[1] بنفسك فمن وجدته فجئني به، فلما أصبح أتاه بثلاثة فقال: أصلح الله الأمير ما وجدت إلا هؤلاء الثلاثة، فقال الحجاج لواحد منهم: ما كان سبب خروجك بالليل وقد نادى المنادي أن لا يخرج أحد بالليل؟ قال: أصلح الله الأمير كنت سكران فغلبني السكر فخرجت ولا أعقل، ففكر ساعة ثم قال: سكران غلبه سكره خلوا عنه لا تعودنَّ. ثم قال للآخر: فأنت ما سبب خروجك؟ قال: أصلح الله الأمير كنت مع قوم في مجلس يشربون فوقعت بينهم عربدة فخفت على نفسي فخرجت. ففكر الحجاج ساعة فقال: رجل أحب المسالمة خلوا عنه. ثم قال للآخر ما كان سبب خروجك فقال: لي والدة عجوز وأنا رجل حمال فرجعت إلى بيتي فقالت والدتي: ما ذقت إلى هذا الوقت طعاماً ولا ذواقاً فخرجت ألتمس لها ذلك فأخذني العسس. ففكر ساعة ثم قال: يا غلام اضرب عنقه فإذا رأسه بين رجليه[2].

محاسن الصبر على الحبس

قال الكسروي: وقع كسرى بن هرمز إلى بعض المحبسين: من صبر على النازلة[3] كان كمن لم تنزل به، ومن طول في الحبل كان فيه عطبه،

---

(١) العسس: حراس الليل.
(٢) قتله الحجاج لظنه بأنه خرج للسرقة في الليل.
(٣) النازلة: ج نازلات: المصيبة الشديدة.

ومن أكل بلا مقدار تلف نفسه[١] . قيل : ودخل ابن الزيات على الأفشين[٢] وهو محبوس ، فقال يخاطبه :

إصبرْ لها صبرَ أقوامٍ نفوسُهُم لا تستريحُ إلى عقلٍ ولا قودِ[٣]

فقال الأفشين: من صحب الزمان لم ينج من خيره أو شره ووجد الكرامة والهوان. ثم قال:

لم ينجُ من خيرها أو شرّها أحدٌ فاذكرْ شوائبَها إنْ كنتَ من أحدِ
خاضتْ بك المنية[٤] الحمقاءُ غَمْرَتَها فتلك أمواجُها ترميك بالزَّبدِ

ولعلي بن الجهم[٥] لما حبسه المتوكل:

قالت: حُبِسَت فقالت: ليس بضائِري حبسي وأيُّ مهنّد لا يُغمَدُ؟
أو ما رأيتِ الليثَ يألف غِيلَهُ[٦] كُبْراً وأوباشُ السبّاعِ تَردَّدُ؟
والنارُ في أحجارها مخبوءةٌ لا تُصْطلى[٧] إنْ لم تثْرها الأزْندُ
والبدرُ يدركه الظلامُ فتنجلي أيامُهُ وكأنه متجدِّدُ
والزاعبيّة[٨] لا يقيمُ كعوبَها إلا الثقافُ وَجذوةٌ تتوقّدُ

---

(١) تلف نفسه: أتلف نفسه .
(٢) الأفشين : قائد جيش المعتصم في غزوات بلاد الروم انتصر في وقعة عمورية ، رمي بالكفر ومات في السجن جوعاً .
(٣) عَقْلٍ : من عقل عقلاً القتيل : أدّى ديتهُ وعن فلانٍ أدّى عنه ما لزمه من دية . وله دمَ فلان : ترك القود : أي قتل القاتل بدل القتيل .
(٤) المُنْية: البُغية، ما يتمناه الإنسان.
(٥) علي بن الجهم: شاعر هجا الشيعة والمتوكل فحبس.
(٦) الغيل : موضع الأسد. الكُبر والكِبْر بكسر الباء : الشرف والرفعة .
(٧) اصطلى بالنار: استدفأ بها.
(٨) الزاعبيّة: رماح منسوبة إلى زاعب وهو رجل أو بلد. والثقاف: آلة تثقف بها الرماح.

غِيَـرُ[1] الليـالي بـادئـاتٌ عـوَّدٌ | والمـالُ عـاريـةٌ يُفـادُ وَيَنْفـدُ[2]
لَا يُؤيِسَنَّـكَ مِن تَـفـرُّجِ كُـرْبَـةٍ | خـطبٌ أتاكَ بـه الزمـانُ الأنكـدُ
فلكـلِّ حـالٍ مُعْقِبٌ[3] ولـربمـا | أجلى لـك المكروهُ عمـا تَحْمَدُ
كم من عليـلٍ قـد تَخَـطّاه الـردى | فنجـا ومـات طبيبُـه والعـوّدُ؟
صبـراً فـإنّ اليـومَ يَعقبُـه غـدٌ | ويـدُ الخـلافـةِ لا تُـطاولُهـا يَـدُ
والحبسُ مـا لـم تَغْشَـهُ لِـدنيّـةٍ | شنعـاءَ نعمَ المنـزلُ الـمُتَـوِدِّدُ[4]
لـو لم يكـنْ في الـحبس إلا أنـه | لا يستـذلّك بـالحجاب الأعبـدُ
بيتٌ يـجـدِّدُ للكـريـم كـرامـةً | ويُـزارُ فيه ولا يَـزورُ ويُحمـدُ
أبـلغْ أمـيـرَ الـمـؤمـنيـن ودونَـه | خـوفُ العدى ومخـاوفٌ لا تَنْفُدُ
أنـتمْ بنـو عمِّ الـنبيّ مـحـمـدٍ | أولى بمـا شـرعَ النبيُّ محمـدُ
مـا كـان مِنْ حَسَنٍ فـأنتم أهلُه | كَرُمَتْ مغارُسكمْ وطاب المحْتدُ
أمِنَ السـويّةِ[5] يـا ابنَ عمِّ محمـدٍ | خَصمٌ تـقـرّبـهُ وآخـرُ تُبـعِـدُ
يـا أحـمـدَ بْـنَ أبـي دُؤادٍ إنمـا | تُـدْعى لكـلّ كـريهـةٍ يـا أحمـدُ
إنَّ الـذينَ سَعَـوْا إليـكَ بباطـلٍ | أعـداءُ نعمتِـك التي لَا تُجحـدُ
شهـدوا وغبْنـا عنهمُ فتحـكَّمـوا | فينـا وليس كغـائِبٍ من يشهـدُ[6]
لـو يجمعُ الخصمـاءَ عنـدك منـزلٌ | يـومـاً لبـانَ لكَ الـطريقُ الأرشـدُ

---

(١) الغِيَر: أحداث الدهر.
(٢) فاد فوداً: المال لفلان ثبت والاسم منه: الفائـدة . وأفاد المـال: اقتناه. ونفـد المال: انقطع، أنفق، فنيَ .
(٣) معقب: عقبى، نهاية، آخر.
(٤) تغشه: تدخله . والدنيئة: النقيصة .
(٥) السويّة: العدالة.
(٦) يشهد: يحضر، يعاين.

والشمسُ لــولا أنهــا محجــوبــةٌ　　عن نـاظريْـكَ لما أضـاء الفَرقـدُ[1]

ضـــده

أنشـدنـا عـاصم بن محمـد الكـاتب لنفسـه لمـا حبسـه أحمــد بن عبد العزيز بن أبي دلف، قوله:

قلت: حبستَ فقلتُ خـطبٌ أنكـدُ　　أنحى عليّ به الزمـانُ المُرْصـدُ
لـو كنتُ حراً كـان سَـربي مـطلقاً　　مــا كنت أُحْبسُ عُنْــوةً وأُقَيَّــدُ
لـو كنتُ كـالسيفِ المهنّـدِ لم يكنْ　　وقتَ الكـريهةِ والشـدائدِ يُغمـدُ
لـو كنتُ كالليثِ الهَصُـور لما رعتْ　　فيَّ الـذئـابُ وَجَـذْوتي تَتَـوقّـدُ
منْ قــال إنّ الحبسَ بَيْتُ كــرامــةٍ　　فمُكــاشرٌ[2] في قــولـه متجلّدُ
مــا الحبس إلاَّ بيتُ كـل مهــانــةٍ　　ومــذلــةٍ ومكــارهٍ لا تنـفـدُ؟
إن زارنـي فيــه الـعــدو فشـامـت　　يبــدي التـوجّــعَ تــارةً ويفنّــدُ[3]
أو زارني فيــه المحبّ فمــوجَــعٌ　　يـذري الـدمـوعَ بـزفـرة تتـرددُ
يكفيــك أنَّ الحبسَ بيتٌ لا يُـرى　　أحـدٌ عليه من الخـلائقِ يُحسـدُ
تمضي الليــالـي لا أذوقُ لـرقــدةٍ　　طعماً وكيف يذوق من لا يرقدُ؟
في مُـطْبقٍ فيـه النهــارُ مشــاكـلٌ　　للّيـلِ والظـلمـاتُ فيـه سَـرْمَـدُ[4]
فــإلى متى هــذا الشـقــاء مؤكّـدُ　　وإلى متى هـذا البـلاءُ مجـددُ؟
مـا لي مجيرٌ غيـرَ سيّدِيَ الـذي　　مــا زال يَكْفُلُني فنعـمَ السيّـدُ
غُـذِيَتْ حُشَـاشَـةُ مُهجتي بنـوافِلٍ　　من سَيْبِـهِ وصنـائـعٍ لا تُجْحـدُ[5]

---

(١) الفرقد: النجم الذي يُهتدى به.
(٢) مكاشر: لا معنى لها وأظنها [فمكابر] أي عنيد ، جاحد .
(٣) يفنّد: يلوم.
(٤) المُطْبق: السجن تحت الأرض. وسرمد: دائم.
(٥) النوافل: العطايا، والصنائع: جمع صنيعة: وهي الإحسان .

عشرين حولاً عشتُ تحت جَنَاحِهِ عيشَ الملوكِ وحـالتي تتزيّـدُ
فخـلا العـدوُّ بمـوضعي من قلبِهِ فحشـاهُ جمـراً نـارهُ تتـوقّـدُ
فـاغفرْ لعبـدكَ ذنبَـهُ متـطوّلاً[1] فـالحِقْدُ مِنكَ سجيّةٌ لا تعهُدُ
واذكر خصائص خدمتي ومقاومي[2] أيـامَ كنتَ جميع أمـرِي تَحْمَـدُ

وقال عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم:

خـرجْنا من الـدنيا ونحنُ من أهلها فلسنـا من الأمواتِ فيهـا ولا الأحيا
إذا دخـلَ السجّـانُ يـومـاً لحـاجـةٍ عَجِبْنـا وقلنا جـاء هـذا من الـدنيـا
ونفـرحُ بـالـرؤيا فجُـلُّ حـديثنـا إذا نحن أصْبَحْنا الحديثُ عن الرؤيا
فـإنْ حسُنتْ كـانت بـطيئاً مجيئُهـا إن قَبُحَتْ لم تَنْتَـظِرْ وأتتْ سعيـا

وقال آخر:

ألا أحـدٌ يـدعـو لأهـلِ محلّةٍ مقيمين في الدنيا وقد فارقوا الدنيا؟
كـأنهمْ لم يعـرفـوا غيـرَ دَارهم ولم يعـرفوا غيـرَ الشـدائـدِ والبلْوى

وقال ابن المعتز:

تعلّمتُ في السجنِ نسجَ التكك[3] وكنتُ امـرءًا قبـلَ حبسي مَلَكْ
وقُيّـدتُ بعـد ركـوبِ الـجِيـادِ ومـا ذاك إلاّ بـدوْرِ الـفـلك
ألم تُبْصـرِ الـطيـرَ في جَـوّهـا تكـادُ تـلاصق ذاتَ الـحَبَـك[4]
إذا أبْصَـرْتـه خـطوبُ الـزمـانِ أوْقَعْنَـهُ فـي حبـال الشَّـرك

---

(١) تطوّل تطوّلاً عليه: امتنَّ عليه، تفضّل وأنعم.
(٢) مقاومي: من قاوم قِواماً ومقاومة الشيء: قام مقامه.
(٣) التكك: مفردها تكّة ما يربط به السروال.
(٤) ذات الحُبُك: السماء ذات الطرائق.

فهـذاكَ من حـالقٍ[1] قـد يُصـادُ ومنْ قَعـرِ بحـر يُصـاد السَّمـك

ووجد في البيت الذي قتل فيه مكتوب بخطّه على الأرض:

يـا نفسُ صبراً لعـلَّ الخيرَ عُقبـاكِ خانتْكِ بعد طوال الأمنِ دُنيـاكِ
مـرّتْ بنـا سحـراً طيـرٌ فقلتُ لهـا طـوباكِ يـا ليتني إيـاكِ طـوبـاكِ[2]

وقال أعرابي:

ولمـا دخلتُ الـسجـنَ كبَّـر أهـلُهُ وقـالـوا أبـو ليلى الغـداةَ حـزينُ
وفي البـابِ مكتوبٌ على صَفَحـاتِهِ بـأنّـكَ تنـزو ثم سـوف تلين[3]

وفي الحديث المرفوع أن يوسف عليه السلام شـكا إلى الله تعـالى طـول الحبس فأوحى إليـه أنت حبست نفسك حين قلت: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾[4] ولو قلت: العافية أحب إلي لعوفيت.

قـال: وكتب يوسـف عليـه السلام على بـاب السجن: هـذه منـازل البلوى وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء.

محاسن المودة

قال بعض الحكماء: ليس للإنسان أن ينعم إلا بمودات الإخوان.

وقـال آخر: الازديـاد من الإخوان زيـادة في الآجال وتـوفيـر لحسن الحال.

---

(١) الحالق: الجبل المنيف المرتفع.
(٢) الطّوبى: الغبطة والسعادة، وطوبى لك: أي لك الحظ والعيش الطيب.
(٣) نزا ينزو نزواً الذكر على الأنثى: سندها ويقال ذلك في ذي الحافر والظلف وفي السباع وهي هنا بمعنى: يهيج ويغضب ويحتد ثم يلين.
(٤) سورة يـوسف الآية: ٣٣.

وقيل: عاشروا الناس معاشرة إن عشتم حنّوا إليكم وإن متم بكوا عليكم. وقال الشاعر:

قد يمكثُ الناسُ حيناً ليس بينهمُ ... ودٌّ فيزرَعُه التسليمُ واللُّطَفُ[1]
يُسلي الشقيقينِ طولُ النأيْ[2] بينهما ... وتلتقي شُعَبٌ[3] شتّى فتأْتلِفُ

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لابنه الحسين: ابذل لصديقك كل المودة ولا تطمئن إليه كل الطمأنينة، وأعطه كل المواساة ولا تفش إليه كل الأسرار. وقال العباس بن جرير: المودة تعاطف القلوب وائتلاف الأرواح وأنس النفوس ووحشة الأشخاص عند تنائي اللقاء وظهور السرور بكثرة التزاور وعلى حسب مشاكلة[4] الجواهر يكون الاتفاق في الخصال.

وقال بعضهم: من لم يواخ من الإخوان إلا من لا عيب فيه قلَّ صديقه، ومن لم يرض من صديقه إلا بإيثاره[5] إياه على نفسه دام سخطه، ومن عاتب على غير ذنب كثر عدوه. وكان يقال أعجز الناس من فرّط في طلب الإخوان. وقال الشاعر في مثله:

لَعَمْرُكَ ما مالُ الفتى بذخيرةٍ ... ولكنَّ إخوانَ الثّقاتِ[6] الذخائرُ

---

(١) التسليم: من السلام، إلقاء السلام، التحية. واللُّطف: ج ألطاف: الإحسان والإتحاف، الهدية.
(٢) النأي: البعد.
(٣) شُعَبٌ: ج شعبة وشعاب: الفرقة، الطائفة.
(٤) مشاكلة: يقال في فلانٍ مشاكلة من أبيه، أي شبه والجواهر: ج جوهر المقصود بها هنا ما خلقت عليه الجبلّة.
(٥) الإيثار: تفضيل الغير على النفس.
(٦) الثقات: ج ثقة: من يعتمد عليه ويؤتمن.

ضــــده

قال المأمون: الإخوان ثلاث طبقات: طبقة كالغذاء لا يُستغنى عنه، وطبقة كالدواء يُحتاج إليه، وطبقة كالداء الذي لا يُحتاج إليه. وكتب بعض الكتّاب: إن فلاناً أولاني جميلاً من البِشْر[1] مقروناً بلطيف من الخطاب في بسط وجه ولين كنف[2]، فلما كشفه الامتحان بيسير الحاجة كان كالتابوت المطلي عليه بالذهب المملوء بالعَذِرَةِ[3] أعجبك حسنه ما دام مطبقاً فلما فتح آذاك نتنه فلا أبعد الله غيره. ومما قيل في ذلك:

واللَّهِ لو كرهتْ كفي منادمتي ... لقلت للكفِّ بيني[4] إذْ كرهتِني

وقال آخر:

ولوْ أني تخالفُني شِمالي ... لما أتْبعتُها أبداً يميني
إذاً لقطعتُها ولقلتُ بيني ... كذلك أجتوي من يجتويني[5]

وقال آخر:

مَنْ لم يُرِدْكَ فلا تُرِدهُ ... ليكن كمن لم ستفدهُ
باعدْ أخَاك ببعده ... فإذا نأى شبراً فزدهُ[6]

وقال آخر:

تَودُّ عدوي ثم تزعُمُ أنني ... أَوَدُّكَ إنَّ الرأيَ منكَ لعازبُ[7]

---

(١) البِشْر: طلاقة الوجه، البشاشة.
(٢) الكنف: الجانب، الحضن، يقال: أنت في كنف الله أي في حرزه ورحمته.
(٣) العَذِرة: الغائط.
(٤) بيني: من بان بيناً وبيوناً وبنونة عنه: انقطع عنه وفارقه.
(٥) اجتوى: كره، أبغض.
(٦) هذا البيت ورد في المحاسن والمساوىء للبيهقي ص ٦٣١، على الوجه التالي:
باعد أخاك إذا نأى، ... وإذا دنا شبراً فزده
(٧) عازب: بعيد ليس له سند.

وليس أخي من ودّني رأيَ عيْنِهِ[1] ... ولكنْ أخي من ودّني وهْوَ غائبُ

وقال آخر:

إن اختيارَك لا عنْ خبرةٍ سلفتْ ... إلا الرجاءَ ومما يخطىء النظرُ
كالمستغيثِ ببطن السيل يحسبه ... حرزاً يبادرهُ إذا بلّه المطرُ[2]

وقال آخر:

وصاحبٍ كان لي وكنتُ لهُ ... أشْفقَ من والد على ولدِ
وكان لي مؤْنساً وكنتُ له ... ليستْ بنا وحشة[3] إلى أحدِ
كنا كساقٍ مشتْ بها قدمٌ ... أو كذراع نِيطتْ[4] إلى عضُدِ
حتى إذا أمْكَنَ الحوادثُ من ... حظّي وحلّ الزمانُ من عُقَدي
إزورَّ عني[5] وكان ينظرُ منْ ... عيني ويرمي عن ساعدي ويدي
حتى إذا استرفدَتْ يدي يدَه ... كنتُ كمسترفدٍ يدَ الأسدِ[6]

وقال آخر:

فيا عجباً لِمن ربّيتُ طِفلاً ... أُلقّمُهُ بأطرافِ البَنانِ[7]
أعلّمهُ الرّمايةَ كلَّ يومٍ ... فلما اشتدَّ ساعدُه رماني

---

(١) رأي عينه: أظهر لي المودة في حضوري.

(٢) يقول: إن اختيارك الصديق دون اختبار سابق معتمداً على الأمل والظن بصلاحه كمن يستنجد بالماء من الماء.

وحشة: وردت [حاجة] في المحاسن والمساوىء ص ٦٣٢.

(٤) نيطت: ناط ينوط نوطاً ونياطاً، علّقه يقال: نيط عليه الشيء أي عُلّق عليه.

(٥) ازورَّ عنه: عدل وانحرف.

(٦) استرفد: طلب المعونة والعطاء والدعم.

(٧) البنان: الأصابع أو أطرافها.

أعلّمه الفُتوَّةَ كلَّ حين فلما طرّ شارِبُه[1] جفاني
أعلّمه الروايةَ كلَّ وقتٍ فلما صارَ شاعرها هجاني

محاسن الوِلايات

سئل عمار بن ياسر رضي الله عنه عن الوِلاية[2] فقال: هي حلوة الرضاع مرّة الفطام.

وذكروا أنه كان سبب عزل الحجاج بن يوسف عن المدينة، وقد وفد من أهل المدينة منهم عيسى بن طلحة بن عبيد الله على عبد الملك بن مروان فأثنوا على الحجاج وعيسى ساكت فلما قاموا ثبت[3] عيسى حتى خلا له وجه عبد الملك فقام فجلس بين يديه فقال: يا أمير المؤمنين من أنا؟ قال: عيسى بن طلحة بن عبيد الله، قال: فمن أنت؟ قال: عبد الملك بن مروان، قال: أفجهلتنا أو تغيرت بعدنا؟ قال: وما ذاك؟ قال: وليت علينا الحجاج بن يوسف يسير بالباطل ويحملنا على أن نثني عليه بغير الحق. والله لئن أعدته علينا لنعصينك وإن قاتلتنا وغلبتنا وأسأت إلينا قطعت أرحامنا ولئن قوينا عليك لنغصبنك، فقال له عبد الملك: انصرف والزم بيتك ولا تذكرنَّ من هذا شيئاً، قال: فقام إلى منزله. وأصبح الحجاج غادياً إلى عيسى بن طلحة فقال: جزاك الله عن خلوتك بأمير المؤمنين خيراً فقد أبدلني بكم خيراً وأبدلكم بي غيري وولاّني العراق. وعن معمّر بن وهيب قال: كان عبد الملك عندما استعفى[4] أهل العراق من الحجاج قال لهم: اختاروا أي هذين شئتم ـ يعني أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله بن عبد الملك ـ مكان الحجاج، فكتب إليه الحجاج يا أمير المؤمنين إن أهل

(١) طر شاربه: نبت شعر شاربه.
(٢) الولاية جمع ولايات: البلاد التي يحكمها الوالي المُعَيَّن من قبل الخليفة أو الحاكم.
(٣) ثبت عيسى حتى خلا له وجه عبد الملك: أي بقي جالساً حتى تفرَّغ له عبد الملك.
(٤) الاستعفاء: طلبك ممن يكلفك بأمر أن يعفيك منه ويرجع عن تكليفه.

العراق استعفوا عثمان بن عفان من سعيد بن العاص فأعفاهم منه فساروا إليه من قابل[1] وقتلوه.. فقال: صدق ورب الكعبة وكتب إلى محمد وعبد الله بالسمع والطاعة له.

ضده

كتب عبد الصمد بن المعذل إلى صديق له وُلِّيَ النفاطات فأظهر تيهاً:

لَعَمْري لقد أظهرتَ تيهاً[2] كأنما ... تولَّيتَ للفضل بنْ مروانَ عكبرا[3]

دع الكِبْرَ واستبْقِ التواضعَ إنه ... قبيحٌ بوالي النِّفطِ أن يتغيّرا[4]

لِحفظِ عيون النِّفط أحدثْتَ نَخوةً ... فكيفَ به لو كان مِسكاً وعنبرا

وقال ابن المعتز[5]:

كم تائهٍ بولايةٍ ... وبعزله يعدو البريدْ

سُكْرُ الولايةِ طيِّبٌ ... وخُماره[6]، صعبٌ شديد

---

(١) قابل: اسم للعام الذي بعد العام الحاضر.

(٢) التيه: الصلف والكِبْر.

(٣) عكبرا: العكبر شيء تجيء به النحل على أفخاذها وأعضادها فتجعله في الشهد مكان العسل وهذا لا ينسجم مع المعنى، وقد ورد في المحاسن والمساوىء ص ١٩٨:
«توليتَ للفضل بْنِ مروانَ مِنْبرا».

(٤) يتغيَّر: وردت في المحاسن والمساوىء ص ١٩٨.
«قبيح بوالي النِّفط أنْ يتكبَّرا».
وهذا أصح لقوله في مطلع البيت: دع الكِبْر واستبق التواضع...
والنِّفط: دهن معدني سريع الاحتراق توقد به النار ويستعمل لأغراض شتَّى.

(٥) ابن المعتز: هو عبد الله بن المعتز انصرف إلى الدراسات الأدبية فكان من أهم شعراء العصر العباسي بساطةً وسلاسةً في التعبير لقِّب بالمرتضي بالله، ويقول السيوطي في تاريخ الخلفاء ص ٢٥٢ إنه لُقِّبَ: الغالب بالله ولم يتمتع بالخلافة إلا يوماً وليلةً.

(٦) الخُمار: صداع الخمر.

وقال لبيد:

لا تفرحنَّ فكلُّ والٍ يُعزلُ ... وكما عُزلتَ فعن قريبٍ تقتلُ
وكذا الزمانُ بما يسرُّكَ تارةً ... وبما يسوءك تارةً يتنقَّلُ

محاسن الصحبة

قيل: قال علقمة بن ليث لابنه: يا بني إن نازعتك نفسك إلى الرجال يوماً لحاجتك إليهم فاصحب من إن صحبته زانك وإن تخففت له صانك وإن قلت صدق قولك وإن صلت شدد صولك[١]، اصحب من إذا مددت إليه يدك لفضل مدها وإن رأى منك حسنة عدها وإن بدت منك ثُلمة[٢] سدها، واصحب من لا تأتيك منه البوائق ولا تختلف عليك منه الطرائق[٣] ولا يخذلك عند الحقائق.

وقال آخر: اصحب من خوّلك نفسه وملكك خدمته وتخيرك لزمانه فقد وجب عليك حقه وذمامه[٤].

وكان يقال: من قبل صلتك فقد باعك مروءته وأذل لقدرك عزه.

وقال بعضهم لصاحبه: أنا أطوع لك من اليد وأذل من النعل.

وقال بعضهم: إذا رأيت كلباً ترك صاحبه وتبعك فارجمه فإنه تاركك كما ترك صاحبه. وقال ابن أبي داود لرجل انقطع إلى محمد بن عبد الملك الزيات: ما خبرك مع صاحبكَ؟ فقال: لا يقصر في الإحسان إلي. فقال: يا هذا إن لسان حالك يكذب لسان مقالك.

---

(١) صال صوْلاً و صولةً: وثب، جال.
(٢) الثِّلمة في الحائط ونحوه: الخلل، ومحل الكسر من المكسور، العيب والنقص.
(٣) الطرائق: السيرة، والبوائق ج بائقة: الشر.
(٤) الذمام: الحرمة، الحق والذمة: العهد.

ضـــده

قيـل: كـان يـوسف بن عمـر الثقفي[1] يتـولى العـراقين لهشـام بن عبـد الملك وكـان مـذمـومـاً في عمله فخبـرني المـدائني[2] قـال: وزن يـوسف بن عمر درهمـاً فنقص حبـة فكتب إلى دور الضـرب[3] بـالعـراق بضرب أهلها مائة. قيـل: وخطب في مسجد الكوفة فتكلم إنسان مجنون فقال: يا أهل الكوفة ألم أنهكم أن تدخلوا مساجدكم المجانين، اضربـوا عنقه . فضربت عنقه .

قال: وقال لكاتبه وقد احتبس عن ديوانـه يومـاً: ما حبسـك؟ قال: اشتكيت ضرسي، قال: تشتكي ضرسك وتقعد عن الديوان؟ ودعا الحجام وأمره أن يقلع ضرسين من أضراسه. وعن المـدائني قال: حـدثني رضيع كان ليوسف بن عمر من بني عبس قال: كنت لا أحجب عنه وعن خدمتـه فدعا ذات يوم بجوارٍ له ثلاث ودعا بخصي له يقال له حـديج فقـرب إليه واحـدة فقال لهـا: إني أريد الشخـوص[4] أفأخلِّفُـكِ أو أشخصك معي؟ فقـالت: صحبة الأميـر أحب إليَّ ولكني أحسب أنَّ مقامي وتخلُّفي أعفى وأخف على قلبه. فقال: أحببت التخلف للفجور! يا حديج اضرب فضربهـا حتى أوجعها، ثم أمره أن يأتيه بالثانية وقد رأت ما لقيت صاحبتها فقال لها: إني أريد الشخوص أفأُخلِّفُكِ أم أخْرِجُكِ؟ فقالت: ما أعدل بصحبة الأمير

---

(١) يوسف بن عمر الثقفي: من أقارب الحجاج تـولّى الحكم في اليمن والعراق وأقـام في الحيرة، سجن بعد مقتل الوليد ثم قتل.

(٢) المدائني: هو علي المدائني نسبةً إلى مدائن العراق، مؤرخ وأديب عنه أخذ البلاذري والطبري.

(٣) ضرب الدرهم : سبكه وطبعه .

(٤) الشخوص: السفر.

شيئاً بل تخرجني قال: أحببت الجماع ما تريدين أن يفوتك ليلة! يا حديج اضرب فضربها حتى أوجعها، ثم أمره أن يأتيه بالثالثة وقد رأت ما لقيت المتقدمتان فقال لها: إني أريد الشخوص أفأخلفك أم أخرجك؟ قالت: الأمير أعلم لينظر أخف الأمرين عليه فليفعله قال: اختاري لنفسك قالت: ما عندي اختيار فليختر الأمير. قال: قد فرغت من كل عمل فلم يبقَ لي إلاَّ أن أختار لك، أوجعها يا حديج فضربها حتى أوجعها. قال الرجل: فكأنما أوجعني من شدة غيظي عليه فولّت الجارية فتبعها الخادم فلما بعدت قالت: الخيرة والله في فراقك ما تَقرُّ عينُ أحدٍ بصحبتك، فلم يفعم يوسف كلامها فقال: ما تقول يا حديج؟ قال: قالت: كذا وكذا، فقال: يا ابن الخبيثة من أمرك أن تُعلِمَني؟ يا غلام خُذِ السوط من يده فأوجع رأسه فما زال يضربه حتى اشتفى فتعرف[1] من الغلام الآخر كم ضربت؟ قال: لا أدري قال: يا عدو الله أتخرج حاصلي من بيت مالي من غير حساب؟ اقتلوه فقتلوه.

محاسن التطير

عن عكرمة قال: كنا جلوساً عند ابن العباس وابن عمر فطار غراب يصيح فقال رجل من القوم: خير خير، فقال ابن العباس: لا خير ولا شر والذي حضرنا من الشعر في مثله لأبي الشيص[2]:

ما فرّق الأحبابَ   بعد اللَّهِ إلا الإبِلُ
والناسَ يَلْحونَ[3] غُرا   بَ البيْنِ لمَّا جهلوا

---

(١) تعرَّف الشيء: تَطَلَّبه حتى عرفه، الضالَّة طلبها.
(٢) أبو الشيص: هو الشاعر محمد بن عبد الله بن رزين وابن عم دعبل بن علي.
(٣) يلحون: من لحى يلحي: لام، عاب.

ومــا عــلى ظهــرِ غُــرا ... ب البَيْنِ تُـطْوى الرِّحَلُ[1]
ولا إذا صــاحَ غُــرا ... بٌ في الــديـار ارتحلوا
ومــا غــرابُ البيــن! ... لا نــاقَــة أوجـمــلُ

وقال آخر:

أتــرحــلُ عمَّنْ أنتَ صبٌّ بـمثْلِهِ ... وتلحي غراب البين؟ إنك تَظْلِمُ
أقِمْ فغــرابُ البَيْـنِ غيــرُ مـفــرّقٍ ... ولا يأْتلي إلّا على الفصل يَحكُمُ[2]

وقال آخر:

غَلَط الــذينَ رأيتُهُـمْ بجـهــالــة ... يَلْحَــون كلُّهُمُ غُــرابــاً يَنْـعقُ
مــا الـذنبُ إلا للجِمــال فـإنهــا ... ممــا يشتت شـملَهـم ويُفـرّقُ
إن الغــرابَ بيمنه يـدني النوى ... وتشتِّتُ الشمـلَ الجميـعَ الأَيْنَقُ[3]

وقال آخر:

لا يعلم المــرءُ ليـلاً مــا يصبّحـه ... إلا كــواذبُ مما يُخبِـرُ الفـالُ
والفـالُ والـزجـرُ[4] والكهـانُ كُلُّهُمُ ... مـضللونَ ودون الـغيـبِ أقفــالُ

ضــده

حكي عن النعمان بن المنذر، أنه خرج متصيداً ومعه عدي بن زيد

(١) الرحل: ج رحـال، ما يُجعـل على ظهر البعيـر كالسَّرج. ورُحلة: الجهة التي يقصـدها المسافر.

(٢) ولا يأتلي إلا على الفصل يحكم، ورد هذا العجز في المحاسن والمساوىء ص ٣٨١، «ولا نـازل إلاّ على أفضـل الحكم» والعجـز الـذي قبله: وتلحي غـراب البين أنتَ ذو ظلْمِ. يقـول: إن الغراب مخلوق ينزل عند إرادة الله ومشيئته ليس له من الأمر شيء.

(٣) الأَيْنَقُ: ج ناقة.

(٤) الفأل: ضد التشاؤم والتطيُّر. والزَّجْر: التكهن والعيافة.

العِبادي فمر بآرام ـ وهي القبور ـ فقال عدي: أبيت اللعن أتدري ما تقول هذه الآرام؟ قال: لا، قال: إنها تقول:

أيُّها الـرَّكْبُ المُخِفُّـو نَ[1] على الأرض تمرونْ
لـكمـا كـنـتـمْ فـكـنـا وكمـا كنّـا تكـونـون

فقال: أعد فأعادها فترك صيده ورجع كئيباً. وخرج معه مرة أخرى فوقف على آرام بظهر الحيرة فقال عدي: أبيت اللعن أتدري ما تقول هذه الأرام؟ قال: لا، قال: إنها تقول:

ربَّ ركبٍ قـد أنـاخـوا عنـدنـا يشـربـون الخمـرَ بـالمـاء الـزلالْ
ثم أضحَـوْا عصفَ الـدهـرُ بـهمْ وكـذاك الـدهـرُ حـالاً بعـد حـالْ

فانصرف وترك صيده. قال: ولما خرج خالد بن الوليد إلى أهل الردة انتهى إلى حي من بني تغلب فأغار عليهم وقتلهم، وكان رجل منهم جالساً على شرب له وهو يغني بهذا البيت:

ألا علّلاني قبـل جيش أبي بكـرِ لعـل منـايـانـا قـريبٌ ومـا نـدري

فـوقف عليه رجـل من أصحاب خـالد فضـرب عنقه فـإذا رأسه في الجفنة[2] التي كان يشرب منها. وهذا كقولهم:

* إن البلاء موكل بالمنطق *

محاسن الوفاء

قيل في المثل: «أوفى مِن فُكَيْهَـة» وهي امرأة من بني قيس بن ثعلبـة كـان من وفائهـا أن السُّلَيْكَ بن سَلَكـة غـزا بكـر بن وائـل فلم يجـد غفلة

(١) المخفون: المسرعون.
(٢) الجفنة، ج جفان، وجفنات: القصعة، والبلاء موكل بالمنطق: قول لأبي بكر رضي الله عنه.

يلتمسها، فخرج جماعة من بكر فوجدوا أثر قدم على الماء فقالوا: إن هذا لأثرُ قدمٍ ترد الماء فقعدوا له فلما وافى حملوا عليه فعدا[1] حتى ولج قبة فكيهة فاستجار بها فأدخلته تحت درعها فانتزعوا خمارها[2] فنادت إخوتها فجاءوا عشرة فمنعوهم منها.

قال: وكان سليك يقول: كأني أجد خشونة شراستها على ظهري حين أدخلتني تحت درعها. وقال:

لَعَمْرُ أبيك والأنباءُ تَنْمي[3] لنعمَ الجارُ أختُ بني عِوارا
من الخَفِرَاتِ[4] لم تفضحْ أخاها ولم ترفعْ لوالدها شَنارا
عَنَيْتُ به فكيهَةَ حين قامتْ لنصل السيف فانتزعوا الخِمارا

ويقال أيضاً: «هو أوفى من أم جميل» وهي من رهط ابن أبي بردة من دوس وكان من وفائها أن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي قتل رجلاً من الأزد فبلغ ذلك قومه بالسراة فوثبوا على ضرار بن الخطاب الفهري ليقتلوه فعدا حتى دخل بيت أم جميل وعاذ بها، فقامت في وجوههم ودعت قومها فمنعوه لها. فلما ولي عمر بن الخطاب علمت أنه أخوه فأتته بالمدينة فلما انتسبت له عرف القصة فقال: إني لست بأخيه إلا في الإسلام وهو غاز وقد عرفنا منّتك عليه وأعطاها على أنها ابنة سبيل.

ويقال: «أوفى من السموأل بن عاديا» وكان من وفائه أن امرأ القيس بن حُجْر لما أراد الخروج إلى قيصر استودع السموأل دروعاً له فلما

---

(١) وافى: أتى. وعدا: ركض.

(٢) الخِمار: ما تغطي المرأة به رأسها، الستر عموماً.

(٣) نمى ينمي نمياً ونماءً المال وغيره: زاد وكثر.

(٤) الخفرات: ج خفرة: الفتيات ذوات الحياء الشديد. والشنار: العيب، العار.

مـات امرؤ القيس غـزاه ملك من ملوك الشام فتحـرّز من السموأل فـأخـذ الملك ابناً له خارج الحصن وصاح به يا سمـوأل! هذا ابنـك في يدي وقـد علمت أن امرأ القس ابن عمي وأنا أحق بميراثه فإن دفعت إلي الدروع وإلا ذبحت ابنك فقال: أجلني فأجله فجمع أهل بيته فكلمهم فـأشاروا بـدفع الدروع وأن يستنقذ ابنه فلما أصبح أشرف عليه، وقال: ليس لي إلى دفع الدروع سبيل فاصنع ما أنت صانع. فذبـح الملك ابنه وهـو ينظر إليه. وكان يهودياً، وانصرف الملك ووافى السموأل بالدروع الموسم فدفعها إلى ورثة امرىء القيس. وقال في ذلك:

وفـيـتُ بـأدْرُع الـكِـنْـديّ إنـي ... إذا مـا خـانَ أقـوامٌ وَفَـيْـتُ

وقـالـوا عـنـده كَـنَـز رغـيـب ... فـلا وأبيك أغْـدُرُ مـا مَشيْتُ

بنى لي عـاديـاً حِصْنـاً حصيـنـاً ... وبئـراً كـلـمـا شئتُ استقـيـتُ

وفي ذلك يقول الأعشى[1]:

كنْ كالسموألِ إذ طـاف الهُمامُ بـه ... في جحفـلٍ كسَوادِ الليـل جرّارِ

بـالأبْلقِ الفـردِ من تيمـاءَ منـزلُـه ... حِصْنٌ حصينٌ وجـارٌ غيرُ غـدّارَ

خيَّـره خُـطّتَيْ خَسْفٍ فقـال لـه: ... مهمـا تقولنْ فـإني سـامعٌ حـار[2]

فقـال: ثكـلٌ وغـدرٌ أنتَ بينهمـا ... فـاخترْ فمـا فيهمـا حظٌّ لمختـار

فشـكَّ غيـرَ طـويـلٍ ثم قـال لـه: ... أقتـل أسيرَك إني مـانـعٌ جـاري

ويقـال: «أوفى من الحارث بن عبـاد» وكان من وفـائـه أنـه أسـر عدي بن ربيعة ولم يعرفه فقال له: دلّني على عدي بن ربيعة ولك الأمان

---

(١) وردت ترجمته في الصفحة ٣٢.

(٢) حار: لا معنى لها وينبغي أن تكون داري. من درى دريا ودرايـة بالشيء: تـوصل إلى علمه.

فقال : أنا آمن إن دللتك عليه ، قال : نعم . قال : فأنا عدي بن ربيعة فخلاه . وفي ذلك يقول الشاعر :

لَهْفَ نفسي على عديٍّ وقد شا رفه الموتُ وآحتوتْه المنونُ

ويقال: «هو أوفى من عوف بن محلم» وكان من وفائه أن مروان القرظ غزا بكر بن وائل ففضوا[1] جيشه وأسره رجل منهم وهو لا يعرفه فأتى به أمه فقالت: إنك تختال بأسيرك كأنك جئت بمروان القرظ فقال: مروان وما ترجين من مروان قالت: عظم فدائه قال: وكم ترجين من فدائه؟ قالت: مائة بعير، قال: لك ذلك على أن ترديني إلى جماعة بنت عوف فاستجار بجماعة ابنته فبعثت به إلى عوف، ثم إن عمرو بن هند بعث إلى عوف أن يأتيه بمروان وكان واجداً[2] عليه في شيء فقال عوف لرسوله: إن جماعة ابنتي قد أجارته، فقال: إن الملك قد آلى[3] أن يعفو عنه أو يضع كفه في كفه، فقال عوف: يفعل ذلك على أن تكون كفي بين أيديهما، فأجابه عمرو إلى ذلك، فجاء عوف بمروان فأدخله عليه فوضع يده في يده ووضع يده بين أيديهما فعفا عنه .

ومنهم الطائي صاحب النعمان بن المنذر، وكان من وفائه أن النعمان ركب في يوم بؤسه وكان له يومان يوم بؤس ويوم نعيم لم يلقه أحد في يوم بؤسه إلّا قتله ولا في يوم نعيمه إلا أحياه وحيّاه، فاستقبله في يوم بؤسه أعرابي من طيىء فقال: حيَّا اللَّهَ الملكَ إن لي صبية صغاراً لم أوص بهم أحداً، فإن رأى الملك أن يأذن لي في إتيانهم وأعطيه عهد الله أن أرجع إليه إذا أوصيت بهم حتى أضع يدي في يده . فرقَّ له النعمان ، وقال له :

---

(١) فضوا جيشه : أي فرَّقوهُ وهزموه .

(٢) واجداً عليه : من وجد يجد وجداً وموجدة : غضب عليه .

(٣) آلى : حلف، عزم .

لا ، إلاّ أن يضمنك رجل ممن معنا فإن لم تأتِ قتلناه ، وكان مع النعمان شريك بن عمرو بن شراحيل فنظر إليه الطائي وقال :

يا شريكَ بْنِ عَمْرٍو هل مِنَ الموتِ مَحالَهْ ؟[1]
يا أخا كلِّ مُضافٍ يا أخا مَنْ لا أخا له
يا أخا النعمانِ فُكَّ اليومَ عن شيخٍ غِلالَه[2]
ابن شيبان قبيل أصلح اللّه فعاله

فقال شريك: هو عليَّ أصلح الله الملك، فمضى الطائي وأجل له أجلًا يأتي فيه فلما كان ذلك اليوم أحضر النعمان شريكاً وجعل يقول له: إنَّ صدْرَ هذا اليوم قد ولّى، وشريك يقول: ليس لك عليَّ سبيل حتى نمسي، فلما أمسوا أقبل شخص والنعمان ينظر إلى شريك. فقال: ليس لك عليَّ سبيل حتى يدنو الشخص فلعله صاحبي، فبينما هما كذلك إذ أقبل الطائي فقال النعمان: والله ما رأيت أكرم منكما وما أدري أيكما أكرم أهذا الذي ضمنك من الموت أم أنت وقد رجعت إلى القتل؟ والله لا أكون ألأم الثلاثة فأطلقه وأمر برفع يوم بؤسه، وأنشد الطائي :

ولقد دعتني للخلاف عشيرتي فأبيتُ عند تجهم الأقوال[3]
إني امرُؤٌ مني الوفاءُ خليقةٌ وفِعالُ كلِّ مهذبٍ بَذّالُ[4]

---

(١) محالة: يقال: لا مَحالة من الأمر: أي لا بدَّ ولا ريب. وقد ورد صدر البيت في المحاسن والمساوىء ص ١٣٩ «يا شريكُ يا ابن عمرٍو». كما وردت كلمة (مضام) بدلاً من (مضاف) في البيت الثاني.

(٢) غلاله: الغل ج أغلال وغلول: طوق من حديد يجعل في اليد والعنق.

(٣) تجهم الأقوال : يقصد به تهديد النعمان بقتله والخلاف : أي المخالفة ، يريد أن يقول : طلبت عشيرته منه أن يخلف بوعده فلا يعود للموت فأبى .

(٤) البذّال: المعطاء.

فقال النعمان: ما حملك على الوفاء؟ قال: ديني. قال: وما دينك؟ قال: النصرانية، قال: أعرضها علي فعرضها عليه فتنصّر النعمان.

ضــــده

قيل: كتب صاحب بريد همذان إلى المأمون وهو بخراسان يعلمه أن كاتب صاحب البريد المعزول أخبره أن صاحبه وصاحب الخراج كانا تواطآ[1] على إخراج مائتي ألف درهم من بيت المال واقتسماها بينهما. فوقّع المأمون: إنا نرى قبول السعاية[2] شراً من السعاية لأن السعاية دلالة والقبول إجازة وليس من ذل على شيء كمن قبله وأجازه. فأنف الساعي عند ذلك وقال: يا أمير المؤمنين رضي الله عنك المعذرة فإن الساعي وإن كان في سعايته صادقاً لقد كان في صدقه لئيماً إذ لم يحفظ الحرمة ولم يفِ لصاحبه.

قال: ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين عندي نصيحة قال: وما نصيحتك هذه؟ قال: فلان كان عاملاً ليزيد بن معاوية وعبد الملك والوليد فخانهم فيها تولاه ثم اقتطع أموالاً كثيرة جليلة فمرْ باستخراجها منه، قال: أنت شرٌّ منه وأخونُ حيثُ اطَّلعتَ على أمره وأظهرتَه ولولا أني أنفرُ النصّاح لعاقبتُكَ ولكنْ اخترْ مني خصلةً من ثلاث، قال: إِعرضهن يا أمير المؤمنين، قال: إن شئتَ فتّشنا عما ذكرتَ فإن كنتَ صادقاً مَقَتْناك[3] وإن كنتَ كاذباً عاقبناك وإن استقلت أقلناك، فاستقاله الرجل.

---

(١) تواطآ: اتفقا.

(٢) السعاية: النميمة والوشاية.

(٣) مقتناك: أبغضناك، أقاله: فسخه، عزله من وظيفته أو عمله، واستقاله: طلب إليه أن يقيله.

محاسن السخاء

روي عن نافع قال: لقي يحيى بن زكريا عليه السلام إبليس لعنه الله فقال له: أخبرني بأحب الناس إليك وأبغضهم إليك. قال: أحبهم إلي كل مؤمن بخيل، وأبغضهم إلي كل منافق سخي. قال: ولمَ ذلك؟ قال: لأن «السخاء خلق الله الأعظم[1]» فأخشى أن يطلع عليه في بعض سخائه فيغفر له، وقال النبي ﷺ: «السخي قريب من الله قريب من الناس بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة قريب من النار، والجاهل سخي أحب إلى الله عز وجل من عابد بخيل وأدوأ الداء البخل»[2].

وقال ﷺ: «ما أشرقت شمس إلا ومعها ملكان يناديان يسمعان الخلائق غير الجن والإنس، وهما الثقلان، اللهمَّ عجل لمنفق خلفاً ولممسك تلفاً؛ وملكان يناديان أيها الناس: هلموا إلى ربكم فإن ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى»[3].

---

(١) الحديث: «السخاء خلق الله الأعظم» أخرجه الطبراني في الكبير (الجامع الصغير: جـ ٢، ص ٦٧) حديث حسن.

(٢) الحديث: «السخي قريب من الله»: أخرجه الترمذي عن أبي هريرة، والبيهقي عن جابر والطبراني عن عائشة (الجامع الصغير جـ ٢، ص ٦٧) حديث ضعيف ولم يذكر فيه (وأدوى الداء البخل) وإنما ورد في العقد الفريد جـ ١، ص ١١٣ بلفظ: «وأي داء أدوأ من البخل؟».

(٣) هذا الحديث ورد بروايات مختلفة فقد رواه أبو هريرة وأخرجه البخاري ومسلم كما أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد، ولفظه في إحدى رواياته: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم طلعت شمسه إلّا وبجنبيها ملكان يناديان نداءً يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين (الإنس والجن) يا أيها الناس هلموا إلى ربكم، إن ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى؛ ولا آبت الشمس إلّا وبجنبيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين، اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً» (أنظر الترغيب والترهيب للمنذري: جـ ٢، ص ٤٨ و ٤٩).

وعن الشعبي قال: قالت أم البنين ابنة عبد العزيز أخت عمر بن عبد العزيز وكانت تحت الوليد بن عبد الملك: «لو كان البخل قميصاً ما لبسته أو طريقاً ما سلكتها». وكانت تعتق في كل يوم رقبة وتحمل على فرس في سبيل الله وكانت تقول: البخل كل البخل من بخل على نفسه بالجنة.

وقيل: أعتقت هند بنت عبد المطلب في يوم واحد أربعين رقبة.

وقال بعض الحكماء: ثواب الجود خلف ومحبة ومكافأة، وثواب البخل حرمان وإتلاف ومذمة.

وقال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «يا عليُّ كن شجاعاً فإن الله يحب الشجاع وكن سخياً فإن الله يحب السخي وكن غيوراً فإن الله يحب الغيور. يا علي وإن إنسان سألك حاجة ليس لها بأهل فكن أنت أهلاً لها».

وقال النبي ﷺ: «السخاء شجرة في الجنة من أخذ منها بغصن مدّ به إلى الجنة»[1].

وقال عبد العزيز بن مروان: لو لم يدخل على البخلاء في لؤمهم إلا سوء ظنهم بالله عز وجل لكان عظيماً.

وقال ﷺ: «تجافوا عن ذنب السخي فإن الله أخذ بيده كلما عثر»[2].

---

(١) الحديث عن ابن مسعود أخرجه الطبراني وأبو نعيم والبيهقي: بلفظ: «السخاء شجرة في الجنة من أخذ منها بغصنٍ قاده ذلك الغصن إلى الجنة» (الجامع الصغير: جـ ١، ص ٤٥٨).

(٢) الحديث عن ابن مسعود أخرجه كل من الدارقطني والطبراني وأبي نعيم والبيهقي (حديث ضعيف) (الجامع الصغير للسيوطي جـ ١، ص ٤٩٨).

وقال بهرام جور: من أحب أن يعرف فضل الجود على سائر الأشياء فلينظر إلى ما جاد الله به على الخلق من المواهب الجليلة والرغائب النفيسة والنسيم والريح كما وعدهم الله في الجنان فإنه لولا رضاه الجود لم يصطفه لنفسه.

وقال الموبذان لأبرويز[1]: أكنتم تمنون أنتم وآباؤكم بالمعروف وتترصدون عليه المكافأة؟ قال: لا ولا نستحسن ذلك لخولنا وعبيدنا فكيف نرى ذلك وفي كتاب ديننا من فعل معروفاً خفياً وأظهره ليتطول به على المنعم عليه فقد نبذ الدين وراء ظهره واستوجب ألاَّ نعده من الأبرار ولا نذكره في الأتقياء والصالحين.

قيل: وسئل الإسكندر[2] ما أكبر ما شيّدت به ملكك؟ قال: ابتداري إلى اصطناع الرجال والإحسان إليهم.

قال: وكتب ارسطاطاليس[3] في رسالته إلى الإسكندر: واعلم أن الأيام تأتي على كل شيء فتخلقه وتخلق آثاره[4] وتميت الأفعال إلا ما رسخ في قلوب الناس فأودع قلوبهم محبةً آبدةً[5] تبقي بها حسن ذكرك وكريم فعالك وشرف آثارك .

قال: ولما قدم بزرجمهر إلى القتل قيل له: إنك في آخر وقت من أوقات الدنيا وأوّل وقت من أوقات الآخرة فتكلم بكلام تذكر به. فقال: أي

(١) الموبذان: فقيه الفرس، وحاكم المجوس. وأبرويز: ملك من ملوك الفرس.

(٢) الإسكندر: الإسكندر الكبير (ذو القرنين) تولّى الحكم في مكدونيا حارب الفرس فهزمهم في آسيا الصغرى ثم في سواحل صور ثم في مصر فأسس الإسكندرية .

(٣) أرسطوطاليس: مؤدب الإسكندر، فيلسوف يوناني من كبار مفكري البشرية مؤسس مذهب فلسفة المشّائين ألف في المنطق والطبيعيات والإلّهيات .

(٤) تخلقه : تبليه ولا تترك له أثراً .

(٥) آبدة : خالدة .

شيء أقول؟ الكلام كثير، ولكن إن أمكنك أن تكون حديثاً حسناً فافعل.

قيل: وتنازع رجلان أحدهما من أبناء العجم والآخر أعرابي في الضيافة فقال الأعرابي: نحن أقرى للضيف، قال: وكيف ذلك؟ قال: لأن أحدنا ربما لا يملك إلا بعيراً فإذا حلّ به ضيف نحره له. فقال له الأعجمي: فنحن أحسن مذهباً في القرى منكم، قال: وما ذاك؟ قال: نحن نسمّي الضيف «مهمان» ومعناه أنه أكبر من في المنزل وأملكنا به.

وقال بعض الحكماء: بلغ الجود من قام بالمجهود. وقيل: الجواد من لم يضن[1] بالموجود. وقال المأمون: الجود بذل الموجود والبخل سوء الظن بالمعبود. قيل: وشكا رجل إلى إياس بن معاوية[2] كثرة ما يهب ويصل الناس وينفق. قال: إن النفقة داعية الرزق، وكان جالساً على باب فقال لرجل: أغلق هذا الباب، فأغلقه فقال: هل تدخل فيه الريح؟ قال: لا. قال: فافتحه ففتحه فجعلت الريح تخترق في البيت فقال: هكذا الرزق أغلقتَ فلم تدخل الريح فكذلك إذا أمسكتَ لم يأتك الرزق.

قيل: ووصل المأمون محمد بن عباد المهلبي بمائة ألف دينار ففرّقها على إخوانه فبلغ ذلك المأمون فقال: يا أبا عبد الله إن بيوت الأموال لا تقوم لهذا. فقال: يا أمير المؤمنين البخل بالموجود سوء ظنٍّ بالمعبود.

وعن أمية بن يزيد الأموي قال: كنا عند عبد الرحمٰن بن يزيد بن معاوية فجاءه رجل من أهل بيته فسأله المعونة على تزويج فقال له قولاً ضعيفاً فيه وعد وقلة إطماع، فلما قام من عنده ومضى دعا صاحب خزانته

---

(١) يضنّ: يبخل.

(٢) إياس بن معاوية: قاضي البصرة اشتهر بعدله في القضاء فقيل: «أزْكن من إياس».

فقال أعطه أربعمائة دينار. فاستكثرناها وقلنا: كنت رددت عليه رداً ظننا أنك تعطيه شيئاً قليلاً، فإذا أنت أعطيته أكثر مما أمل. فقال: إني أحب أن يكون فعلي أحسن من قولي.

وبحاتم يضرب المثل في السخاء. فحدثنا عن بعض حالات حاتم[1] قيل: كان حاتم جواداً شاعراً وكان حيثما نزل عرف منزله وكان مظفراً إذا قاتل غلب وإذا غنم أنهب[2] وإذا سئل وهب وإذا ضرب بالقداح سبق وإذا أسر أطلق، وكان أقسم ألّا يقتل واحد أمه، قيل: ولما بلغ حاتماً قول المتلمس الضبعي[3]:

قليلُ المالِ تصلحُهُ فيبقى ... ولا يبقى الكثيرُ على الفسادِ
وحفظ المال أيسر من بُغاه ... وضربٌ في البلادِ بغير زادِ

فقال ما له قطع الله لسانه يحرض الناس على البخل أفلا قال:

فلا الجودُ يُفني المالَ قبل فَنائِهِ ... ولا البخلُ في مال الشحيحِ يَزيدُ
فلا تلتمسْ رزقاً بعيشِ مُقَتِّرٍ[4] ... لكلِّ غدٍ رزقٌ يعود جَديدُ
ألم تَرَ أن الرزق غادٍ وَرَائحٌ ... وأنَّ الذي أَعطاكَ سوف يعيدُ؟

قيل: ونزل على حاتم ضيف ولم يحضره القرى[5] فنحر ناقة الضيف وعشاه وغداه وقال: إنك قد أقرضتني ناقتك فاحتكم علي. قال: راحلتين.

---

(١) حاتم الطائي: شاعر جاهلي اشتهر بشجاعته وكرمه وسخائه ضرب به المثل في الجود فقيل «أجود من حاتم» له ديوان طبعه في لندن لأول مرة رزق الله حسُّون.

(٢) أنهب: أي جعله نهباً للناس.

(٣) المتلمس الضبعي: هو جرير بن عبد المسيح الضبعي خال طرفة بن العبد البكري شاعر جاهلي له ديوان روي عن الأصمعي نشره بالألمانية والعربية المستشرق (فولرمس) في ليبسيك.

(٤) المقتِّر: هو الذي يبخل على عياله بالنفقة.

(٥) ولم يحضره القرى: أي لم يكن عنده ما يقدمه للضيف.

قال: لك عشرون أرضيت؟ قال: نعم وفوق الرضى. قال: لك أربعون. ثم قال لمن بحضرته من قومه: من أتانا بناقة فله ناقتان بعد الغارة فأتوه بأربعين فدفعها إلى الضيف.

وحكوا عن حاتم أنه خرج في الشهر الحرام بطلب حاجة، فلما كان بأرض عَنزَة ناداه أسير فيهم: يا أبا سفَّانة قد أكلني الإسار والقمل. قال: والله ما أنا في بلادي ولا معي شيء وقد أسأت إلى أن نوهت باسمي! فذهب إلى العنزيّين فساومهم فيه واشتراه منهم وقال: خلوا عنه وأنا أقيم مكانه في قيده حتى أؤدي فداه، ففعلوا فأتاهم بفداء.

قيل: ولما مات حاتم خرج رجل من بني أسد يعرف بأبي الخيبريّ في نفر من قومه وذلك قبل أن يعلم كثير من العرب بموته. فأناخوا بقبره، فقال: والله لأحلفنّ للعرب إني نزلت بحاتم وسألته القِرى فلم يفعل وجعل يضرب القبر برجله ويقول:

عجِّلْ أبا سفَّانةٍ قِراكا ... فسوف أُنبي سائلي ثناكا

فقال بعضهم: ما لك تنادي رِمَّة[1] وباتوا مكانهم، فقام صاحب القول من نومه مذعوراً فقال: يا قوم عليكم مطاياكم فإن حاتماً أتاني فأنشدني:

أبا الخَيْبريّ وأنتَ امْرُؤٌ ... ظلومُ العشيرةِ شَتَّامُها

فماذا أردتَ إلى رِمّةٍ ... بدَوّيّةٍ[2] صخبت هامها

(١) الرِّمَّة: ج رمم ورمام: ما بليَ من العظام، والرميم: البالي.

(٢) الدوّيّة: الفلاة الواسعة: يقول: بأن هذه الفلاة الواسعة تضج بأصوات الرياح قال العجاج:

«دوِّيَّةٌ لهولها دَوِيُّ ... للريح في أطرافها هُوِيُّ»

تـبـغّـي[1] أذاهـا وإعـسـارهـا وحـولـك طـيٌّ وأنـعـامُـهـا
وإنـا لـتـنـعـم أضـيـافـنـا من الكـوم[2] بـالسيف نعتـامهـا

وقيل في المثل: هو أجود من كعب بن مامة، وكان من إياد[3] وبلغ من جوده أنه خرج في ركب فيهم رجل من بني النمر بن قاسط في شهر ناجر[4] وألجأهم العطش فضلّوا فتصافنوا ماءهم فجعل النمري يشرب نصيبه فإذا أراد كعب أن يشرب نصيبه قال: آثر أخاك النمري فيؤثره حتى أضرَّ به العطش فلما رأى ذلك استحث ناقته وبادر حتى رفعت له أعلام الماء وقيل له رد كعب فإنك وراد فمات قبل أن يرد ونجا رفيقه.

ومن قول أبي تمام[5]:

هـو البحـرُ من أيِّ النـواحي أَتَيْتَـه فلُجَّتُهُ[6] المعروفُ والجـود ساحلهْ
كـريمٌ إذا مـا جئتَ للعـرفِ طـالبـاً حَبـاكَ[7] بما تحـوي عليـه أنـامله
فلو لم يكنْ في كفـه غيـرُ نفسـه لـجـاد بهـا فليتّـقِ الـلّهَ سـائـلُه

---

(١) تُبغِّي: تَبَغَّى الشيء: طلبه.
وقد ورد العجز الأخير من البيت الرابع في المحاسن والمساوىء ص ٢٢٠:
«وتأتي المطيَّ فنعتامها».

(٢) الكوم: القطعة من الإبل؛ ونعتام، من اعتم قِرَى الضيف: أبطأ به، والإبل تعتِمُ وتعتمُ، وأعْتَمَتْ واستعتمت، حلبت عِشاءً.

(٣) كعب بن مامة الإيادي يضرب المثل في جوده لأنه في ساعة العطش القتّال سقى صاحبه ما لديه من الماء ومات عطشاً.

(٤) النّاجر: كل شهر من أشهر الصيف لأن الإبل تَنْجر: أي تعطش فيه.

(٥) أبو تمام: هو حبيب بن أوس الطائي شاعر عباسي ولد في جاسم (الشام) وعاش في دمشق وحمص ومصر والموصل وفارس له ديوان طبع في بيروت ١٨٨٩م.

(٦) اللُّجّة: معظم الماء.

(٧) حباك: أعطاك بلا جزاء. العُرْف: الجود والعطاء.

وللبحتري[1]:

لـو آنَّ كفَّـكَ لم تَجُـدْ لمؤَمِّـلٍ ... لَكَفَـاهُ عـاجـلُ وجهـكَ المتهلّلِ
ولـو آنَّ مجـدَكَ لم يكنْ متقـادماً ... أغْـنـاكَ آخـرُ سُـؤْدَدٍ عـن أوّلِ

ولبكر بن البطاح:

بَـطَلٌ بصـدْرِ حُسـامِهِ وسِنـانِـهِ ... أَجَـلاَنِ من صَـدْرٍ ومن إيـرادِ[2]
ورثَ المكـارمَ وابْتنـاهـا قـاسم ... بـصفـائـحٍ وأسنـة وجيـادِ
يـا عِصمَةَ العَرَبِ التي لـو لم تكنْ ... حيًّـا إذاً كـانتْ بغيـرِ عِمـادِ
إنَّ العيـونَ إذا رَأَتْـكِ حِـدادُهـا ... رَجَعَتْ من الإجـلال غيرَ حِـدَادِ[3]
وإذا رميْتَ الثَّغـرَ منـكَ بعـزمـةٍ ... فَتَّحْتَ منـه مـواضـعَ الأسـدادِ[4]
وكـأنَّ رمحَـكَ مُنْقَـعٌ في عُصْفُـرٍ ... وكـأنَّ سَيْفَـكَ سُـلَّ من فِـرْصـادِ[5]
لـو صال منْ غضبٍ أبـو دُلَفٍ على ... بيضِ السيوفِ لَذبْنَ في الأغمادِ
أورى[6] ونـوَّرَ للعـداوَةِ والهـوى ... نـاريْـنِ نـارَ دمٍ ونـارَ زِنـادِ

قـال أبو هفَّـان: أنشدت هـذه الأبيـات عبـد العـزيـز بن أبي دلف

---

(١) البحتري: شاعر عربي طائي ولد في (منبج) وعاش في بغداد مدح الخليفة المتوكل فأصبح شاعر بلاطه له ديوان جمعه أبو بكر الصولي وعلي بن حمزة الأصفهاني أكثره في المدح، وله ديوان آخر جمع فيه ما قيل في الحماسة.

(٢) الأجل: ج آجال: الموت، غاية الوقت، والصدر: صدر صدوراً الأمر: حدث ونُتج عنه. يقال: «فلان يورد ولا يصدر» أي يأخذ في الأمر ولا يتمه، والإيراد: من: ورد يرد وروداً الماءَ وغيره، صار إليه، دنا منه، بلغه، ومعنى البيت: أن حسامه يحمل الموت للعدو في وروده، وفي صدوره.

(٣) معنى البيت: أن سيوف العدو القاطعة حين يراك تعود مغلولةً (غير قاطعة) من هيبتك وجلالك.

(٤) الثغر: المكان الذي يُخاف منه هجوم العدو. والسد ج أسداد: الحاجز بين الشيئين.

(٥) العصفر: صبغ أصفر اللون، والفرصاد: صبغ أحمر.

(٦) أورى الزندَ: أخرج ناره.

بسر من رأى[1] . قال : فبرَّني . ثم قال : هل سمعت بمثل هذه الأبيات ؟ قلت : لا .

قال : ولغيره في أبي دلف[2] :

ولـو يجـوزُ لقـال النـاسُ كلُّهُـمُ   لـولا أبـو دُلَفٍ مـا أورقَ الشجـرُ

قال ابن يحيى النديم : دعاني المتوكل ذات يوم وهو مخمور فقال : أنشدني قول عمارة في أهل بغداد . فأنشدته :

مَنْ يشتـري مني ملوكَ الـمخـرّمِ   أبـعْ حَسَنـاً وابنيْ هشـام بِـدرهمِ
وأعـطي رجـاءً بعـد ذاك زِيـادةً   وأمنـحُ دينـاراً بـغيـرِ تَـنَـدُّمِ
فـإن طلبـوا مني الـزيـادةَ زدتُهُمْ   أبـا دلفٍ والمستـطيـلَ بْنَ أكثـمِ

فقال المتوكل : ويلي على ابن البوال على عقبيه يهجو شقيق دولة العباس قال : فهل عندك من المدح في أبي دلف القاسم بن عيسى شيء؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين قول الأعرابي الذي يقول فيه :

أبـا دُلَفٍ[2] إنّ السمـاحَـةَ لم تـزلْ   مـغلَّلةً تـشكـو إلـى الله غُلَّهـا[3]
فبشَّـرهـا ربي بميـلادِ قـاسمٍ   فـأرسـل جبـريـلاً إليهـا فحلَّهـا

وقال غيره :

حـر إذا جئتَـه يـومـاً لتسـألَـه   أعـطاكَ مـا ملكتْ كفَّـاه واعتـذرا
يُخفي صنـائعَـه والله يُـظْهِـرُهـا   إن الجميـلَ إذا أخفيتَـه ظَـهَـرا

---

(١) سر من رأى : سامرّاء مدينة في العراق .
(٢) أبو دلف : القاسم بن عيسى أحد قواد المأمون ثم المعتصم كان كريماً شجاعاً له «البزاة والصعيد» و «سياسة الملوك» و «السلاح والنِّزه» .
(٣) الغُلّ : ج أغلال وهو طوق من حديد أو جلد يوضع في اليد والعنق ومغلَّلَة : مقيّدة .

وقال آخر:

فتىً عـاهد الـرحمٰن في بذل ِ مـالِهِ   فليس تـراهُ الـدهـرَ إلا على العهـدِ
فتىً قصَّــرتْ آمـالُــهُ عن فِعَــالِــهِ   وليس على الحر الكريم سوى الجُهدِ

وقال آخر:

إذا مــا أتـاه الســائلونَ تــوقّــدتْ   عليـه مصابيـحُ الـطّلاقـةِ والبشْـرِ
لـه في ذرى المعروفِ نُعمى كـأنها   مـواقعُ مـاء المُـزْنِ في البلد القفْـرِ

وقال آخر:

عــاد السرورُ إليـك في الأعيــادِ   وَسَعِــدْتَ من دنيـاك بــالإسعــادِ
رفـقــاً بعبـدٍ جُـلّ مـا أوليـتَـه   رفـقــاً فـقــد أثـقـلْتَـه بــأيــادي
مــلأ النفــوسَ مهــابـةً ومحبــةً   بــدرٌ بــدا مــتـغــمــراً بــســوادِ
مـا إنْ رأى لـك مُشْبِهــاً فيمنْ أرى   إن الــكــرامَ قــليــلةُ الأنــدادِ

وقال في ابن أبي دؤاد:

بــدا حــيــنَ أثْــرى بـإخــوانِـهِ   فـقلَّلَ عـنـهـمْ شَبــاةَ الـعـدمْ[1]
وحــذّرهُ الحـزمُ صــرفَ الـزمــانِ   فــبــادر قبـل آنـتقــالِ الـنِّعـم
فــليس وإنْ بَــخِــل الــبــاخــلو   ن يُقَــرّعِ[2] سنّـاً لــه من نــدم
ولا ينكتُ[3] الأرضَ عنــد السؤالِ   لـيـمنــعَ سؤَّالَــه عـنْ نـعــم
ولـكــنْ يُــرى مــشــرقــاً وجـهُـهُ   لـيُــرغمَ فـي مــالــه من رَغَـم

ويروى في الحديث أنه: «لا يجتمع الشحّ والإيمان في قلب عبد

---

(١) الشَّباة: ج شبا وشبوات: حد كل شيء، حد السيف، والعدم: الفقر.
(٢) قرع يقرع قرعاً ـ الباب: دقَّه، ضربه بكفه يقال: «قرع فلان سنه ندماً» قال الشاعر:
ولو أني أطعتُـكَ في أمــورٍ   قَــرعْتُ نــدامــةً من ذاك ســني
(٣) نكت نكْتاً ـ الأرضَ بقضيب أو بإصبعه: ضربها به حال التفكّر فأثّر فيها.

صالح أبداً»[1] ويقولون: الشحيح أغدر من الظالم، أقسم الله بعزته لا يساكنه بخيل في جنته. وقال النبي ﷺ: «من فتح له باب من الخير فلينتهزه فإنه لا يدري متى يُغلق عنه». وقال الشاعر في ذلك:

لَيسَ في كلِّ ساعةٍ وأوانٍ ... تتهيَّا صنائعُ الإحسانِ
فإذا أمْكَنَتْ تَقَدَّمَت فيها ... حَذِراً من تعذّرِ الإمكانِ[2]

وذكر عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: «أن أمير المؤمنين عليًّا صلوات الله عليه بعثه إلى حكيم بن حزام بن خويلد يسأله مالاً، فانطلق إلى منزله فوجد في الطريق صوفاً فأخذه، ومرّ بقطعة كساء فأخذها، فلما صار إلى المنزل أعطاه طرف الصوف فجعل يفتله حتى صيره خيطاً، ثم دعا بِغِرَارةٍ مخرَّقة[3] فرقعها بالكساء وخيّطها بالخيط وصرّ فيها ثلاثين ألف درهم، فحملت معه».

قال: وأتى قوم قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري رحمه الله يسألونه في حَمالةٍ[4] فصادفوه في حائط له يَتتبَّعُ ما سقط من التمر فيعزل جيِّده ورديئه على حدة، فهموا بأن يرجعوا عنه وقالوا: ما نظن عنده خيراً، ثم كلموه فأعطاهم، فقال رجل من القوم: لقد رأيناك تصنع شيئاً لا يشبه فعالك فقال: وما ذاك؟ فأخبروه فقال: إن الذي رأيتم يؤول إلى اجتماع

---

(١) الحديث: «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً، ولا يجتمع شحٌّ وإيمانٌ في قلب عبد أبداً» عن أبي هريرة رضي الله عنه. رواه النسائي وابن حبان والحاكم واللفظ له ورواه أطول منه بإسناد على شرط مسلم (الترغيب والترهيب للمنذري: جـ٣، ص ٣٨٠).

(٢) الإمكان: القدرة على فعل الشيء يقال: مكّنه من الشيء: أي جعل له عليه سلطاناً وقدرة.

(٣) الغِرَارة: ج غرائر أي جوالق وهي العِدْل من صوف أو شعر (فارسية)، ومخرَّقة: ممزقة.

(٤) الحَمالة: الدية والغرامة.

ما ينفع وينمو. ومنها قيل: الذود إلى الذود إبل[1]. وأنشد:

رب كبيرٍ هاجه صغيرُ وفي البحورِ تَغْرقُ البحورُ

وقال آخر:

قد يلحق الصغيرُ بالجليل وإنما القَرْمُ من الأفيلِ[2]

وسحق النخل من الفسيلِ

قال: وأتى رجل طلحة بن عبيد الله فساءله حَمالةً فرآه يهنأ بعيراً[3] له فقال: يا غلام أخرج إليه بدرة[4] فقبضها، وقال: أردت أن أنصرف حين رأيتك تهنأ البعير فقال: إنا لا نضع الصغير ولا يتعاظمنا الكبير.

مساويء البخل

المثل السائر في البخل: « هو أبخل من مادر » وهو رجل من بني هلال بن عامر بلغ من بخله أنه كان يسقي إبله فبقي في أسفل الحوض ماء قليل فسلح[5] فيه ومدر[6] الحوض به فسمّي مادراً.

وذكروا أن بني هلال وبني فزارة تنافروا إلى أنس بن مدرك وتراضوا به فقالت بنو هلال: يا بني فزارة أكلتم أير الحمار فقالت بنو فزارة: لم

---

(١) الذَّود: للقطيع من الإبل الثلاث إلى التسع وقيل ما بين الثلاث إلى الثلاثين وقيل غير ذلك ولا يكون إلاّ من الإناث وقولهم: «الذَّود إلى الذَّود إبل» يدل على أنها في موضع اثنتين لأن الثنتين إلى الثنتين جمع، والجمع أذواد.

(٢) الأفيل: ج أفال وأفائل وهي: أفِيلَة: صغير الإبل، والقَرْم: الفحل إذا ترك من الركوب والعمل.

(٣) هنأ البعيرَ: طلاه بالهناء وهو القطران.

(٤) البَدْرة: الكيس فيه ألف أو عشرة آلاف.

(٥) سلح: تغوَّط وهو خاص بالطيور والبهائم واستعماله للإنسان من باب التساهل على التشبيه.

(٦) مَدَر: المدر: الطين العَلِك الذي لا يخالطه رمله. ومدر الحوض: طانه بالمدر.

نعرفه. وكان سبب ذلك أن ثلاثة اصطحبوا: فزاري وثعلبي وكلابي فصادوا حمار وحش. ومضى الفزاري في بعض حوائجه فطبخا وأكلا وخبّآ للفزاري أير الحمار فلما رجع قالا: قد خبأنا لك حقك فكل. فأقبل يأكل ولا يسيغه[1] فجعلا يضحكان ففطن وأخذ السيف وقام إليهما وقال: لتأكلن منه أو لأقتلنكما فامتنعا فضرب أحدهما فقتله وتناوله الآخر فأكل منه، فقال فيهم الشاعر:

نَشَدْتُكَ يا فَزارُ وأنتَ شيخٌ ... إذا خُيِّرتَ تخطئُ في الخيارِ

أصيْحانِيَّةٌ أُدِمتْ[2] بسمن ... أحبُّ إليك أم أيرُ الحمارِ

بلى أيرُ الحمار وخِصْيَتَاه ... أحبُّ إلى فزارةَ من فِزاري

فقالت بنو فزارة: منكم يا بني هلال من سقي إبله فلما رويت سلح في الحوض ومدره بخلًا، فنفّرهم[3] أنس بن مدرك، على الهلاليين فأخذ الفزاريون منهم مائة بعير وكانوا تراهنوا عليها.

وفي بني هلال يقول الشاعر:

لقد جَلَّلتْ خزياً هلالُ بْنُ عامرٍ ... بني عامرٍ طراً بسلحةِ مادرِ

فأفّ لكم لا تذكروا الفخر بعدها ... يا بني عامر أنتم شرارُ العشائر

وفي المثل: «هو أبخل من أبي حباحب» وهو رجل في الجاهلية بلغ من بخله أنه كان يسرج السراج فإذا أراد أحد أن يأخذ منه أطفأه، فضُرب به المثل.

---

(١) يسيغه: ساغ سوغاً الأمر: جاز فعله فهو سائغ، وأساغ الطعام أو الشراب سهَّل مدخله في الحلق وساغ له دخوله فيه.

(٢) الصيحانية: نسبة إلى الصيحاني وهو ضرب من تمر المدينة، سمي كذلك لأن «صيحان» اسم كبش كان ربط إلى نخلة بالمدينة فأثمرت ثمراً نُسب إلى صيحان، وأدمت: أي طبخت.

(٣) نفَّره على فلان: حكم له عليه بالغَلبة.

ومنه صاحب نجيح بن سلكة اليربوعي فإنه ذكر: أن نجيحاً اليربوعي خرج يوماً يتصيد فعرض له حمار وحش فاتبعه حتى دفع إلى أَكَمَـةٍ فإذا هو برجل أعمى أسود قاعد في أطمار[1] بين يديه ذهب وفضة ودر وياقوت، فدنا منه فتناول بعضها ولم يستطع أن يحرك يده حتى ألقاه فقال: يا هذا ما هذا الذي بين يديك؟ وكيف تستطيع حمله، وهل هو لك أم لغيرك؟ فإني أعجب مما أرى أجواد أنت فتجود لنا أم بخيل فنعذرك؟ فقال الأعمى: أطلب رجلاً فقد منذ سنين وهو سعد بن خشرم بن شماس فأتني به نعطك ما تشاء. فانطلق نجيح مسرعاً قد استطير فؤاده حتى وصل إلى قومه ودخل خباءه ووضع رأسه فنام لما به من الغم لا يدري من سعد بن خشرم، فأتاه آتٍ في منامه فقال له: يا نجيح إن سعد بن خشرم في حي بني محلّم من ولد ذُهل بْنِ شيْبان، فخرج فسأل عن بني محلّم ثم سأل عن خشرم بن شماس فإذا هو بشيخ قاعد على باب خبائه فحياه نجيح فرد عليه السلام، فقال له نجيح: من أنت؟ قال: أنا خشرم بن شماس، قال له: فأين ولدك سعد؟ قال: خرج في طلب نجيح اليربوعي، وذلك أنّ آتياً أتاه في منامه فحدثه أن مالاً له في نواحي بني يربوع لا يعلم به إلَّا نجيح اليربوعي فضرب نجيح فرسه ومضى وهو يقول:

أيطلُبُني من قد عَناني طِلابُهُ؟ فيا ليتني ألقاك سعدَ بْنَ خَشْرمِ
أتيتَ بني يربوعَ تبغي لقاءنا وقد جئت كي ألقاك حيّ مُحلّمِ[2]

فلما دنا من محلته استقبله سعد فقال له نجيح: أيها الراكبُ هل لقيت سعداً في بني يربوع؟ قال: أنا سعد فهل تدل على نجيح؟ قال: أنا

---

(١) اطمار: ثياب بالية.

(٢) حي محلم: حي من أحياء العرب ومنه ربيعة بن محلَّم ويضرب به المثل في الشجاعة.

نجيح وحدّثه بالحديث، فقال: الدال على الخير كفاعله ـ وهو أول من قالها ـ فانطلقا حتى أتيا ذلك المكان فتوارى الرجل الأعمى عنهما وترك المال فأخذه سعد كله، فقال نجيح: يا سعد قاسمني! فقال له: إطو عني وعن مالي كشحاً[١]، وأبى أن يعطيه شيئاً فانتضى نجيح سيفه فجعل يضربه حتى برد، فلمّا وقع قتيلاً تحوّل الرجل الحافظ للمال سِعْلاةً[٢] فأسرع في أكل سعد وعاد المال إلى مكانه، فلمّا رأى نجيح ذلك ولّى هارباً إلى قومه.

قيل: وكان أبو عبس بخيلاً فكان إذا وقع الدرهم في يده نقره بأصبعه ثم يقول: كم من مدينةٍ قد دخلتَها ويدٍ قد وقعت فيها؟ فالآن استقر بك القرار واطمأنت بك الدار، ثم يرمي به في صندوقه فيكون آخر العهد به.

قيل: ونظر سليمان بن مزاحم إلى درهم فقال في شق، لا إلٓه إلا الله، وفي شق، محمد رسول الله ما ينبغي أن يكون هذا إلا معاذةً[٣] وقذفه في صندوقه.

وذكروا أنه كان بالري عامل على الخراج يقال له المسيَّب فأتاه شاعر فامتدحه فلم يعطه شيئاً ثم سعل سعلة فضرط، فقال الشاعر:

أتيتُ المسيَّبَ في حاجةٍ   فما زال يسعُلُ حتى ضرطْ
فقال غلطنا حِسابَ الخِرَاجِ   فقلتُ من الضَّرطِ جاء الغلط

فولع به الصبيان فكان كلما مرّ قالوا: منَ الضَّرط جاء الغلط. فما زالوا يقولون ذلك حتى هرب منها من غير عزل.

---

(١) الكَشْح ج كشوح: ما بين السرة ووسط الظهر يقال: طوى كشْحَه على الأمر: أي استمرّ عليه وطوى كشحه عن فلان: أعرض عنه وقاطعه.
(٢) السِّعلاة، والسِّعلاء، والسِّعلى ج سَعَالى: أنثى الغول، أو الغول.
(٣) والمعاذة: الملجأ والملاذ.

قال: وكتب أرسطاطاليس إلى رجل بشيء فلم يفعل فكتب إليه، إن كنت أردت فلم تقدر فمعذور وإن كنت قدرت ولم ترد، فسيأتيك يوم تريد فيه فلا تقدر.

قال: وسمع أبو الأسود الدؤلي رجلًا يقول: من يعشي الجائع؟ فعشّاه، ثم قام الرجل ليخرج فقال: هيهات تخرج فتؤذي الناس كما آذيتني، ووضع رجله في الأدهم[1] حتى أصبح.

قال: وكان رجل يأتي ابن المقفع فيلح عليه ويسأله أن يتغدى عنده فيقول: لعلك تظن أني أتكلف لك شيئاً! والله لا أقدم لك إلا ما عندي، فلما أتاه لم يجد في بيته إلا كسراً يابسة وملحاً جريشاً. وجاء سائل إلى الباب فقال له، وسّع الله عليك، فلم يذهب، فقال: والله لئن خرجتُ إليك لأدقنّ رأسك. فقال ابن المقفع للسائل: ويحك لو عرفت من صدق وعيده ما أعرف من صدق وعده لم تزد كلمة ولم تُقِمْ طرفة عين.

قال: وكتب إبراهيم بن سيابة إلى صديقٍ له كثير المال يستسلفه فكتب إليه: العيال كثير، والدَّخل قليل، والمال مكذوب عليه. فكتب إليه: إن كنت كاذباً فجعلك الله صادقاً وإن كنت صادقاً فجعلك الله معذوراً.

وكتب آخر إلى آخر يصف رجلاً: أما بعد، فإنك كتبت تسأل عن فلان كأنك هممت به أو حدثتك نفسك بالقدوم إليه فلا تفعل، فإن حسن الظن به لا يقع في الوهم إلا بخذلان الله، والطمع فيما عنده لا يخطر على القلب إلا بسوء التوكّل على الله والرجاء فيما في يده لا ينبغي إلا بعد اليأس من رحمة الله، إنه يرى الإقتار الذي نهى الله عنه هو التبذير الذي يعاقب

(١) الأدهم: القيد.

عليه، والاقتصاد الذي أمر الله به هو الإسراف الذي يعـاقب عليه، وإنَّ بني إســرائيـل لم يستبــدلـوا العــدس والبصـل بــالمن والسلوى إلا لفضـل أحـلامهم وقديم علمهم ، وأن الصنيعـة مرفـوعـة ، والصلة مـوضـوعـة ، والهبة مكروهة ، والصدقة منحوسـة ، والتوسـع ضلالـة، والجود فسـوق، والسخاء من همزات الشياطين، وإن مؤاساة الرجال من الذنوب الموبقة، والإفضال عليهم من إحدى الكبائر، وإن الله عزَّ وجل لا يغفر أن يؤثِرَ المرء في خصاصةٍ على نفسه، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن آثر على نفسه فقد ضلّ ضلالاً بعيداً، كأنه لم يسمع بالمعـروف إلا في الجاهليـة الذين قطع الله أدبارهم ونهى المسلمين عن اتباع آثارهم، وأن الرَّجْفة[1] لم تـأخذ أهل «مدين» إلا لسخاءٍ كان فيهم، ولا أهلكت الريح «عـاداً» إلا لتوسـعٍ كان منهم، فهو يخشى العقاب على الإنفاق، ويرجو الثواب على الإقتار، ويعد نفسه خاسراً ويعدها الفقر ويأمـرها بـالبخل خيفـة أن تمر بـه قوارع الدهر، وأن يصيبه ما أصـاب القرون الأولى، فـأقم رحمك الله مكـانك، واصطبر على عسرك عسى الله أن يبدّلنا وإيّاك خيراً منه زكاةً وأقرَب رُحْماً.

ولبعض الكتّاب: أما بعد، فإن كثير المواعيـد من غير نجـح عار على المطلوب إليه ، وقلتها مع نجح الحاجة مكرَمة من صاحبها ، وقد رددتنـا في حاجتنا هذه في كثرة مواعيدك من غير نجح لهـا حتى كأنـا قد رضينـا بالتعلل لها دون النجاح ، كقول القائل :

لا تجعلنَّــا كَكمُّـونٍ[2] بمــزرعــة إن فـاتَـه المــاءُ أروتْـه المــواعيـدُ

وكتب آخر: ما رأيت مثلَ طيبِ قولك أمرَّه سوءُ فعلك، ولا مثل بسط وجهك خالفه طول تنكيدك، ولا مثلَ قرب عِدتك باعـدها إفـراطُ مُطْلِك،

---

(١) الرَّجفة: الزلزلة.

(٢) الكمون : حب من الأفاويه أدق من السمسم واحدته كمُّونة، وهو معروف .

ولا مثلَ أنس بديهتك أوحش منه اختبار عواقبك، حتى كأن الدهر أوعدك لطيف الحيلة بالمكر بأهل الخلّة، وكأنه زيَّنك فيهم بالخديعةِ لتدرك منهم فرصة الهَلَكة. وقد قيل: وعدُ الكريم نقدٌ وتعجيل، ووعد اللئيم مَطْلٌ وتأجيل.

وقال بعضهم: وعدتنا مواعيد عرقوب[1]، ومطلتنا مطل نعاس الكلب، وغررتنا غرور السراب ومنيتنا أماني الكمون.

ولبعضهم: أما بعد، فلا تدعني معلقاً بوعدك، فالعذر الجميل أحسن من المَطْل الطويل، فإن كنت تريد الإنعام فانجح، وإن تعذرت الحاجة فأوضح، وأعلمني ذلك لأصرف وجه الطلب إلى غيرك.

وذكروا أن فتى من « مراد » كان يختلف إلى عمرو بن العاص، فقال له ذات يوم: ألك امرأة؟ قال: لا. قال: أفتتزوج وعليّ المهر؟ فرجع إلى أمه فأخبرها الخبر فقالت:

إذا حدَّثتْكَ النفسُ أنَّكَ قادرٌ على ما حَوَتْ أيدي الرجالِ فكذّبِ

فتزوج وأتى عمرو بن العاص، فاعتلَّ عليه ولم ينجز وعده، فشكا ذلك إلى أمه فقالت:

لا تغضبنّ على امرىءٍ في مالِهِ وعلى كرائم حرّ مالك[2] فاغضبِ

---

(١) عرقوب: بدوي جاء أخ له يسأله عطاءً فقال له: إذا طلعت هذه النخلة فلك طلعها، فلما أطلعت أتاه فقال له: دعها حتى تصير بلحاً، فلما أبلحت قال: دعها حتى تصير زهراً، فلما أبْسَرَتْ قال: دعها حتى تصير رُطباً، فلما أرطبت، قال: دعها حتى تصير تمراً، فلما أتمرت، عمد إليها عرقوب ليلاً فجذّها ولم يعط أخاه شيئاً منها فصارت مثلاً: مواعيد عرقوب أخاه بيثرب.

(٢) حُرّ مالك: مال نفسك (المحاسن والمساوىء) ص ٢٩٢.

ووصف أعرابي رجلاً فقال: له بِشْرٌ مُطْمِع وَمَطْلٌ مؤيس، وكنت منه أبداً بين الطمع واليأس لا بذل سريح[1] ولا مطل مريح.

وقال أعرابي: أنا من فلان في أماني تهبط العصْمَ وخُلفٍ يذكِّر العُدْمَ[2]، ولست بالحريص الذي إذا وعده الكذوب علَّق نفسه لديه وأتعب راحلته إليه.

وذكر أعرابي رجلاً فقال: له مواعيد عواقبها المَطل، وثمارها الخلف، ومحصولها اليأس.

ويقال: سرعة اليأس أحد النجحين.

وقال بعضهم: مواعيد فلان مواعيد عرقوب، ولمع الآل، وبرق الخلب[3] وأمانيِ الكمون ونار الحباحب وصلف تحت الراعدة[4].

ومما قيل في ذلك:

أروحُ وأغدو نحوكمْ في حوائجي ... فأصبحُ فيها غُدْوةً كالذي أمسي
وقد كنتُ أرجو للصديق شفاعتي ... فقد صرتُ أرضى أنْ أُشفَّعَ في نفسي

ولأبي نواس:

وعدتَني وعْدكَ حتى إذا ... أطمعْتني في كَنزِ قارونِ
جئتَ من الليلِ بغسّالةٍ ... تغسل ما قلتَ بصابونِ

---

(١) سريح: سهل، معجل.

(٢) تهبط العصم: تُنقِصُ الكسب، والعُدْم: الفقدان، الحرمان.

(٣) الآل: السراب، والخلَّب: السحاب لا مطر فيه فكأنه يخدع وبرق الخلَّب: الذي يكون في سحاب خلَّب.

(٤) الحباحب: ذباب ملون يطير ليلاً وفي ذنبه شعاع كالسراج، والراعدة: ج رواعد السحابة ذات الرعد (وصلف تحت الراعدة) مثل يضرب لمن يكثر الكلام ولا خير عنده كالسحاب الصلف: كثير الرعد قليل المطر.

ولأبي تمام:

يحتاجُ مَنْ يرتجي نوالَكُمُ ... إلى ثلاثٍ من غير تكذيبِ
كنوزُ قارونَ أن تكون له ... وعمرُ نوحٍ وصبرُ أيُّوبِ

وقال آخر:

إني رأيتُ من المكارم حَسبُكُمْ ... أنْ تلْبسوا خَزَّ الثياب وتشبعوا

وقال حسان بن ثابت[1]:

إني لأعجبُ من قولٍ غُرِرْتَ به ... حُلْوٍ يُمدُّ إليه السمعُ والبصرُ
لو تسمع العصم[2] من صمِّ الجبال به ... ظلت من الراسيات العصم تنحدرُ
كالخمر والشَّهد يجري فوق ظاهره ... وما لباطِنِه طعمٌ ولا خبرُ
وكالسراب شبيهاً بالغدير وإن ... تبغِ السرابَ فلا عين ولا أثرُ
لا ينْبُتُ العشبُ عن برقٍ وراعدةٍ ... غراءَ ليس لها سيلٌ ولا مطرُ

وقال آخر:

رأيتُ أبا عثمانَ يبذُلُ عِرضَه ... وخُبزُ أبي عثمان في أحرز الحرزِ
يَحِنُّ إلى جاراته بعد شَبعهِ ... وجاراته غرْثَى[3] تحنّ إلَى الخبزِ

وقال آخر:

ما كنت أحسِبُ أن الخبزَ فاكهةٌ ... حتى نَزَلْتُ على أوفى بْنِ منصورِ

---

(١) حسان بن ثابت: من الشعراء المخضرمين، ولد في يثرب، مدح الغساسنة ولقي في بلاطهم النابغة وعلقمة، ثم أصبح من الأنصار ولقب بشاعر النبي. له ديوان معروف رواه أبو سعيد السكّري عن ابن حبيب.

(٢) العُصْم: ج عصماء وأعصم: الظبي الذي في ذراعيه أو في أحدهما بياض دون سائر الأعضاء.

(٣) غرثى: جائعات، غرث غَرثاً: جاع فهو غرثان ج غرثى وغِراث وغراثى وهي غرثى ج غراث.

الحابسِ الروثَ في أعفاج[1] بغلته خوفاً على الحَبّ من لقط العصافيرِ

وقال آخر:

نَوالُكَ دونَهِ خرْطُ القَتَادِ[2] وخُبزُكَ كالثريَّا في البُعادِ

ترى الإصلاحَ صومَكَ لا لنُسْكٍ وكسَرَ الخبز من عمل الفسادِ

أرى عمرَ الرغيفِ يطول جداً لديك كأنه من قومِ عادِ

وقال آخر:

اللؤمُ منك على الطَّعامِ طِباعُ فعِيالُ بيتِكَ ما حَييتَ جياعُ

وإذا يمرُّ بباب دارك سائلٌ حَملتْ عليه نوابحٌ وسباعُ

وعلى رغيفكَ حيّةٌ مسمومةٌ وعلى خوانكَ عقربٌ وشجاعُ[3]

وقال آخر:

يا تاركَ البيتِ على الضيفِ وهارباً عنه من الخوفِ

ضيفك قد جاء بخبزٍ له فارجع وكن ضيفاً على الضيفِ

إذا اشتهى الضيفُ طبيخَ الشتا أتاه بالشّهوةِ في الصيفِ

وإنْ دنا المسكينُ من بابِهِ شدّ على المسكين بالسيفِ

وقال آخر:

أرى ضيفَكَ بالدارِ وَكَرْبُ الجوعِ يخشاهُ

على خبزك مكتوبٌ فسيكفيكهم اللَّهُ[4]

---

(١) أعفاج، جمع عفج: المعيّ.

(٢) القتاد: شجر ذو شوك قاس صلب ومنه المثل: دونه خرط القتاد. والخرط: هو قش العود.

(٣) الشجاع: الحية. والخوان: ما يوضع عليه الطعام (فارسية).

(٤) من الآية: ١٣٧ سورة البقرة: ﴿فسيكفيكهُمُ الله وهو السميع العليم﴾.

وقال آخر:

لأبـي نـوحٍ رغـيـفُ أبـداً في حِجْـرِ دايـهْ
أبـداً يَمْسَحُـهُ الـدهـ ـرَ بِـكُـمٍّ ووقَـايـهْ
ولـه كـاتـبُ سـرِّ خطَّ فـيـه بعـنـايـهْ
فسيـكـفيـكـهُـمُ اللَّهُ إلـى آخـر الآيـهْ

وقال آخر:

الخبـزُ يبـطي حين يـدعـو بـه كـأنـه يَـقْـدُمُ مـن قـافِ[1]
ويـمـدحُ الـمـلحَ لأصـحـابـه يـقـول هـذا ملحُ سـيـرافِ[2]
سِيّـانِ أكـلُ الـخـبـزِ في داره وقـلْعُ عـيـنـيـهِ بـخُـطّافِ[3]

وقال آخر:

فـتـىً لا يـغـارُ عـلى عِرْسِهِ[4] ولـكـنْ يـغـار عـلى خُـبـزهِ
فـمنـه يـدُ الـجـودِ مقبـوضـةٌ وكـف الـسـمـاحـة في عجـزهِ

وقال آخر:

يصـونـونَ أثـوابَهُمْ في التُّخـوت[5] وأزواجهمْ يختـرقن في السِّكـكْ
يُـنَـحُّـون مـنْ رام رغفـانَـهُـمْ ويُـدْنـونَ من رام حـلَّ التـكـكْ

---

(١) قاف: جاء في بعض التفاسير الأسطورية أن قافاً: هو جبل محيط بالدنيا. فكأن الشاعر يقول: كأن الرغيف قادم من آخر الدنيا.

(٢) سيراف: بلدة في إيران على الخليج العربي.

(٣) الخُطّاف ج خطاطيف: حديدة حجناء (معطوفة الرأس) وخطاطيف السباع: مخالبها.

(٤) العِرْس: امرأة الرجل.

(٥) التخوت: جمع تخت: خزانة الثياب، وتخت الملك عرشه. وتخت المملكة: عاصمتها.

وقال آخر:

أما الرغيفُ على الخوا ... نِ فمن حماماتِ الحرْم[1]
ما إن يُجَسُّ ولا يمس ... ولا يُذَاقُ ولا يُشَمْ
فتراه أخضرَ يابساً ... بالي النقوشِ من الهرم

وقال آخر:

أتينا أبا طاهرٍ مفطرينَ ... إلى داره فَرَجَعْنا صِياما
وجاء بخبزٍ له حامضٍ ... فقلتُ: دعوه وموتوا كِراما

وقال آخر:

يبخلُ بالماءِ ولو أنه ... مُنْغمِسٌ في وَسَطِ النيلِ
شُحًّا فلا تطمَعُ في خبزه ... ولو تشفّعتَ بجبريلِ

وعن حذيفة بن محمد الطائي قال: قال الرشيد: ما لأحدٍ من المولدين[2] ما لأبي نواس في الهجاء:

وما روَّحْتَنا لِتَذُبَّ عنا ... ولكنْ خفتَ مرْزِئةَ الذُّبابِ
شرابُك كالسَّرابِ إذا التقينا ... وخبزك عند منقطع التراب[3]

وقال آخر:

خانَ عهدي عمرٌو وما خنتُ عهدَه ... وجفاني وما تغيّرتُ بعدهْ

---

(١) أي لا يجوز أكله كما لا يجوز اصطياد حمام الحرم الشريف في مكة.

(٢) المولَّد: الْمحدَث من كل شيء ومنه المولَّدون من الشعراء والكتاب والأدباء.

(٣) روَّح: راح رواحاً، جاء أو ذهب في الرواح أي العَشيّ وعمل فيه ويستعمل لمطلق الذهاب والمُضيّ. وذب يذب عنه: دافع عنه ومنع وحامى. مرزئة: من الرزء المصاب العظيم، ومنقطع التراب: آخر كل شيء حيث ينقطع، كمقاطع الرمال والأودية وما أشبه ذلك، ومنقطع كل شيء حيث ينتهي إليه طرفه.

ليس لي ما حييتُ ذنبُ إليه غيرَ أني يوماً تغدّيت عنده

وقال الخليل بن أحمد العروضي الأزدي[١] :

فكفَّاهُ لم تُخْلقا للنَّدى ولم يكُ بخلُهما بِدعهْ
فكفٌّ على الخبزِ مقبوضةٌ كما نقصتْ مائةٌ تسعه
وكفُ ثلاثةُ آلافها وتسعُ مئيها لها شِرْعه[٢]

وقال ابن أبي البغل :

وكلُّ منْ أجْتديهِ[٣] في بلدْ أروم مما لديهِ في صفدْ[٤]
يَعْقِد لي باليسار أربعةً منقوصةً تسعة إلى العددْ

وقال آخر :

أتيتُ أبا عمْروٍ أُرجّي نَوَالَه فزادَ أبو عمْروٍ على حَزَني حُزْنا
فكنت كباغي القرْنِ أسلَم أذنَه فآبَ بلا أذنٍ ولم يستفد قرْنا[٥]

محاسن الشجاعة

قيل كان باليمامة[٦] رجلٌ من بني حنيفة يقال له : جحدر بن مالك وكان لسناً فاتكاً شجاعاً شاعراً، وكان قد أبر[٧] على أهل هجر وناحيتها،

---

(١) الخليل بن أحمد الأزدي : نحوي ولغوي أصله من عُمان، تعلم على أيوب السختياني وعلَّم سيبويه والأصمعي وغيرهما اكتشف علم العروض وتوفي في البصرة.

(٢) شرعة : الشريعة، العادة، المثل يقال : هده شرعة هذه أي مثلها.

(٣) جدا جذْواً عليه : أعطاه، واجتدى، واستجدى : طلب الجدوى، سأل حاجة.

(٤) الصفد : العطاء. يقال : الصفد صفد : أي العطاء قيد : والبيت الثاني يقال : كمثل لمن طلب حاجة فانتقص ولم يأخذ شيئاً.

(٥) يشير إلى المثل القائل : كطالب القرن في أذنه ـ يطلق على من طلب الحاجة فانتقص.

(٦) اليمامة : بلدة في نجد جنوبي الرياض.

(٧) أبر : آذى. وهجر : في عرف سكان جنوب الجزيرة العربية (المدينة) وتضاف إلى اسم آخر منها : هجر نجران، وهجر جازان، وهجر حاذن، وهجر تيماء، وهجر البحرين.

فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف فكتب إلى عامل اليمامة يوبّخه بتلاعب جحدر به ويأمره بالتجرد في طلبه حتى يظفر به. فبعث العامل إلى فتية من بني يربوع بن حنظلة فجعل لهم جعلاً[1] عظيماً إن هم قتلوا جحدراً أو أتوه به أسيراً ووعدهم أن يوفدهم إلى الحجاج ويسني فرائضهم[2]، فخرج الفتية في طلبه حتى إذا كانوا قريباً منه بعثوا إليه رجلاً منهم يريه أنهم يريدون الانقطاع إليه والتحرّم به[3]، فوثق بهم واطمأن إليهم، فبينما هم على ذلك إذ شدّوه وثاقاً وقدموا به إلى العامل فبعث به معهم إلى الحجاج وكتب يثني على الفتية، فلما قدموا على الحجاج قال له: أنت جحدر؟ قال: نعم. قال: ما حملك على ما بلغني عنك؟ قال: جراءة الجنان، وجفوة السلطان، وكلب الزمان[4]، قال: وما الذي بلغ من أمرك فيجترىء جنانك ويصلك سلطانك ولا يكلب زمانك؟ قال: لو بلاني[5] الأمير لوجدني من صالحي الأعوان وبُهَمِ الفرسان[6] وممن أوفى على أهل الزمان، قال الحجاج: إنا قاذفوك في قبة فيها أسد، فإن قتلك كفانا مؤونتك، وإن قتلته خليناك ووصلناك، قال: قد أعْطيتَ أصلحك الله الأمنية، وأُعْظَمْتَ المِنّة وقرّبَت المحنة. فأُمِرَ به فاستوثق منه بالحديد وألقي في السجن، وكتب إلى عَامله بكسكر يأمره أن يصيد له أسداً ضارياً، فلم يلبث العامل أنْ بعث إليه بأسود ضاريات قد أَبَرَتْ على أهل تلك الناحية

---

(١) الجعل، والجِعال، والجعلة، والجعالة، ما جعل على العمل، والجعالة: الرشوة.
(٢) أسنى له الجائزة: جعلها سنية، ثمينة وفرائضهم: حصصهم التي فرضها على نفسه لهم.
(٣) وتحرَّم به: امتنع به، احتمى.
(٤) كَلَب الزمان: شدته وعسره.
(٥) بلاه: امتحنه، اختبره.
(٦) بُهم الفرسان: الشجاع الذي يُسْتَبْهم مأتاه على أقرانه، لا يُعرف من أين يؤخذ.

ومنعت عامة مراعيهم ومسارح دوابهم، فجعل منها واحداً في تابوت يُجَرُّ على عجلة، فلما قدموا به على الحجاج أمر فألقي في حيز[١] وأجيع ثلاثاً، ثم بعث إلى جحدر فأُخْرِجَ وأُعْطِيَ سَيْفاً ودُلِّيَ عليه[٢] فمشى إلى الأسد، وأنشأ يقول:

ليثٌ وليثٌ في مكانٍ ضنكِ[٣] كلاهما ذو أَنَفٍ ومَحْكِ[٤]
وصولةٍ في بطشةٍ وفتكِ إن يكشفِ اللَّهُ قِناعَ الشكِّ
وَظَفِراً[٥] بجؤجؤٍ وَبَرْكِ فَهُوَ أحقُّ منزلٍ بتركِ
الذئب يعوي والغراب يبكي

حتى إذا كان منه على قدر رمح تمطّى الأسد وزأر وحمل عليه فتلقاه جحدر بالسيف فضرب هامته ففلقها وسقط الأسد كأنه خيمة قوضتها الريح فانثنى جحدر وقد تلطخ بدمه لشدة حملة الأسد عليه فكبر الناس، فقال الحجاج: يا جحدر إن أحببت أن ألحقك ببلادك وأحسن صحبتك وجائزتك فعلت بك وإن أحببت أن تقيم عندنا أقمت فأسنينا فريضتك. قال: أختار صحبة الأمير ففرض له ولجماعة أهل بيته: وأنشأ جحدر يقول:

---

(١) الحيّز: المكان.
(٢) دُلّي: أرسله فتدلّى.
(٣) مكان ضنْك: مكان ضيّق.
(٤) المحْك: المُشارّة والمنازعة، التمادي في اللجاجة والغضب.
(٥) الظَّفِر: الذي لا يطلب أمراً إلّا ظفر به.
والجؤجؤ: صدر الطائر، أو السفينة. والبرْك: الصدر، جماعة الإبل الباركة يقول بأنهما ليثان التقيا في مكان ضيق وكلاهما ذو أنفة ونزعة إلى البشر والفتك، وأن الله سيرفع شك الحجاج ومن معه بقدرته على لقاء الليث الجائع، فالذي لا يطلب أمراً إلّا وظفر به، والذي يصطاد الوحوش والطيور وهي مقبلة عليه بصدورها، أحق بترك المنزل الضيق الذي هما فيه، أي أن الليث سيبقى في تلك الحفرة تعوي حوله الذئاب وتبكي عليه الغربان.

يا جملُ إنك لو رأيتِ بَسالتي ... في يوم هيْجٍ مُرْدفٍ وعَجاجِ [1]

وتقدّمي لليث أرسَفُ نحوه ... حتى أكابده على الإحراجِ [2]

جَهْمٌ كأنَّ جبينَهُ لما بدا ... طَبَقُ الرَّحا متفجِّرُ الأثْباجِ [3]

يرنو بناظرتين تَحسِبُ فيهما ... من ظنَّ خالهما شعاعَ سِراجِ

شُثْنٌ براثنُه كأن نيوبه ... زُرْقُ المعاول أو شَذاةُ زُجاجِ [4]

وكأنما خِيطتْ عليه عَبَاءةٌ ... برقاءُ أو خلْقٌ من الديباجِ [5]

قَرنانِ محتضرانِ قد ربَّتهما ... أمُّ المنية غيرُ ذات نِتاجِ [6]

وعلمتُ أني إن أبيْتُ نِزالَه ... أني من الحجاج لستُ بناجِ

فمشيت أرسفُ في الحديدِ مكبَّلاً ... بالموت نفسي عند ذاك أناجي

والناسُ منهمْ شامتٌ وعِصابةٌ ... عبراتُهُمْ لي بالحلوقِ شواجي [7]

ففلقتُ هامَته فخرّ كأنه ... أُطُمٌ [8] تقوَّض مائلُ الأبراجِ

---

(١) يوم الهيج: يوم الحرب: وردف: ركب خلفه وصار له ردفاً، والقومَ دهمهم، والعَجاج الغبار.

(٢) رسف: مشى مشية المُقيَّد. وكابد الأمر: قاساه وتحمَّل المشاقَّ في فعله، والإحراج المضايقة، الإثم ومنه قولهم: «لا حرج عليك».

(٣) الجهم: عابس الوجه، طبق الرحا: شق الطاحونة وهي من حجر. الأثباج: ثبج كل شيء معظمه ووسطه وأعلاه .

(٤) شثن براثنه: غليظ خشن البراثن أي المخالب والزُّرْق: ج أزرق، بياض لا يطيف بالعظم كله ولكنه وضح في بعضه. شذاة زجاج: بقية من زجاج قديم. الشيء الخَلَق.

(٥) برقاء: لمَّاعة متلألئة. الخُلْق: كل شيء أملس ناعم. الديباج: الثوب الذي سداه ولحمته حرير (فارسية).

(٦) مُحتضران: ميتان: أم المنية: الحياة والأعوام. والنتاج: اسم لما تضعه البهائم.

(٧) العبرات: الدموع. وشواجي، الشجا: الهم والحزن .

(٨) أطم: ج آطام: القصر، الحصن المبني بالحجارة، كل بناء مرتفع.

ثم انثنيتُ وفي قميصي شاهدٌ   مما جرى من شاخبِ الأوداجِ[1]
أيقنتُ أَني ذو حِفاظٍ ماجدٌ   من نسل أملاكٍ ذوي أتْواجِ[2]
فلئن قُذِفْتُ إلى المنية عامداً   إني لخيرك بعد ذلك راجي
عَلِمَ النساءُ بأنني لا أنثني   إذ لا يثقْنَ بغيرة الأزواجِ

وحكي عن الطفيل بن عامر العمري قال: خرجت ذات يوم أريد الغارة وكنت رجلاً أحب الوحدة، فبينا أنا أسير إذ ضللت الطريق الذي أردته، فسرت أياماً لا أدري أين أتوجه حتى نفد زادي، فجعلت آكل الحشيش وورق الشجر حتى أشرفت على الهلاك ويئست من الحياة، فبينا أنا أسير إذ أبصرت قطيع غنم في ناحية من الطريق فملت إليها وإذا شاب حسن الوجه فصيح اللسان قال لي: يا ابن العم أين تريد؟ فقلت: أردت حاجة لي في بعض المدن وما أظنني إلّا قد ضللت الطريق. فقال: أجل إن بينك وبين الطريق مسيرة أيام فانزل حتى تستريح وتطمئن وتريح فرسك، فنزلت فرمى لفرسي حشيشاً وجاء إلي بثريد كثير ولبن ثم قام إلى كبش فذبحه وأجّج ناراً وجعل يكبّب لي ويطعمني حتى اكتفيت، فلما جنَّنا الليل[3] قام وفرش لي وقال: قم فارم بنفسك فإن النوم أذهب لتعبك وأرجع لنفسك، فقمت ووضعت رأسي، فبينا أنا نائم إذ أقبلت جارية لم تر عيناي مثلها قط حسناً وجمالاً فقعدتْ إلى الفتى وجعل كل واحد منهما يشكو إلى صاحبه ما يلقى من الوجد به فامتنع عليَّ النوم لحسن حديثهما، فلما كان في وقت السحر قامت إلى منزلها، فلما أصبحنا دنوت منه فقلت

---

(١) شخب شخْباً: اللَّبَن حلبه، واللبن سال. والودج: ج أوداج: عرق في العنق.
(٢) ذو حفاظ: ذو الذَّبِّ عن المحارم والمنع لها. أملاك: ج ملوك: صاحب الأمر والسلطة على أمة أو قبيلة أو بلاد. والتاج: ج أتواج وتيجان.
(٣) جَنَّنَا الليلُ: سترَنا الليلُ.

له: ممن الرجل؟ قال: أنا فلان بن فلان. فانتسب لي فعرفته فقلت لـه: ويحك إن أباك لسيّد قومه فما حملك على وضعك نفسك في هذا المكان؟ فقال: أنا والله أخبرك كنت عاشقاً لابنة عمي هذه التي رأيتها وكـانت هي أيضاً لي وامقة، فشاع خبرنا في الناس فـأتيت عمي فسألتـه أن يزوجنيهـا فقال: يا بني، والله ما سألتَ شططاً وما هي بآثر[1] عندي منك، ولكن الناس قد تحدثوا بشيء وعمّك يكره المقالة القبيحة، ولكن انظر غيرها في قومك حتى يقوم عمك بالواجب لك. فقلت: لا حاجة لي فيما ذكرت وتحمَّلتُ عليه بجماعـة من قومي فـردّهم وزوّجها رجـلًا من ثقيف له رئـاسة وقـدر فحملها إلى ههنا ـ وأشار بيده إلى خيم كثيرة بالقـرب منا ـ فضـاقت علي الدنيا برحبها وخرجت في أثرها، فلما رأتني فرحت فرحاً شديداً فقلت لها: لا تخبري أحداً أني منك بسبيل، ثم أتيت زوجها وقلت: أنا رجل من الأزد أصبت دماً وأنا خائف وقد قصـدتك لمـا أعرف من رغبتـك في اصطنـاع المعروف ولي بصر بالغَنَم إن رأيت أن تعطيني من غنمك شيئاً فأكون في جوارك وكنفك فافعل. قـال: نعم وكرامـة فأعـطاني مائـة شاة وقـال لي: لا تبعد بها من الحي وكانت ابنة عمي تخرج إلي كل ليلة في الوقت الذي رأيت وتنصرف، فلما رأى حسن حال الغنم أعطاني هذه فرضيت من الدنيا بما ترى. قال: فأقمت عنده أياماً، فبينا أنا نائم إذ نبهني وقـال: يا أخـا بني عامر، قلت له: ما شأنك؟ قـال: إن ابنة عمي قـد أبطأت ولم تكن هـذه عادتها ووالله ما أظن ذلك إلا لأمر حادث فحدثني، فجعلت أحدثه، فأنشأ يقول:

مـا بـالُ ميَّـةَ لا تـأتي كعـادتهـا ... هل هاجها طَربٌ أو صدَّها شُغُلُ؟
لـكنَّ قـلبيَ لا يَـعْـنيـهِ غيـرُكُـمُ ... حتى الممـات ولا لي غيـركم أمَـلُ

---

(١) وما هي بآثر: وما هي بأفضل.

لـو تعلمينَ الـذي بي من فـراقكمُ　　لمـا اعْتَذَرْتِ ولا طـابتْ لكِ العِللُ
نفسي فِـداؤُك قد أحلَلْتِ بي حُـرَقاً　　تكاد من حـرّهـا الأحشـاء تَنْفَصِـلُ
لـو كـان عـاديَـةٌ منـه عَلى جبـلٍ　　لـزلّ وانهـدّ من أركـانـه الجبـلُ

فوالله ما اكتحل بغمض حتى انفجر عمـود الصبح، وقـام ومرّ نحـو الحي فأبطأ عني ساعة ثم أقبل ومعه شيء وجعل يبكي عليه، فقلت لـه: ما هذا؟ قال: هذه ابنة عمي افترسها السبع فأكل بعضها ووضعها بالقرب مني فأوجع والله قلبي، ثم تناول سيفه ومر نحو الحي فأبطأ هنيهة ثم أقبل إليّ وعلى عاتقه ليث كأنه حمار فقلت له: ما هذا؟ قال: صاحبي. قلت: وكيف علمته؟ قال: إني قصدت الموضـع الذي أصـابها فيـه وعلمت أنه سيعـود إلى ما فضـل منها فجـاء قاصـداً إلى ذلك المـوضـع فعلمت أنـه هو فحملت عليه فقتلته، ثم قام فحفر في الأرض فأمعن وأخرج ثوباً جديداً وقال: يا أخا بني عامر، إذا أنا متُّ فأدرجني معها في هذا الثوب ثم ضعنا في هذه الحفرة وَهِـلِ[1] الترابَ واكتب هـذين البيتين على قبرنـا وعليك السلام:

كنـا على ظهرهـا والعيشُ في مَهَلٍ　　والـدهرُ يجمعنـا والدارُ والـوطنُ
فخـاننـا الـدهـرُ في تفـريق أُلفتِنـا　　واليوم يجمعنا في بـطنها الكفن

ثم التفت إلى الأسد وقال:

ألا أيهـا اللّيـثُ المُـدِلُّ بـنفسـه　　هبلت[2] لقد جرت يداك لنا حزنا
وغـادرتني فـرداً وقـد كنت آلفـاً　　وصيّـرتَ آفاقَ البـلادِ لنا سِجْنـا

---

(١) وهلِ التراب: من هال يهيل هيْلاً عليه التراب: صبَّه.
(٢) هبلت: أي ثكلتك أمك.

أأصْحَبُ دهــراً خــانني بفــراقهَــا؟ معــاذ إلّهي أن أكــونَ لـه خِـدنـا[1]

ثم قال: يا أخا بني عامر، إذا فرغت من شأننا فصح في أدبار هـذه الغنم فردها إلى صاحبها، ثم قـام إلى شجرة فـاختنق حتى مات، فقمت فأدرجتهما في ذلك الثوب ووضعتهمـا في تلك الحفرة، وكتبت البيتين على قبرهما ورددت الغنم إلى صاحبها، وسألني القوم فأخبرتهم الخبر، فخرج جماعة منهم فقالوا: والله لننحرن عليه تعظيماً له، فخرجوا وأخرجوا مائـة ناقة وتسامع الناس فاجتمعوا إلينا فنحرت ثلاثمائة ناقة ثم انصرفنا.

وقيل لما كان من أمر عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي ما كان قال الحجاج: اطلبوا لي شهاب بن حرقة السعدي في الأسرى أو القتلى فطلبوه فوجدوه في الأسرى، فلما أدخل على الحجاج قال له: من أنت؟ قال: أنا شهاب بن حرقة، قال: والله لأقتلنك، قال: لم يكن الأمير بالـذي يقتلني قال: ولـمَ؟ قال: لأن فيَّ خصالاً يرغب فيهن الأمير، قال: وما هن؟ قال: ضروب بالصفيحة[2]، هزوم للكتيبـة، أحمي الجار، وأذب عن الـذمار، وأجود على العسر واليسر غير بطيء عن النصر، قال الحجاج: مـا أحسن هذه الخصال فأخبرني بأشد شيء مرّ عليك قال: نعم أصلح الله الأمير:

بـيـنـــا أنــا أسـيــرُ ومــركــبــي وثــيــرُ
في عصبــة من قــومي فــي لـيــلـتي ويــومــي
يمضــون كــالأجــادل[3] في الـحـرب كالـبـواسـل
أنــا الـمــطاع فـيــهـمُ فــي كــل مــا يـليــهـمُ

(١) الخدن: ج أخدان: الحبيب، الصاحب.
(٢) الصفيحة، ج صفيح، وصفائح: السيف العريض.
(٣) الأجدال: ج أجادل: الصّقر.

فسرت خمساً عوما[1] وبعد خمس يوما
حتى وردت أرضا ما إنْ تُرَامُ عرضا
من بلد البحرين عند طلوع العين
فهجتهم نهارا ألتمس المُغارا[2]
حتى إذا كان السحرْ من بعد ما غاب القمرْ
إذا أنا بعير يقودها خفير
مُوقرةٍ[3] متاعا مقبلةٍ سراعا
فصلتُ بالسّنانِ مع سادةٍ فتيانِ
فَسُقْتُها جميعا أحثُّها سريعا
أريدُ رملَ عالجِ أمْعَجُ بالعناجِجِ[4]
أسيرُ في الليالي خَرْقاً[5] بعيداً خالي
وقد لقينا تعبا وبعد ذاك نصبا
حتى إذا هبطْنَا من بعد ما صعدْنا
عنَّت لنا بيدانه قد كان فيها عانه[6]
رميتها بقوسي في مَهَمْهٍ[7] كالترس

(١) عام عوماً في الماء: سَبَح.
(٢) هاج يهيج هياجاً وهيجاناً: ثار، تحرك، انبعث، اقتحم المُغار. والمَغارة: الكهف، والمُغار: موضع الغارة.
(٣) موقرة: محمَّلة، مثقلة.
(٤) عالج: موضع فيه رمل وأمعج: أسرع. العناجج: جياد الخيل.
(٥) خرق خرْقاً: القفرَ جابَهُ ومزَّقه، قَطَعَ المفازة.
(٦) عنَّتْ: ظهرت وبيدانة: تصغير بدنة الواحدة من الإبل والبقر ج بُدُن وبُدْن. والعانة: ج عون وعانات: القطيع من حمر الوحش.
(٧) المَهْمَه: المفازة البعيدة، المكان القفر. درمت: درم، درماً، القنفذ والأرنب ونحوهما، مشى ببطء والدَّرمَان: مقاربة الخطو في المشي.

حتى إذا ما أمعنَتْ — بالقفر ثم دَرِمَتْ
وردتُ قصراً مَنْهلا — في جوفهِ طعامٍ حلا
وعنده خُييمهْ — في جوفها نُعيْمه[1]
عزيزةٌ كالشمسِ — فاقتْ جميعَ الإنس
فَعُجْتُ مَهري[2] عندها — حتى وقفتُ معها
حَيَّيْتُ ثم ردّتْ — في لُطفٍ وحيّتْ
فقلتُ يا لعوبُ — والطفلةُ العروبُ
هل عندكم قِراءْ؟ — إذ نحن بالعَراءْ ؟
قالت نعمْ برُحْبِ — في لُطفٍ وقربِ
إرْبَعْ هنا عتيدا — ولا تكن بعيدا
حتى يجئْكَ عامرُ — مثلُ الهلالِ زاهِرُ
فعجت عن قريب — في باطن الكثيب[3]
حتى رأيت عامرا — يحمل ليثاً خادرا[4]
على عتيق سابحْ — كمثل الطود اللامحْ[5]

قال: وكان الحجاج متكئاً فاستوى جالساً، ثم قال: ويحك دعنا من السجع والرجز وخذ في الحديث. قال: نعم أيها الأمير، ثم نزل فربط

---

(١) وخييمة: تصغير خيمة، ونعيمة: تصغير ناعمة.
(٢) فعجتُ: فعطفت مهري وتأتي بمعنى: وقف، أقام.
(٣) الكثيب: ج كثب، وكثبان: التل من الرمل.
(٤) الخادر: الفاتر، لا حركة له.
(٥) عتيق: ج عتاق: الفرس الرائع. والسابح: السريع في الخيل، والطوْد: الجبل ج أطواد. اللامح: من لمح لمحاً البصر: امتد إلى الشيء. والنجم أو البرق لمع فهو لامح.

فرسه وجمع حجارة وأوقد عليها ناراً وشق عن بطـن الأسد وألقى مراقه في النـار فجعلت أسمع للحم الأسـد نشيشاً[1]، فقـالت له نعيمـة: قد جـاءنـا ضيف وأنت في الصيد، قال: فما فعل؟ قالت: ها هو ذاك بظهـر الكثيب والخيمة، فأومأت إلي فأتيتها فإذا أنا بغلام أمرد كأنَّ وجهه دارة القمر فربط فرسي إلى جنب فرسه ودعاني إلى طعامه فلم أمتنع من أكل لحم الأسـد لشدة الجوع فأكلت أنا ونعيمة منه بعضه وأتى الغلام على آخـره، ثم مال إلى زقٍ فيه خمر فشرب ثم سقاني فشربت ثم شرب الغلام حتى أتى على آخره، فبينا نحن كذلك إذ سمعت وقع حوافر خيل أصحابي فقمت وركبت فرسي وتناولت رمحي وصـرت معهم ثم قلت: يا غـلام خلِّ عن الجـارية ولك ما سواها: فقال: ويلك احفظ الممالحـة، قلت: لا بد من الجـارية فالتفت إليها وقال لها: قفي، ثم قال: يا فتيان هل لكم في العافية؟ وإلا[2] فارس وفارس، فبـرز إليه رجـل من أصحابي فقـال له الغـلام: من أنت؟ فلست أقاتل من لا أعرفه، ولا أقاتل إلا كفئاً أعرفه فقال: أنا عاصم بن كلبة السعدي فشدّ عليه وأنشأ يقول:

إنـكَ يـا عـاصمُ بي لـجـاهـلْ   إذْ رُمتَ أمـراً أنتَ عـنـه نـاكـلْ
إني كميٌّ[3] في الحـروبِ باسـلْ   ليثٌ إذا اصـطكَّ الـليـوثُ بـازلْ
ضـرّابُ هـامـاتِ العـدى مُنـازلْ   قتّـالُ أقـران الـوغى[4] مقـاتـل

ثم طعنـه فقتله وقال: يـا فتيان هـل لكم في العـافيـة؟ وإلا فـارس وفارس. فتقدم إليه آخر من أصحابي فقال له الغلام: من أنت؟ فقال: أنا

---

(١) نشيشاً: نشَّ نشًّا ونشيشاً: غلى، والماء في الكوز صوَّت واللحم سمع له صوت على القِدْر أو المِقلى أو النار.

(٢) العافية: السلامة. وإلاّ فارس وفارس: أي المبارزة.

(٣) الكمّي: الشجاع أو لابس السلاح لأنه يكمي نفسه أي يسترها بالدرع والبيضة.

(٤) أقران الوغى، القرن: سيد القوم، الوغى: الحرب.

صابر بن حرقة فشد عليه وأنشأ يقول:

إنـك والإلـهِ لـسـتَ صـابـراً على سِنـانٍ يـجلُبُ الـمقـادرا
ومُنْصَلٍ مثلِ الشهـابِ بـاتـرا[1] في كف قـرْمٍ يمنعُ الحـرائرا[2]
إنـي إذا رمـت آمـراً فـآسـرا يكونُ قَرْني في الحروب بائـرا[3]

ثم طعنـه فقتله وقال: يـا فتيان هـل لكم في العـافيـة؟ وإلا فـارس لفـارس، فلمـا رأيت ذلـك هـالني أمره وأشفقت على أصحـابي فقلت: احملوا عليه حملة رجل واحد فلما رأى ذلك أنشأ يقول:

الآن طـاب الـمـوتُ ثـم طـابـا إذ تـطلبـون رَخْصَـةً كَعـابـا[4]
ولا نريد بعدها عِتابا

فركبت نعيمة فرسها وأخذت رمحها فما زال يجالدنا ونعيمة حتى قتل منا عشرين رجلاً، فأشفقت على أصحابي فقلت: يا غلام قد قبلنا العافية والسلامة فقال: ما كان أحسن هذا لو كان أولاً ونزلنا وسـالمنا، ثم قلت: يا عامر، بحق الممالحة من أنت؟ قال: أنا عامر بن حرقة الطائي وهذه ابنة عمي ونحن في هذه البرية منذ زمان ودهر، ما مر بنا إنسي غيركم، فقلت: من أين طعامكم؟ قال: حشرات الطير، والوحش، والسباع، قلت: فمن أين شرابكم؟ قال: الخمر أجلبها من بلاد البحرين كل عام مرة أو مرتين، قلت: إن معي مائة من الإبل موقرة متاعاً فخذ منها حاجتك، فقال: لا أرب لي فيها ولو أردت ذلك لكنت أقدر عليـه، فارتحلنـا عنه منصـرفين. فقال

(١) المُنصل: ج مناصل السيف سمي بذلك لبروزه وصفائه وجلاله، الباتر: القاطع.
(٢) القَرْم: ج أقرام: السيد عظيم الشأن، ويمنع الحرائر: يحمي الحرائر.
(٣) القَرْن: الحبل المفتول من لحاء الشجر وهو هنا بمعنى النظير، الشبيه، الكفء، وبائر: خاسر، كاسد.
(٤) رخْصةً: ليّنة ناعمة، كعاب، وكاعب: الفتاة نهد ثديها: أي انتبر وأشرف.

الحجاج: الآن يا عدو الله طاب قتلك لغدرك بالفتى قال: كان خروجي على الأمير أصلحه الله أعظم من ذلك فإن عفا عني الأمير رجوت أن لا يؤخذني بغيره فأطلقه ووصله وردّه إلى بلده.

ضده

قال: دخل أبو زبيد الطائي على عثمان بن عفان في خلافته وكان نصرانياً فقال له: بلغني أنك تجيد وصف الأسد، فقال له: لقد رأيت منه منظراً وشهدت منه مخبراً لا يزال ذكره يتجدد على قلبي، قال: هاتِ ما مرّ على رأسك منه، قال: خرجت يا أمير المؤمنين في صيَّابةٍ[1] من أفناء قبائل للعرب ذوي شارة حسنة، ترتمي بنا المهاريُّ[2] بأكسائها القزوانيات، ومعنا البغال عليها العبيد يقودون عِنَاقَ الخيل نريد الحارث بن أبي شمر الغساني ملك الشام، فاخروط[3] بنا المسير في حمارة القيظ حتى إذا عصبت[4] الأفواه، وذبلت الشفاه، وشالت المياه، وأذكت الجوزاء المعزاء، وذاب الصَّيْخد[5]، وصرّ الجندب، وضايق العصفور الضب في

---

(١) صيَّابة: القوم خيارهم ولُبابهم. أفناء القبائل: أي لا يُعلم ممن هو. واحدها: فِنْوٌ.

(٢) المهاري: الإبل المَهْرِيَّة، نسبةً إلى «مَهْرة بن حيدان» والجمع: مهاريُّ ومهارٍ ومهارى، الأكساء القزوانيات الثياب المنسوبة إلى (قزوين) مدينة في إيران.

(٣) الخَروط: ج خُرُط: الدابة الجموح تجتذب رسنها من يد ممسكها وتذهب، وهذا مأخوذ من انخرط في الأمر: أي ركب رأسه: وحمارّة: شدة الحر والقيظ: شدة الحر، صميم الصيف.

(٤) عصبت الأفواه: يبس الريق على الفم، وشالت المياه: ارتفعت، جفَّت، وأذكت النار أوقدتها، والجوزاء: برج في السماء، المعزاء: ج معز ومعزاوات وأماعز المكان الصلب الكثير الحصى والحجارة.

(٥) الصَّيخد: أصخد الحر اشتد، صيخد الشمس: عينها، يقال: «أقبلت صياخيد الحر» =

وجاره، قال قائلنا: أيها الركب، غوروا[1] بنا في دوح هذا الوادي، فإذا وادٍ كثيرُ الدغـل، دائم الغلل، شجراؤه مغنـة، وأطياره مـرنة، فحـططنا رحـالنا بأصول دوحات كنهبلات[2]، فـأصبنا من فضـلات المزاود وأتبعنـاها بـالماء البَارد، فإنا لنصف حر يومنا ومماطلته ومـطاولته إذ صـرّ أقصى[3] الخيل أذنيه، وفحص الأرض بيديه، ثم ما لبث أن جال فحمحم، وبال فهمهم، ثم فعل فعله الذي يليه واحد بعد واحد، فتضعضعت الخيل وتكعكعت[4] الإبل، وتقهقرت البغال، فمن نافر بشكاله، وناهض بعقاله، فعلمنا أن قد أُتِينَا وأنه السبع لا شك فيه، ففزع كـل امرىءٍ منـا إلى سيفه، واستله من جُرُبَّانه[5] ثم وقفنَا له رِزْدَقا[6]، فأقبل يتـظالع في مشيتـه كأنـه مجنوب أو في هجـار، لصدره نَحيط، ولبـلاعيمـه[7] غـطيـط، ولـطرفـه وميض، ولأرساغه نقيض، كأنما يخبط هشيماً، أو يطأ صريماً، وإذا هامة كالمجن،

= وصر الجندب: الصر صوت الجندب. صرصريراً الشيء: صوَّت. الضب: حيوان من الزحافات شبيه بالحرذون، الوجار: جحر الضب وغيره.

(١) غار غوْراً: أتى الغوْر، ذهب في الأرض فهو غائر، الدوْح: ج أدواح: الشجرة العظيمة المُتَّسعة، بطن الوادي الضخم الكبير، الدَّغل: الشجر الكثير الملتف. الغَلَل: العطش.

(٢) شَجْـراء: الشجر الملتف كـالأجمة: مغنـة: غناء كثيـرة العشب والشجر، كنهبـلات، ج كنهبل بفتح الباء وضمها: الأشجار الضَخمة.

(٣) صرَّ الفرس بأذنه: سوَّاها ونصبها للاستماع، فحص الأرض: قلبها، حفرها برجله.

(٤) كعَّ يكع: جبن وضعف. الشِّكال: حبل تشد به قوائم الدابَّة، والعقال: حبل يشد به البعير في وسط ذراعه.

(٥) الجربّان: غمد السيف، قرابة: حمائل السيف (فارسية).

(٦) الرِزْدَق: الصف من الناس، وظلع ظلعاً: البعير غمز في مشيه، والظلع: العرجَ والغمز، مجنوب: مصاب في جنبه، يشكو من داء فيه، والخَبب: شبه الـظَّلع: الهِجار: حبـل يشد في رسغ رجل البعير ثم يشد إلى حقوه، ونحط نحيطاً: الفرس صات من الإعياء والتعب.

(٧) البلعوم ج بلاعيم: مجرى الطعام في الحلق، الغطيط: الهدير. =

وخد كالمسن، وعينان سجراوان كأنهما سراجان يقدان [١] وقصرة ربلة [٢] ولهزمة رهلة، وكند مغبط، وزور مفرط، وساعد مجدول، وعضد مفتول وكف شثنة البراسن إلى مخالب كالمحاجن[٣]، ثم ضرب بذنبه فأرهج، وكشر فأفرج عن أنياب كالمعاول مصقولة غير مفلولة، وفم أشدق كالغار الأخرق، ثم تمطى فأسرع بيديه، وحفر وِرْكيه برجليه حتى صار ظله مثليه، ثم أقعى[٤] فاقشعر، ثم مثل فاكفهر[٥]، ثم تجهّم فازبأر، فلا والذي بيته في السماء ما اتقيناه بأول من أخ لنا من بني فزارة، كان ضخم الجزارة [٦] فوهصه، ثم أقعصه، فقضقض متنه، وبقر بطنه فجعل يلغ في دمه، فذمرت [٧] أصحابي فبعد لأي ما استقدموه، فَكَرّ مقشعرًّ الزبرة كأن

= الرسغ: ج أرساغ: مفصل ما بين الساعد والكف، والساق والقدم. النقيص: من. تنقَّض: أحدث صوتاً: الهشيم: النبات اليابس المتكسر. الصريم: الأرض المحصود زرعها. الهامة: الرأس. المجن: الترس.

(١) السَّجْر والسَّجْرة في العين: هو أن يخالط بياضها حمرة.

(٢) قصْرة ربلة: القصْرة: خلاف الطويل، ربلة: أصول الأفخاذ، ذات لحم غليظ، لهزمة عظم ناتىء في اللحى تحت الأذن، رهلة: رخوة، الكَند: ج كنود: مجتمع الكتفين من الإنسان، مغبط: غبط غبطاً، الكبشَ: جسَّ ظهره بيده ليتعرَّف سمنه: أي سمين. الزور: القوة، والزَّوْر: أعلى وسط الصدر.

(٣) المحجن، والمحجنة: العصا المنعطفة الرأس. أرهج: أثار الغبار.

(٤) أقعى: جلس على ذنبه واسته. مَثَل مثلاً: الشيء زعزعه، حرَّكه. وهي هنا تحرك.

(٥) اكفهر: عبس، اكفهر الليل: اشتد ظلامه. ازبأرَّ: انْتَعَش، بيته: هكذا وجدت في نسخ أخرى وهو تجديف فالله سبحانه لا يحدّه مكان ولا زمان.

(٦) الجزارة: اليدان، والرجلان، والرأس سميت كذلك لأن الجزَّار يأخذها أجرة له، وهصه: كسره ودقُّه، قعص وأقعص: الرجل قتله مكانه، أجهز عليه. قضقض قضقضةُ العظمَ: صات عند كسره، والأسد فريسته: كسرها ومزَّقها. المتن: ج مِتان ومُتون: الظهر ومتن الشيء ما ظهر منه.

(٧) ذَمَر: لام، حض وسَمع اللوم، لأى يلأى لأياً: أبطأ واحتبس، وقع في اللأْواء: الشدة والمحنة. الزُّبْرة: ج زُبَر وزُبُر: الشعر المجتمع بين كتفي الأسد وغيره.

به شيهماً [1] حولياً، فاختلج من دوني رجلاً أعجر ذا حوايا، فنفضه نفضة فتزايلت أوصاله، وانقطعت أوداجه، ثم نهم [2] فقرقر، ثم زفر فبربر، ثم زأر فجرجر، ثم لحظ، فوالله لخلت البرق يتطاير من تحت جفونه عن شماله ويمينه، فارتعشت الأيدي واصطكت الأرجل، وأطت الأضلاع[3]، وارتجّت الأسماع، وحملجت العيون وانخزلت المتون ولحقت الظهور البطون ثم ساءت الظنون.. وأنشأ يقول:

عَبوسٌ شَمُوسٌ [4] مُصْلَخِدٌّ خُنَابِسٌ ... جريءٌ على الأرواح للقَرْنِ قاهرُ
منيعٌ ويحمي كلَّ وادٍ يرومُه ... شديدُ أصول الماضِغيْنِ مكابر
براثنه شثن وعيناه في الدجى ... كجمر الغضا في وجهه الشرُّ ظاهر
يُدِلُّ بأنيابٍ حِدادٍ كأنها ... إذا قلَّص الأشداقَ عنها خناجر

فقال عثمان: أكفف لا أم لك، فلقد أرعبت قلوب المسلمين، ولقد وصفته حتى كأني أنظر إليه يريد يواثبني. وقيل في المثل: هو أجبن من

---

(١) الشَّيْهم: ج شياهم: ذكر القنافذ، حوْلي: ج حواليّ من أتى عليه حول من ذي حافر وغيره، اختلج: انتزع، جذب، انتفض، الأعجر: العظيم البدن، الحويّة: ج حوايا، ما تحوَّى من الأمعاء.

(٢) نَهِمَ: نَهَماً ونهامةً: كثر أكله، شره وحرص وأفرط الشهوة في الأكل. قَرْقر: أحدث صوتاً هديراً. البرْبَرة: الصوت وكلام من غضب، ثرثر وبربر التيس للهياج: نبّ، الجرجرة: الصوت، تردد هدير الفحل.

(٣) أطَّ، أطيطاً: صات، صاح، ارتجف، حملج الحبلَ: فتله شديداً، وحَملج: نظر بتحديق، حدَّد النظر إليه. خزل خزْلاً: الشيء قطعه، تخزَّل: تقطع، انخزل في كلامه: تقطَّع.

(٤) شموس: شمس شموساً الفرس: كان لا يمكّن أحداً من ركوبه أو إسراجه ولا يكاد يستقر. صلخد: قوي. خُنابِس: القديم الشديد الثابت. الماضغان: أصول اللّحْيَين عند منبت الأضْراس. الغضا: مفرده غَضَاة: شجر من الأثل خشبه صلب وجمره يبقى زمناً طويلاً لا ينطفىء.

هجرس ـ وهو القرد ـ وذلك أنه لا ينام إلا وفي يده حجر مخافة أن يأكله الذئب.

وحدّثنا رجل بمكة قال: إذا كان الليل رأيت القرود تجتمع في موضع واحد، ثم تبيت مستطيلة واحداً في أثر واحد، في يد كل واحد منهم حجر لئلا ترقد فيأتيها الذئب فيأكلها، وإن نام واحد وسقط الحجر من يده فزع فتحرك الآخر فصار قدامه، فلا تزال كذلك طول الليل فتصبح وقد صارت مع الموضع الذي باتت فيه على ثلاثة أميال أو أكثر جبناً.

وقيل: هو أجبن من صافر، وهو طائر يتعلق برجليه وينكس رأسه ثم يصفر ليلته كلها خوفاً من أن ينام فيؤخذ.

وقيل أيضاً: هو أجبن من المنزوف ضرطاً، وكان من حديثه أن نسوة من العرب لم يكن لهن رجل، فتزوجت واحدة منهن برجل كان ينام إلى الضحى، فإذا انتبه ضربنه وقلن له: قم فاصطبح، ويقول: لو لعادية نَبَّهْتُنِّي ـ أي خيل عادية عليكن مغيرة فأدفعها عنكن ـ فلما رأيْن ذلك فرحن، وقلن: إن صاحبنا لشجاع، ثم أقبلن وقلن: تعالين نجربه فأتينه كما كنَّ يأتينَّه فأيقظنه فقال: لو لعادية نبهتُنِّي. فقلن له: نواصي الخيل معك، فجعل يقول: الخيل الخيل ويضرط حتى مات، فضرب به المثل.

وقيل لجبان: انهزمت فغضب الأمير عليك، قال: يغضب الأمير وأنا حي أحبّ إلى من أن يرضى وأنا ميت.

وقيل لبعض المُجَّان: ما لك لا تغزو؟ قال: والله إني لأبغض الموت على فراشي فكيف أمر إليه ركضاً؟

قال: وقال الحجاج لحميد الأرقط وقد أنشده قصيدته يصف فيها الحرب: يا حميد هل قاتلت قط؟ قال: لا، أيها الأمير إلا في النوم قال:

وكيف كانت وقعتك؟ قال: انتبهت وأنا منهزم.

ومما قيل في ذلك من الشعر:

ظلّتْ تشجعني هندٌ بتضليلِ وللشجاعة خَطْبٌ غيرُ مجهولِ
هاتي شُجاعاً لغير القتل مَصرعُه أوجدْكِ ألفَ جبانٍ غيرَ مقتولِ
الحربُ توسِعُ من يصلي بها حَرَباً[١] يتم العيالِ وإثْكالَ المثاكيلِ
اسمُ الوغى اشتقَّ من غوغاءَ يُحْرِبُها يَغدونَ للموتِ كالطيرِ الأبابيلِ
واللّهِ لو أنَّ جبريلاً تكفَّلَ لي بالنصر ما خاطَرتْ نفسي لجبريلِ
هل غيرُ أنْ يعذروني أنني فَشِلٌ فكلُّ هذا نعمْ فاغروا بتعزيلي[٢]
إنْ أعتذرْ من فِراري في الوغى أبداً كان اعتذاري رديداً[٣] غيرَ مقبولِ
اسمعْ أخبرْكَ عن بأسي بِذِي سَلَبِ[٤] خلافَ بأسِ المساعيرِ البهاليلِ
لما بدتْ منهمُ نحوي عَشَوْزَنَةٌ[٥] شَمَّاءُ تَشْرعُ في عَرضي وفي طولي
فقلتُ ويْحكمُ لا ترهبوا جَلَدي رمحي كسيرٌ وسيفي غيرُ مصقولِ
لما اتَّقيتهمُ طوعاً بذات يدٍ وانْصعْتُ أطوي الفلا ميلاً إلى ميلِ
اللّهُ خلصني منهمْ وفلسفتي حتى تخلَّصتُ مخضوبَ السراويلِ

وقال آخر:

أضحتْ تشجعني هندٌ فقلتُ لها إن الشجاعةَ مقرونٌ بها العطبُ
لا والذي حجّتِ الأنصارُ كعبَتَه ما يشتهي الموتَ عندي مَنْ له أربُ

---

(١) صلى اللحم يصليه صلياً: شواه، أو ألقاه في النار للإحراق. [أرى أن تبني للمجهول: يُصلى] الحرب الهلاك والويل: له.
(٢) تعزَّل الشيء واعتزله: تنحى عنه جانباً، انصرف عنه.
(٣) الرديد: أي المردود.
(٤) السلب: ما يُسلب من القتيل وغيره، المساعير ج مسعور: الذي اشتد جوعه وعطشه، البهلول ج بهاليل: السيد الجامع لكل خير.
(٥) عشوزنة: صلابة، والعَشْوَز، والعَشَوَّز: الشديد الخَلْق، الغليظ.

للحـــربِ قـــومٌ أَضَـــلَّ اللَّهُ سَعْيَهُمُ إذا دعتْهمْ إلى حَـوْمـاتهـا وثبـوا
ولستُ منهـمْ ولا أهـــوى فِعـالَـهُم لا القتلُ يعجبني منهمْ ولا السَّلَبُ

وقال آخر:

يقـــول ليَ الأميـــرُ بِغيـــرِ جُـــرمٍ تقـدّمْ حين حـلَّ بنـا المِـراس[١]
فـمـا لي إنّ أطـعْتُـكَ فـي حيـاةٍ ولا لي غيـرَ هـذا الـرأسِ راس

محاسن حب الوطن

قال عمر بن الخطاب: لولا حب الوطن لخرب بلد السوء، وكان يقال: بحب الأوطان عمرت البلدان.

وقال جالينوس[٢]: يتروّح العليل بنسيم أرضه كما تتروّح الأرض الجدبة ببَللِ المطر.

وقال بُقراط[٣]: يُداوى كل عليل بعقاقير أرضه فإن الطبيعة تنزع إلى غذائها، ومما يؤكد ذلك قول أعرابي وقد مرض بالحضر فقيل له: ما تشتهي؟ فقال: مخيضاً[٤] روياً وضباً مشوياً.

وقد قيل: أحق البلدان بنزاعك إليها بلد أمصَّكَ حلب رضاعه.

وقيل: احفظ أرضاً أرسخك رضاعها وأصلحك غذاؤها، وارع حمًى اكْتَنَفَكَ فناؤه.

---

(١) المِراس والمَرَاسة: الشدة والقوة.

(٢) جالينوس: طبيب يوناني له اكتشافات خطيرة في عالم التشريح، ائتم به أئمة أطباء العرب.

(٣) بُقراط: أشهر الأطباء الأقدمين، ولد في جزيرة كوس (اليونان) نقلت بعض مصنّفاته إلى العربية منها: «تقدمة المعرفة» و«طبيعة الإنسان».

(٤) المخيض: اللبن استخرج زبده.

وقيل: لا تشك بلداً فيه قبائلك.

وقيل: من علامة الرشد أن تكونَ النفسُ إلى أوطانها مشتاقة وإلى مولدها تواقة.

وحدثنا بعض بني هاشم قال: قلت لأعرابيٍ من أين أقبلت؟ قال: من هذه البادية قلت: وأين تسكن منها؟ قال: مساقط الحمى حمًى ضرية[1] ما إنْ لعمر الله أريد بها بدلاً، ولا أبتغي عنها حولاً، حفتها الفلوات فلا يملولح ماؤها، ولا تحمى تربتها، ليس فيها أذى ولا قذى، ولا وعك ولا موم[2]، ونحن بأرفه عيش وأوسع معيشة وأسبغ نعمة، قلت:ممَّ طعامكم؟ قال: بخٍ بخٍ[3] الهبيد والضِّباب واليرابيع مع القنافذ والحيات، وربما والله أكلنا القد[4] واشتوينا الجلد فلا نعلم أحداً أخصب منا عيشاً، فالحمد لله على ما رزق من السعة، وبسط من حسن الدعة.

وقيل لأعرابي: كيف تصنع بالبادية إذا انتصف النهار وانتعل كل شيء ظلّه؟ فقال: وهل العيش إلا ذاك؟ يمشي أحدنا ميلاً فيرفَضُّ عرقاً كأنه الجُمان[5]، ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساه وتقبل الرياح من كل جانب فكأنه في إيوان كسرى.

---

(١) مساقط: المفرد مَسْقط، مسقط الرأس: المَوْلد. ضريّة: اسم امرأة سمي الموضع باسمها. سكنه بنو كلاب في الجاهلية وكان من قبل منازل الملوك من بني آكل المرار.

(٢) الوعْك: الألم من التعب أو المرض. المُوم: الجدري.

(٣) بخٍ بخٍ، يقال للرضا والاستحسان، اسم فعل، معناه: عظم الأمر وفخم. الهبيد: الحنظل أو حبُّه: اليَربوع: ج يرابيع: نوع من الفأر قصير اليدين، طويل الرجلين من القواضم. القنفذ: ج قنافذ، م قنفذة دويبة من فصيلة القنفذيات أعلاها مغطى بريشٍ حادٍ تقي به نفسها.

(٤) القَدّ: اللحم المقدّد، جلد السَّخلة.

(٥) ارفضَّ عرقا: سال وترشَّش. تفرَّق وذهب. والجُمان واحدته جُمانة: اللؤلؤ (فارسية).

وقال بعض الحكماء: عسرك في بلدك خير من يسرك في غربتك.

وقيل لأعرابي: ما الغبطة؟ قال: الكفاية، ولزوم الأوطان والجلوس مع الإخوان. وقيل: فما الذل؟ قال: التنقل في البلدان، والتنحي عن الأوطان.

وقال بعض الأدباء: الغربة ذلّة، والذلّة قلّة.

وقال الآخر: لا تنهضن عن وطنك ووكرك فتنقصك الغربة وتصمتك الوحدة. وشبهت الحكماء الغريب باليتيم اللطيم الذي ثكل أبويه فلا أم ترأمه ولا أب يحدب عليه.

وكان يقال: الغريب عن وطنه ومحل رضاعه كالغرس الذي زايل أرضه وفقد شربه فهو ذاوٍ لا يثمر وذابل لا ينضر.

وكان يقال: الجالي عن مسقط رأسه كالعير الناشز عن موضعه الذي هو لكل سبع فريسة، ولكل كلب قنيصة، ولكل رام رمية. وأحسن من ذلك وأصدق قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾[2] فقرن جلَّ ذكره الجلاء عن الوطن بالقتل. وقال تقدست أسماؤه: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾[3] فجعل القتال بإزاء الجلاء وقال النبي ﷺ: «الخروج عن الوطن عقوبة». ومما قيل في ذلك من الشعر:

---

(١) سورة الحشر: الآية ٣.

(٢) سورة النساء: الآية ٦٦.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٤٦.

إذا ما ذكرتُ الثغرَ فاضتْ مدامعي وأضحى فؤادي نُهْبةً للهماهمِ
حنيناً إلى أرضٍ بها اخضرّ شاربي وحُلّتْ بها عني عقودُ التمائم
وألطفُ قومٍ بالفتى أهلُ أرضِه وأرْعاهُمُ للمرءِ حقُّ التقادم

وقال آخر:

أحنّ إلى أرضِ الحجاز وحاجتي خيامٌ بنجدٍ دونها الطرفُ يقصُرُ
وما نظري من نحو نجدٍ بنافعي أجلْ لا ، ولكنّي على ذاك أنظُرُ
ففي كلِّ يومٍ نظرةٌ ثم عَبْرةٌ لعينيكِ يجري ماؤها يتحدَّرُ
متى يستريح القلبُ؟ إمَّا مُجاورٌ حزينٌ، وإمَّا نازحٌ يتذكَّرُ

وقال آخر:

نَقِّلْ فؤادَكَ حيثُ شئتَ مِنَ الهوى ما الحبُّ إلَّا للحبيبِ الأولِ
كم منزلٍ في الأرضِ يألَفُهُ الفتى؟ وحنينُهُ أبداً لأوّلِ منزِلِ

وقال ابن أبي السرح : قرأت على حائطٍ بيتي شعر. . وهما:

إن الغريبَ ولو يكونُ ببلدةٍ يُجْبَى إليهِ خَراجُها لغريبُ
وأقلُّ ما يلقى الغريبُ من الأذى أن يُستَذَلَّ وأنْ يقالَ كذوب

قال: وقرأ على حائط بعسكر مكرم:

إن الغريبَ إذا ينادي مُوجَعاً عند الشدائدِ كان غيرَ مجابِ
فإذا نظرتَ إلى الغريبِ فكنْ له مُترحِّماً لتباعدِ الأحبابِ

وقال: وقرأت على حائط ببغداد:

غريبُ الدار ليس له صديقٌ جميعُ سؤالِهِ أينَ الطريقُ؟
تعلّقَ بالسؤالِ لكل شيءٍ كما يتعلّقُ الرجلُ الغريق
فلا تجزع فكلّ فتىً سيأتي على حالاته سَعَةٌ وضيق

قال: ووجدت على حائطٍ مكتوباً:

عليك سلامُ اللَّهِ يا خير مَنْزلٍ ... رحلنا وخلَّفناكَ غيرَ ذميمِ
فإن تكنِ الأيامُ فرّقْنَ بيننا ... فما أحدٌ من ريْبها بسليم

وقال آخر:

وإنَّ اغترابَ المرءِ من غير حاجةٍ ... ولا فاقةٍ يسمو لها لعجيبُ
فحسبُ امرىءٍ ذلاًّ ولو أدرك الغِنى ... ونال ثَراءً أنْ يُقال غريبُ

وقال آخر:

إنّ الغريبَ وإن يكنْ في غبطةٍ ... لمعذَّبٌ وفؤادُهُ محزونُ
ومتى يكونُ مع التغرّبِ عاشقاً ... ومفارقاً يا ربُّ كيف يكون؟

وقال آخر:

إنّ الغريبَ ذليلٌ أين ما سلكا ... لو أنه مَلِكٌ كلَّ الورى مَلَكَا
إذا تغنَّى حمامُ الأيْكِ في غُصُنٍ ... حنَّ الغريبُ إلى أوطانه فبكى

وقال آخر:

سلِ اللَّهَ الإيابَ من المغيبِ ... فكم قد ردّ مثلَك من غريبِ؟
وسلِّ الحزنَ منكَ بحسنِ ظنٍ ... ولا تيأسْ من الفرجِ القريبِ

وقال آخر:

تصبَّرْ ولا تعجلْ وُقيتَ من الردى ... لعلَّ إيابَ الظاعنين قريبُ
فقلتُ وفي قلبي جوًى لفراقها ... ألا لا تصبِّرْني فلستُ أجيبُ

وقال آخر:

أعاذلَ حبي للغريب سجيّةٌ ... وكلُّ غريبٍ للغريب حبيبُ

لئن قلتُ لم أجزعْ من البين إنْ مضوا　　لـطيَّتِهِـمْ إنِّـي إذاً لـكـذوبُ
بلى غبَّراتُ[1] الشوقِ أضرمتِ الحِشا　　ففـاضتْ لها من مقلتيَّ غُـروبُ[2]

وقال آخر:

إذا اغتـرب الكـريمُ رأى أمـوراً　　مـجلّلةً يَشيـبُ لـهـا الـولـيـدُ

وقال آخر:

مـا كـنـتُ أحـسَـبُ أن يـكـو　　ن كـذا تـفـرُّقُـنـا سـريـعـا
بـخـل الـزمـان عـليَّ أن　　نـبقـى كـمـا كـنـا جـمـيـعـا
فـأحـلَّنـي فـي بـلدةٍ　　وأحـلَّك الـبـلدَ الـشـسـيـعـا[3]
قـد كـنـت أنـتـظرُ الـوصـا　　لَ فَصِـرتُ أنتـظرُ الـرجـوعـا

وقال آخر:

نسيمُ الخُزامى والريـاحُ التي جرتْ　　بنجدٍ على نجدٍ تـذكـرني نجـدا
أتاني نسيمُ السِّدرِ[4] طيباً إلى الحمى　　فـذكـرني نجـداً فقـطَّعني وَجْـدا

وفي معناه الـدعاء للمسافر بأيمن طـالع وَأَسَـرِّ طائـر، ولا كبا بك مركب، ولا أشت[5] مذهب ولا تعذر عليك مطلب. . سهل الله لك السير، وأنا لك القصد وطوى لك البعد بمسرّة الظفـر وكرامـة المدخـر. . . على الطائر الميمون والكوكب السعد إلى حيث تتقاصـر أيدي الحـوادث عنك

---

(١) بلى غُبَّـرات: ج غُبَّـر. وفي الحـديث: «فلم يبق إلاَّ غُبَّرات من أهـل الكتـاب» يقال: بها غُبَّرٌ من لبن أي بالنـاقة. قـال الأزهري: الغـابر هنـا يحتمل الـوجهين يعني الماضي والباقي.
(٢) غروب مفردها غرب: عرق في العين يسقي لا ينقطع، الدمع، مسيل الدمع.
(٣) الشيع: البعيد.
(٤) السِّدر: شجر النَّبق.
(٥) أشتَّ: شتًّا وشتاتاً وشتيتاً: تفرَّق: وأشتَّ الأشياءَ: فرَّقها. المذهب: الطريق.

وتتقاعس نوائب الأيام دونك بسهولة المطلب ونجاح المنقلب، كـان الله لك في سفرك خفيراً وفي حضرك ظهيـراً، بسعي نجيح، وأوْبٍ سـريح، بَصَّـرك الله محلك، وهداك رحلك، وسـرَّ بأوبتـك أهلك، ولا زلت آمنـاً مقيماً، وظاعناً بأسعد جُد[1] وأنجح مطلب وأسر منقلب وأكرم بدأة وأحمد عاقبة، اشخص مصحـوباً بـالسلامـة والكلاءة[2]، آيبـاً بالنجـح والغبطة، محوطاً فيما تطالعه بالعناية والشفقة. . في ودائع الله وكنفه وجواره وستـره وأمانه وحفظه وذمامه. وقال رجل للنبي ﷺ: إني أريد سفراً، فقال: «في كنف الله وستــره زودك الله التقـوى ووجهـك إلى الخيـر حيث مـا كنت أستخلف الله فيك وأستخلفه منك»[3]. وقال الشاعر:

فـي كَنَـفِ الـلَّهِ وفـي سِـتْـرِهِ ... من ليس يـخلو الـقلبُ مـن ذكـرِهِ

وقال آخر:

اِرحــل أبـا بِشْـرٍ بــأيْمنِ طـائـرٍ ... وعلى السعـادةِ والسَّـلامـةِ فـانْـزِلِ

ضـــده

قال بعض حكماء الفلاسفة: اطلبـوا الرزق في البعـد فإنكم إن لم تكسبوا مالاً غنمتم عقلاً كثيراً.

وقال آخر: لا يألف الوطن إلا ضيِّق العطن[4].

---

(١) ظعن: رحل، والجَد، بفتح الجيم: البخت والحُظوة، الحظ والرزق.

(٢) كلأ اللَّهُ فلاناً: حرسه وحفظه.

(٣) الحديث: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إني أريد سفراً فأوصني، فقال له: «في حفظ الله وكنفه، زوّدك الله بالتقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير حيث ما كنت» عن أنس رضي الله عنه أخرجه الطبراني في الدعاء وهو عند الترمذي وحسنه دون قوله: «في حفظ الله وكنفه» إحياء علوم الدين للغزالي: جـ ٢، ص ٢٥٣.

(٤) العطن: ج معاطن: مبرك الإبل ومربض الغنم حول الماء.

وقيل: لا توحشنك الغربة إذا آنستك النعمة.

وقيل: الفقير في الأهل مصروم[1] والغني في الغربة موصول. وقال: لا تستوحش من الغربة إذا أنست مصروماً.

وقيل: أوحش قومك ما كان في إيحاشهم أنسك واهجر وطنك ما نَبَتْ عنه نفسك، وأنشد:

لا يمنعنَّكَ خَفضُ العيشِ في دَعةٍ | نزوعُ نفسٍ إلى أهلٍ وأوطانِ
تلقى بكلِّ بلادٍ إنْ حَلَلْتَ بها | أهلاً بأهلٍ وجيراناً بجيران

وقال آخر:

نَبَتْ بكَ الدارُ فَسِرْ آمناً | فللفتى حيثُ انتهى دارُ

وفي معناه «الدعاء على المسافر» بالبارح الأشأم، والسانح الأعضب، والصرد[2] الأنكد، والسفر الأبعد، لا استمرت به مطيته، ولا استتبت به أمنيته، ولا تراخت منيّته، بنحس مستمر وعيش مر، لا قَرَى إذا استضاف ولا أمِنَ إذا خاف.

ويقال: إن علياً عليه السلام لما اتصل به مسير معاوية قال: لا أرشد الله قائده، ولا أسعد رائده، ولا أصاب غيثاً، ولا سار إلاّ ريثاً، ولا رافق إلا ليثاً، أبعده الله وأسحقه، وأوقد على أثره وأحرقه، لا حطَّ الله رحله،

---

(١) مصروم: مقطوع.

(٢) البارح: ضد السانح، والبارح: ما مرَّ من الطير والوحش من يمينك إلى يسارك، والعرب تتطيَّر به لأنه لا يمكنك أن ترميه حتى ينحرف، والسانح: ما مرَّ بين يديك من جهة يسارك إلى يمينك والعرب تتيمَّن به لأنه أمكن للرمي والصيد. الأعضب م عضباء ج عُضْب: المكسور القَرْن، المشقوق الأذن، وصَرِدَ صَرْداً الرجلُ (الكلمة من الأضداد): كان قوياً على احتمال البرد، وكان ضعيفاً على احتمال البرد والمعنى الثاني يناسب الموضوع.

ولا كشف محلّه، ولا بشّر به أهلَه، لا زكا[1] له مطلبٌ ولا رَحُبَ له فيه مذهبٌ ولا يسَّر له مَراماً ولا فرّج الله له غمَّه ولا سرَّى همَّه، لا سقاه الله ماءً ولا حل عقده ولا أورى زنده ، جعله الله سفر الفراق وعصا الشقاق[2]، وأنشد:

بأنكدِ طائرٍ وبشرِّ قال[3] — لأبعدِ غايةٍ وأخسِّ حالِ
بحدّ السندّ[4] حيث يَكونُ مني — كما بين الجَنوبِ إلى الشمالِ
غريباً تمتطي قَدَمَيْكَ دهراً — على خوفٍ تحن إلى العيالِ

وقال آخر:

إذا استقلَّتْ بك الركابُ — فحيثُ لا درّتِ السحابُ[5]
وحيثُ لا يُبْتَغى فلاحٌ — وحيثُ لا يُرتجى إيابُ
وحيثُ ما دُرْتَ فيه يوماً — قابلَكَ الذئبُ والغرابُ

وقال آخر:

فسرْ بالنحوسِ إلى بلدةٍ — تُعَمّر فيها ولا تُرزقُ[6]
ولا تَمْرعُ الأرضُ من زهرةٍ — ولا يُثمِرُ الشجرُ المورق[7]

---

(١) زكاءً ، وزكُوًّا الرجل : تنعم وكان في خصب، نما ، زاد . وتتمة الجملة كما وردت في المحاسن والمساويء لا سقاه الله غماماً ولا يسّر له مراماً .

(٢) عصا الشقاق : يقال: شقَّ فلان العصا أي فارق الجماعة.

(٣) والقال والقيل: ما يقول الناس ويتناقلونه والشاعر يتمنى هنا أن يقول الناس يمهجوّه شراً.

(٤) السّند : مقاطعة في باكستان على حدود الهند .

(٥) درّت السحاب: أمطرت.

(٦) يدعو له بطول العمر وقلة الرزق .

(٧) وتمرع : تخصب .

تـغيضُ الـبـحـارُ بـهـا مـرَّةً ويُكـدي السحابُ بها المُغْـدِقُ [1]

وقال آخر :

أدنى خُـطاك الـهـنـدُ والـصيـنُ وكـلُّ نـحسٍ بـك مـقْـرونُ
بـحيـثُ لا يـأنسُ مسـتـوحشٌ وحيـثُ لا يـفـرَحُ مـحـزونُ
تـهـوي بـك الأرضُ إلى بـلدةٍ لـيس بـهـا مـاءٌ ولا طـيـنُ

محاسن الدهاء والحيل

الهيثم بن الحسن بن عمار قال: قدم شيخ من خزاعة أيام المختار[2] فنزل على عبد الرحمٰن بن أبان الخزاعي فلما رأى ما تصنع سوقة[3] المختار من الإعظام جعل يقول: يا عباد الله أَبا المختارِ يُصنع هذا؟ والله لقد رأيته يتتبع الإماء بالحجاز، فبلغ ذلك المختار، فدعا به وقال: ما هذا الذي بلغني عنك؟ قال: الباطل، فأمر بضرب عنقه، فقال: لا والله لا تقدر على ذلك، قال: ولِمَ؟ قال: أما دون أن أنظر إليك وقد هدمت مدينة دمشق حجراً حجراً وقتلت المقاتلة وسبيت الذرية ثم تصلبني ع ى شجرة على نهر؟ والله إني لأعرف الشجرة الساعة وأعرف شاطىء ذلك النهر. فالتفت المختار إلى أصحابه فقال لهم: إن الرجل قد عرف الشجرة، فحبس حتى إذا كان الليل بعث إليه فقال: يا أخا خزاعة أَوَ مزاحٌ عند

(١) غاض يغيض غيضاً : الماء نقص أو غار ونضب ، ويُكدي أي يبخل السحاب المثقل بالمطر فلا يمطر ، والمغدق صفة للسحاب .

(٢) المختار بن أبي عبيد الثقفي : صاحب الكوفة كان من أنصار علي رضي الله عنه وكان قبل ذلك أموياً ثم زبيرياً وكان ذا أهداف سياسية كبيرة ظهر في ميدان السياسة سنة ٦٦ هجرية .

(٣) السُّوقَة : الرعية من الناس، للواحد والجمع والمذكر والمؤنث لأن الملك يسوقهم ويصرفهم إلى ما شاء من أمره وقد وردت في المحاسن والمساوىء ص ١٦٠ شيعة بدلاً من سوقة .

القتل؟ قال: أنشدك الله أن أقتل ضياعاً. قال: وما تطلب ههنا؟ قال: أربعة آلاف درهم أقضي بها ديني. قال: ادفعوها إليه وإياك أن تصبح بالكوفة فقبضها وخرج عنه.

قال: كان سراقة البارقي من ظرفاء أهل الكوفة فأسره رجل من أصحاب المختار فأتى به المختار فقال له: أسرتُ هذا! قال سراقة: كذب والله ما أسرني إلاّ رجل عليه ثياب بيض على فرس أبلق. فقال المختار: ألا إن الرجل قد عاين الملائكة خلوا سبيله. فلمّا أفلت منه أنشأ يقول:

ألا أبلغْ أبا إسحاقَ أني رأيتُ البُلْقَ دُهْماً مُصْمتاتِ
أُرِي عينيَّ ما لم تُبصراه كلانا عالمٌ بالتُرهّاتِ
كَفَرتُ بوحيكمْ وجعلتُ نَذراً عليَّ قتالَكمْ حتى المماتِ

وعنه قال، كان الأحوص بن جعفر المخزومي يتغدى في دير اللّج في يوم شديد البرد ومعه حمزة بن بيض وسراقة البارقي، فلما كان على ظهر الكوفة وعليه الوبر والخز وعليهما الأطمار[1] قال حمزة لسراقة: أين يذهب بنا في البرد ونحن في أطمار؟ قال: سأكفيكه، فبينما هو يسير إذ دنا منهم راكب مقبل فحرّك سراقة دابته نحوه وواقفه ساعة ولحق بالأحوص فقال له: ما خبرك الراكب؟ قال: زعم أن خوارج خرجت بالقطقطانة[2] قال: بعيد. قال: إن الخوارج تسير في ليلة ثلاثين فرسخاً وأكثر، وكان الأحوص أحد الجبناء فثنى رأس دابته وقال: ردّوا طعامنا نتغدى في المنزل. فلما حاذى منزله قال لأصحابه: ادخلوا ومضى إلى خالد بن عبد الله

---

(١) الطِّمْر، ج أطمار: الثوب البالي.
(٢) القُطْقُطانة: موضع بالكوفة كان سجن النعمان بن المنذر.

القسري[1] فقال: خرجت خارجة بالقطقطانة. فنادى خالد في العسكر فجمعهم ووجّه خيلاً تركض نحو اللجّ لتعرف الخبر، فأعلموه أنه لا أصل للخبر. فقال للأحوص: من أعلمك بهذا؟ قال: سراقة. قال: وأين هو؟ قال: في منزلي، فأرسل إليه من أتاه به، قال: أنت أخبرته عن الخارجة؟ قال: ما فعلت أصلح الله الأمير. قال له الأحوص: أتكذبني بين يدي الأمير؟ قال خالد: ويحك أصدقني، قال: نعم أخرجنا في هذا البرد وقد ظاهر الخز والوبر ونحن في أطمارنا هذه، فأحببت أن أرده. فقال له خالد: ويحك وهذا مما يتلاعب به؟ وسراقة هذا هو القائل:

قالوا سُراقةُ عِنّينٌ[2] فقالت لهم: اللّهُ يعلم أني غيرُ عنّينِ
فإنْ ظننتمْ بيَ الشَيء الذي زعموا فقرّبوني من بنت ابن ياسين[3]

وذكروا أن شبيب بن يزيد الخارجي مرّ بغلام مستنقع في الفرات، فقال له: يا غلام أخرج إني أسألك، فعرفه الغلام فقال له: إني أخاف أفآمن أنا إذا خرجت حتى ألبس ثيابي؟ قال: نعم فخرج وقال: والله لا ألبسها اليوم، فضحك شبيب وقال: خدعتني ورب الكعبة، ووكل به رجلاً من أصحابه يحفظه أن لا يصيبه أحد بمكروه.

قال: وكان رجل من الخوارج يقول:

فمنا يَزيدُ والبَطِينُ وَقَعْنَبُ ومنا أميرُ المؤمنينَ شبيبُ

فسار البيت حتى سمعه عبد الملك بن مروان، فأمر بطلب قائله،

---

(١) خالد عبد الله القسري: والي العراق، عينه هشام عبد الملك وولّى أخاه أسداً على خراسان وذلك لأن الخليفة هشام انحاز إلى اليمنيين تخلصاً من القيسيين الذين قوي نفوذهم ثم لم يلبث أن انقلب إلى المُضريّين فعزل خالداً وسجنه ومات بالتعذيب في سجن الكوفة.

(٢) العنّين: من لا يأتي النساء عجزاً أو لا يريديهن. والاسم العنانة.

(٣) ياسين: وردت في المحاسن والمساوىء ص ٨٨، «يامين».

فأُتِيَ به، فلما وقف بين يديه قال: أنت القائل:

ومنا أميرُ المؤمنين شبيب؟

قال: لم أقل هكذا يا أمير المؤمنين إنما قلت:

ومنا أميرَ المؤمنين شبيب[1]

فضحك عبد الملك وأمر بتخلية سبيله، فتخلّص بدهائه وفطنته لإزالة الإعراب من الرفع إلى النصب.

وزعموا أن عمرو بن معديكرب[2] هجم في بعض غاراته على شابة جميلة منفردة فأخذها، فلما أمعن بها بكت، فقال: ما يبكيك؟ قالت: أبكي لفراقي بنات عمي، هن مثلي في الجمال وأفضل مني، خرجت معهن فانقطعنا عن الحي، قال: وأين هنّ؟ قالت: خلف ذلك الجبل وودت إذ أخذتني أنك أخذتهن معي، فامض إلى الموضع الذي وصفته، فمضى إلى هنالك فما شعر بشيء حتى هجم عليه فارس شاكٌّ في السلاح[3] فعرض عليه المصارعة فصرعه الفارس[4] ثم عرض عليه ضروباً من المناوشة، فغلبه الفارس في كلها، فسأله عمرو عن اسمه فإذا هو ربيعة بن مكدام الكناني، فاستنقذ الجارية.

وعن عطاء أن مخارق بن عفان ومعن بن زائدة تلقيا رجلاً ببلاد

---

(١) في حال ضم كلمة أميرُ كان المعنى شبيب أمير المؤمنين وفي حال أميرَ (بالفتح) أصبح المعنى يا أمير المؤمنين منا شبيب .

(٢) عمرو بن معديكرب من الشعراء الفرسان في الجاهلية وأصحاب النجدة والقوة البدنية أدرك الإسلام فأسلم وشهد معركة القادسية شعره قليل متفرق في كتب الأدب . توفي في حصار نهاوند .

(٣) شاكُّ السلاح وشاكٌّ في السلاح: كان مسلَّحاً تسليحاً تاماً وغارقاً بالسلاح .

(٤) فصرعه الفارس: أي طرحه أرضاً .

الشرك ومعه جارية لم يريا أحسن منها شباباً وجمالاً فصاحا به خلّ عنها، ومعه قوس فرمى بها وهابا الإقدام عليه، ثم عاد ليرمي فانقطع وتره، وسلّم الجارية وأسند في جبل كان قريباً منه فابتدرا الجارية وكان في أذنها قُرْطٌ[1] فيه درة فانتزعاه من أذنها فقالت: وما قدر هذه؟ لو رأيتما درّتين معه في قلنسوته[2] وفي القلنسوة وتر قد أعدّه ونسيه من الدَّهش. فلما سمع قول المرأة ذكر الوتر أخرجه وعقده في قوسه، فولّيا ليست لهما همة إلا النجاة، وخلّيا عن الجارية.

وعن الهيثم قال: كان الحجاج حسوداً لا يتم له صنيعة حتى يفسدها، فوجّه عمارة بن تميم اللخمي إلى عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث[3] فظفر به وصنع ما صنع، ورجع إلى الحجاج بالفتح ولم ير منه ما أحب، وكره منافرته وكان عاقلاً رفيقاً، فجعل يرفق به ويقول: أيها الأمير أشرف العرب أنت، من شرّفته شرف ومن وضعته اتضع، وما ينكر ذلك لك مع رفقك ويمنك ومشورتك ورأيك، وما كان هذا كله إلاّ بصنع الله وتدبيرك، وليس أحد أشكر لبلائك مني ومن ابن أشعث، وما خَطَرَهُ[4] حتى عزم الحجاج على المسير إلى عبد الملك، فأخرج عمارة معه وعمارة يومئذٍ على أهل فلسطين أمير، فلم يزل يلطف بالحجاج في مسيره ويعظمه حتى قدموا على عبد الملك، فلما قامت الخطباء بين يديه وأثنت على الحجاج فقال: يا أمير المؤمنين، سل الحجاج عن طاعتي ومناصحتي

---

(١) القُرط ج أقراط: ما يُعلَّق في شحمة الأذن من درةٍ ونحوها.

(٢) القَلَنسُوَة: ج قلانس: تلبس في الرأس.

(٣) عبد الرحمٰن محمد بن الأشعث: قائد كِنْديّ سيَّره الحجاج بالجيش إلى سجستان وأهانه بالكلام فانقلب عبد الرحمٰن بالثورة على الحجاج وحالف عليه رتبيل ملك كابلستان، لكنه انكسر في وقعة دير الجماجم ورمى نفسه من مشارف حصن فمات.

(٤) وما خطره: هكذا في الأصل. وأظنها [وما إن خطر له].

وبلائي، قال الحجاج: يا أمير المؤمنين صنع وصنع ومن بأسه ونجدته وعفافه كذا وكذا، وهو أيمن الناس نقيبة، وأعلمهم بتدبير وسياسة، ولم يبق في الثناء عليه غاية. فقال عمارة: قد رضيتَ يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، فرضي الله عنكَ حتى قالها ثلاثاً في كلها يقول: قد رضيت، قال عمارة: فلا رضي الله عن الحجاج يا أمير المؤمنين ولا حفظه، ولا عافاه، فهو والله السيّيء التدبير الذي قد أفسد عليك أهل العراق، وألّب الناس عليك، وما أُتِيتَ إلّا من قِبَلِهِ ومن قلّة عقله وضعف رأيه وقلّةِ بصره بالسياسة، فلك والله أمثالها إن لم تعزله، فقال الحجاج: مه يا عمارة، فقال: لا مَهْ، ولا كرامة، كل امرأة له طالق، وكل مملوك له حر إن سار تحت راية الحجاج أبداً، قال: إني أعلم أنه ما خرج هذا منك إلا عن معتبة ولك عندي العتبى[1]، وأرسل إليه ليرجع إليه، فقال: ما كنت أظن أن عقلك على هذا أرجع إليه، بعد الذي كان من طعني عليه وقولي عند أمير المؤمنين ما قلت فيه: لا ولا كرامة.

ضده

قيل في المثل: «هو أحمق من عجل»[2]، وهو ابن لجيم وذلك أنه قيل له: ما سميت فرسك، ففقأ عينه وقال: سميته الأعور. فقال الشاعر فيه:

رمْتني بنو عجلٍ بداءِ أبيهمُ ... وأيُّ آمرىءٍ في الناسِ أحمقُ من عجْلِ؟
أليس أبوهمْ عار عَيْن جواده[3] ... فصارتْ به الأمثال تُضرَبُ في الجهلِ؟

---

(١) العُتبى: الرضى يقال: «أعطاه العتبى» أي الرضا.

(٢) عجل بن الجيم. قال أبو عبيدة: أرسل ابن العجل فرساً في حلبة (سباق) فجاء سابقاً فقال لأبيه: ماذا أسميه؟ قال: إفقأ إحدى عينيه وسمِّه الأعور فضرب به المثل في الحمق.

(٣) عار عوراً: صيَّره أعور، ذهب حسّ إحدى عينيه.

وقيـل: «هو أحمق من هبنَّقـة»[1]، وبلغ من حمقه أنـه ضلّ لـه بعير فجعل ينادي من وجد بعيري فهـو له، فقيـل له: ولمَ تنشـده؟ قال: وأين حلاوة الظفر والوجدان؟[2]. واختصمت إليه الطُّفاوة وبنو راسب[3] في رجل ادّعى هؤلاء وهؤلاء فيه، فقالوا: قد رضينـا بحكم أول طالـع يطلع علينـا فطلع عليهم هبنقة، فلما رأوه، قالوا: انظروا بالله من طلع علينا، فلما دنا قصوا عليه القصـة: فقال هبنقـة: الحكم في هذا بيّنٌ اِذهبـوا به إلى نهـر البصرة فألقوه فيه فإن كان راسبياً رسب، وإن كان طفاوياً طفـا[4]، فقـال الرجل: لا أريد أن أكون من أحد هذين الحيين ولا حاجة لي في الديوان.

وقيل: «هو أحمق من دغة»[5] وهي مارية بنت مغنج تزوجت في بني العنبـر وهي صغيرة، فلمـا ضربهـا المخاض ظنت أنهـا تـريـد الخـلاء، فخرجت تتبرز، فصاح الولد، فجاءت منصرفة[6]، فصاحت: يا أمـاه هل يفتح الجَعْر فاه؟ قالت: نعم، ويدعو أباه، فسبَّتْ بنو العنبر بذلك، فقيل: بنو الجَعْراء.

---

(١) هبنّقة: هو يزيد بن نزوان وكنيته أبو نافع من بني قيس ويقال له: ذو الودعات فقد جعل في عنقه قلادة من ودع مع طول لحيته فسئل عن ذلك فقال: لئلا أضل، وذات ليلة سرق أخوه القلادة وتقلدها، فأصبح هبنقة فرآها في عنق أخيـه! فقال: أخي أنت أنـا فمن أنا؟

(٢) الوجدان، من وجد يجد وجْداً ووجوداً ووِجداناً المطلوبَ: أصابه وأدركه وظفر به بعـد ذهابه.

(٣) الطُّفاوة، بنو الطُّفاوة بن أعصر: هم ثعلبة وعامر ومعاوية وأمهم الطُّفاوة وإليها ينسبـون وبنو راسب: حي من أحياء العرب.

(٤) طفا يطفو: علق فوق الماء ولم يرسب.

(٥) دغة: هي مارية بنت مفنج من بني عجل بن نجيم تزوجت في بني العنبـر بن عمرو بن تميم.

(٦) منصرفة: أي منكفئة عنه، والجَعْر: ما يبس من العَذِرةِ (الغائط) في المجْعَر، والمجْعَر والجعْراء: الدُّبر، الاسْت.

وقيل: «هو أحمق من باقل»[1] وكان اشترى عنزاً بأحد عشر درهماً، فسئل، بكم اشتريت العنز؟ ففتح كفيه وفرق أصابعه وأخرج لسانه يريد أحد عشر درهماً، فعيروه، وبذلك قال الشاعر:

يلومون في حُمقِهِ باقلاً ... كأنَّ الحماقةَ لم تُخْلقِ

فلا تُكثِروا العذلَ في عِيِّهِ ... فللصَّمتُ أجملُ بالأمْوقِ[2]

خروجُ اللسانِ وفتْحُ البنانِ ... أحبُّ إلينا من المنطقِ[3]

ومما قيل فيه أيضاً من الشعر:

يا ثابتَ العقلِ كم عاينتَ ذا حُمُقٍ ... الرزقُ أغرى بهِ من لازم الجربِ[4]

فإنني واجدٌ في الناسِ واحدةً ... الرزقُ أروغُ[5] شيءٍ عن ذوي الأدبِ

وخَصلةً ليس فيها من يخالفُني ... الرزقُ والنَّوك[6] مقرونانِ في سَببِ

وقال آخر:

أرى زَمَناً نوكاهُ أسعدُ خلقِهِ ... على أنه يَشقى به كلُّ عاقلِ

---

(١) باقل الرِّبْعي: هو ابن عمرو بن ربيعة الإيادي، ضرب به المثل في العيّ والبلاهة في الجاهلية.

(٢) الموق ج أمواق: الحمق في غباوة.

(٣) خروج اللسان: أي عصيانه وتمرده يقال: خرجت الرعية على الملك أي تمرَّدتْ. وفتحُ البنان: أطراف الأصابع، الأصابع. يعني: عصيان اللسان بعدم الكلام وفتح البنان بالكتابة أو بالسيف أحب من النطق وأبلغ من الكلام.

(٤) الجرب: داء يحدث في الجلد بثوراً صغاراً لها حكة شديدة يقول: يا أيها العاقل كم شاهدت أحمق الرزق أغرى به: أي ألصق به وأولع من حيث لا يحمله عليه حامل يلازمه كالجرب الملازم للجلد.

(٥) راغ روْغاً وَرَوَغاناً: مال وحاد عن الشيء.

(٦) النَّوك: مفردها أنْوَك: الأحمق والسبَّب: ج أسباب. الطريق، الحبْل، المودة وعلاقة القرابة يقال: «تقطَّعت بهم الأسباب» أي الوصل والمودات. ويقال: «تعاطى الأسباب» أي أخذ وأعطى طلباً لتحصيل ما يحتاج إليه أمر المعيشة كما يقال: «انقطعت عنه الأسباب» أي ما يتسبب به أي يتوصل به إلى المعيشة.

علا فوقَه رجلاه والرأسُ تحتَه فكبَّ الأعالي بارتفاعِ الأسافلِ

وقال آخر:

كم من قويٍّ قويٍّ في تقلبه مُهذَّبِ اللُّبِ عنه الرزقُ منحرفُ

ومن ضعيفٍ ضعيفِ العقلِ مختلطٍ كأنه من خليج البحرِ يَغْترفُ

محاسن المفاخرة

قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[١]. وسمع رسول الله ﷺ رجلاً ينشد بيتاً من شعر:

إني امرُؤٌ حِمْيريٌّ حين تَنْسِبُني لا من ربيعةَ آبائي ولا مُضرِ

فقال له: ذلك الأم لك وأبعد عن الله ورسوله.

وقال بعضهم:

إذا مُضَر الحمراءُ[٢] كانتْ أُرومتي وقام بنصري خازمٌ وآبنُ خازِمِ

عطستُ بأنفٍ شامخٍ وتناولتْ يداي الثريَّا قاعداً غيرَ قائم

وحدثنا شعيب بن إبراهيم، عن علي بن زيد، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد المطلب بن ربيعة قال: مرّ العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه بنفرٍ من قريش وهم يقولون: إنما محمّد في أهله مثل نخلة نبتت في كناسة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فوجد منه[٣] فخرج حتى قام فيهم خطيباً، ثم

---

(١) الحديث: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذٍ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي وأنا أول شافع، وأول مشفَّع ولا فخر» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه كلهم عن أبي سعيد (حديث حسن) الجامع الصغير جـ ١، ص ٤١٣.

(٢) مضر الحمراء: مضر بن نزار أبو قبيلة وهو مضر الحمراء سمي بذلك لولعه بشرب اللبن الماضر أو لبياض لونه. وقال القتيبي: العرب تسمي الأبيض أحمر فلذلك قيل: مضر الحمراء.

(٣) فوجد منه: غضب وحزن.

قال: «أيها الناس: من أنا؟ قالوا: أنت رسول الله: قال: أفأنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم؟ إن الله عز وجل خلق خلقه فجعلني من خير خلقه، ثم جعل الخلق الذي أنا منهم فريقين فجعلني من خير الفريقين من خلقه، ثم جعل الخلق الذي أنا منهم شعوباً فجعلني في خيرهم شعباً، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني من خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً وخيركم والداً، وإني مباه لكم: قم يا عباسٍ، فقام عن يمينه، ثم قال: قم يا سعد، فقام عن يساره، فقال: يقرب امرؤ منكم عمًّا مثل هذا وخالاً مثل هذا؟»[1].

وحدثنا سنان بن الحسن التستري، عن إسماعيل بن مهران العسكري، عن أبان بن عثمان، عن عكرمة، عن ابن عباس رحمهما الله تعالى، عن عليٍّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه، قال: «لما أُمِر رسول الله ﷺ أن يعرض نفسه على القبائل خرج وأنا معه وأبو بكر، وكان أبو بكر عالماً بأنساب العرب فوقفنا على مجلس من مجالس العرب عليهم الوقار والسكينة، فتقدم أبو بكر فسلّم عليهم فردّوا عليه السلام، فقال: ممن القوم؟ فقالوا: من ربيعة، قال: من هامتها أم لهازمها[2]؟ قالوا: بل من

(١) الحديث: لم أجده بلفظه وإنما ورد: «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم إلى آخر النسب الشريف، وما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما، فأخرجت من بين أبوَي فلم يصبني شيء من عهد الجاهلية، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي فأنا خيركم نسباً وخيركم أباً» (حديث متفق عليه، الجامع الصغير جـ ١، ص ٢٦٨٢) رواه البيهقي عن أنس رضي الله عنه. كما ورد حديث آخر: «إن الله خلق الخلق فجعلني في خير فرقهم وخير الفرقتين، ثم تخيَّر القبائل فجعلني في خير قبيلة، ثم تخيَّر البيوت فجعلني في خير بيوتهم فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً» للترمذي عن العباس رضي الله عنه حديث صحيح الجامع الصغير جـ ١، ص ٢٦٥.

(٢) اللَّهزمة. ج لهازم: عظم ناتىء في اللّحى تحت الأُذن وهما لهزمتان يريد أن يقول: من الرأس أم من الحواشي؟

هامتها العظمى. قال: وأي هامتها؟ قالوا: ذهْل، قال: ذهْل الأكبر أم ذهل الأصغر؟ قالوا: بل الأكبر، قال: فمنكم عوف الذي كان يقال: لا حر بوادي عوف؟ قالوا: لا، قال: أفمنكم بسطام بن قيس صاحب اللواء ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا، قال: أفمنكم جساس بن مرة حامي الذمار ومانع الجار؟ قالوا: لا، قال: أفمنكم المزدلف صاحب العمامة؟ قالوا: لا، قال: أفأنتم أخوال الملوك من كِنْدة؟ قالوا: لا، قال: أفأنتم أصهار الملوك من لخم قالوا: لا، قال: فلستم من ذهل الأكبر إذاً أنتم من ذهل الأصغر». فقام إليه أعرابي غلام حسن بقل وجهه[1] فأخذ بزمام ناقته ورسول الله ﷺ واقف على ناقته يسمع مخاطبته، فقال:

لنا على سائلنا أنْ نسألهْ والعِبْءُ لا تَعْرِفُهُ أو تَحْمِلَهْ[2]

يا هذا، إنك قد سألتنا أية مسألة شئت فلم نكتمك شيئاً، فأخبرنا ممن أنت؟ فقال أبو بكر: من قريش، فقال: بخْ بخٍ أهل الشرف والرئاسة، خبرني من أي قريش أنت؟ قال: من بني تميم بن مرة، قال: أَفمنكم قصي بن كلاب الذي جمع القبائل من فهر فكان يقال له: مجمع؟ قال أبو بكر: لا قال: أفمنكم هاشم الذي يقول فيه الشاعر:

عمرو العلى هَشَم الثريدَ لقومه ورجالُ مكة مسنتونَ عجافُ[3]

قال أبو بكر: لا، قال: أفمنكم شيبة الحمد الذي كان وجهه يضيء في الليلة الداجية مطعم الطير، قال: لا، قال: أفمن المفيضين بالناس أنت؟ قال: لا، قال: أفمن أهل الرفادة أنت؟ قال: لا، قال: أفمن أهل السقاية أنت؟ قال: لا، قال: أفمن أهل الحجابة أنت؟ قال: لا، قال: أما

---

(١) حسن بقل وجهه: طلع شعر وجهه.

(٢) أو تحمله: يعني أو أن تحمله.

(٣) مُسْنتون: مجدبون، سنت القومُ: أصابهم الجدب والقحط. وعام سَنِت: جدب، وعجفت عجفاً وعجوفاً الدابة: هزلت، وبلاد عجاف: غير ممطرة.

والله لو شئت لأخبرتك لست من أشراف قريش. فاجتذب أبو بكر زمام ناقته منه كهيئة المغضب، فقال الأعرابي:

صادف درَّ السيل[1] درٌّ يدفَعُهْ ... في هَضْبةٍ ترفعُهُ وَتَضَعُهْ

فتبسم رسول الله ﷺ، قال عليٌّ كرم الله وجهه: فقلت يا أبا بكر: لقد وقعت من هذا الأعرابي على باقعة[2]، قال: أجل، يا أبا الحسن، ما من طامّة إلا وفوقها طامّة وإن البلاء موكل بالمنطق.

قال: وأتى الحسن بن علي رضي الله عنهما معاوية بن أبي سفيان وقد سبقه ابن عباس رحمه الله، فأمر معاوية بإنزاله، فبينا معاوية مع عمرو بن العاص، ومروان بن الحكم، وزياد المدعي إلى أبي سفيان[3] يتحاورون في قديمهم ومجدهم، إذ قال معاوية: قد أكثرتم الفخر، ولو حضركم الحسن بن علي ، وعبد الله بن عباس لقصرا من أعنتكم[4] ، فقال زياد: وكيف ذاك يا أمير المؤمنين وما يقومان لمروان بن

---

(١) درَّ السيل : في جميع بيت الشعر لا معنى لها والذي أراه : صادف درأ السيل درأ يدفعه وفي الحديث : « إدرأوا الحدود بالشبهات » أي ادفعوا ، قالها دغفل لأبي بكر رضي الله عنه .

(٢) باقعه: ج بواقع: الطائر الذي يرد المستنقعات خوف أن يصاد، الرجل العارف الذي لا يدّعي، الداهية.

(٣) زياد المدعى إلى أبي سفيان: زياد ابن سمية كانت أمةً للطبيب الحارث بن كلدة فولدت له ولدين هما نافع وأبو بكرة فأنكر لون أبي بكرة وقيل له: إن جاريتك بغي فزوجها عبيداً (وهو عبد لابنه) فولدت على فراشه زياداً وكان الكثيرون في الجاهلية يكرهون إماءهم على البغاء طمعاً في عرض الدنيا وذات يوم خرج أبو سفيان ثملاً فقصد صاحبة راية البغاء حيث كانت تنصب للبغايا راية للدلالة عليهن. فقدمت له سمية فواقعها وولدت له زياداً على فراش عبيد. ثم اعترف أبو سفيان به فيما بعد لنجابته وألحقه بنسبه.

(٤) لقصّرا من أعنتكم ج عنان : سير اللجام والمعنى : قصّرا لجامكم في المفاخرة .

الحكم في غرب منطقه[1] ولا لنا في بواذخنا؟ فـابعث إليهما حتى نسمـع كلامهما، فقال معاوية لعمرو: ما تقول في هـذا الليل؟ فـأبعثُ إليهما في غد. فبعث معاوية بابنه يزيد إليهما، فأتيا فدخلا عليه، وبدأ معاوية فقال: إني أجلّكما وأرفع قدركما عن المسامرة بالليل، ولا سيما أنت يا أبا محمد فإنك ابن رسول الله ﷺ وسيّد شباب أهل الجنة، فشكر له، فلما استويا في مجلسهما علم عمرو أن الحدة ستقع به، فقال: والله لا بـد أن أتكلم فإن قُهِـرْتُ فسبيلُ ذلك، وإن قَهَرْتُ أكون قد ابتدأت.

فقال: يا حسن إنا قد تفاوضنا فقلنا: إن رجال بني أميـة أصبر على اللقاء، وأمضى في الوغـاء، وأوفى عهداً، وأكـرم خيماً، وأمنـع لما وراء ظهورهم من بني عبد المطلب.

ثم تكلم مروان بن الحكم فقال: كيف لا يكون ذلك وقد قارعناهم فغلبناهم وحاربناهم فملكناهم، فإن شئنا عفونا وإن شئنا بطشنا.

ثم تكلم زياد فقال: ما ينبغي لهم أن ينكروا الفضل لأهله ويجحدوا الخير في مظانه، نحن الحملة في الحروب، ولنا الفضل على سائر الناس قديماً وحديثاً.

فتكلم الحسن بن عليٍّ رضي الله عنـه فقـال: ليس من الحـزم أن يصمت الـرجل عنـد إيراد الحجـة، ولكن من الإفـك أن ينـطق الـرجـل بالخنا[2] ويصور الكذب في صورة الحق، يا عمرو افتخاراً بالكذب وجراءة على الإفك، ما زلت أعرف مثالبك الخبيثة أبـديها مـرة بعد مـرة، أتذكـر مصابيح الدجى، وأعلام الهدى، وفرسان الطراد، وحتوف الأقران وأبنـاء

---

(١) غـرب منطقـه: تدفقـه في الكلام، فصـح وأتى بـالغـرائب من الكـلام، البـواذخ: الشواهق، الشوامخ.

(٢) الخَنَا: الفحش من الكلام.

الطعان، وربيع الضيفان، ومعدن العلم، ومهبط النبوة؟ وزعمتم أنكم أحمى لما وراء ظهوركم، وقد تبين ذلك يوم «بدر» حين نكصت الأبطال، وتساورت الأقران[1] واقتحمت الليوث، واعتركت المنية، وقامت رحاها على قطبها[2]، وفرت عن نابها[3] وطار شرار الحرب، فقتلنا رجالكم، ومنَّ النبي ﷺ على ذراريكم، وكنتم لعمري في هذا اليوم غير مانعين لما وراء ظهوركم من بني عبد المطلب.

ثم قال: وأما أنت يا مروان، فما أنت والإكثار في قريش وأنت ابن طليق وأبوك طريد؟ تتقلب في خزاية إلى سوأة[4] وقد أوتي بك إلى أمير المؤمنين يوم الجمل فلما رأيت الضرغام قد دميت براثنه واشتبكت أنيابه كنت كما قال الأول:

* بصبصنَ ثم رميْنَ بالأبعار[5] *

فلما منَّ عليك بالعفو، وأرخى خناقك بعد ما ضاق عليك، وغصصت بريقك لا تقعدُ منا مقعد أهل الشكر، ولكن تساوينا وتجارينا، ونحن من لا يدركنا عار ولا يلحقنا خزاية.

ثم التفت إلى زياد وقال: وما أنت يا زياد وقريش ما أعرف لك فيها أديماً صحيحاً، ولا فرعاً نابتاً، ولا قديماً ثابتاً، ولا منبتاً كريماً، كانت أمك

---

(١) تساورت الأقران: تواثب بعضهم على بعض. الأقران: ج قرن: الأمثال في العمر، والشجاعة.

(٢) الرحى: ج أرحية، ورحيّ: الطاحون. القطب: ج أقطاب: حديدة في طبق الرحى الأسفل يدور عليها الطبق الأعلى.

(٣) فرّت عن نابها: كشفت عن نابها.

(٤) السوأة: الفاحشة، العورة.

(٥) بصبص: حرَّك الذنب يقول واصفاً والده علياً رضي الله عنه: ليث إذا سمعت الأسود زئيره تخاف وتحرك أذنابها وتقذف أبعارها خوفاً.

بغياً يتداولها رجالات قريش وفجّار العرب، فلما ولدت لم تعرف لك العرب والداً فادعاك هذا - يعني معاوية - فما لك والافتخار؟ تكفيك سمية، ويكفينا رسول الله ﷺ، وأبي سيد المؤمنين الذي لم يرتد على عقبيه، وعماي حمزة سيد الشهداء، وجعفر الطيار في الجنة، وأنا وأخي سيدا شباب أهل الجنة.

ثم التفت إلى ابن عباس فقال: إنما هي بغاث[1] الطير انقض عليها البازي، فأراد ابن عباس أن يتكلم فأقسم عليه معاوية أن يكف فكف، ثم خرجا.

فقال معاوية: أجاد عمرو الكلام أولاً لولا أن حجته دُحضتْ، وقد تكلم مروان لولا أنه نَكَصَ[2] ثم التفت إلى زياد فقال: ما دعاك إلى محاورته؟ ما كنتَ إلا كالحجل في كفِّ العقاب. فقال عمرو: أفلا رميت من ورائنا؟ قال معاوية: إذاً كنت شريككم في الجهل، أفأفاخر رجلاً رسول الله ﷺ جدّه، وهو سيد من مضى ومن بقي، وأمه فاطمة سيدة نساء العالمين؟ ثم قال لهم: والله لئن سمع أهل الشام ذلك أنه للسوأة السّوآء[3] فقال عمرو: لقد أبقى عليك ولكنه طحن مروان وزياداً طحن الرحى بثفالها[4] ووطئهما وطء البازل القراد بمنسمه[5]. فقال زياد: والله لقد

---

(١) البغاث: طائر بطيء الطيران. وكل طائر ليس من الجوارح يصاد يقال له: بغاث.

(٢) نكص: ارتد، رجع عما كان عليه، أحجم.

(٣) السَّوْآء: القبيحة.

(٤) طحن الرحى بثفالها: الثفل والثافل: ما استقر تحت الشيء من كدره قال زهير:

* فتعرككم عرك الرحى بثفالها *

أي على ثفالها أو مع ثفالها أي حال كونها طاحنة، لأنهم لا يثفلونها إلّا إذا طحنت.

(٥) المنسم: خف البعير، والقراد: الواحدة: قُردة، وقُرادة ج قردان، وقراد: دويبة تتعلق =

فعل، ولكنك يا معاوية تريد الإغراء بيننا وبينهم، لا جرم[1] والله لا شهدت مجلساً يكونان فيه إلا كنت معهما على من فاخرهما، فخلا ابن عباس بالحسن رضي الله عنه فقبّل بين عينيه، وقال: أفديك يا ابن عمي والله ما زال بحرك يزخر وأنت تصول حتى شفيتني من أولاد البغايا. ثم إن الحسن رضي الله عنه غاب أياماً، ثم رجع حتى دخل على معاوية وعنده عبد الله بن الزبير فقال معاوية: يا أبا محمد، إني أظنك تعباً نصباً فأتِ المنزل فأرح نفسك، فقام الحسن رضي الله عنه فخرج، فقال معاوية لعبد الله بن الزبير: لو افتخرت على الحسن، فأنت ابن حواري[2] رسول الله ﷺ وابن عمته، ولأبيك في الإسلام نصيب وافر، فقال ابن الزبير: أنا له، ثم جعل ليلته يطلب الحجج، فلما أصبح دخل على معاوية، وجاء الحسن رضي الله عنه فحياه معاوية وسأله عن مبيته فقال: خير مبيت وأكرم مستضاف، فلما استوى في مجلسه قال له ابن الزبير: لولا أنك خوَّارٌ في الحروب غيرُ مقدام ما سلمت لمعاوية الأمر، وكنت لا تحتاج إلى اختراق السهوب، وقطع المراحل والمفاوز تطلب معروفه وتقوم ببابه، وكنت حرياً أن لا تفعل ذلك وأنت ابن علي في بأسه ونجدته. فما أدري ما الذي حملك على ذلك؟ أضعف حال أم وَهْي نَحيزة[3] ؟ ما أظن لك مخرجاً من هذين الحالين، أما والله لو استجمع لي ما استجمع لك لعلمت أنني

= بالبعير ونحوه وهي كالقمل للإنسان: البازل: البعير الذي طلعت أنيابه، يقول: وطىء مروانَ وزياداً كوطء البعير البازل بخفِّهِ القِرَادَ العالقَ به.

(١) لا جَرَم واللّهِ: أقسم والله.

(٢) الحواريّ: الناصح، الحميم، الناصر، ومنهم الحواريون: رسل السيد المسيح سموا كذلك لخلوص نيتهم ونقاء سريرتهم.

(٣) وَهْيُ نحيزة: وهى وهْياً: ضعف، استرخى، الثوب بلي وتخرق، النحيزة: الطبيعة يقال: هو كريم النحيزة، أي كريم الطبيعة.

ابن الزبير وإني لا أنكص عن الأبطال وكيف لا أكون كذلك وجدتي صفية بنت عبد المطلب وأبي الـزبير حـواريُّ رسول الله ﷺ وأشـد الناس بـأساً وأكرمهم حسباً في الجاهلية وأطوعهم لرسول الله ﷺ؟ فالتفت الحسن إليه وقال: أما والله لولا أن بني أمية تنسبني إلى العجز عن المقال لكففت عنك تهـاوناً بـك، ولكن سـأبيّن لـك لتعلم أني لست بـالكليـل، أإيـاي تعيّـر وعليّ تفتخر؟ ولم تك لجدك في الجاهلية مكرمة إلا بزوجـة عمتي صفية بنت عبد المطلب، فبذخ بها على جميع العرب وَشَرُفَ بمكانهـا، فكيف تفـاخر من في القـلادة واسطتهـا وفي الأشراف سـادتها؟ نحن أكـرم أهل الأرض زنداً، لنا الشرف الثاقب والكرم الغالب، ثم تزعم أني سلمت الأمر لمعاوية، فكيف يكون ويحك كذلك؟ وأنا ابن أشجع العرب ولدتني فاطمة سيدة النساء وخير الأمهات، لم أفعل ويحك ذلـك جبناً ولا فَـرَقاً، ولكنـه بـايعني مثلك وهو يـطلبني ببـره ويـداجيني المـودة فلم أثق بنصـرتـه لأنكم بيت غدر، وأهل إحن وَوِتْر[1] فكيف لا تكون كمـا أقول؟ وقـد بايـع أمير المؤمنين أبـوك ثم نكث بيعته، ونكص على عقبيـه، واختـدع حشيَّـة من حشايا رسول الله ﷺ[2] ليضلّ بها الناس، فلما دلف[3] نحو الأعنـة ورأى بريق الأسنة، قتل بمضيعة [4] لا ناصر له، وأتى بك أسيـراً، قد وطئتـك الكماة بأظلافها والخيل بسنابكهـا، واعتلاك الأشتـر، فغصصت بريقـك، وأقعيت على عقبيك كالكلب إذا احتوشته الليوث، فنحن ويحك نور البلاد وأمـلاكها ، وبنـا تفتخـر الأمـة وإلينـا تلقى مقـاليـد الأزمـة نصـول وأنت

---

(١) إحن ووتر: الإِحْنة: ج إحن: الحقد. الوتر: بكسر الواو وفتحها: الانتقام أو الظلم فيه.

(٢) اختدع: خدع، خادع. الحشيّة: الْمِـرْفقة، المخـدة ويكنى بالمخـدة عن الزوجـة أي خدع زوجة رسول الله.

(٣) دلف: مشى مشية المقيد وقارب الخطوَ في مشيه.

(٤) المَضْيعة: ما يكثر فيه أسباب الضياع. يقال: بلدكم مضيعة العلم: أي يضيع فيها العلم.

تختدع النساء ثم تفتخر على بني الأنبياء؟ لم تـزل الأقاويـل منا مقبـولة، وعليك وعلى أبيك مردودة، دخل الناس في دين جدّي طائعين وكارهين، ثم بايعوا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، فسار إلى أبيك وطلحة حين نكثا البيعة وخدعا عرس رسول الله ﷺ فقتلا عند نكثهما بيعته، وأتى بك أسيراً تبصبص بـذنبـك ، فنـاشـدتــه الـرحم ألا يقتلك فعفـا عنـك ، فـأنت عتـاقة[1] أبي وأنـا سيّـدك، وأبي سيـد أبيـك، فـذق وبـال أمـرك. فقـال ابن الزبير: اعذرنا يا أبا محمد فإنما حملني على محاورتك هذا، واشتهى الإغـراء بيننا، فهـلّا إذ جهلتُ أمسكتَ عني؟ فـإنكم أهـل بيت سجيتكم الحلم ، قال الحسن : يا معـاوية انـظر هل أكيـع[2] عن محاورة أحـد ؟ ويحك أتدري من أي شجرة أنا وإلى من أنتمي ؟ انتـه قبل أن أسمك بسمة يتحدث بها الركبان في آفاق البلدان . قال ابن الزبير : وهو لذلك أهل ، فقال معاوية : أما إنه قد شفى بلابل[3] صدري منك ؟ ورمى مقلتك فبقيت في يده كالحجل في كف البازي يتلاعب بك كيف شاء ، فلا أراك تفتخر على أحد بعد هذا .

وذكروا أن الحسن بن علي صلوات الله عليهما دخـل على معاويـة فقال في كلام جرى من معاوية في ذلك:

فيمَ الكـلامُ وقـد سبقتُ مبـرّزاً ... سبْقَ الجَوادِ من المدَى والمِقْوس[4]

---

(١) عتاقة: عتق عَتْقاً وعِتْقاً وعِتـاقاً وَعَتَـاقَة؛ العَبـد: خرج من الـرق والعبوديـة فهو عتيق، والعتق: بكسر العين وضمها: الحرية.

(٢) هل أكيع كاع يكيع كيعاً وكيعوعة : جبن وهابه . والعامة تقول : كعي عنه : أي عجز .

(٣) البلبلة: شدة الهم والوساوس. وبلابل ج بلبال: البرحاء في الصدر، الهم. الهياج.

(٤) المِقْوس: ج مقاوس: الميدان، الموضع الذي تجري منه الخيل، حبـل تصف عليه الخيل عند السباق.

فقال معاوية، إياي تعني؟ والله لآتينَّك بما يعرفه قلبك ولا ينكره جلساؤك، أنا ابن بطحاء مكة، أنا ابن أجودها جوداً، وأكرمها أبوّة وجدوداً، وأوفاها عهوداً. أنا ابن من ساد قريشاً ناشئاً[1]. فقال الحسن: أجل، إياك أعني، أفعليَّ تفتخر يا معاوية؟ وأنا ابن ماء السماء، وعروق الثرى، وابن من ساد أهل الدنيا بالحسب الثاقب، والشرف الفائق، والقديم السابق، وابن من رضاه رضى الرحمٰن، وسخطه سخط الرحمٰن، فهل لك أب كأبي أو قديم كقديمي؟ فإن تقل: نعم تكذب. فقال: أقول لا تصديقاً لقولك، فقال الحسن رضي الله عنه:

الحقّ أبلجُ لا تَزِيغُ سبيلُهُ والحقُّ يَعْرِفُهُ ذوو الألبابِ

قال: وقال معاوية ذات يوم وعنده أشراف الناس من قريش وغيرهم: أخبروني بأكرم الناس أباً وأماً وعماً وعمةً وخالاً وخالةً وجداً وجدة، فقام مالك بن عجلان وأومى إلى الحسن بن علي صلوات الله عليه فقال: هو ذا أبوه عليُّ بن أبي طالب، وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ[2] وجدّته خديجة بنت خويلد، فسكت القوم ونهض الحسن، فأقبل عمرو بن العاص على مالك فقال: أحبُّ بني هاشم حملك على أن تكلمت بالباطل؟ فقال ابن عجلان: ما قلت إلا حقاً وما أحد من الناس يطلب مرضاة مخلوق بمعصية الخالق إلا لم يعط أمنيته في دنياه وختم له بالشقاء في آخرته، بنو هاشم أنضركم عوداً وأوراكم زنداً أكذلك هو يا معاوية؟ قال: اللهم نعم.

قال: واستأذن الحسن بن علي رضي الله عنه على معاوية وعنده

---

(١) ناشئاً [ناشئاً وكهلاً] المحاسن والمساوىء: ص ١٠٧.

(٢) ﷺ وجدته: [وردت في بعض النسخ زيادة على هذا النص: وعمه جعفر الطيار، وعمته أم هانىء بنت أبي طالب، وخاله القاسم ابن رسول الله، وخالته زينب بنت رسول الله، وجده رسول الله ﷺ].

عبد الله بن جعفر وعمرو بن العاص، فأذن له، فلما أقبل، قال عمرو: قد جاءكم الفهه العي[1] الذي كأن بين لحييه عَقْلة[2] . فقال عبد الله بن جعفر: مه والله لقد رمت صخر ململمة[3]، تنحط عنها السيول وتقصر دونها الوعول[4]، ولا تبلغها السهام، فإياك والحسن إياك، فإنك لا تزال راتعاً في لحم رجل من قريش، ولقد رميت فما برح سهمك، وقدحت فما أورى زندك، فسمع الحسن الكلام، فلما أخذ مجلسه قال: يا معاوية لا يزال عندك عبد يرتع في لحوم الناس، أما والله لئن شئت ليكونن بيننا ما تتفاقم فيه الأمور وتحرَج منه الصدور ثم أنشأ يقول:

أتأمرُ يا مُعاويَ عبدَ سهمٍ ... بشتمي والملا منا شهودُ
إذا أَخذتْ مجالسَهَا قريشٌ ... فقد علمتْ قريشٌ ما تريدُ
أأنتَ تظلُّ تشتمني سَفَاهاً ... لِضِغْنٍ ما يزول ولا يَبيدُ
فهل لكَ من أبٍ كأبي تسامى ... به من قد تُسامي أو تَكيدُ؟
ولا جدٍّ كجدّي يا ابْن حربٍ ... رسولِ الله إنْ ذُكرَ الجدودُ
ولا أمٍ كأمي من قريشٍ ... إذا ما يَحْصُلُ الحسبُ التليدُ
فما مثل تهكّمُ يا ابنَ حربٍ ... ولا مثلي ينهنهه الوعيدُ
فمهلاً لا تهِجْ منا أموراً ... يَشيبُ لهولها الطفلُ الوليدُ

وذكروا أن عمرو بن العاص قال لمعاوية: إبعث إلى الحسن بن علي فمرْهُ أن يخطب على المنبر فلعله يحصر[5] فيكون في ذلك ما نعيره به.

---

(١) أفَهَ من فهه فهاهةً: عيَّ ووهن فهو فهٌّ وفهيه [العييّ].
(٢) عَقْلَةٌ: بفتح العين: ارتباط اللسان وعُقلة: بضم العين ما يربط به كالقيد.
(٣) ململمة: مجموعٌ بعضها إلى بعض، مستديرة كالكرة. ومهْ: اكفف، ويقال: مَهٍ.
(٤) وعل: ج وعول: تيس الجبل له قرنان قويان ضخمان كسيفين أحدبين، يريد أن يقول: تقصر عن تسلّقها الوعول.
(٥) حَصر حصراً: عيي عن الكلام.

فبعث إليه معاوية فأمره أن يخطب فصعد المنبر وقد اجتمع الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي بن أبي طالب ابن عم النبي، أنا ابن البشير النذير السراج المنير أنا ابن من بعثه الله رحمةً للعالمين، أنا ابن من بُعِثَ إلى الجن والإنس، أنا ابن مستجاب الدعوة، أنا ابن الشفيع المطاع، أنا ابن أول من ينفض رأسه من التراب، أنا ابن أول من يقرع باب الجنة، أنا ابن من قاتلت معه الملائكة ونصر بالرعب من مسيره شهر. وأمعن في هذا الباب ولم يزل حتى أظلمت الأرض على معاوية، فقال: يا حسن قد كنت ترجو أن تكون خليفة ولست هناك[1]، قال الحسن: إنما الخليفة من سار بسيرة رسول الله ﷺ وعمل بطاعته، وليس الخليفة من دان بالجوْر، وعطّل السنن، واتّخذ الدنيا أباً وأماً، ولكن ذلك مَلِكٌ أصاب مُلْكاً، يُمتّع به قليلاً ويعذب بعده طويلاً وكان قد انقطع عنه واستعجلَ لذّته وبقيت عليه التبعة، فكان كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[2] ثم انصرف. فقال معاوية لعمرو: ما أردت إلا هتكي، ما كان أهل الشام يرون أحداً مثلي حتى سمعوا من الحسن ما سمعوا.

قال: وقدم الحسن بن علي رضي الله عنه على معاوية، فلما دخل عليه وجد عنده عمرو بن العاص، ومروان بن الحكم، والمغيرة بن شعبة وصناديد قومه، ووجوه أهل بيته، ووجوه أهل اليمن، وأهل الشام، فلما نظر إليه معاوية أقعده على سريره وأقبل عليه بوجهه يريه السرور به وبقدومه، فحسده مروان وقد كان معاوية قال لهم: لا تحاوروا هذين الرجلين فقد قلّداكم العار عند أهل الشام - يعني الحسن بن علي رضي الله

---

(١) ولست هناك: أي لستُ أهلاً لذلك.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ١١١.

عنه وعبد الله بن عباس ـ فقال مروان: يا حسن لولا حلم أمير المؤمنين وما قد بناه له آباؤه الكرام من المجد[1] والعُلى ما أقعدك هذا المقعد، ولقتلك وأنت لهذا مستحق بقودك الجماهير إلينا فلما قاومتنا وعلمت ألاّ طاقة لك بفرسان أهل الشام وصناديد بني أمية أذعنت بالطاعة، واحتجزت بالبيعة، وبعثت تطلب الأمان، أما والله لولا ذلك لأريق دمك، ولعلمت أنّا نعطي السيوف حقها عند الوغى، فاحمد الله إذا ابتلاك بمعاوية وعفا عنك بحلمه، ثم صنع بك ما ترى. فنظر إليه الحسن وقال: ويلك يا مروان لقد تقلّدتَ مقاليد العار في الحروب عند مشاهدتها، والمخاذلة عند مخالطتها. هبلتك[2] أمك، لنا الحجج البوالغ، ولنا عليكم إن شكرتم النعم السوابغ، ندعوكم إلى النجاة وتدعوننا إلى النار، فشتّان ما بين المنزلتين، تفتخر ببني أمية وتزعم أنهم صُبُر في الحرب أسد عند اللقاء، ثكلتك الثواكل أولئك البهاليل السادة، والحماة الذادة والكرام القادة بنو عبد المطلب، أما والله لقد رأيتهم أنت وجميع من في المجلس ما هالتهم الأهوال، ولا حادوا عن الأبطال، كاللّيوث الضارية الباسلة الحنقة فعندها ولّيت هارباً وأُخذت أسيراً، فقلّدتَ قومك العار، لأنك في الحروب خوَّاراً أتهرق دمي؟ فهلاّ أهرقت دم من وثب على عثمان في الدار فذبحه كما يذبح الجمل؟ وأنت تثغو ثغاء النعجة وتنادي بالويل والثبور كالمرأة الوكعاء[3]. ما دافعت عنه بسهم ولا منعت دونه بحرب، قد ارتعدت فرائصك، وغشي بصرك، واستغثت كما يستغيث العبد بربّه، فأنجيتك من القتل، ثم جعلت تبحث عن دمي وتحضّ على قتلي، ولو رام ذاك معاوية

---

(١) العلى والعلاء: الرفعة، الشرف.

(٢) هبلتك أمك: ثكلتك.

(٣) الوكعاء: اللئيمة، الحمقاء، والثُغاء: صوت الشاة.

معك لذبح كما ذبح ابن عفان، وأنت معه أقصر يداً وأضيق باعاً، وأجبن قلباً من أن تجسر على ذلك، ثم تزعم أني ابتليت بحلم معاوية أما والله لهو أعرف بشأنه وأشكر لنا إذ ولّيناه هذا الأمر، فمتى بدا له فلا يغضين جفنه على القذى معك، فوالله لأعنّفن أهل الشام بجيش يضيق فضاؤه ويستأصل فرسانه، ثم لا ينفعك عند ذلك الروغان والهرب، ولا تنتفع بتدريجك الكلام فنحن من لا يجهل آباؤنا الكرام القدماء الأكابر، وفروعنا السادة الأخيار الأفاضل، إنطق إن كنت صادقاً، فقال عمرو: ينطق بالخنى وتنطق بالصدق، ثم أنشأ يقول:

قد يضرِطُ العيرُ والمِكْواةُ تأْخُذُهُ   لا يضرِطُ العِيرُ والمِكواةُ في النارِ

ذق وبال أمرك يا مروان، فأقبل عليه معاوية فقال: قد نهيتك عن هذا الرجل وأنت تأبى إلا انهماكاً فيما لا يعنيك، إربع على نفسك[1] فليس أبوه كأبيك، ولا هو مثلك، أنت ابن الطريد الشريد، وهو ابن رسول الله ﷺ الكريم، ولكنْ رُبَّ باحثٍ عن حتفه بظلفه. فقال مروان: أرم دون بيضتك[2] وقم بحجّة عشيرتك، ثم قال لعمرو: لقد طعنك أبوه فوقيت نفسك بخصيتيك ومنها ثنيتَ أعِنّتك. وقام مغضباً، فقال معاوية: لا تجارِ البحار فتغمرك، ولا الجبال فتقهرك، واسترح من الاعتذار.

قال: ولقي عمرو بن العاص الحسن بن عليٍّ عليهما السلام في الطواف فقال يا حسن: أزعمت أن الدِّين لا يقوم إلا بك وبأبيك؟ فقد رأيت الله أقامه بمعاوية فجعله ثابتاً بعد مَيْلِهِ وبيّناً بعد خفائه، أفيرضى الله قتل عثمان أم من الحق أن تدور بالبيت كما يدور الجمل بالطحين؟ عليك

---

(١) إرْبع على نفسك: أي ارفق بنفسك وكُفَّ، ويقال: إربَعْ عليك، أو على ظَلْعِك.

(٢) ارم دون بيضتك: دافع عن أصلك وعشيرتك. بيضة البلد: من الأضداد تحتمل المدح والذم يقال: ابتيض القوم: إذا أبيحت بيضتهم، وابتاضوهم: أي استأصلوهم.

ثياب كغرقيء[1] البيض وأنت قاتل عثمان والله إنه لألَمُّ للشعث، وأسهل للوعث، أن يوردك معاوية حياض أبيك. فقال الحسن صلوات الله عليه: إنّ لأهل النار علامات يعرفون بها وهي الإلحاد في دين الله، والموالاة لأعداء الله، والانحراف عن دين الله، والله إنك لتعلم أن عليًّا لم يتريث في الأمر، ولم يشكّ في الله طرفة عين، وآيم الله لتنتهينّ يا ابن العاص أو لأقرعنّ قصتك[2]، وإياك والجراءة عليّ فإني من عرفت، لستُ بضعيف المغمز ولا بهش المشاشة[3] - يعني العظام - ولا بمريء المأكلة، وإني لمن قريش كأوسط القلادة، مُعْرِقٌ[4] حسبي لا أُدْعَى لغير أبي، وقد تحاكمت فيك رجال من قريش، فغلب عليك ألأمها حسباً، وأعظمها لعنةً، فإياك عني، فإنما أنت نجس، ونحن أهل بيت الطهارة، أذهب الله عنا الرجس وطهّرنا تطهيراً.

قال: واجتمع الحسن بن عليٍّ صلوات الله عليهما وعمرو بن العاص، فقال الحسن: قد علمتْ قريشٌ بأسرها أني منها في عز أرومتها، لم أطبع على ضعف، ولم أعكس على خسف[5]، أعرف نسبي وأدعى لأبي. فقال عمرو: وقد علمت قريش أنك ابن أقلّها عقلاً، وأكثرها جهلاً، وإن فيك خصالاً لو لم يكن فيك إلا واحدة منها لشملك خزيها كما شمل البياضُ الحالكَ، وآيم الله، لئن لم تنته عما أراك تصنع لأكبسنَّ لك حافةً

---

(١) الغرقيء: القشرة الملتصقة ببياض البيْض.
(٢) لأقرعنَّ قصّتك: لأسقطنّ شعر ناصيتك.
(٣) المغمز: المطعن، العيب يقال: ما به مغمز: أي ما به نقيصة يشار بها إليه، والمشاشة: رأس العظم الليّن. يقول ليس بي نقيصة وعظامي صلبة.
(٤) مُعْرِق حسبي: أعرق الرجل: صار عريقاً في الشرف.
(٥) أُعكس على خَسْف: لم أحمل على ذل أو نقيصة من عكس البعير: شدَّ في خطمه حبلاً إلى رسغ يده لئلا يصول: والخسف: الذل.

كجلد العائط إذ اعتاطت[1] رحمها فما تحمل، أرميك من خللها بأحر من وقع الأثافي، أعرك منها أديمك عرْكَ السلعة[2]، فإنك طالما ركبت المنحدر ونزلت في أعراض الوعر، التماساً للفرقة وإرصاداً للفتنة، ولن يزيدك الله فيها إلا فظاعة. فقال الحسن: أما والله، لو كنت تسمو بحسبك، وتعمل برأيك، ما سلكت فجّ قصد ولا حللت راية مجد، أما والله، لو أطاعنا معاوية لجعلك بمنزلة العدو الكاشح[3] فإنه طال ما تأخّر شأوك واستسرّ[4] داؤك وطمح بك الرجاء إلى الغاية القصوى التي لا يورق بها غصنك ولا يخضرُّ منها رَعْيُك. أما والله، لتوشكن يا ابن العاص أن تقع بين لحيي ضرغام ولا ينجيك منه الروغان إذا التقت حلقتا البطان[5].

وروى ابن المنذر عن أبيه عن الشعبي عن ابن عباس أنه دخل المسجد وقد سار الحسين ابن عليٍّ رضي الله عنه إلى العراق، فإذا هو بابن الزبير في جماعة من قريش قد استعلاهم بالكلام، فجاء ابن عباس فضرب بيده على عضد ابن الزبير وقال: أصبحت والله كما قال الشاعر:

يا لكِ من قُنْبَرَةٍ بمعْمَرِ[6] خلا لكِ الجوُّ فبيضي واصفري

---

(١) لأكبسن لك حافة كجلد العائط: الكبس: يأتي بمعنى الضغط والشد. وطمر البئر بالتراب، والحافة: طرف كل شيء من جوانبه، والعائط: المرأة أو الناقة التي لم تحمل منذ سنين وهي ليست عاقراً، والخلل: منفرج ما بين الشيئين، والأثافي: ج أثفية الموقد، والمعنى: إن لم تنته لأطمرنَّ جلدك الذي يشبه جلد العاقر وأرميك من ثقوبه بأحر من لهب الموقد.

(٢) عرك: عرك الأديم ونحوه: دلكه دلكاً. والأديم: الجلد. والسلعة: المتاع أو الثواب.

(٣) الكاشح: العدو الذي يخفي عداوته.

(٤) استسرَّ: استتر.

(٥) البطان: حزام الرحى.

(٦) مَعْمر: المنزل، المكان الكثير الناس والماء والكلأ.

ونقّري ما شئتِ أن تنقّري　　قد ذهبَ الصيادُ عنكِ فأبشري

لا بدَّ من أخْذِكِ يوماً فاصبري

خلت الحجاز من الحسين بن علي، وأقبلتَ تهدر في جوانبها. فغضب ابن الزبير وقال: والله إنك لترى أنك أحق بهذا من غيرك. فقال ابن عباس: إنما يرى ذلك من كان في حال شكٍ وأنا من ذلك على يقين. قال: وبأي شيء استحق عندك انك بهذا الأمر أحق مني؟ فقال ابن عباس: لأنا أحق بمن يدل بحقه، وبأي شيء استحق عندك أنك أحق بها من سائر العرب إلا بنا؟ فقال ابن الزبير: استحق عندي أني أحق بها منكم لشرفي عليكم قديماً وحديثاً. فقال: أنت أشرف أم من شرفت به؟ فقال: إن من شرفت به زادني شرفاً إلى شرفي، قال: فمنّي الزيادة أم منك؟ فتبسم ابن عباس. فقال ابن الزبير: يا ابن عباس دعني من لسانك هذا الذي تقلّبه كيف شئت والله يا بني هاشم لا تحبوننا أبداً. قال ابن عباس: صدقت، نحن أهل بيت مع الله لا نحبّ من أبغضه الله. قال: يا ابن عباس أما ينبغي لك أن تصفح عن كلمة واحدة؟ قال: إنما يصفح عمن أقر وأما من هر[1] فلا والفضل لأهل الفضل. قال ابن الزبير: فأين الفضل؟ قال: عند أهل البيت، لا تصرفه عن أهله فتظلم ولا تضعه في غير أهله فتندم. قال ابن الزبير: أفلست من أهله؟ قال: بلى إن نبذت الحسد، ولزمت الجد، وانقضى حديثهما.

وروي عن ابن عباس أنه قال: قدمت على معاوية وقد قعد على سريره، وجمع من بني أمية ووفود العرب عنده فدخلت وسلّمت وقعدت، فقال: يا ابن عباس من الناس؟ فقلت: نحن، قال: فإذا غبتم؟ قلت:

---

(١) هرَّ الكلب: صات دون نباح، وفلان هرَّه الناس: كرهوا منظره ومعاملته.

فلا أحد، قال: فإنك ترى أني قعدت هذا المقعد بكم، قلت: نعم فبمن قعدت؟ قال: بمن كان مثل حرب بن أمية، قلت: من كفأ عليه إناءه وأجاره بردائه؟ قال: فغضب، وقال: أرحني من شخصك شهراً، فقد أمرت لك بصلتك وأضعفتها لك. فلما خرج ابن عباس، قال لخاصته: ألا تسألوني ما الذي أغضب معاوية؟ قالوا: بلى فقل بفضلك، قال: إن أباهُ حرباً لم يلق أحداً من رؤساء قريش في عقبة ولا مضيق إلا تقدّمه حتى يجوزه، فلقيه يوماً رجل من تميم في عقبة فتقدّمه التميمي، فقال حرب: أنا حرب بن أمية، فلم يلتفت إليه وجازه، فقال: موعدك مكة فخافه التميمي ثم أراد دخول مكة فقال: من يجيرني من حرب بن أمية؟ فقيل له: عبد المطلب فقال: عبد المطلب أجلّ قدراً من أن يجير على حرب، فأتى ليلاً إلى دار الزبير بن عبد المطلب فدق بابه، فقال الزبير لعبده: قد جاءنا رجلٌ إمَّا طالب قِرًى وإما مستجير وقد أجبناه إلى ما يريد، ثم خرج الزبير إليه فقال التميمي:

لاقيتُ (حرباً) في الثنيّةِ مقبلاً ... والصبحُ أبلجَ ضوؤه للساري

فدعا بصوتٍ واكتنى لِيَرُوعَنِي ... وسما عليّ سُموَّ ليثٍ ضاري

فتركتُه كالكلبِ ينبحُ ظلَّه ... وأتيتُ قَرْمَ[1] معالمٍ وفخارِ

ليثاً هِزَبْراً[2] يُستَجار بعزه ... رحبَ المباءةِ[3] مُكْرِماً للجارِ

ولقد حلفتُ بمكةٍ وبزمزم ... والبيت ذي الأحجار والأستارِ

إن الزبير لمانعي من خوفه ... ما كَبَّرَ الحُجَّاجُ في الأمصارِ

---

(١) القَرْم: الفحل إذا ترك عن الركوب والعمل وشبه به الرجل لعظم شأنه وكرمه، العظيم السيد.

(٢) الهِزَبْر: الأسد، الشديد الصلب.

(٣) المباءة: المنزل.

فقدمه الزبير وأجاره، ودخل به المسجد، فرآه حرب فقام إليه فلطمه، فحمل عليه الزبير بالسيف فولّى هارباً يعدو حتى دخل دار عبد المطلب، فقال: أجرني من الزبير، فأكفأ عليه جفنة[1] كان هاشم يطعم فيها الناس فبقي تحتها ساعة، ثم قال له: أخرج. قال: وكيف أخرج وعلى الباب تسعة من بنيك قد احتموا بسيوفهم؟ فألقى عليه رداء كان كساه إياه سيف بن ذي يزن[2]، له طرّتان خضراوان، فخرج عليهم فعلموا أنه قد أجاره عبد المطلب فتفرّقوا عنه.

قال: وحضر مجلس معاوية عبد الله بن جعفر[3] فقال عمرو بن العاص: قد جاءكم رجل كثير الخلوات بالتمني والطربات[4] بالتغني، محب للقيان، كثير مزاحه، شديد طماحه، صدود عن الشبان، ظاهر الطيش، رخي العيش، أخّاذ بالسلف، منفاق بالسرف، فقال ابن عباس: كذبت والله أنت، وليس كما ذكرت ولكنه لله ذكور، ولنعمائه شكور، وعن الخنا زجور، جواد كريم، سيد حليم، إذا رمى أصاب، وإذا سئل أجاب، غير حصر ولا هياب، ولا عيابة[5] مغتاب، حل من قريش في كريم النصاب، كالهزبر الضرغام، الجريء المقدام، في الحسب القمقام[6] ليس بدعي ولادني، لا كمن اختصم فيه من قريش شرارها، فغلب عليه

---

(١) أكفأ عليه: قَلَب عليه. الجفنة: ج جفان وجفنات، قصعة الطعام، الرجل الكريم.

(٢) سيف بن ذي يزن: ملك بني حِمْير في جنوبي جزيرة العرب بطل الأساطير الشعبية المدونة في سيرة ابن ذي يزن.

(٣) ابن جعفر: [بن عباس وابن العاص، فأقبل عبد الله بن جعفر فلما نظر إليه ابن العاص قال]: أنظر المحاسن والمساوىء ص ١١٥ والجملة هكذا أصح.

(٤) طرب طرباً: اهتز فرحاً أو حزناً فهو طرب وهي طربة ج طربات. والقيان مفردها قينة: المغنية.

(٥) حصر: عيي، عيَّابة: الكثير العيب للناس.

(٦) القَمقام: العظيم، والقُمقام: بضم القاف: العدد الكثير، البحر أو معظمه.

جزارها، فأصبح ألأمها حسباً، وأدناها منصباً، ينوء منها بالذليل، ويأوي منها إلى القليل، مذبذب[1] بين الحيين، كالساقط بين المهدين، لا المضطر فيهم عرفوه، ولا الظاعن عنهم فقدوه، فليت شعري بأي قدر تتعرض للرجال؟ وبأي حسب تعتد به عند النضال؟ أبنفسك؟ وأنت الوغد اللئيم، والنكد الذميم، والوضيع الزنيم، أم بمن تُنْمَى إليهم؟ وهم أهل السفه والطيش والدناءة في قريش، لا بشرف الجاهلية شهروا ولا بقديم في الإسلام ذكروا، جعلت تتكلم بغير لسانك، وتنطق بالزور في غير أقرانك والله لكان أبين للفضل، وأبعد للعدوان، أن ينزلك معاوية منزلة البعيد السحيق فإنه طالما سلس داؤك، وطمح بك رجاؤك إلى الغاية القصوى التي لم يخضرّ فيها رعيك، ولم يورق فيها غصنك. فقال عبد الله بن جعفر: أقسمت عليك لما أمسكت، فإنك عني ناضلت ولي فاوضت. فقال ابن عباس: دعني والعبد فإنه قد كان يهدر خالياً، ولا يجد ملاحياً، وقد أتيح له ضيغم شرس، للأقران مفترس، وللأرواح مختلس. فقال ابن العاص: دعني يا أمير المؤمنين أنتصف منه فوالله ما ترك شيئاً. قال ابن عباس: دعه، فلا يبقي المبقي إلا على نفسه، فوالله إن قلبي لشديد، وإن جوابي لعتيد، وإني لكما قال نابغة بني ذبيان:

وقِدْماً قد قَرِعْتُ وقارعوني ... فما نزرَ الكلامُ ولا شجاني
يصد الشاعرُ العرّافُ عني[2] ... صدودَ البكْرِ عن قَرْمٍ هجان[3]

---

(١) تذبذب: تحيَّر بين أمرين.

(٢) العرَّاف: يطلق على كل عارف بعلمه، فيقال للطبيب عرَّاف، وللكاهن عرَّاف، وللقناقين عُراف (المهندس الذي يعرف وجود الماء تحت الأرض).

(٣) الهجان: من كل شيء خياره وخالصه، كريم، حسيب.

قال: وبلغ عاثمة[1] بنت عاثم ثلب معاوية وعمرو بن العاص لبني هاشم فقالت لأهل مكة: أيها الناس، إن بني هاشم سادت فجادت، ومُلِّكَتْ فملكَتْ وفُضِّلَتْ ففضلت واصْطُفِيَتْ فاصطَفَيْتْ، ليس فيها كدر عيب، ولا إفك ريب، ولا خسروا طاغين، ولا خازين، ولا نادمين، ولا هم من المغضوب عليهم ولا الضالين. إن بني هاشم أطول الناس باعاً، وأمجد الناس أصلاً، وأعظم الناس حلماً، وأكثر الناس علماً وعطاءً، منا عبد مناف المؤثر، وفيه يقول الشاعر:

كأنَّ قريشاً بَيْضَةٌ فتفلّقتْ فالمُحُّ خالصُها لعبد منافِ

وولده هاشم الذي هشم الثريد لقومه وفيه يقول الشاعر:

عمْرو العُلا هشمَ الثريدَ لقومِهِ ورجالُ مكةَ مستنونَ عجافُ

ومنّا عبد المطلب الذي سقينا به الغيث وفيه يقول أبو طالب:

ونحنُ سُنيُّ المَحْلِ قام شفيعُنا بمكةَ يدعو والمياهُ تغورُ[2]

وابنه أبو طالب عظيم قريش وفيه يقول الشاعر:

آتيتُهُ مَلِكاً فقام بحاجتي وترى العليّجَ[3] خائباً مذموماً

ومنّا العباس بن عبد المطلب[4] أردفه رسول الله ﷺ وأعطاه ماله وفيه يقول الشاعر:

رديفُ رسول الله لم نَرَ مثلَه ولا مثلُهُ حتى القيامةِ يُولَدُ

---

(١) عاثمة بنت عاثم. ووردت في نسخة: عاتمة بنت عاتم، وفي المحاسن والمساوىء غانمة بنت غانم ص ١١٦، وثلب: عاب، سب، هجا.

(٢) تغور: غار الماء ذهب في باطن الأرض.

(٣) العليّج: تصغير العلج: الرجل الشديد في الأمور، حمار الوحش السمين القوي، الرجل الضخم من العجم.

(٤) العباس بن عبد المطلب: عم النبي ﷺ استسقى به عمر بن الخطاب زمن الجدب (البخاري جـ ٢، ص ٣٠١) وكان جواداً كريماً.

ومنّا حمزة سيد[1] الشهداء وفيه يقول الشاعر:

أبـا يَعْلَى لـكَ الأركـانُ هُـدَّتْ وأنتَ المـاجـدُ البَـرُّ الـوصـولُ

ومنّا جعفر ذو الجناحين، أحسن الناس حالاً، وأكملهم كمالاً، ليس بغدّار ولا جبان، أبدله الله بكلتا يديه جناحين يطير بهما في الجنة، وفيه يقول الشاعر:

هـاتـوا كجعفـرِنـا وَمثـلِ عليّنـا كـانـا أعـزَّ النـاسِ عنـد الخـالقِ

ومنّا أبو الحسن عليٍّ بن أبي طالب صلوات الله عليه، أفرس بني هاشم، وأكرم من احتبى وانتعل[2] وفيه يقول الشاعر:

علـيٌّ أَلِفَ الـفـرقـانَ صُحْفـاً ووالى المصـطفى طِفـلاً صبيَّـا

ومنّا الحسن بن عليٍّ عليه السلام، سبط رسول الله ﷺ، وسيد شباب أهل الجنة وفيه يقول الشاعر:

يـا أجـلَّ الأنـامِ يـا آبن الـوصيِّ أنـتَ سبِطُ الـنبـيِّ وابـنُ عـليِّ

ومنّا الحسين بن علي، حمله جبريل عليه السلام على عاتقه، وكفاه بذلك فخراً وفيه يقول الشاعر:

حبُّ الحسيـن ذخيـرةٌ لـمُحبِّـه يـا ربُّ فاحشرني غـداً في حـزبـهِ

يا معشر قريش: والله ما معاوية كأمير المؤمنين علي، ولا هو كما يزعم، هُوَ واللّهِ شانىءُ رسول الله ﷺ، وإني آتيةٌ معاوية وقائلةٌ له ما يعرق منه جبينه ويكثر منه عويله وأنينه. فكتب عامل معاوية إليه بذلك، فلما بلغه

---

(١) حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ قتله عبد حبشي غدراً يوم أحد ويقال للعبد وحشي.

(٢) احتبى احتباءً: جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها، بالثوب اشتمل به. وانتعل: لبس النعل.

أنها قربت منه أمر بدار ضيافة فنظّفت، وألقيَ فيها فرش، فلما قربت من المدينة استقبلها يزيد في حشمه ومماليكه، فلما دخلت المدينة أتت دار أخيها عمرو بن غانم، فقال لها يزيد: إن أبا عبد الرحمن يأمرك أن تنتقلي إلى دار ضيافته، وكانت لا تعرفه فقالت: من أنت كلأك الله؟ قال: أنا يزيد بن معاوية، قالت: فلا رعاك الله يا ناقصاً لست بزائد، فتغير لون يزيد، وأتى أباه فأخبره، فقال: هي أسنّ قريش وأعظمهم حلماً. قال يزيد. كم تَعدُّ لها؟ قال: كانت تعد على عهد رسول الله ﷺ أربعمائة عام، وهي من بقية الكرام، فلما كان من الغد أتاها معاوية، فسلّم عليها، فقالت: على المؤمنين السلام وعلى الكافرين الهوان والملام، ثم قالت: أفيكم عمرو بن العاص؟ قال عمرو: ها أنا ذا، قالت: أنت تسبّ قريشاً وبني هاشم؟ وأنت أهل السبّ وفيك السبُّ وإليك يعود السب، يا عمرو: إني والله عارفة بك وبعيوبك وعيوب أمك وإني أذكر ذلك، ولدت من أمة سوداء مجنونة -حمقاء تبول من قيامها وتعلوها اللئام، وإذا لامسها الفحل كانت نطفتها أنفذ من نطفته، ركبها في يوم واحد أربعون رجلاً وأما أنت، فقد رأيتك غاوياً غير راشد ومفسداً غير صالح، والله لقد رأيتَ فحل زوجتك على فراشك فما غرْتَ ولا أنكرت، وأما أنت يا معاوية، فما كنت في خير، ولا رَبيت في نعمة، فما لك ولبني هاشم؟ أنساؤك كنسائهم أم أعطيَ أمية في الجاهلية والإسلام ما أُعطيَ هاشم؟ وكفى فخراً برسول الله ﷺ. فقال معاوية: أيتها الكبيرة، أنا كافٌّ عن بني هاشم، قالت: فإني أكتب عليك كتاباً، فقد كان رسول الله ﷺ دعا ربه أن يستجيب لي خمس دعوات، فأجعلَ تلك الدعوات كلها فيك، فخاف معاوية، فحلف أن لا يسبّ بني هاشم أبداً، فهذا ما كان بين معاوية وبين بني هاشم من المفاخرة.

قال: وكان علي بن عبد الله بن عباس عند عبد الملك بن مروان،

فأخذ عبد الملك يذكر أيام بني أمية، فبينا هو على ذلك، إذ نادى المنادي بالأذان فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فقال علي:

هذي المكارمُ لا قَعْبانِ[1] من لبنٍ شيبا بماءٍ فعادا بعدُ أبْوالا

فقال عبد الملك: الحق في هذا أبْينُ من أن يكابر[2].

حدثنا علي بن محمد النديم قال: دخلت على المتوكل وعنده الرضي، فقال: يا علي من أشعر الناس في زماننا؟ قلت: البحتري، قال: وبعده؟ قلت: مروان بن أبي حفصة عبدك، فالتفت إلى الرضي فقال: يا ابن عم، من أشعر الناس؟ قال: علي بن محمد العلوي، قال: وما تحفظ من شعره؟ قال: قوله:

لقد فاخَرْتنا من قريشٍ عِصابَةٌ بمطِّ خدودٍ وامتدادِ أصابعِ
فلما تنازعْنَا القضاءَ قضى لنا عليهمْ بما نهوى نداءُ الصوامعِ

فقال المتوكل: ما معنى قوله: نداء الصوامع؟ ال: الشهادة، قال: وأبيك إنه أشعر الناس، ومما قيل في هذا المعنى من الشعر قوله أيضاً:

بلغنا السماءَ بأنسابنا ولولا السماءُ لجُزْنا السماءَ
فحسبُكَ مِنْ سؤْدَدٍ أننا بحسنِ البلاء كشفْنا البلاءَ
إذ ذكرَ الناسُ كنّا ملوكاً وكانوا عبيداً وكانوا إماءَ
يطيبُ الثناءُ لآبائنا وذكرُ عليّ يزين الثناءَ
هجانيَ قومٌ ولم أهجُهُمْ أبى اللَّهُ لي أنْ أقولَ الهِجاءَ

---

(١) القعب ج قعاب، وأقعب: القدح الضخم، الغليظ الحافي. شيباً: خلطاً.
(٢) أبين من أن يُكابر: أوضح من أن يجحد، يُعاند.

وقال آخر:

وإني من القــوم الــذين عــرفْتَهــمْ إذا ماتَ منهمْ سيدٌ قـام صاحبـهْ
أضـاءتْ لهم أحسـابُهُم ووجـوهُهمْ دُجى الليلِ حتى نَظَم الجزْعَ ثاقبهْ(١)
نجـومُ سمـاءٍ كلمــا انقضّ كـوكبٌ بـدا كوكبٌ تـأوي إليـه كـواكبـهْ

وقال آخر:

خــطبـاءُ حـين يقــولُ قــائلُهُـمْ بـيضُ الــوجــوه مَقــاوِلٌ لُــسْنُ
لا يـفــطـنــونَ لـعيـبِ جــارهـــمُ وهُــمُ لِـحِــفْظِ جــوارهـمْ فُــطْن

ضــــده

عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تفتخروا بآبائكم في الجاهلية فوالذي نفسي بيده لما يدحرج الجُعَلُ برجله خير من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية»(٢).

قال: وكان الحسن البصري يقول: يا ابن آدم لِمَ تفتخر وإنما خرجت من سبيل بولين نطفة مشجت بأقذار؟

وقال بعضهم لرجل: أتفتخر ويحك وأوّلك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بينهما وعاء عذرة(٣) فما هذا الافتخار؟

---

(١) نظم الجَزْع ثاقبه: خرز فيه سواد وبياض تشبه به العيون واحدته جزعة. يقول: أناروا ظلام الليل بنور شرفهم وحسبهم حتى أن ثاقب الجزع استطاع أن يجمعه في سلك ليكون عقداً.

(٢) ورد هذا الحديث بلفظ: «لينتهينَّ قوم يفخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم أو ليكوننَّ على الله أهون من الجعل الذي يدهده الخرء بأنفه، إن الله أذهب عنكم عبيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء» عن أبي هريرة رواه أبو داود والترمذي واللفظ له وقال: حديث حسن (أنظر الترغيب والترهيب للمنذري جـ٣، ص ٥٧٣).

(٣) مذرت البيضة: فسدت والمذرة: القذرة. والعَذِرة: الغائط.

وروي عن ابن عباس أنه قال: الناس يتفاضلون في الدنيا بالشرف والبيوتات، والإمارات، والغنى، والجمال، والهيئة، والمنطق، ويتفاضلون في الآخرة بالتقوى، واليقين، وأتقاهم أحسنهم يقيناً، وأزكاهم عملاً وأرفعهم درجة، وقيل في ذلك:

يزينُ الفتى في الناس صِحَّةُ عقلِهِ ... وإنْ كان محظوراً عليه مكاسبهْ
يشين الفتى في الناس قلّة عقله ... وإن كَرُمتْ آباؤه ومناسِبُهْ

وقيل لعامر بن قيس: ما تقول في الإنسان؟ قال: وما أقول فيمن إن جاع صرع وإن شبع بغى وطغى؟

وقال بعض الحكماء: لا يكون الشرف بالنسب، ألا ترى أن أخوين لأب وأم يكون أحدهما أشرف من الآخر؟ ولو كان ذلك من قِبَلِ النسب لما كان لأحد منهم على الآخر فضل لأن نسبهما واحد، ولكن ذلك من قبل الأفعال لأن الشرف إنما هو بالفضل لا بالنسب، قال الشاعر:

أبوك أبي والجدُّ لا شكَّ واحدٌ ... ولكننا عودانِ آسٌ وخِرْوعُ

وبلغنا عن المدائني أنه قال: ليس السؤدد بالشرف، وقد ساد الأحنف بن قيس بحلمه، وحصين بن المنذر برأيه، ومالك بن مسمع بمحبته في العامة، وسويد بن منجوف بعطفه على أرامل قومه، وساد المهلب بن أبي صفرة بجميع هذه الخصال، وأما الشرف بالدين فالحديث المعروف عن النبي ﷺ أنه أتاه أعرابي فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله من أكرم الناس حسباً قال: «أحسنهم خلقاً وأفضلهم تقوى». فانصرف الأعرابي فقال: ردّوه ثم قال: «يا أعرابي لعلك أردت أكرم الناس نسباً» قال: نعم يا رسول الله، قال: «يوسف الصديق صديق الله بن يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله فأين مثل هؤلاء الآباء

في جميع الدنيا ما كان مثلهم ولا يكون مثلهم أحد أبداً»[١]. وقال الشاعر في ذلك:

ولم أرَ كالأسباطِ أبناءَ والدٍ ولا كأبيهمْ والداً حين يُنْسَبُ

قال: ودخل عيينة بن حصن الفزاري على رسول الله ﷺ فانتسب له، فقال: أنا ابن الأشياخ الأكارم، فقال ﷺ: «أنت إذاً صديق يوسف الرحمٰن عليه السلام بن يعقوب إسرائيل الله أو إسماعيل ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله» وقال ﷺ: «خير البشر آدم وخير العرب محمّد وخير الفرس سلمان الفارسي وخير الروم صهيب وخير الحبشة بلال»[٢].

قال: وسمع عمر بن الخطاب وهو خليفة صوتاً ولغطاً بالباب فقال لبعض من عنده: أخرج فانظر من كان من المهاجرين الأولين فأدخله، فخرج الرسول فوجد بلالاً وصهيباً وسلمان فأدخلهم، وكان أبو سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو في عصابة من قريش جلوساً على الباب فقال: يا معشر قريش أنتم صناديد العرب وأشرافها وفرسانها بالباب ويدخل حبشي وفارسي، ورومي؟ فقال سهيل: يا أبا سفيان أنفسَكم فلوموا

---

(١) لم أعثر على هذا الحديث بلفظه وإنما وجدت ما يقاربه فقد حدث أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أكرم الناس يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة والطبراني عن ابن مسعود وأشار إليه السيوطي في الجامع الصغير جـ ١، ص ٢١٠ بأنه حديث صحيح.

(٢) ورد هذا الحديث بلفظ «سيد الناس آدم، وسيد العرب محمد، وسيد الروم صهيب، وسيد الفرس سلمان، وسيد الحبشة بلال، وسيد الجبال طور سيناء، وسيد الشجر السِّدر، وسيد الأشهر المحرم، وسيد الأيام الجمعة، وسيد الكلام القرآن، وسيد القرآن البقرة، وسيد البقرة آية الكرسي، أما إن فيها خمس كلمات في كل كلمة خمسون بركة» عن علي رضي الله عنه أخرجه الديلمي في مسند الفردوس وأشار إليه السيوطي في الجامع الصغير جـ ٢، ص ٦٠، بأنه حديث ضعيف.

ولا تـذمّوا، أميـر المؤمنين دعا القـوم فأجـابوا، ودعيتم فـأبيتم، وهم يوم القيامة أعظم درجات وأكثر تفضيلاً، فقـال أبو سفيـان: لا خير في مكـان يكون فيه بلال شريفاً.

فأما صناعات الأشراف، فإنه روي أن أبا طـالب كان يعـالج العـطر والبـزّ وأما أبو بكر وعمر وطلحة وعبد الرحمٰن بن عوف فكـانوا بـزازين، وكان سعد بن أبي وقّاص يعذق النخل[١] وكان أخـوه عقبة نجـاراً، وكان العاص بن هشام أخو أبي جهل بن هشام جزّاراً، وكـان الوليـد بن المغيرة حدّاداً، وكان عقبة بن أبي معيط خماراً، وكـان عثمان بن طلحـة صاحب مفتاح البيت خيّاطاً، وكان أبو سفيان بن حـرب يبيع الـزيت والأدم، وكان أميـة بن خلف يبيع البـرم، وكان عبـد الله بن جدعـان نخاسـاً[٢]، وكـان العـاص بن وائل يعـالـج الخيـل والإبـل، وكـان جـريـر بن عمـرو وقيس أبو الضحاك بن قيس ومعمر بن عثمان وسيرين بن محمد بن سيرين كانـوا كلهم حدّادين، وكان المسيب أبو سعيد زيّاناً[٣]، وكان ميمون بن مهـران بزّازاً، وكان مالك بن دينار ورّاقاً، وكان أبو حنيفة صاحب الرأي خزازاً[٤]، وكان مجمع الزاهد حائكاً.

قيل: اتخذ يزيد بن المهلب بستـاناً في داره بخـراسان، فلمـا ولّي

---

(١) عذق، عذْقاً وعذّق النخلة: قطع سَعَفها، والعِذْق: كل غصن له شُعب. والبزّاز: بائع البز، والبزُّ: الثياب من الكتان أو القطن. والبزازة: حرفة البزاز.

(٢) البـرمة ج بُـرام وبِرام: القِـدْر من الحجر. والنخّـاس: بائـع العبيد. والنَّخَاسة: حـرفة النّخاس.

(٣) الزيان والمزيّن: الحلاّق، الحجام.

(٤) الورّاق: بائع الورق، صاحب الورق، الكاتب، الكثير المال والدراهم يقـال: التجارة مَوْرقةٌ للمال: أي مكثرة لـه. والخزاز: بـائع الخـز، والخز هـو الحريـر وهو مشتق من المخزَّة أي موضع الأرانب باعتبار نعومته كأوبارها.

قتيبة بن مسلم جعله لإبله فقال مرزبان مرو[1]: هذا كان بستاناً وقد اتخذته لإبلك، فقال قتيبة: أبي كان اشتربان وكان أبو يزيد بستانبان فمنها صار ذلك كذلك.

قال: وذكروا أن المأمون ذكر أصحاب الصناعات فقال: السُّوقة سفل[2]، والصّناع أنذال، والتجار بخلاء، والكتّاب ملوك على الناس، والناس أربعة: أصحاب الحرف وهي، إمارة، وتجارة، وصناعة، وزراعة، فمن لم يكن منهم صار عيالاً عليهم.

محاسن الثقة بالله سبحانه

قيل: خطب سليمان بن عبد الملك فقال: الحمد لله الذي أنقذني من ناره بخلافته.

وقال الوليد بن عبد الملك: لأشفعنّ للحجّاج بن يوسف، وقرة بن شريك عند ربي.

وقال الحجّاج: يقولون مات الحجّاج مَهْ ما أرجو الخير كله إلا بعد الموت! والله ما رضى الله البقاء إلا لأهون خلقه عليه أليس إبليس إذ قال: ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْني إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الوقْتِ المَعْلُومِ ﴾[3]. وقال أبو جعفر المنصور: الحمد لله الذي أجارني بخلافته وأنقذني من النَّار بها. وحدثني إبراهيم بن عبد الله، عن أنس بن مالك، قال: دخلنا على قوم من الأنصار وفيهم فتى عليل، فلم نخرج من عنده

---

(١) المرزبان: الرئيس عند الفرس.

(٢) السوقة: من الناس الرعية دون الملك، من لم يكن ذا سلطان، والسُّفْل، والسَّفْل، نقيض العلوّ، وسفلة القوم: أسافلهم، غوغاؤهم.

(٣) الآيات ٣٦ ـ ٣٨ من سورة الحجر ومعنى أنظِرْني: أي أمهلني، والمُنظرين: أي المُمْهلين.

حتى قضى نحبه، فإذا عجوز عند رأسه فالتفت إليها بعض القوم فقال: استسلمي لأمر الله واحتسبي، قالت: أمات ابني؟ قال: نعم، قالت: أحقٌ ما تقولون؟ قلنا: نعم، فمدت يدها إلى السماء، وقالت: اللهمّ إنك تعلم أني أسلمت لك، وهاجرت إلى نبيك محمّد صلوات الله رجاء أن تغيثني عند كل شدة فلا تحملني هذه المصيبة اليوم، فكشف ابنها الثوب الذي سجيناه به عن وجهه، وما برحنا حتى طعم وشرب وطعمنا معه.

ضده

قال عيسى بن مريم صلوات الله عليه: يا معشر الحواريين إن ابن آدم مخلوق في الدنيا في أربع منازل، هو في ثلاث منها واثق وهو في الرابعة سيّىء الظن يخاف خذلان الله إياه: فأما المنزلة الأولى فإنه خلق في ظلمات ثلاث، ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة الميشمة[1]، فوفاه الله رزقه في جوف ظلمة البطن، فإذا أخرج من ظلمة البطن، وقع في اللبن لا يخطو إليه بقدم ولا ساق، ولا يتناوله بيد، ولا ينهض إليه بقوة، بل يكره عليه إكراهاً ويوجر إيجاراً[2] حتى ينبت عليه لحمه ودمه، فإذا ارتفع عن اللبن وقعَ في المنزلة الثالثة في الطعام من أبويه، يكسبان عليه من حلال وحرام. فإن ماتا عطف عليه الناس هذا يطعمه وهذا يسقيه وهذا يؤويه وهذا يكسوه، فإذا وقع في المنزلة الرابعة واشتد واستوى وكان رجلاً، خشي أن لا يرزق فَيَثِبُ على الناس يخون أماناتهم ويسرق أمتعتهم ويغصبهم أموالهم مخافة خذلان الله تعالى إياه.

محاسن طلب الرزق

قال عمرو بن عتبة: من لم يقدمه الحزم أخره العجز. وقال رسول

---

(١) المشيمة: ج مشيم ومشايم: غشاء ولد الإنسان يخرج معه عند الولادة.

(٢) وجر يجر إيجاراً: جعل الوَجور في فمه: أي يرضع بدون طلب منه حتى يمتلىء.

الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم أحدث لي سفراً أحدث لك رزقاً» . وفي بعض الحديث : « سافروا تغنموا »[1] .

وقال الكميت بن زيد الأسدي [2] :

ولن يُزيحَ همومَ النفسِ إنْ حضرتْ حاجاتُ مِثلَك إلا الـرَّحْلُ والجمـلُ

وقال أبو تمام الطائي :

وطولُ مُقامِ المرءِ في الحيِّ مُخْلِقٌ لـديباجَتَيْـهِ[3] فاغتـربْ تتجـددِ
فـإني رأيتُ الشَمسَ زِيـدَتْ مَحَبـةً إلى الناس أنْ لَيستْ عليهم بسرمـدِ

وقال بعض الحكماء: لا تدع الحيلة في التماس الرزق بكل مكان فإن الكريم محتال والدَّني عيال[4]، وأنشد:

فَسِـرْ في بـلاد اللَّهِ والتمسِ الغنى تَعِشْ ذا يَسـارٍ أو تمـوتَ فَتُعْـذرا
ولا تـرضَ من عيشٍ بدونٍ ولا تنمْ وكيف ينامُ الليل من كـان مُعْسِرا؟

وتقول العامة: كلبٌ جوّال خير من أسد رابض. وتقـول: من غلى دماغه صائفاً غلت قدره شاتياً[5]. وقال عبد الله بن طاهر: من سعى رعى، ومن لزم المنام رأى الأحلام. هذا المعنى سرقه من توقيعات أنوشروان فإنه يقول: هرك روذ جرد هرك خسبد خواب بيند، وأنشد:

كفى حَـزَنـاً أنَّ النـوى قـذفَتْ بنـا بعيـداً وأنّ الرزقَ أعيتْ مـذاهبهْ[5]

(١) «سافروا تغنموا». . أخرجه الطبراني والحاكم عن ابن عباس كما أخرجه البيهقي عن ابن عباس والشيرازي وأبو نعيم والقضاعي عن ابن عمر بلفظ «سافروا تصحوا وتغنموا».
(٢) الكميت بن زيد الأسدي : شاعر، كان شديد التكلف كثير السرقة في شعره .
(٣) الديباجة : الوجه يقال : « فلان يصون ديباجته أو يبذل ديباجته » : فصون الديباجة كناية عن الشرف ، ويذلها كناية عن الدناءة .
(٤) العيَّال: المتمايل المتبختر.
(٥) مذاهبه: طرقه وأساليبه.

ولــو أننا إذ فـرّق الـدهــرُ بيننــا غنيٌّ واحـدٌ منا تمـوّل صـاحبُـهْ
ولكنـنــا من دهــرنــا فـي مؤونــةٍ يكـالبُنا طـوراً وطـوراً نكــالبـهْ

وقال آخر:

ومنْ يــكُ مثلي ذا عِيــالٍ ومُقْتِــراً من المال يطرْح نفسَـه كِلَّ مـطْرَحِ
لِيبـلُغَ عُــذراً أو ينــالَ غـنـيـمــةً ومُبلِغُ نفسٍ عُـذرَهـا مثـلُ منجـحِ

وقال آخر:

ولـيس الــرزق عن طـلب حثـيـث ولــكــنْ أدل دلْــوكَ فــي الــدِّلاءِ
تـجئْــكَ بمـلئهــا حـينــاً وطــوراً تـجيء بـحـمــأةٍ[1] وقـلـيــل مــاءِ

ضــــده

قيل: وُجِدَ في بعض خـزائن ملوك العجم لوحٌ من حجـارة مكتوبٌ عليه: كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو، فإن موسى عليه السلام خرج ليقتبس ناراً فنودي بالنبوة.

وبلغنا عن ابن السماك أنـه قال: لا تشتغـل بالـرزق المضمون عن العمل المفروض، وكن اليـوم مشغولاً بمـا أنت مسؤول عنه غـداً، وإياك والفضول فإن حسابها يطول. قال الشاعر:

إني علمتُ وعلمُ الـمـرءِ ينـفعــه أنَّ الـذي هـو رِزقي سـوفَ يـأتيني
أسـعى لــه فـيُـعـنِّـيـنـي تَــطلُّبُــه ولــو قـعــدتُ أتــاني لا يـعنّـيـني

وقال آخر:

لَعَمْــرُكَ مـا كــلُّ التعـطّل ضــائرٌ ولا كـلُّ شُغـلٍ فيـه للمـرءِ منفعـهْ

---

(١) الحمأة: الطين الأسود.

إذا كانتِ الأرزاقُ في القربِ والنَّوى　　عليكَ سواءً فاغتنمْ لذة الدعةْ

وقال آخر:

سهِّلْ عليكَ فإنَّ الرزقَ مقدورُ　　وكلّ مُستأنفٍ في اللّوح مسطورُ
أتى القضاءُ بما فيه لمُدّتِهِ　　وكلٌّ ما لم يكنْ فيه فمحظور
لا تكذبنّ فخيرُ القول أصْدَقُه　　إن الحريصَ على الدنيا لمغرور

وقال آخر:

لا تعتبنّ على العبادِ فإنما　　يأتيكَ رزقُكَ حين يُّؤذنُ فيهِ

وقال آخر:

هي المقاديرُ تجري في أعنّتِها　　فاصبرْ فليس لها صبرٌ على حالِ
يوماً تريش[1] خسيس القوم ترفعه　　دونَ السماءِ ويوماً تَخْفِضُ العالي

وقال آخر:

إصبرْ على زمنٍ جَمٍّ نوائبُه　　فليس من شدّةٍ إلا لها فرجُ
تلقاه بالأمس في عمياءَ مُظلمةٍ　　ويصبحُ اليومَ قد لاحتْ له السُّرُجُ

وقال آخر:

ألا رُبَّ راجٍ حاجةٍ لا ينالُها　　وآخَر قد تُقْضى لهُ وهْوَ آيسُ
يجولُ لها هذا وتُقضى لغيره　　فتأتي الذي تُقضى له وهْوَ جالس

وقال آخر:

فلما إن عَيِيتَ بما ألاقي　　وأعيتني المسائلُ بالقروضِ

---

(١) راش السَّهم ريْشاً وارتاشه: ركب عليه الريش، وطائر راشٌ: نبت ريشه والمعنى: تجعل له ريشاً كجناح الطائر الذي يرتفع به.

دعــوتُ الله لا أرجــو ســـواهُ ... وربّ العــرش ذو فَــرجٍ عــريض

وقال آخر:

يـا صـاحبَ الهمّ إن الهمَّ منفــرجٌ ... أبشــرْ بخيرٍ كـأنْ قـد فـرَّج اللَّهُ

اليــأس يقـطع أحيـانـاً بصـاحبـه ... لا تـيـأسـنّ فـإن الـصـانـع الله

إذا ابتُليـتَ فثـقْ بـاللَّهِ وارضَ بــه ... إنّ الــذي يكشف البلوى هُــوَ الله

وقال آخر:

وإذا تُصِبْــكَ من الحـوادثِ نكبــةٌ ... فــاصبــرْ فكــلُّ بـليّــةٍ تتـكشَّـفُ

محاسن المواعظ

قال الأصمعي: حججت فنزلت ضرية[1]، فإذا أعرابي قد كوّر عمامته على رأسه وقد تنكّب قوساً، فصعد المنبر: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيهـا الناس، إنمـا الدنيـا دار ممر، والآخـرة دار مقر، فخـذوا من ممركم لمقرّكم، ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسـراركم، أما بعـد، فإنـه لن يستقبل أحد يوماً من عمره إلا بفراق آخـر من أجله، فاستعجلوا لأنفسكم لما تقدمون عليه، لا لمـا تظعنـون عنه، وراقبـوا من ترجعـون إليه، فـإنه لا قويَّ أقوى من خالق ولا ضعيف أضعف من مخلوق، ولا مهرب من الله إلا إليه، وكيف يهرب من يتقلّب بين يدي طالبه؟ ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّونَ أُجُـوْرَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الجنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الحَيَاة الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ﴾[2].

وقـال بعض الأعـراب: إن المـوت لَيَقْحَمُ على بني آدم كـاقتحـام

---

(١) ضَريّة: مكان في نجد.

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٨٥.

الشيب على الشباب، ومن عرف الدنيا لم يفرح بها على رخاء، ولم يحزن فيها على بلوى، ولا طالب أغشم من الموت، ومن عطف عليه الليل والنهار أردياه ومن وكل به الموت أفناه.

وقال أعرابي: كيف تَفْرحُ بعمر تنقصه الساعات وبسلامة بدن معرّض للآفات؟ لقد عجبت من المرء يفرّ من الموت وهو سبيله ولا أرى أحداً إلا استدركه الموت[1].

وقيل وجد في كتاب من كتب بزرجمهر صحيفة مكتوب فيها: إنّ حاجة الله إلى عباده أن يعرفوه، فمن عرفه لم يعصه طرفة عين، كيف البقاء مع الفناء؟ وكيف يأسى المرء على ما فاته والموت يطلبه؟

وقال كسرى: لم يكن من حُقَّ عليه أن يُقْتَلَ وإني لنادمٌ على ذلك[2].

قال: وحضرت الوفاة رجلاً من حكماء فارس، فقيل له: كيف يكون حال من يريد سفراً بعيداً بغير زاد ويقدم على ملك عادل بغير حجّة ويسكن قبراً موحشاً بغير أنيس؟

ضده

قيل: لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، جزع أبوه عليه جزعاً شديداً، فقال ذات يوم لمن حضره: هل من منشد شعراً يعزّيني به أو واعظ يخفف عني فأتسلى به؟ فقال رجل من أهل الشام: يا أمير المؤمنين كلّ خليل مفارق خليله بأن يموت، أو بأن يذهب إلى مكان،

---

(١) يوجد زيادة في المحاسن والمساوىء بعد استدراكه: وهو منه آبق (أنظر المحاسن والمساوىء ص ٣٨٧)، والآبق: العبد الهارب من سيده.

(٢) هكذا وردت في الأصل وفي العبارة نقص ظاهر.

فتبسّم عمر بن عبد العزيز وقال: مصيبتي فيك زادتني إلى مصيبتي مصيبة.

قيل: وأصيب الحجاج بن يوسف بمصيبة وعنده رسول لعبد الملك بن مروان فقال: ليت أني وجدت إنساناً يخفف عني مصيبتي، فقال له الرسول: أقول؟ قال: قل. قال: كل إنسان مفارق صاحبه بموت أو بصلب أو بنارٍ تقع عليه من فوق البيت أو يقع عليه البيت، أو يسقط في بئر أو يغشى عليه، أو يكون شيء لا يعرفه، فضحك الحجاج وقال: مصيبتي في أمير المؤمنين أعظم حين وجّه مثلك رسولاً.

محاسن فضل الدنيا

قال عليٌّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه: الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزوّد منها، مسجد أنبياء الله، ومهبط وحيه، ومصلَّى ملائكته، ومتجر أوليائه، يكسبون فيها الرحمة ويربحون فيها الجنة فمن ذا يذمّها؟ وقد آذنت ببينها ونادت بفراقها ونعت نفسها وشوّقت بسرورها إلى السرور وببلائها إلى البلاء تخويفاً وتحذيراً وترغيباً وترهيباً، فيا أيها الذّام للدنيا والمفتتن بغرورها متى غرتك؟ أبمصارع آبائك من البلى أو بمضاجع أمهاتك تحت الثرى؟ كم علّلت بكفيك وكم مرضت بيديك، تبتغي لهم الشفاء وتستوصف لهم الأطباء وتلتمس لهم الدواء؟ لم يَنْفَعْهُمْ تطبُّبك ولم يشفهم دواؤك، مثّلت لك الدنيا مصرعك ومضجعك حيث لا ينفعك بكاؤك ولا يغني عنك أحباؤك.

ثم التفت إلى قبور هناك فقال: يا أهل الثراء والعز، الأزواج قد نكحت، والأموال قد قسمت، والدور قد سكنت، هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم؟ ثم قال لمن حضر: والله لو أذن لهم لأجابوا بأن خير الزاد التقوى، وأنشد:

ما أحسنَ الدنيا وإقبالَها ... إذا أطاع اللَّهَ مَنْ نالَهَا

من لم يـواسِ النـاسَ من فضلهـا　　عــرَّضَ لــلإدبـارِ إقـبـالَـهَـا

قال أبو حازم: الدنيا طالبة ومطلوبة طالب الدنيا يطلبه الموت حتى يخرجه منها، وطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى توفيه رزقه.

وقال الحسن البصري: بينا أنا أطوف بالبيت إذا أنا بعجوز متعبدة، فقلت: من أنت؟ فقالت: من بنات ملوك غسان. قلت: فمن أين طعامك؟ قالت: إذا كان آخر النهار جاءتني امرأة متزينة فتضع بين يدي كوزاً من ماء ورغيفين. قلت لها: أتعرفينها؟ قالت: اللهمّ لا، قلت: هي الدنيا خدمت ربك جلّ ذكره فبعث إليك الدنيا فخدمتك.

ضــده

زعموا أن زياد بن أبيه مرّ بالحيرة فنظر إلى دير هناك، فقال لخادمه: لمن هذا؟ قيل له: هذا دير حرقة بنت النعمان بن المنذر، فقال: ميلوا بنا إليه لنسمع كلامها، فجاءت إلى وراء الباب فكلّمها الخادم قال لها: كلمي الأمير، فقالت: أأوجز أم أطيل؟ قـال: بل أوجـزي قالت: كنـا أهل بيت طلعت الشمس علينا وما على الأرض أحد أعز منا، وما غابت تلك الشمس حتى رَحِمَنا عدوُّنا. قال: فأمر لها بأوساق من شعير فقالت: أَطْعَمَتْكَ يد شبعاء جاعت ولا أطعمتك يد جـوعاء شبعت. فَسُـرَّ زياد بكـلامها فقـال لشاعر معه قيّد هذا الكلام ليدرس. فقال:

سلِ الخيرَ أهلَ الخيرِ قِدْماً ولا تسلْ　　فتىً ذاق طعمَ الخيـرِ منـذُ قـريبِ

ويقال: إن فروة بن إياس بن قبيصة انتهى إلى دير حرقة بنت النعمان فـألفاهـا وهي تبكي فقال لهـا: ما يبكيـك؟ قالت: مـا من دار امتلأت سروراً إلا امتلأت بعد ذلك ثبوراً ثم قالت:

فبينـا نسوسُ النـاسَ والأمـرُ أمـرُنـا　　إذا نـحنُ فـيهـمْ سُـوقَـةٌ نتنـصّف

فأفٍّ لدنيا لا يدومُ نعيمُها تقلُّبُ تاراتٍ بنا وتصرّف

قال: وقالت حرقة بنت النعمان لسعد بن أبي وقّاص: لا جعل الله لك إلى لئيم حاجة، ولا زالت لكريم إليك حاجة، وعقَدَ لك المِنَن في أعناق الكرام، ولا أزال بك عن كريم نعمةً، ولا أزالها بغيرك إلا جعلك سبباً لردّها عليه. قال: وقال عبد الملك بن مروان لسلم بن يزيد الفهمي: أيُّ الزمان أدركت أفضلَ وأيَّ ملوكه أكمل؟ قال: أما الملوك فلم أر إلا ذاماً وحامداً، وأما الزمان فرفع أقواماً ووضع آخرين، وكلهم يذمّ زمانه لأنه يُبْلي جديدهم ويهرم صغيرهم وكل ما فيه منقطع إلا الأمل، قال: فأخبرني عن فهم. قال: هم كما قال الشاعر:

درج الليلُ والنهارُ على فهمِ بْنِ عَمْرٍو فأصبحوا كالرميمِ
وَخَلَتْ دارهمْ فأضحتْ قفاراً بعد عزٍّ وثروةٍ ونعيمِ
وكذاك الزمانُ يذهبُ بالنا س وتبقى ديارهمْ كالرسومِ[1]

قال: فمن يقول منكم؟

رأيت الناسَ مُذْ خُلِقوا وكانوا يُحبّون الغنيّ من الرجالِ
وإنْ كان الغنيُّ أقلَّ خيراً بخيلاً بالقليلِ من النَّوالِ
فلا أدري علامَ وفيمَ هذا وماذا يرْتجونَ من المحالِ؟
ألِلدنيا؟ فليس هناك دنيا ولا يُرجى لحادثة الليالي

قال: أنا: وقد كتمتها.

قال: ولما دخل علي صلوات الله عليه المدائن فنظر إلى إيوان

---

(١) الرسوم: ما بقي ملتصقاً بالأرض من آثار الدار.

كسرى أنشد بعض من حضره قول الأسود بن يعفر:

ماذا أؤمل بعد آل مُحرّقٍ ... تركوا منازلَهمْ وبعد إيادِ[1]
أهلِ الخورنقِ والسديرِ وبارقٍ ... والقصرِ ذي الشُّرفاتِ من سندادِ[2]
نزلوا بأنقرةٍ يسيلُ عليهمُ ... ماءُ الفراتِ يجيء من أطوادِ
أرضٌ تخيَّرها لطيبِ نسيمِها ... كعبُ بْنُ مامةَ وابنُ أم دوادِ[3]
جرتِ الرياحُ على محلِّ ديارهمْ ... فكأنما كانوا على ميعادِ
فإذا النعيمُ وكلُّ ما يُلهَى به ... يوماً يصيرُ إلى بِلىً ونفادِ

وقال عليٌّ صلوات الله عليه: أبلغ من ذلك قول الله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيْهَا فَاكِهِينَ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ، فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ، وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾[4].

وقال عبد الله بن المعتز: أهل الدنيا كركبٍ يُسارُ بهم وهم نيام.

وقال غيره: طلاق الدنيا مهرُ الجنة.

---

(١) محرق: لقب عمرو بن هند لأنه حرق مئة من بني تميم، ومحرق أيضاً لقب الحارث بن عمرو ملك الشام وسمي بذلك لأنه أول من حرق العرب في ديارهم فهم يدعون آل «محرق» أما من عناه شاعرنا فهو امرؤ القيس بن عمرو بن عدي اللخمي لأنه يدعى محرقاً. وإياد: حي من معدّ.

(٢) الخورنق: قصر بالعراق (فارسي معرب) بناه النعمان الأكبر ويقال له الأعور. والسدير، بناء بالفارسية (سهدلّي) أي ثلاث شعب متداخلة. قباب وبارق: موضع قريب من الكوفة. وسنداد بكسر السين وفتحها: بلد معروف في البادية ومنه قول الشاعر:

* يا دار ميَّة بالعلياء فالسَّند *

(٣) كعب بن مامة الإيادي: يضرب به المثل في الجود لأنه في ساعة العطش القتال سقى صاحبه ما لديه من الماء ومات عطشاً. وابن أم دواد: شاعر من إياد.

(٤) سورة الدخان، الآيات من ٢٥ ـ ٢٨.

وذكروا أن أعرابياً ذكر الدنيا فقال: هي جمة المصائب رنقة المشارب[1].

وقال آخر: الدنيا لا تمتّعك بصاحب.

قال أبو الدرداء: من هوان الدنيا على الله تعالى أنه لا يُعصى إلا فيها ولا يُنال ما عنده إلا بتركها. وقال: إذا أقبلت الدنيا على امرىءٍ أعارته محاسنَ غيره وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه. وقال الشاعر:

أيا دنيا حَسرْتِ لنا قِناعا ... وكان جمالُ وجهكِ في النّقابِ
ديارُ طالما حُجِبتْ وعزَّتْ ... فأصبحَ أذنُها سهلَ الحجابِ
وقد كانتْ لنا الأيامُ ذُلّتْ ... فقد قُرِنتْ بأيامٍ صِعابِ
كأنَّ العيشَ فيها كان ظِلاًّ ... يقلّبُهُ الزمانُ إلى ذهابِ

قال الأصمعي: وجد في دار سليمان بن داود عليه السلام على قبة مكتوباً:

ومن يَحْمَدِ الدنيا لشيءٍ يسرّه ... فسوف لعَمري عن قريبٍ يلومها
إذا أدبرتْ كانت على المرءِ حسرةً ... وإن أقبلتْ كانت كثيراً همومُها

وكان إبراهيم بن أدهم[2] ينشد:

نرقّعُ دنيانا بتمزيقِ ديننا ... فلا دينُنا يبقى ولا ما نرقّعُ

وقال أبو العتاهية[3]:

يا منْ تَرفّعَ بالدنيا وزينتِها ... ليس الترفّعُ رفعَ الطينِ بالطينِ

---

(١) رنْقَةُ المشارب: ماؤها كدر اختلط بالطين.

(٢) إبراهيم بن أدهم: زاهد مشهور من كورة بلخ كان يعظ الناس بمثاله وكلامه. مات في حملة بحرية ضد البيزنطيين.

(٣) أبو العتاهية: وردت ترجمته في الصفحة ٤٢.

إذا أردتَ شـريفَ القـوم ِ كـلِّهِمُ   فـانـظرْ إلى ملكٍ في زيّ مسكينِ
ذاك الذي عَظُمَتْ في النـاس همتهُ   وذاك يـصـلُحُ لـلدنـيـا ولـلـدينِ

وقال آخر:

هبِ الـدنيا تُسـاقُ إليك عَفـواً   أليسَ مـصـيـرُ ذاك إلى زوالِ؟

وقال محمود الورّاق[1]:

هيَ الـدنيـا فـلا يَغـررْكَ منهـا   مخـائـلُ تستفـزّ ذوي الـعقـولِ
أقـلّ قـليلهـا يـكـفيـكَ مـنـهـا   ولكِنْ لستَ تـقـنعُ بـالـقـليـلِ
تـشيـدُ وتـبتـني في كـل يـومٍ   وأنـتَ على التجـهُّـزِ للرحيـلِ
ومن هـذا عـلى الأيـام تـبقـى   مضـار بـهُ بمـدرجـة السيـولِ؟

وقال آخر:

دنيـا تَـدَاوَلهـا الـعبـادُ ذميمـةً   شيبتْ بأكرهِ من نقيعِ الحنظلِ
وثَبـاتُ دنيـا مـا تـزال مُـلِمَّـةً   منهـا فجائـعُ مثلَ وقْـعِ الجنْدَلِ[2]

وقال آخر:

حتى متى أنتَ في دنيـاكَ مشتغلٌ   وعـامـلُ اللّهِ بـالـرحمٰنِ مشغـولُ؟

وقال أبو نواس الحسن بن هانىء:

دعِ الـحـرصَ عـلى الـدنـيـا   وفـي الـعـيشِ فـلا تـطـمـعْ
ولا تَـجـمـعْ لـك الـمـالَ   فـمـا تـدري لـمـن تـجـمـعْ
ولا تدري أفي أرضِكَ أم في غِيرها تُصرعْ!

---

(١) محمود الوراق. شرح مختصر الجرمي شرحين أكبر وأصغر له ديوان أكثره مواعظ وحكم.

(٢) الجندل ج جنادل: الحصى والحجارة.

قال الأصمعي: سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول بينا أنا أدور في بعض البراري إذا أنا بصوت:

وإنَّ امـرءاً دنيـاه أكثـرُ هـمّـهِ　　لمستمسـكٌ منها بحبـلِ غـرورِ

فقلت أأنسي أم جني؟ فلم يجبني أحد، فنقشته على خاتمي.

قال: وسمع يحيى بن خالد بيت العدوي في صفة الدنيا:

حتـوفُهـا رَصَـدٌ وعيشُهـا نكـدُ　　وشـربُـهـا رنَـقٌ ومُـلكُـهـا دولُ

فقال: لقد نظم في هذا البيت صفة الدنيا.

قال: وسمع المأمون بيت أبي نواس:

إذا امتحنَ الـدنيـا لبيبٌ تكشّفت　　لـه عن عـدوٍ في ثيـاب صـديقِ

فقال: لو سئلت الدنيا عن نفسها ما وصفت نفسها كما وصفها أبو نواس.

وقيل للحسن البصري: ما تقول في الدنيا؟ قال: ما أقول في دار حلالها حساب وحرامها عقاب؟ فقيل: ما سمعنا كلاماً أوجز من هذا، قال: بلى، كلام عمر بن عبد العزيز كتب إليه عدي بن أرطاة وهو على حمص، أن مدينة حمص قد تهدّمت واحتاجت إلى إصلاح حيطانها فكتب إليه: حصّنها بالعدل ونقِّ طرقها من الظلم والسلام.

محاسن الزهد

محمد بن الحسن، عن أبي همام وكان قد عرف ضيغماً[1] قال: كنت معه في طريق مكة، فلما بعدنا في الرمل، نظر إلى ما تلقى الإبلُ من

---

(١) ضيغم: اسم رجل زاهدٍ وَرِعٍ.

شدة الحر فبكى ضيغم فقلت: لو دعوت الله أن يمطر علينا كان أخفّ على هذه الإبل قال: فنظر إلى السماء وقال: إن شاء الله فعل، قال: فوالله ما كان إلا أن تكلم حتى نشأت سحابة فهطلت.

وعن عطاء بن يسار، أن أبا مسلم الخولاني خرج إلى السوق بدرهم يشتري لأهله دقيقاً فعرض له سائل فأعطاه بعضه، ثم عرض له سائل آخر فأعطاه الباقي، فأتى النجارين فملأ مزوده من نشارة الخشب وأتى منزله فألقاه وخرج هارباً من أهله، فاتخذت المرأة المزود فإذا دقيق حواري لم تر مثله فعجنته وخبزته فلما جاء قال: من أين لك هذا؟ قالت: الدقيق الذي جئت به.

وعن أبي عبد الله القرشي عن صديق له قال: دخلت بئر زمزم، فإذا بشخص ينزع الدلو مما يلي الركن فلما شرب أرسل الدلو فأخذته فشربت فضلته، فإذا هو سويق لوز لم أر أطيب منه، فلما كانت القابلة[1] في ذلك الوقت، جاء الرجل وقد أسبل ثوبه على وجهه ونزع الدلو فشرب ثم أرسله فأخذته فشربت فضلته فإذا هو ماء مضروب بالعسل لم أر شيئاً قط أطيب منه، فأردت أن آخذ طرف ثوبه فأنظر من هو ففاتني، فلما كان في الليلة الثالثة قعدت قبالة زمزم في ذلك الوقت فجاء الرجل وقد أسبل ثوبه على وجهه فنزع الدلو فشرب وأرسله وأخذته وشربت فضلته فإذا هو أطيب من الأول، فقلت: يا هذا أسألك برب هذه البنية من أنت؟ قال: تكتم علي حتى أموت؟ قلت: نعم. قال لي: أنا سفيان الثوري، وكانت تلك الشربة تكفيني إذا شربتها إلى مثلها من الوقت لا أجد جوعاً ولا عطشاً.

وقال الأصمعي: رأيت أعرابياً يكدح جبهته بالأرض يريد أن يجعل

---

(٣) القابلة: الليلة التالية.

سجادة فقلت: ما تصنع؟ قال: إني وجدت الأثر في وجه الرجل الصالح.

وقال الشاعر:

كيف يبكي لمحْبسٍ في طُلولِ   منْ سيفضي[1] ليوم حبسٍ طويلِ؟
إنّ في البعثِ والحسابِ لشغلاً   عن وقوفٍ برسمِ ربعٍ محيلِ

وقال آخر:

إنّ الشقيَّ الذي في النارِ منزلُهُ   والفوزُ فوزُ الذي ينجو من النارِ
يا رب أسرفتُ في ذنبي ومعصيتي   وقد علمتَ يقيناً سوءَ آثاري
فاغفرْ ذنوباً إلّهي قد أحطْتَ بها   ربَّ العبادِ وزحزحني عن النارِ

وقال ذو الرمّة[2]:

تعصي الإلّهَ وأنتَ تُظْهِر حبَّهُ   هذا مُحالٌ في القياسِ بديعُ
لو كان حبّكَ صادقاً لأطعتَهُ   إنّ المحبَّ لمن يحبُّ مطيعُ

وقال أبو نواس:

أيا عجباً كيف يَعْصِي الإلَه   أمْ كيف يجحدهُ الجاحدُ؟
ولِلّهِ في كلِّ تحريكةٍ   وتسكينةٍ فاعلمنْ شاهد
وفي كل شيءٍ له آيةٌ   تدلُّ على أنّه واحد

وقال أيضاً:

سبحانَ من خلق الخلـ   ـقَ من ضعيف مهينِ

---

(١) سيفضي: من أفضى المكان، أو إلى المكان: إليه وصل. وأصله أنه صار في فرجته وفضائه.

(٢) ذو الرمَّة: هو غيْلان بن عُقْبة بن بُهيش ويكنّى أبا الحارث من بني صعب. شاعر يجيد التشبيه تغزل بصاحبته ميَّة وهو أحد عشاق العرب المشهورين.

يسوقُهمْ من قرارٍ إلى قرارٍ مكينِ
يحورُ خلْقاً فخلْقاً في الحَجْبِ دون العيون
حتى بدتْ حركاتٌ مخلوقةٌ من سكون

وقال آخر:

أخي ما بالُ قلبِكَ ليس يَنْقى كأنكَ لا تظنّ الموتَ حقَّا
ألا يا ابنَ الذين مضوْا وبادوا أما واللَّهِ ما ذهبوا لتبقى
وما لَكَ غيرُ تقوى اللَّه زادٌ إذا جَعَلَتْ إلى اللَّهَوَاتِ تَرْقى[1]

وقال آخر:

يا قلبُ مهلاً وكنْ على حذرٍ فقد لَعَمْري أُمِرْتَ بالحذرِ
ما لكَ بالتُّرهاتِ مشتغلاً أفي يديكَ الأمانُ من سفرِ؟

وقال آخر:

إنْ كنت تؤمنُ بالقيا مةِ واجترأتَ على الخطيهْ
فلقد هَلَكْتَ وإن جحد تَ فذاكَ أعظمُ للبليّه

وقال آخر:

وأفْنيةُ الملوكِ محجَّباتٌ[2] وبابُ اللَّه مبذولُ الفناءِ
فما أرجو سواه لكشفِ ضرّي ولا أفزعْ[3] إلى غيرِ الدعاءِ
ولا أدعو إلى اللأواء كهفاً[4] سوى من لا يَصَمُّ عَن الدعاءِ

---

(١) اللَّهَوات: مفردهَا لَهاة: اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم. المعنى: إذا صعدت الروح إلى الحلق، الحشرجة عند الاحتضار.

(٢) الأفنية مفردها فناء: الفسحة أمام الدار. يعني دار الملوك يحرسها الحجَّاب.

(٣) فزع إلى: لجأ إلى الدعاء ويجب تسكين العين لضرورة الوزن.

(٤) اللّأواء: الشدة والمحنة. الكهف: الغار وهو هنا بمعنى الملجأ.

ضـــده

قيل: كان جندي بقَزْوين يصلي في بعض المساجد فافتقده المؤذن أياماً فصار إليه وقرع بابه عليه فخرج إليه، فقال له المؤذن: أبو من؟ قال: أبو الجحيم، قال: بئس يا هذا رد الباب.

قال: وقيل للقَيْنيّ: ما أيسر ذنبك؟ قال: ليلة الدير، قيل له: وما ليلة الدير؟ قال: نزلت بدير نصرانية فأكلت عندها طفيشلاً[1] بلحم خنزير، وشربت خمرها وَفَجَرْتُ[2] بها وسرقت كساءها وخرجت.

قيل: أتى خمسة من الفتيان إلى قرية فنزلوا على باب خان، فقام أحدهم يصلي والباقون جلوس فمرت بهم نبطية[3] فقالوا: دلينا على قحبة، قالت: نعم، كم أنتم؟ قالوا: نحن أربعة، فأومى الذي يصلي بيده سبحان الله، أنا الخامس. قال الشاعر بشار[4]:

وإنني في الصلاةِ أحضرُها ... ضُحْكةُ أهل الصلاةِ انْ شهدوا
أقعدُ في سجدةٍ إذا ركعوا ... وأرفعُ الرأسَ إنْ هُمُ سجدوا
أسجدُ والقومُ راكعونَ معاً ... وأُسرِعُ الوثبَ إن هُمُ قعدوا
فلستُ أدري إذا هُمُ فرغوا ... كم كان تلك الصلاةُ والعدد

---

(١) الطَّفَيْشل: نوع من المرق.
(٢) فَجَرَ: زنى، ارتكب الحرام.
(٣) نبطية، الواحد نبطي ج أنباط: قوم من العجم كانوا ينزلون بين العراقين سمُّوا نبطاً لاستنباطهم ما يخرج من الأرض ثم استعمل في أخلاط الناس وعوامّهم. والقَحْبَة: المرأة الفاسدة الفاجرة.
(٤) بشار بن برد: شاعر فارسي الأصل أدرك الأمويين ثم اتصل بالعباسيين لا سيما بالمهدي سخط عليه إذ رآه مرة في البصرة سكران يؤذن فرماه بالزندقة وضرب سبعين سوطاً حتى مات. كان أعمى غليظ المنظر، متبرماً بالناس يسخر بهم ويهجوهم. له ديوان شعر نشرته دار إحياء العلوم عام ١٩٩١.

وقال آخر:

وأصلّي فأغلطُ الدهرَ فيما ... بين سبعٍ وأربعٍ وثمانِ
ومواقيتُ حينَها لستُ أدري ... ما أذانٌ مؤقَّتُ من أذانِ

وقال آخر:

نِعْمَ الفتى لو كان يعرفُ ربّه ... ويقيمُ وقتَ صلاتِهِ حمَّادُ
عَدَلَتْ مشافرهُ الدّنانَ فأنفهُ ... مثلُ القَدُومِ يسنّه الحداد[1]
فآبيضّ من شربِ المُدامةِ وجهُه ... فبياضه يومَ الحسابِ سواد

وقال آخر:

إنْ قرأ «العاديات»[2] في رجبْ ... لم يَعدْ منها إلا إلى رجبْ
بل نحن لا نستطيعُ في سنةٍ ... نَختِمُ «تبّتْ يدا أبي لهب»

محاسن النساء النادبات

قيل، كان رسول الله ﷺ يستحسن قول الخنساء في صخرٍ أخيها:

لا بدَّ من مَيْتةٍ في صَرفها غِيَرُ ... والدهرُ من شأنه حَولٌ وإضرارُ
وإنّ صخراً لتأتمّ الهداةُ به ... كأنه علمٌ في رأسه نار

وقيل للخنساء: صِفِي لنا صخراً فقالت: كان مطر السنة الغبراء[3]،

---

(١) المشفر ج مشافر: شفة البعير، والدنّ ج دنان: الراقود العظيم لا يقعد إلّا أن يُحفر له، والقدّوم: بتشديد الدال وتخفيفها: آلة للنحت والنّجر (مؤنثة).

(٢) العاديات: سورة والعاديات ضبحا.

(٣) السنة الغبراء: أي الجدبة سميت بذلك لاغبرار آفاقها من قلة الأمطار وأراضيها من عدم النبات والاخضرار. ذعاف، الموت الذعاف: السريع، والطعام جعل فيه السم. والذّعْف: السم الذي يقتل من ساعته.

وذعاف الكتيبة الحمراء. قيل فمعاوية؟ قالت: حياء[1] الجدبة إذا نَـزَل، وقِرى الضيف إذا حل، قيل: فأيّهما كان عليك أحنى؟ قالت: أمـا صخر فسقام الجسد، وأما معاوية فجمرة الكبد. وأنشدت:

أسـدانِ محمـرًا المخـالبِ نجـدةً   غيثـان في الزمن الغضـوب الأعسر
قمـرانِ في النـادي رفيعـا مَحْتِدٍ[2]   في المجـدِ فـرعـا سؤددٍ مُتَخيَّـرِ

ورُوِيَ أنها دخلت على عائشـة أم المؤمنين وعليها صـدار من شعر فقالت لها عائشة: أتتخذين الصدار وقد نهى عنه رسول الله ﷺ؟ فقالت: يا أم المؤمنين إن زوجي كان رجلًا متلافاً منفقاً، فقال لي: لو أتيت معاوية فـاستعنتِه، فخرجت وقد لقيني صخر فأخبرته فشاطرني مـاله ثـلاث مرات فقالت له امرأته: لو أعطيتها من شرارها ـ تعني الإبل ـ فقال:

تـالـلّهِ لا أمنـحُـهـا شِـرَارَهـا   وهي حَصـانٌ[3] قـد كفتني عـارَهـا
وإن هَـلكْتُ مـزّقـت خِمـارهـا   واتّخـذتْ من شَعَرٍ[4] صـدارَهـا

فلمـا هلك صخراً اتخـذت هذا الصـدار ونذرت أن لا أنـزعه حتى أموت.

قال ثور بن معن السلمي: حـدّثني أبي قال: دخلت على الخنسـاء في الجاهلية وعليها صدار من شعـرٍ وهي تجهّز ابنتهـا فكلمتها في طـرح الصـدار فقالت: يـا حمقاء، والله لأنـا أحسن منك عـرساً، وأطيب منـك

---

(١) الحياء: المطر. أي مطر الأرض الجدبة شبهت كرم معاوية بالمطر. ومعـاوية هـو أخو الخنساء.

(٢) المحْتِـد: الأصل، والنـادي ج أنديـة ونـوادٍ: مجلس القـوم مـا دامـوا مجتمعين فيـه. والسؤدد: كرم المنصب، السيادة، القدر الرفيع.

(٣) الحَصان: المرأة الشريفة العفيفة، ومحصنة: متزوجة.

(٤) شعَر: حُرِّكتْ العين بالفتحة بدلاً من السكون لضرورة وزن الشعر.

درساً، وأرق منك نعلاً، وأكرم منك بعلاً. قال عبد الرحمٰن بن مرّة عن بعض أشياخه: أنّ عمر بن الخطاب قال للخنساء: ما أقرح مآقي عينيك؟ قالت: بكائي على السادات من مضر، قال: يا خنساء، إنهم في النار قالت: ذلك أطول لعويلي. ومما اخترنا من أشعارها قولها:

تعرقني[١] الدهرُ قرْعاً وغمْزاً ... وأوجعني الدهرُ نهشاً ووخْزا
وأفنى رجالي فبادوا معاً ... فأصبح قلبي لهم مُستَفَزّا
كأنْ لم يكونوا حمًى يُتّقى ... إذ الناسُ إذ ذاكَ منْ عزَّ بزّا[٢]
وكانوا سَرَاةَ[٣] بني مالكٍ ... وَزَيْنَ العشيرةِ مجداً وعِزّا
وهمْ في القديم صِحاحُ الأديم[٤] ... والكائنون من الناس حِرْزا
بسمر الرماحِ وبيضِ الصّفاح ... فبالبيض ضرباً وبالسمر وخزا
حززنا نواصيَ فرسانِكُمْ ... وكانوا يظنّون أنْ لا تُحزَّا
ومن ظنَّ ممن يلاقي الحروبَ ... بأنْ لا يُصابَ فقد ظنَّ عجْزا
نَعِفُّ ونعرفُ حقَّ القِرَى ... ونتخذُ الحمدَ ذُخْراً وكنْزا
ونلْبَس في الحربِ نسجَ الحديدِ ... وفي السِّلم نلْبَسُ خزًّا وقزّا

---

(١) تعرَّقني: عَرَقَ عرْقاً ومعرقاً العظمَ: أكل ما عليه من اللحم وأخذه كله يقال: عرقته الخطوب: أي أخذت منه. والقرعْ: الدقّ والضرب أو التعنيف. وغَمز غمزاً بالرجل وعليه: طعن عليه وسعى به شراً، صغَّر من شأنه، المفخر: المطعن والعيب والمطمع، يقال ما فيه مفخر: أي ما فيه نقيصة يشار بها إليه.

(٢) من عزَّ بزًّا: أي من صار عزيزاً. كرُم وغلب وساد، وسبق أقرانه فبزَّهم.

(٣) السري ج سراة بفتح السين وضمها: صاحب المروءة والسخاء. وسراة القوم سادتهم وزعماؤهم.

(٤) الأديم: الجلد ما كان. وقيل: المدبوغ. وقيل: هو بعد الأفيق وذلك إذا تمَّ واحمرَّ واستعاره بعضهم للحرب فقال:

وإيّاك والحرب التي لا أديمها ... صحيحٌ وقد تُعْدَى الصِّحاحُ من السُّقْمِ

وروي خبر الخنساء من جهةٍ أخرى، ذكروا أنها أقبلت حاجّة فمرّت بالمدينة ومعها أناس من قومها، فأتوا عمر بن الخطاب فقالوا: هذه خنساء، فلو وعظتها فقد طال بكاؤها في الجاهلية والإسلام، فقام عمر وأتاها وقال: يا خنساء، قال: فرفعت رأسها فقالت: ما تشاء وما الذي تريد؟ فقال: ما الذي أقرح مآقي عينيك؟ قالت: البكاء على سادات مضر، قال: إنهم هلكوا في الجاهلية وهم أعضاد اللهب وحشو جهنم، قالت: فداك أبي وأمي فذلك الذي زادني وجعاً، قال: فأنشدني ما قلتِ، قالت: أما إني لا أنشدك ما قلت قبل اليوم ولكني أنشدك ما قلته الساعة، فقالت:

سقى جَدَثاً أعراقُ غمْرَة دونه ... وبيشةُ ديماتِ الربيعِ ووابلُهْ[1]

وكنت أعيرُ الدمعَ قبلك من بكى ... فأنت على من مات قبلكَ شاغلُه

وأُرْعِيهُمُ سمْعي إذا ذكروا الأسى ... وفي الصدرِ مني زفرةٌ لا تزايله

فقال عمر: دعوها فإنها لا تزال حزينة أبداً.

ليلى الأخيلية هجاها رجل من قومها، فقال:

ألا حيّيا ليلى وقولا لها هلا ... فقد ركبت أيراً[2] أغرّ محجَّلا

فأجابته:

تُعيِّرُني داءً بأمكَ مِثلُه ... وأيُّ جَوادٍ لا يقال له هلا؟

---

(١) البِيش والبيشَة: موضعان كما ورد في لسان العرب:

سقى جدثاً أعراض غمرة دونه ... وبيشة وسميّ الربيع ووابلهْ

وقوله: سقى جدثاً إلخ.. كذا في الأصل والصحاح، وفي ياقوت: أعراف بدل أعراض، وبيشة بباءين بدل وبيشة أي ببيشة، وفي القاموس المحيط: بيش وبيشة: واد بطريق اليمامة.

(٢) أيراً: يقصد: عيراً وفيه تورية.

وذكروا أنها دخلت على عبد الملك بن مروان فقال لها: يا ليلى هل بقي في قلبك من حب توبة[1] فتى الفتيان شيء؟ قالت: وكيف أنساه وهو الذي يقول يا أمير المؤمنين:

ولو أنَّ ليلى في ذرى مُتَمَنِّعٍ ... بنجرَان لالْتَفَّتْ عليَّ قصورُها
حمامة بطنِ الواديينِ ترنّمي ... سقاكِ من الغرّ الغوادي مَطيرُها
أبيني لنا لا زال ريشُكِ ناعماً ... وبَيْضُكِ في خضراءَ غصنٍ نضيرها
تقول رجالٌ لا يضيرُكَ نأْيُها ... بلى كلُّ ما شفَّ النفوسَ يَضيرُها
أيذهبُ رَيْعانُ الشبابِ ولم أزرْ ... كواعبَ في «هَمْدَان» بيضاً نحورُها؟

قال: عَمرَكِ اللَّهَ أن تذكريه[2].

ولتوبة في ليلى الأخيلية:

ولو أنَّ ليلى الأخيليةَ سلّمتْ ... عليَّ ودوني جَنْدلٌ وصفائحُ[3]
لسلَّمْتُ تسليمَ البَشاشةِ أو زقا[4] ... إليها صدًى من جانبِ القبرِ صائح
ولو أنَّ ليلى في السماء لأصعَدَتْ ... بطرْفي إلى ليلى العيونُ اللّوامح

فلما مات توبة، مرّ زوج ليلى بليلى على قبره فقال لها: سلّمي على توبة فإنه زعم في شعره أنه يسلّم عليك تسليم البشاشة، فقالت: ما تريد إلى من بليت عظامه؟ فقال: والله لتفعلنّ، فقالت وهي على البعير: سلامٌ

---

(١) توبة: هو توبة بن الحِمْير. شاعر صاحب ليلى الأخيلية عُرف بها واحد من عشاق العرب المشهورين خطبها من أبيها فلم يزوجه بها لما كانت عليه عادة العرب أنهم لا يزوجون بنتاً لمن اشتهر حبه لها.

(٢) عَمْرَكِ اللَّهَ: عبادتك الله، بإقرارك لله بالبقاء، سألت الله أن يطيل عمرك.

(٣) جندلة ج جنادل: الصخر العظيم، والصفيح: ج صفائح: السيف، الحجر العريض.

(٤) زقا زقْواً وزُقاء الطائر: صاح فهو زاق.

عليك يا توبة فتى الفتيان، وكانت قَطَاةٌ مستظلة في ثقب من ثقوب[1] القبر، فلما سمعت الصوت طارت وصاحت، فنفر البعير ورمى بليلى فماتت فدفنت إلى جانب قبر توبة.

قال: وسأل الحجاج ليلى، هل كان بينك وبين توبة ريبة قط؟ قالت: لا، والذي أسأله صلاحك إلا أنه مرةً قال لي قولاً ظننت أنه خنع لبعض الأمر، فقلت له:

وذي حاجةٍ قلنا له لا تَبُحْ بها ... فليس إليها ما حَييتَ سبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونَه ... وأنتَ لِأُخْرى فارغٌ وخليل

فما كلمني بعد ذلك بشيء حتى فرّق بيني وبينه الموت. قال الحجاج: فما كان بعد ذلك؟ قالت: لم يلبث أن قال لصاحبٍ له: إذا أتيت الحاضر[2] من بني عباد فقل بأعلى صوتك:

عفا اللَّهُ عنها هل أبيتنَّ ليلةً ... من الدهرِ لا يسري إليّ خيالُها

فلما سمعت الصوت خرجت فقلت:

وعنه عفا ربّي وأحْسَنَ حَالَهُ ... تَعِزُّ علينا حاجةٌ لا ينالُها

قال ودخلت ليلى على الحجاج فأنشدته قولها فيه:

إذا نزلَ الحَجاجُ أرضاً سقيمةً ... تتبّعَ أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العُضَالِ الذي بها ... غلامٌ إذا هزّ القناةَ ثناها
أحَجّاجُ لا تعطي العُصاةَ مناهمُ ... ولا اللَّهُ يعطي للعُصاةِ مناها

فوصلها الحجاج بألف دينار وقال: لو قلت بدل غلام همام لكان

---

(١) ثَقْب ج أثْقب وثقوب: الخرق الصغير، الفتحة الصغيرة.
(٢) الحاضر: الحي.

أحسن. هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان قيل: لما قتل شيبة وعتبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة، رثتهم هند فقالت:

إني رأيتُ فساداً بعد إصلاحِ ... في عبد شمسٍ فقلبي غيرُ مرتاحِ
هاجت لهم أدمعُ تَتْرى وَمَنْبَعُها ... من رأس محروبةٍ ما إن لها لاحي[1]
لما تنادت بنو فِهْرٍ على حَنَقٍ[2] ... والموتُ بينهمُ ساعٍ لأرواح
كأنما النسجُ في قتلىً مُصرَّعةٍ ... سُرْجٌ أضاءتْ على جُذْرٍ وألواح[3]
يا آل هاشم إنّا لا نصالحكم ... حتى نرى الخيلَ تردي كل كفّاح
إن يُمْكِنِ اللّهُ يوماً من هزيمتكم ... يُورِثُ نساءكم داءً بِتَقْراح[4]

فأجابتها عمرة بنت عبد الله بن رواحة الأنصاري:

يا هندُ مهلاً لقد لاقيتِ مُهْبلةً[5] ... يومَ الأعنّةِ والأرواحُ في الراح
أُسْدٌ غطارفةٌ غُرٌّ جَحاجحهُ ... أبناءُ مُحْصنةٍ بيضٌ لجحجاح[6]
هنالك الفوزُ والرضوانُ إن صبروا ... مع الرسولِ فما آبوا بتقياح[7]

---

(١) حَرَبَ حَرْباً الرجلَ: سلبه ماله وتركه بلا شيء فالرجل حريب ج حربى وحُرَباء ومحروب. واللاحي: اللائم، المنازع. وألحى إلحاءً: فَعَلَ ما يُلام عليه.

(٢) الحَنق: الغيظ، الغضب.

(٣) نسج نسجاً الحائك: ضم السَّدى إلى اللُّحمة: تشبه آثار الدماء على وجوه القتلى وأجسادهم أو على الأرض كمصابيح تضيء.

(٤) داء بتقراح: أي جروحاً تسبب القروح: الجراح التي يجتمع فيها القيح. يقال: تقرَّح الجسد: أي علته القروح.

(٥) مُهبلةً، أهبل الرجلَ: فقد العقل والتمييز. تقول: لاقيت حرباً أفقدتك العقل والتمييز.

(٦) الجحجاح: السيد المسارع إلى المكارم. والغطريف ج غطارفة: السيد، السريّ، الشاب الظريف السخيّ. والمحصنة: المتزوجة العفيفة الشريفة، تقول: هم أبناء لسيدات شريفات وآباءٍ سادةٍ شجعان.

(٧) التقياح: مشتقة من القيح: أي لا يعودون من الحرب بجروح تحمل القيح.

اللَّهُ أهلكهمْ والأوْسُ شاهدةٌ   والخزرجُ الغرّ فيهمْ كلُّ مُجتاح
لا تبعدنَّ فإني غيرُ صارخةٍ   وكيف تصرخُ ذات البعل يا صاح؟

محاسن النساء الماجنات

قال سليمان بن عبد الملك: أنشدوني أحسن ما سمعتم من شعر النساء. فقال بعضهم: يا أمير المؤمنين، سار رجل من الظرفاء في بعض طرقاته إذ أخذته السماء فوقف تحت مظلّة ليستكن من المطر، وجارية مشرفة عليه، فلما رأته حذفته بحجر فرفع رأسه وقال:

لو بِتُفَّاحةٍ رميْتِ رجونا   ومن الرَّمْيِ بالحَصَاةِ جَفاءُ

فأجابته:

ما جهلْنا الذي ذكرتَ من الشَّكلِ   ولا بالذي نراه خَفاء

وداية معها فقالت:

قد بدأتهِ ما ذكرتِ وَجَدِّي   ليتَ شعري فهلْ لهذا وَفاءِ؟

وسائلة في الباب فقالت:

قدْ لَعَمْري دَعَوْتَها فأجابتْ   هِيَ داءٌ وأنتَ منه شِفاءُ

قال سليمان: قاتَلَها الله هي والله أشعرهم.

عنان جارية الناطفي

قال السلولي: دخلت يوماً على عنان جارية الناطفيّ وعندها رجل أعرابي فقالت:

يا عم لقد أتى الله بك. قلت: وما ذاك؟ قالت: هذا الأعرابي دخل علي فقال: بَلَغَني أنكِ تقولين الشعر فقولي بيتاً، فقلت لها: قولي.

فقالت: قد أُرْتِجَ[1] عليّ فقل أنت. فقلت:

لقد جدّ الفِراقُ وعِيلَ صبري — عشيّةَ عِيرهمْ للبينِ زمَّتْ[2]

فقال الأعرابي:

نظرتُ إلى أواخرها ضُحيًّا[3] — وقد بانتْ وأرضَ الشام أمَّتْ

فقالت عنان:

كتمتُ هواكُمُ في الصدر مني — على أنَّ الدموعَ عليَّ نمَّتْ[4]

فقال الأعرابي: أنت والله أشعرنا ولولا أنك بحرمة رجل لقبّلتك، ولكني أقبّل البساط.

وقال بعضهم: دخلت على عنان فإذا عليها قميص يكاد يقطر صبغه وقد تناولها سيدها بضرب شديد وهي تبكي فقلت:

إنّ عِناناً أرسلتْ دمعَها — كالدرّ إذ ينسلُّ من سِمْطِهِ[5]

فقالت: وأشارت إلى مولاها:

فليتَ من يَضْرِبُها ظالماً — تَجِفُّ يُمناهُ على سوطِهِ

---

(١) أُرْتِجَ عليَّ: استغلق علي الكلام.

(٢) زمَّ الجَمّال خطمها: ربطها بالزمام أي بالحبل الذي يُجْعل في عنق البعير ثم يُثْنى في خطمه أي مقدم أنفه. والبيْن: الفرقة، الرحيل.

(٣) ضُحيًّا: ضحا ضحْواً بفتح الضاد، وضُحُواً بضم الضاد والحاء وضُحيّا الرجل: برز للشمس، ارتفاع النهار بعد طلوع الشمس.

(٤) نمَّ نمًّا الحديث: أظهره بالوشاية ورفعه على وجه الإشاعة والإفساد، زيَّن الكلام بالكذب فهو نمَّام، أي يتحدث مع القوم فينم عليهم ويكشف ما يُكره كشفه.

(٥) السِّمط ج سموط: الخيط ما دام الخرز أو اللؤلؤ منتظماً فيه، السير من السرج يعلَّق به يقال: «علَّقه بسموط سرجه».

فقال مولاها: هي حرّة لوجه الله إن ضربتها ظالماً أو غير ظالم.

قال: واجتمع أبو نواس، والفضل الرقاشي، والحسين الخليع، وعمرو الوراق، ومحكم بن رزين والحسين الخياط، في منزل عنان فتناشدوا إلى وقت العصر، فلما أرادوا الانصراف قالوا: أين نحن الليلة؟ فكلّ قال: عندي، فقالت عنان: بالله قولوا شعراً وارضوا بحكمي، فقال الرقاشي:

عذراءُ ذاتُ احمرارٍ ... إني بها لا أحاشي[1]
قوموا ندامايَ روُّوا ... مُشاشَكم من مُشاشي[2]
وناطحوني كؤوساً ... نطاحَ صُلبِ الكِباشِ
وإنْ نكلْتُ فَحِلّ ... لكمْ دمي ورياشي[3]

فقال أبو نواس:

لا بلْ إلى ثقاتي[4] ... قوموا بنا بِحَياتي
قوموا نَلَذُّ جميعاً ... بقول: هِيْتِ وهَاتِ
فإنْ أردتمْ فتاةً ... أتيتكم بفتاتي
وإنْ أردتمْ غُلاماً ... صادفْتُموني مُؤاتي

---

(١) عذراء ذات احمرار: يقصد بها الخمرة فقد كان العرب يقولون: أهلك الرجال الأحمران: أي اللحم والخمر، يقول الأعشى:

إن الأحامرة الثلاثة أهلكت ... مالي وكنت فيها قدماً مولعا

العذراء، يقصد: البكر أول كل شيء، التي لم يتقدمها مثلها. لا أحاشي: لا أستثني.

(٢) المُشاش: رؤوس العظام اللينة التي يمكن مضغها، ومُشاشة القوم: خيارهم.

(٣) الرّياش: الثياب والمال والأثاث.

(٤) الثقات: يقال: فلان ثقة وهي ثقة وهم ثقةِ والجمع: ثقات. والمقصود هنا أصحابه الذين يأتمنهم ويثق بهم.

فبادروه مُجوناً في وقتِ كلِّ صلاةِ

وقال الحسين الخليع:

أنا الخليعُ فقوموا إلى شرابِ الخليعِ
إلى شرابٍ لذيذٍ وأَكْلِ جَدْيٍ[1] رضيعِ
و.....كِ[2] أحوى رخيم بالخندريس[3] صريعِ
قوموا تَنالوا وشيكاً مثال ملك رفيعِ

وقال الوراق:

قوموا إلى بيتِ عَمْرٍو إلى سَمَاعٍ[4] وَخَمرِ
وساقياتٍ علينا تُطاعُ في كلِّ أمرِ
وَبَيْسَرِيٍّ[5] رخيمٍ يزهو بجيدٍ ونَحْرِ
فذاك بَرٌّ وإن شئتم أتينا ببَحْرِ
هذا وليس عليكمْ أُولى ولا وقتُ عَصْرِ[6]

وقال محكم بن رزين:

قوموا إلى دار لهوٍ وظلِّ بيْتٍ دفينِ

---

(١) الجَدْي: ولد الماعز في السنة الأولى.
(٢) و.....كِ: كلمة بذيئة يقصد بها الجماع. أحوى م حواء ج حوٌّ: الحُوَّة: سواد إلى الخضرة، أو حمرة إلى السواد.
(٣) الخندريس: الخمر القديمة (يونانية).
(٤) سَماع: أي سماع المغنّيات أو المغنّين.
(٥) بَيْسري: نسبة إلى قوم بالسّند كانوا يؤاجرون أنفسهم من أهل السفن لحرب عدوهم، رخيم: رقيق، ليّن، يقصد الغلمان.
(٦) أولى ولا وقت عصر: يقصد: ليس عليكم تأدية صلاة الفجر ولا صلاة العصر.

فيه من الورد والمرزنجوش[1] والياسمين
وريحِ مسكٍ ذكيٍّ وجيد الزرجَونِ[2]
قوموا فصيروا جميعاً إلى الفتى آبنِ رزين

فقال الحسين الخياط:

قضتْ عِنانُ علينا بأن نزورَ حُسَيْنا
وأن تَقِرّوا لديه بالقصْفِ واللّهِ عَيْنا
فما رأينا كظَرْفِ الحسينِ فيما رأيْنا
قد قرّب اللّهُ منه زيْناً وباعد شَيْنا
قوموا وقولوا أجَزْنا ما قد قضيْتِ علينا

وقالت عِنان:

مهلاً فديتُكَ مهلاً عِنانُ أحرى وأولى
بأن تنالوا لديها أسنى النعيمِ وأحلى
فإنَّ عندي حَراماً من الشرابِ وحِلّا
لا تطمعوا في سِوائي من البريّةِ كلا
يا سادتي خبِّروني أجاز حُكْمِيَ أم لا؟

فقالوا جميعاً: قد أجزنا حكمك وأقاموا عندها.

قال: وكتبتْ عنان إلى الفضل بن الربيع:

كنْ لي هُديتَ إلى الخليفةِ سُلّماً بُوركْت يا آبْنَ وزيرِهِ من سُلّمِ
حُثَّ الإمام على شِرايَ وقلْ له: ريحانَةٌ ذُخِرتْ لأنفك فآشْمَمِ

---

(١) المرزنجوش: لغة في المردقوش: وهو نبات له رائحة طيبة.
(٢) الزَّرَجُون: بتشديد الزاي وفتحها وضم الجيم: الخمر، والكرم، أو قضبانها، والزَّرجنة: الخديعة. التخارج.

وكانت عنان تتوقّى أبا نواس وتخاف مجونه وسفهه، وفيها يقول:

عِنانُ يا من تشبهُ العينا   أنتمْ على الحبِّ تلومونا
حُسنُكِ حُسْنٌ لا يُرى مثلُهُ   قد تَرك الناسَ مجانينا

فتهيأت لأبي نواس وتصنَّعت له إلى أن صار إليها، فرأى عندها بعض وجوه أهل بغداد فأحبّ أن يخجلها فقال لها:

ما تأمرينَ لصبٍّ   يكفيهِ منكِ قُطَيرهْ

فقالت:

إيّايَ تعني بهذا   عليكَ فاجلِدْ عُمَيرَهْ[1]

فقال:

إني أخاف وربي   على يَدي منْ عُبَيْرهْ

فقالت:

عليك أمك . . .[2]   فإنها كندبيره[3]

فأخجلته. وشاع الخبر حتى بلغ الرشيد فاستظرفها وطلبها من الناطفي فحملت إليه فقال لها: يا عنان، قالت: لبيّك يا سيدي، فقال: ما تأمرين لصب.

قالت: قد مضى الجواب في هذا يا أمير المؤمنين، قال: بحياتي كيف قلتِ؟ قالت قلت:

إياي تعني بهذا   عليك فاجلِدْ عُميرهْ

---

(١) أجلد عميرة: كناية عن الاستمناء باليد. تقول له: اسْتَمْنِ بيدكَ.

(٢) أمَّك [. . . .] كلمة بذيئة تدل على العمل الجنسِيّ.

(٣) كندبَيْرة: غليظة وضخمة. (فارسية).

فضحك الرشيد وطلبها من مولاها فاستام[1] فيها مالاً جزيلاً فردها .

عـريب جارية المأمون

وأنتمْ أنـاسٌ فيكمُ الغـدرُ شيمـةٌ   لكمْ أوْجُـهٌ شتّى وألْـسنَـةٌ عـشـرُ
عجبتُ لقلبي كيف يصبـو إلـيكـمُ   على عُـظْمِ ما يلقى وليسَ لـه صبرُ

فضـل الشاعـرة

حـدثنا القـاسم بن عبـد الله الحـراني قـال : كنت عنـد سهيـد بن حميـد الكاتب ذات يـوم وقد افتصـد ، فأتتـه هـدايـا فضـل الشـاعـرة : ألف جَـدْيٍ وألف دجاجـة، وألف طبق رياحين، وطيب، وعنبـر، وغيـر ذلـك. فلما وصـل ذلك كتب إليهـا : إن هذا يـوم لا يتم سـروره إلا بـك وبحضورك، وكان من أحسن الناس ضرباً بالعود وأملحهم صوتاً وأجودهم شعراً، فأتته، فضرب بينه وبينها حجـاب وأحضر قـوماً نـدماءه، ووضعت المائدة وجيء بالشراب فلما شربنا أقداحاً أخذت عودها فغنّت بهذا الشعر والصوت لها والشعر والأبيات هذه :

يـا مـنْ أطـلـتُ تـفـرّسـي   فـي وجـهـهِ وتـنـفـسـي
أفـديـكَ مِـنْ مـتـدلّـلٍ   يـزهـو بـقـتـلِ الأنـفسِ
هَـبْـنـي أسـأتُ ومـا أسـأ   تُ بـلى أقـول: أَنَـا الـمـسي
أحـلـفْـتَـنـي أن لا أسـا   رقَ نـظـرةً فـي مـجـلـسي
فـنـظرتُ نـظرةَ عـاشـقٍ   أتْـبـعـتُـهـا بـتـنـفـسـي
ونـسـيـتُ أنـي قـد حـلفـتُ   فـمـا يُـقـال لـمـن نـسـي؟

---

(١) استام السلعة : سأله تعيين ثمنها . فردَّها : أي فصرفها .

وضربت أيضاً وغّنت :

عاد الحبيبُ إلى الرضا ... فصفحتُ عما قد مضى
منْ بعدِ ما لِصُدوده ... شَمِتَ الحسودُ فعرَّضا
تَعِسَ البغيضُ فلم يزلْ ... لصدودنا مُتَعرِّضا
هَبْني أسأتُ وما أسأ ... تُ فإنْ أسأتُ لك الرضا

قال فما أتى علي يومٌ أسرُّ من ذلك اليومَ .

صاحبة الفرزدق

ذكروا أن الفرزدق كان مع أصحاب له ، فإذا هو بجارية مع مولاها فقال لأصحابه : هل أخجل لكم هذه ؟ قالوا : نعم ، فقال :

إن لِي... خبيثاً ... لونُه يَحْكي الكُمَيْتا
لو يَرى في السقفِ صدعا ... لتحول عنكبوتا
أو يرى في الأرض شقا ... لنزا حتى يموتا

فقالت الجارية :

زوّجوا هذا بألفٍ ... وأرى ذلك قوتا
قبل أن ينقلبَ الدا ... ءُ فلا يأتي ويُوتى

فخجل الفرزدق وانصرف[1] .

صاحبة جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي

قالت :

عزمتُ على قلبي بأنْ أكتمَ الهوى ... فضجَّ ونادى إنني غيرُ عاقلِ

(١) في هامش الأصل : قيل إن هذه الرواية جرت بين أبي نواس وعنان جارية الناطفي . والأبيات تدل على غير هذا .

فـإنْ حان مـوتي لم أَدَعْـك بغُصّتي   وأقـررتُ قبلَ المـوتِ أنـك قـاتلي

جــاريـة البارقي

ذكروا أنها أنشدت في مجلس عمرو بن مسعدة :

يــا أحسنَ الـعــالَمِ حتى متى   يــرتــفــعُ الــحُــبّ وانــحطُّ
وكـيفَ مـنجــايَ وبـحــرُ الهــوى   مــذْ حــفَّ بــي لــيس لــه شَطُّ

فأجيبت :

يــدرِكُــكَ الــوصــلُ فتنجــو بــه   أو يــقــعُ الــبــحــرُ فــتــنــحطُّ

المـغنيـة المـليحــة

قـال علي بن الجهم : كنت في مجلس محمد بن عمـر بن مسعدة فأقبلت جارية كأنها البدر ليلة التمام بلون كأنه الدر في البياض مع احمرار خـدين كشقائق النعمـان . فسلّمت فقال لي محمـد : يا أبـا الحسن هذه الجنّة التي كنتم توعدون ، فقالت :

ومـا الوعـدُ يـا سؤْلي وغـايـةَ مُنْيتي   فــإنّ فؤادي من مقـالِــكَ طــائــرُ

فقال لها محمد :

أَمَـا وإلّـهِ العــرشِ مـا قلتُ سَيِّئـاً   ومــا كـان إلا أنني لــكِ شــاكــرُ

فقال ابن الجهم[1] :

أمْسِـكْ فديتـكِ عن عتـابِ محمـدٍ   فَهُــو المَصــونُ لــودِّهِ المـتحــاذرُ

---

(١) ابن الجهم : علي بن الجهم بن بدر أبو الحسن من بني سامة من لؤي بن غالب . شاعر رقيق الشعر أديب من أهل بغداد كان معاصراً لأبي تمّام وخصَّ للمتوكـل العباسي ، ثم =

فأقبلت تحدثنا، فإذا عقل كامل، وجمال فاضل، وحسن قاتل، وردف مائل. فقلت: لقد أقرّ اللَّهُ عيناً تراك، فقالت: أقرّ الله أعينكم وزادكم سروراً وغبطةً ثم اندفعت تغني بنغمة لم أسمع أحسن منها:

أروحُ بهّمٍ مِنْ هواكَ مُبرِّحٍ   أناجي به قلباً كثيرَ التفكُّرِ
عليك سلامٌ لازيارةَ بيننا   ولا وصلَ إلا أن يشاءَ آبْنُ مَعْمَرِ

فما زلنا يومنا ذلك معها في الفردوس الأعلى، وما ذكرتها بعد ذلك إلا اشتقت لها وأسفت عليها.

محمد بن حماد قال: كنا يوماً عند إسحاق بن نجيح وعنده جارية يقال لها شادن، موصوفة بجودة ضرب العود وشجو صوت وحسن خلق وظرف مجلس وحلاوة وجه، فأخذت العود وغنت:

ظَبْيٌ تكاملَ في نهايةِ حُسْنِهِ   فزها ببَهْجَتِهِ وتاه بصدِّهِ
فالشمس تطلعُ من فِرِنْدِ(١) جبينه   والبدرُ يَغْرَقُ في شقائقِ(٢) خدِّهِ
مَلَكَ الجمالَ بأسرهِ فكأنما   حُسْنُ البريّةِ كلُّها من عندهِ
يا ربِّ هبْ لي وصْلَهُ وبقاءَه   أبداً فلستُ بعائشٍ من بعدِهِ

فطارت عقولنا وذهلت ألبابنا من حسن غنائها وظرفها فقلت: يا سيدتي من هذا الذي تكامل في الحسن والبهاء سواك؟ فقالت:

فإنْ بُحْتُ نالتني عيونٌ كثيرةٌ   وأضعُفُ عن كِتْمانِهِ حين أكْتُمُ

= غضب عليه المتوكل فنفاه إلى خراسان فأقام مدة وانتقل إلى حلب ثم خرج منها بجماعة يريد الغزو فاعترضه فرسان بني كلب فقاتلهم وجرح ومات متأثراً بجروحه.

(١) الفرند ج فراند: السيف.

(٢) شقائق النعمان: جنس نبات عشبي من عدة زهور ربيعية بهذا الاسم، ذات لون أحمر جميل كالشُقَّار الأحمر، وحَوذان الزهارين، والخشخاش المنثور وسواها.

محاسن النساء الأعرابيات

حدثنا ثعلب عن الفتح بن خاقان(١) قال: لما خرج المتوكل إلى دمشق كنت عديله، فلما صرنا بقنسرين(٢) قطعت بنو سليم على التجار فأنهي ذلك إليه، فوجّه قائداً من وجوه قوّاده إليهم فحاصرها فلما قربنا من القوم إذا نحن بجارية ذات جمال وهيئة وهي تقول:

أميرُ المؤمنينَ سما إلينا ... سُموَّ البدرِ مال به الغريفُ
فإنْ نسلمْ فَعَفْوَ اللّهِ نرجو ... وإنْ نُقْتَلْ فقاتِلُنا شريفُ

فقال لها المتوكل: أحسنتِ، ما جزاؤها يا فتح؟ قلت: العفو والصلة، فأمر لها بعشرة آلاف درهم وقال لها: مرّي إلى قومك وقولي لهم لا تردوا المال على التجار فإني أعوّضهم عنه.

حدثنا الأصمعي قال: خرجت إلى بادية فإذا أنا بخباء فيه امرأة، فدنوت فسلّمت، فإذا هي أحسن الناس وجهاً وأعدلهم قامة وأفصحهم لساناً، فحار فيها بصري واعترتني خجلة فقالت: ما وقوفك؟ فقلت:

هلْ عندكمْ مِنْ مَخيضٍ(٣) اليوم نشربُهُ ... أم هل سبيلٌ إلى تقبيل عينيْكِ؟
فلستُ أبغي سوى عينيك منزلةً ... أم هل تجودي لنا عضاً بخديْكِ؟
أو تأذنينَ بريقٍ منكِ أرشفه ... أو لمسِ بطنك أو تغميزُ ثدييْكِ؟
ردّي الجوابَ على من زاده كلفاً ... تكريرُه الطَّرْفَ في أجدالِ ساقيْكِ

---

(١) الفتح بن خاقان: وزير المتوكل، ناصر ابنه الأصغر «المعتز» على ابنه الأكبر «المنتظر» وسعى على غيره من الرجالات بالدسائس، قتل مع المتوكل.

(٢) قنسرين: قديماً. مدينة في سورية الشمالية كانت أحد الأجناد أو الولايات العسكرية بعد الفتح العربي.

(٣) المَخيض: اللبن أُخِذ زُبْدُهُ فهو مخيض وممخوض.

فرفعت رأسها إلي وقالت: يا شيخ، ألا تستحي اِرجع إلى أهلك، وارغب في مثلك.

وقال بعضهم: رأيت أعرابية بالنباح[1] فقالت لها: أتنشدين؟ قالت: نعم في مثلك وربّ الكعبة، قلت فأنشديني: فأنشأت تقول:

لا بـارِكَ اللَّهُ فيمنْ كـان يُخبِـرني ... أنَّ المحبَّ إذا مـا شاء ينصـرفُ
وَجْـدُ المحبِّ إذا ما بـانَ صـاحبُه ... وجدُ الصبيّ بثديـيْ أمّـهِ الكَلِفُ[2]

قال: قلت لها: أنشديني من قولك، فقالت:

بنفسي منْ هـواهُ على التنـائي[3] ... وطـولَ الـدهـر مُؤْتنِقٌ جـدِيـدُ
ومنْ هـوَ في الصلاةِ حـديثُ نفسي ... وعِـدْلُ الروحِ عنـدي بل يَـزيد

فقلت لها: إن هذا كلام من قد عشق. فقالت: وهل يعرى من ذلك من له سمع وقلب؟ ثم أنشدتني:

ألا بـأبِـي واللَّهِ مـنْ ليس نـافِعي ... بشيءٍ ولا قلبي على الوجْدِ شـاكرُهْ
ومن كبـدِي تهفـو إذا ذُكِـرَ آسمُـهُ ... بشيءٍ وَمَنْ قلبي على النَّأيِ ذاكرُه
لـه خَفقَانٌ يـرفـع الجيب بـالشَّجى ... ويقـطع أزرارَ الجُـرُبَّـانِ[4] ثـائـرُه

قال: وكتب عمر بن أبي ربيعة[5] إلى امرأة بالمدينة:

---

(١) النباح: مكان.
(٢) الكلِف: الولع بالشيء مع شغل قلب ومشقة.
(٣) التنـائي: البعـد. مؤتنق: حسن المنـظر؛ يعجب رائيـه، والأنـق: الإعجـاب بالشيء تقول: أنقت به وأنا به أنق: أي معجب، والعِدْل: بكسر العين وسكون الدال: ج عدول وأعدال: النظير والمثيل.
(٤) الجُرُبَّان: جيب القميص، والألف والنون زائدتان وجُرُبَّان السيف: حده، أو غمده.
(٥) عمر بن أبي ربيعة: شاعر غزلي من سراة القرشيين، رقيق الأسلوب، لطيف العـواطف في غزله العفيف أو المتعهّر. رجع عما فرط منه في آخر حيـاته وتنسّـك. له ديـوان طبع =

بـرزَ البـدرُ في جـوارٍ تـهـادى ... مُخْطَفاتُ الخُصورِ مُعْتَجِراتِ[1]
فتنفّستُ ثم قلتُ لِبَكْرٍ ... عجِّلتْ في الحياةِ لي خَيْبَاتِ
هـلْ سبيلٌ إلى التي لا أبالي ... بعدها أنْ أموتَ قبل وفاتي؟

فأجابته:

قـد أتانا الرسولُ بالأبياتِ ... في كتابٍ قد خُطّ بالتُّرَّهاتِ
حائرُ الطرفِ إنْ نظرتَ وما طر ... فُكَ عندي بصادقِ النَّظَراتِ
غـرّ غيري فقد عَرفْتُ لغيري ... عهدَكَ الخائنَ القليلَ الثباتِ

محاسن النساء المتكلمات

حدّث عمر بن يزيد الأسدي قال: مررت بخرقاء صاحبة ذي الرمة فقلت لها: هل حججت قط؟ قالت: أما علمت أني منسك من مناسك الحج؟ ما منعك أن تسلم علي أما سمعت قول عمك ذي الرمة:

تمامُ الحجِّ أن تَقِفَ المطايا ... على خرقاءَ واضعةِ اللثامِ

فقلت لها: لقد أثر فيك الدهر، قالت: أما سمعت قول العجيف العجيلي؟ حيث يقول:

وخرقاءُ لا تزدادُ إلا ملاحةً ... ولو عُمّرتْ تعميرَ نوحٍ وَجَلَّتِ

قال: ورأيتها وإن فيها لمباشرة[2] وإن ديباجة وجهها لطرية كأنها

= بكامله بهمّة بول شواتس، ثم في مصر مع شرح محمد العناني، وهذه الأبيات من الشعر المنسوب إليه غير الموجود في أصول ديوان شعره. انظر شرح محمد محيي الدين عبد الحميد. لديوان عمر طبعة ١٩٦٥ المكتبة التجارية الكبرى بمصر.

(١) مُخْطَفاتِ الخُصور: ضامرات الخصور، خفة في لحم الجنب. مُعْتجرات: أي لابسات المِعْجر، وهو ثوب تلفُّه المرأة على رأسها، العمامة.

(٢) إن فيها لمباشرة: أي عندها استعداد وقابلية لمباشرة الرجال.

فتاة، وإنها لتزيد يومئذٍ على المائة، ولقد حدَّثْتُ أنه شبَّب بها ذو الرمة وهي ابنة ثمانين سنة. وحدث رجل من بني أسد، قال: أدركت ميًّا صاحبة ذي الرمة وكان الرجل أعور قال: ورأيتها في نسوة من قومها، فقلت: أهذه مي؟ وأومأت إليها، فقلن: نعم، فقلت: ما أدري ما كان يعجب ذا الرمة منك وما أراك على ما كان يصف، فتنفست الصعداء وقالت: إنه كان ينظر إلي بعينين وأنت تنظر إلي بعين واحدة.

وروى الأصمعي عن رجل من أهل الشام قال: قدمت المدينة فقصدت منزل ابن هرمة فإذا بنيّة له تلعب، فقلت لها: ما فعل أبوك؟ قالت: وفد إلى بعض الإخوان؛ قلت: فانحري لنا ناقة فإنّا أضيافك؛ قالت: يا عمّاه، والذي خلقك ما عندنا شيء، قلت: فباطلٌ ما قال أبوك؛ قالت: فما قال؟ قلت: قال:

كمْ ناقةٍ قد وجأتُ مَنْحرها لِمُسْتهلّ الشُّؤْبوب[١] أو جَمَلِ

قالت: يا عمّاه فذلك القول من أبي أصارنا إلى أن ليس عندنا شيء.

قال: وأتى زياد الأقطع باب الفرزدق وكان له صديقاً، فخرجت إليه ابنة الفرزدق وكانت تسمّى مكّية وأمّها حبشية، فقال لها: ما اسمك؟ قالت: مكّية، قال: ابنة من؟ قالت: ابنة الفرزدق[٢]، قال: فأمك؟ قالت:

---

(١) وجأ بالسكين ونحوها: ضربه في أي موضع كان وهي هنا بمعنى ذبح، نحر. والشؤبوب ج شآبيب: الدفعة من المطر، وهنا المقصود الدفعة من دم الناقة المذبوحة.

(٢) الفرزدق: همّام بن غالب بن صعصعة الدارمي من الشعراء البارزين في صدر الإسلام قضى حياته في مدح الناس وهجوهم بنفس شعري قوي، اشتهر بالهجاء الذي دار بينه وبين جرير له ديوان دوّنه محمد حبيب النحوي البصري، نشر منه بوشيه ٢٦٠ قصيدة مع ترجمتها الإفرنسية وأتمّه يوسف هل ـ مونيخ.

حبشية، فأمسك عنها فقالت: ما بال يدك مقطوعة؟ قال: قطعها الحرورية[1] قالت: بل قُطِعَتْ في اللّصوصية، قال: عليك وعلى أبيك لعنة الله. وجاء الفرزدق فأَخبر بالخبر فقال: أشهد أنها لبنتي؛ وأنشأ يقول:

حامٍ إذا ما كنتَ ذا حمِيَّهْ   بدَار مِيٍّ بنتُه صبيّهْ
صَمحْمحٍ مثلِ أبي مِكّيهْ[2]

وحدّث سليمان بن عباس السعدي قال: كان كُثَيِّر[3] يلقى حاجّ[4] أهل المدينة بِقُدَيْد[5] على ست مراحل، ففعل عاماً من الأعوام غيرَ يومهم الذي نزلوا فيه، فوقف حتى ارتفع النهار، فركب جملاً في يوم صائف ووافى قديداً، وقد كلّ بعيره وتعب، فوجدهم قد ارتحلوا وقد بقي فتى من قريش فقال الفتى لكثيّر: اِجلس، قال: فجلس كثيّر إلى جنبي ولم يسلّم علي، فجاءت امرأة وسيمة جميلة فجلست إلى خيمة من خيام قُدَيْد، واستقبلت كثيّراً فقالت: أنت كثير؟ قال: نعم؛ قالت: أنت ابن أبي جمعة؟ قال: نعم؛ قالت: أنت الذي تقول:

كنتُ إذا ما جئتُ أجلَلْنَ مجلِسِي   وأضْمرْنَ مني هيْبةً لا تجهُّما

قال: نعم، قالت: فعلى هذا الوجه هيبة، إن كنت كاذباً فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، قال: فضجر كثيّر وقال: ومن أنت؟

---

(١) الحرورية: هم الخوارج الذين قاتلهم علي رضي الله عنه في مكان يدعى الحرَّة. وهي أرض بركانية ذات حجارة سوداء تقع شرقي المدينة المنورة.

(٢) الصَّمحْمح والصَّمحْمحيّ: الرجل الشديد المجتمع الألواح. والأصمحْمح: الشجاع الذي يعتمد رؤوس الأبطال بالنَّقْفِ والضربِ.

(٣) كُثيِّر عَزَّة: شاعر أقام في المدينة المنورة، غالى في تشيعه وقال بالرَّجعة والتناسخ، وبإمامة المهدي بن محمد الحنفية تغزَّل بعزَّة فسمي بها.

(٤) الحاجّ: اسم فاعل: الذي حج الأماكن المقدسة، اسم جمع بمعنى الحجاج، يقال: قدم الحاجّ حتى المشاة.

(٥) القُدَيْد: ماء بالحجاز وهو مُصَغَّر قال ابن الأثير: هو موضع بين مكة والمدينة.

فسكتت ولم تجبه بشيء، فسأل الموالي التي في الخيام عنها فلم يخبرنه فضجر واختلط عقله، فلمّا سكن قالت: أنت الذي تقول:

متى تنشـرا عني العَمامـةَ تُبْصِرا جميـلَ المُحَيَّا أغْفَلَتْهُ الدواهنُ[(١)]

أهذا الوجه الجليل إن كان كاذباً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين؛ فاختلط وقال: لو عرفتك لفعلت وفعلت، فلما سكن قالت له: أنت الذي تقول:

بـروقُ العيونَ النـاظرتِ كـأنـهُ هِـرَقْليٌّ وزْنٍ أحمرِ التّبرِ راجحُ[(٢)]

أهذا الوجه الذي يروق الناظرات إن كنت كاذباً فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، قال: فازداد ضجراً واختلط وقال: لو عرفتك والله لقطّعتك وقومك هجاء، ثم قام فأتبعته طرفي حتى توارى عني، ثم نظرت إلى المرأة فإذا هي قد غابت عني، فقلت لمولاة من بنات قُدَيْد: لك الله على إن أَخْبَرْتِني من هذه المرأة أنْ أطويَ لك ثوبيَّ هذين إذا قضيت حجّي ثم أعطيكهما، فقالت: والله لو أعطيتني زنتها ذهباً ما أخبرتك من هي، هذا كثيّر مولاي لم أخبره. قال القرشي: فرحتُ وبي أشد مما بكثيّر.

قيل: وقدم كثيّر الكوفة وكان شيعياً من أصحاب محمد بن الحنفية، فقال: دلّوني على منزل قطام، قيل له: وما تريد منها، قال: أريد أن أوبّخها في قتل علي بن أبي طالب صلوات الله عليه فقيل له: عدِّ عن رأيك فإنّ عقلها ليس كعقول النساء، قال: لا والله لا أنتهي حتى أنظر إليها

---

(١) أي أن وجهه جميل بدون طلاء من زيت أو طيب ونحوهما، أغفلته الدواهن: أهملته، نسيته.

(٢) هـرقليّ: نسبة إلى هِرْقِل، وهِـرَقْل: ملك من ملوك الروم أول من ضرب الدنانير يقول: يروق الناظرات إليه كأنه دينار هرقلي من الذهب الصافي الراجح الوزن.

وأكلّمها. فخرج يسأل عن منزلها حتى دُفع إليها فاستأذن فأذِنت له، فرأى امرأة بَرْزَةً[1] قد تخدَّدت[2] وقد حنا الدهرُ من قناتها فقالت: من الرجل؟ قال: كثيّر بن عبد الرحمٰن. قالت: التيمي الخزاعي؟ قال: التيمي الخزاعي، ثم قال لها: أنت قطَام؟ قالت: نعم، قال: أنت صاحبة علي بن أبي طالب صلوات الله عليه، قالت: بل صاحبة عبد الرحمٰن بن ملجم، قال: أليس هو قتل علياً؟ قالت: بل مات بأجله، قال: والله إني كنت أحب أنْ أراك، فلما رأيتك نَبتْ عيني عنك، وما ومقك قلبي[3] ولا احلوليت في صدري. قالت: أنت والله قصير القامة، صغير الهامة، ضعيف الدعامة، كما قيل: لأن تسمع بالمعيديّ خير من أن تراه. فأنشأ كثّير يقول:

رأتْ رجلاً أودى السِّفارُ بجسمِهِ فلم يبقَ إلاّ منطقٌ وجناجنُ[4]

قالت: لله درّك ما عُرفْتَ إلاّ بعَزَّةَ تقصيراً بك. قال: والله لقد سار لها شعري وطار بها ذكري وقرب من الخلفاء مجلسي وإنها لكما قلت فيها:

وإنْ خَفِيتْ كانت لعينيكَ قُرَّةً وإنْ تَبْدُ يوماً لم يَعُمَّكَ عارُها
من الخَفِراتِ البيضِ لم تر شقوة وفي الحسبِ المَحْض الرفيعِ نِجارُها[5]
فما رَوْضَةٌ بالحزن طيِّبةُ الثَّرى يمجُّ النَّدى جَثْجاثُها وَعَرارُها[6]

---

(١) برِّز برازةً: فاق أصحابه فضلاً أو شجاعةً فهو: بَرْزٌ وهي: بَرْزَةٌ.
(٢) تخدَّدت: صار في وجهها شقوق مستطيلة، اضطرب لحمها من الهزال والعجز وتشنَّج.
(٣) وما ومقكِ قلبي: أي وما أحبَّكِ قلبي.
(٤) الجناجن: عظام الصدر الواحدة: جِنْجِن وجِنْجِنة بكسرهما وتفتحان، وسفر سفوراً خرج إلى السفر وسافر سِفاراً ومسافرة إلى بلدة كذا: مضى، ذهب إليها.
(٥) الخفرات: خَفِر خَفَراً وخفارة الجارية: استحيت أشد الحياء فهي خَفِر وَخَفِرةٌ: وهنَّ خَفِرات، النجار: بكسر النون وضمها: الأصل، الحسب.
(٦) مجَّ مجًّا الشرابَ أو الشيءَ وبه من فمه: رمى به. يقال على وجه الاستعارة: «هذا كلام =

بـأطيبَ مِنْ فيهـا إذا جئتَ طـارقـاً وقد أُوقِدَتْ بالمنْدَلِ الرَّطْبِ نارُها[1]

قالت: والله ما سمعت شعراً أضعف من شعرك هذا، والله لو فعـل هذا بزنجية طاب ريحها إلا قلت كما قال امرؤ القيس:

ألم تـر أني كلَّمـا جئتُ طـارقـاً وجـدتُ بهـا طيبـاً وإن لم تَـطَيَّبِ

قال: فالله درّ بلادك ، وخرج وهو يقول :

الـحقُّ أبـلجُ[2] لا تـزيـغُ سبيـلُهُ والـحـقُّ يـعـرفُـهُ ذوو الألـبـابِ

قال: وقال المسيب راوية كثيّر، اِنطلق كثيّر مرّةً فقال لي: هـل لك في عكرمة ابن عبد الرحمـٰن بن هشام؟ وهو يومئذٍ علي حنظلة بن عمرو بن تميم، فقلت: نعم، قال: فخرجنا نريده حتى إذا صدرنـا عن المدينـة، إذا نحن بامرأة على راحلة تسير فسرت حذاءها، فقالت: أتروي لكثيّرٍ شيئاً؟ قلت: نعم، قالت: أنشدني، فأنشدتها من شعره فقالت: أين هو؟ قلت: هو ذاك الذي ترين على غير الطريق، فقالت بعـد أن دنت منه: قـاتل الله زوج عزّة حيث يقول:

لَعَمْـرُكَ مـا ربُّ الـرَّبـابِ كثيِّـرٌ بـفـحـلٍ ولا آبـاؤُهُ بـفـحـولِ

فغضب كثيّر وسار وتركها، ثم نزل منزلاً فجاءت جاريـة لها تـدعوه فأبى كثير أن يأتيها، فقلت: ما رأيت مثلك قط، امرأة مثل هذه ترسل إليك فتأبى عليها، فلم أزل به حتى أتاها، قال: فسفـرت عن وجهها فـإذا هي أجمـل الناس وأكملهم ظـرفاً وعقـلاً، وإذا هي غـاضـرة أم ولـد بشـر بن

= تمجُّه الأسماع» أي تقـذفه وتستكـرهه. والجثْجـاث: نـبـات سهلي ربيعي إذا أحسَّ بالصيف ولّى وجفَّ له زهرة صفراء طيبة الرائحة.

(١) المَنْدل: العود الـرطب وهو المنـدليّ، قال الأزهـري: لا أدري أعربي هـو أم معرب. «والمندل الرطب» وردت في لسان العرب: «بالمجَمْر اللَّدْن» أنظر جـ ٢، ص ١٢٨.

(٢) بلج بُلوجاً وأبلَجَ وتبلَّج، وابتلج الصُبح: أشرق وأضاء، وَبَلِجَ بَلَجاً الحق: وضح وظهر فهو أبلج.

مروان[1] فصحبناها حتى كنا بزُبالة[2] فمالت بنا الطريق فقالت له: هل لك أن تأتي الكوفة فأضمن لك على بشر الصلة والجائزة؟ فأبى، وأمرت له بخمسة آلاف درهم، ولي بألفين، فلمّا أخذنا الخمسة آلاف قال: ما أصنع بعكرمة وقد أصبت ما ترى؟ فذلك قوله حيث يقول:

شجا أظعانُ غاضِرَةَ الغوادي بغير مشورةٍ عوضاً فؤادي
أغاضرَ لو رأيتِ غَداةَ بِنتمْ حُنُوَّ العائداتِ على وِسادي
رثيْتِ لعاشقٍ لم تشكُميهِ جَوانِحُهُ تَلذَّعُ بالزِّنادِ
(الشكيمة ـ العطية ـ والزناد ـ جمع زند وهو عود يقدح منه النار).

قال الحكم بن صخر الثقفي: حججت فرأيت بأقرة[3] امرأتين لم أرَ كجمالهما وظرفهما وثيابهما، فلما حججت وصرنا بأقرة إذا أنا بإحدى الجاريتين قد جاءت فسألت سؤالَ منكر فقلت: فلانة؟ قالت: فداك أبي وأمي، رأيتك عاماً أول شاباً سوقة والعامَ شيخاً ملكاً، وفي وقت دون ذلك ما تنكر المرأة صاحبها، فقلت: ما فعلت أختك؟ فتنفّست الصعداء وقالت: قدم علينا ابن عم لنا فتزوجها فخرج بها إلى نجد فذاك حيث أقول:

إذا ما قَفَلْنا نحو نجدٍ وأهلِهِ فحسبي من الدنيا القفولُ[4] إلى نجدِ

فقلت: أما أني لو أدركتها لتزوجتها، قالت: فداك أبي وأمي فما يمنعك من شريكتها في حسنها وشقيقتها في حسبها؟ قلت: قول كثيّر:

---

(١) بشر بن مروان: هو بشر بن مروان بن الحكم: حاكم الكوفة والبصرة حمل في حداثته اللواء يوم مرج راهط كان محباً للشعر والفن، مدحه الأخطل وجرير والفرزدق.
(٢) زُبالة: منزلة من مناهل طريق مكة المكرمة.
(٣) أقرة: مكان في الحج.
(٤) قفل قَفْلاً وقُفولاً: رجع من السفر خاصة.

إذا وصلتْنا خُلَّةٌ[1] كي تزيلَنا أبيْنا وقلنا الحاجبيّة أولُ

قالت: وكثيّر بيني وبينك أليس هو الذي يقول:

هل وصلُ عَزَّةَ إلا وصلُ غانيةٍ في وصل غانيةٍ من وصلها خَلَفُ[2]

قال: فتركت جوابها ولم يمنعني منه إلا العِي.

محاسن النساء

قيل: أحسن النساء الرقيقة البشرة، النقية اللون، يضرب لونها بالغداة إلى الحمرة وبالعشي إلى الصفرة. وقالت العرب: المرأة الحسناء أرق ما تكون محاسن صبيحة عرسها وأيام نفاسها، وفي البطن الثاني من حملها.

وقيل لأعرابي: أتحسن صفة النساء؟ قال: نعم إذا عذب ثناياها، وسهل خداها، وتنهّد ثدياها، وفعم ساعداها، والتف فخذاها، وعرض وركاها، وجدل ساقاها، فتلك همّ النفس ومناها. ووصف أعرابي امرأة فقال: كان وجهها السقم لمن رآها والبرء لمن ناجاها، وذكر أعرابي امرأة فقال: أرسل الحسْنُ إلى خدّيها صفائح نور، ورشق السحر في لحظها بأسهمٍ حداد، ولقد تأملت فوجدت للبدر نوراً من بعض نورها.

وذكر أعرابي امرأة فقال: هي شمس تباهي شمس سمائها وليس لي شفيع إليها غيرها في اقتضائها، ولكني كتوم لفيض النفس عند امتلائها.

وذكر أعرابي امرأة فقال: ما أحسُّ من حبها نعاساً ولا أنظر إليها إلاّ اختلاساً، وكل امرىءٍ منها يرى ما أحب.

---

(١) الخلة: بكسر الخاء وضمها: الصداقة والمودة: المعنى «وما الحب إلا للحبيب الأول».

(٢) الخَلَف: ما استخلفته من شيء تقول: أعطاك الله خَلفاً مما ذهب لك ولا يقال: خَلْفاً. وَخَلَفَه يخلُفُهُ خلفاً: صار مكانه.

وذكر أعرابي امرأة فقال: لها جلد من لؤلؤ رطب مع رائحة المسك الأذفر في كل عضو منها شمس طالعة. ومما جاء في الحسن من الشعر.. قال عبد الله بن المعتز أنشدني أبو سهل إسماعيل بن علي لأبي الصواعق:

ومريضِ طَرْفٍ ليس يَصْرِفُ طَرْفَه نحـو المـدى إلّا رمـاهُ بـحتـفِـهِ
ظبيٌ لـه نـظرٌ ضـعيـفٌ كـلَّمـا قصـد القـويَّ أتى عليـهِ بضُعفـهِ
قـد قلتُ لما مـرَّ يخطِرُ مـائساً والـرّدْفُ يَجذِب خصـرَهْ مِنْ خلفِـهِ
يـا منْ يسـلِّمُ خصـرَهُ مـن رِدْفِـهِ سلِّمْ فـؤادَ مـحبِّـه مـن طَـرْفِـهِ

فقلت في هذا المعنى وعلى هذا الوزن:

وحيـاةِ منْ جـرح الفؤادَ بـطرفِـهِ لأُخَبِّـرنَّ قصـائـدي في وصفـهِ
قـمـرٌ بـه قمـرُ السـمـاء متيّمٌ كـالغصنِ يعجَبُ نصفُهُ من نصفهِ
إني عجبتُ لخصـره من ضُعـفـهِ مـاذا تحمَّـلَ مـن ثقـالـةِ رِدْفِـهِ
هـذا ومـا أدري بـأيّـةِ فـتْـنـةٍ جُـرِحَ الفؤاد بلطفـه أم ظَـرْفِـهِ؟
أمْ بـالدلالِ أمِ الجمـالِ أم الضيا من وجهـه أم بـالقفـا من خلفـهِ؟

وأنشد أبو الحسين بن فهم لأبي نواس:

كـفـاكَ مـا مـرّ عـلى رأسـي مـن شـادنٍ[1] قـطَّع أنفـاسِـي
أكـثـرُ مـا أبـلُغُ فـي وصْـفـهِ تـحيُّـري مـن قـلبـه القـاسِـي
أغـارُ أنْ أنْـعَـتَ مـنـه الـذي يـنعـتُـه النـاسُ مـن النـاسِ
ولـم أر الـعُـشَّـاقَ قـبـلي رأوا بـوصفِ منْ يـهـوَوْن من بـاسِ
كـلُّ أحـاديـثـيَ نـعـتٌ لـه مُـنكـشِـفٌ مـنـي لـجـلّاسـي

فقلت في هذا المعنى وهذا الروي والوزن:

---

(١) الشادن: إذا أطلق فهو ولد الظبية.

لـو عُشْـرُ مـا مـرَّ عـلى رأسـي مـرَّ بـصَـلْدِ حـجـرٍ قـاسـي
لانْصـدعتْ فـيـهِ صـدوعٌ كمـا صـدَّعَ قلبي طـولُ وَسْـواسي
يـا غـصـنَ آس ومُـحـالٌ إذا قصَّـرتُ تشـبيـهَـكَ بـالآسِ [١]
مـاذا عـلى طـرْفِـكَ لـو أنَّـه أعـار لحظاً منـه قِـرْطـاسِي
لـيـتَـكَ عـلَّلتَ بِمِـطْلٍ ولـم تقـطع رجـائي منـك بـاليـاسِ

وقال آخر:

وزائـرةٍ يحتثّهـا الشـوقُ طـارقـهْ أتتنا من الفردوس لا شـك آبقهْ [٢]
إذا مـا تثنّتْ قـال للريـح قَـدُّهـا كذا حرّكي الأغصانَ إنْ كنتِ صادقهْ

وقال آخر:

قـد أقبـل البـدرُ في قَـراطِقِـهْ [٣] يسلُبُ بـالـدّل قلبَ عـاشقـهْ
يسـطو عليـهِ بسيـفِ مقـلتِـهِ لا بـالـذي شُـدَّ في منـاطقـه [٤]

وقال آخر:

قـلْ لـلمـلاحِ الـحَـدقِ ولـلـحـسـان الـخَـلِقِ [٥]
هـل فـي فـؤادي لِـلقُـوى أو جـسـدي شـيءٌ بـقـي؟
إنْ لـم تُـرَوُّوا عـطشـي بُـخـلاً فـبُـلّوا رَمَـقـي

---

(١) الآس: شجر معروف. الواحدة: آسة.
(٢) أبقَ إباقاً وأبْقاً العبد: هرب من سيده فهو آبق ج أُبّق وأُبّاق.
(٣) قراطق ج قرطق: قَباء أبيض. ودلَّ دلاًّ ودلالاً: تغنّج وتلوّى، وثق بمحبته فأفرط عليه، المدلّ: الواثق بنفسه وعدّته.
(٤) المِنْطق والمِنْطَقة ج مناطق: النِّطاق، ما يُنتطق به: شِقة تلبسها المرأة وتشد وسطها فترسل الأعلى على الأسفل والأسفل ينجرُّ على الأرض.
(٥) الحدقة ج حَدق وحَدَقات وأحداق وحِداق: سواد العين الأعظم. الخِلقة ج خِلَق: الفطرة والهيئة.

يـــا مــقــلــةً أجــفــانُــهــا مـــحـــشـــوةٌ بـــالأَرقِ[1]
بــقــيــتِ فــي رِقِّ الــهــوى شــقــيــةً فــي مَــنْ شــقــي

وقال آخر:

يــا مــلاحَ الــدَّلالِ والاغــتــنــاجِ ما أرى القلبَ من هـواكنّ نـاجي
أنت زرَفْتِ[2] فوق خدَّيك صُدغاً من عبيـرٍ على صفـائـح عـاجِ
أشــرقتْ وَجنتـاكِ بـالنـور حتى أغنتـا الخلقَ عن ضِياء السِّـراجِ
فَـعَلَتْ مـقلتـاكِ بـالـقلبِ مني فِـعْلَةَ الـقـرمـطيِّ بـالحـجـاجِ
يـا هـلالاً أنستُ مـنـه بـضَـوءٍ جُنـحَ ليـلٍ من الـظَلام الـداجي

وقال آخر:

نشـرتْ غـدائـرَ فـرْعهـا لتـظلّني حـذرَ العيونِ من العيـونِ الـرُّمَّقِ
فـكـأنّهـا وكـأنّـه وكـأنـنـي صُبحـانِ بـاتـا تحت ليـلٍ مُـطبقِ

وقال آخر:

يـــا غــزالاً وهــلالاً وقــضــيــبــاً وكــثــيــبــا
كــمْ وكــمْ أُضــمِــرُ وجْــداً بــك مــكــتــومــاً عــجــيــبــا
كــيــف يُــرجــى بُــرْءُ مــنْ قــدْ كــتــمَ الــداءَ الــطــبــيــبــا

وقال آخر:

شـمسٌ مُمثَّلةٌ في خَلْقِ جـارِيـةٍ كـأنما بـطنُها طيُّ الـطواميـرِ[3]

---

(١) الأرَق: أرِق أرَقاً وائترق: ذهب عنه النوم في الليل فهو أرِق، وأرَّقة: أسهره.
(٢) الزُّرفين: بالضم والكسر: حلقة للباب أو عامٌّ معرب وقد زرفن صُدغيْه جعلها كالزرفين (فارسية).
(٣) الطومارج طوامير: الصحيفة أي يطوى كما تُطوى الصحيفة لنعومته وطراوته.

وقال آخر:

فالجسمُ من جوهرٍ والشعرُ من سَبَجٍ ... والثغرُ من لؤلؤٍ والوجه من عاجِ[1]

وقال آخر:

نتيج دلالٍ حار في حسنه الطَّرفُ ... ففِكْرَتُه قبرٌ[2] ومنْطِقُهُ لُطْفُ
بديعُ جمالٍ زانه العقلُ والظّرفُ ... سماويُّ لونٍ لا يحيطُ به وصْفُ
له ريقة عُلَّتْ[3] بماءِ قَرَنْفُلٍ ... يمازِجُها التفاحُ والخَمْرَةُ الصِّرْفُ
تجسَّم في جسمٍ من النور ساطعٍ ... تمكَّنَ في دِعْصٍ ينوءُ به رِدفُ[4]
على صحنِ خدّيه بَهارٌ مُنَوَّرٌ[5] ... وورْدٌ جنيٌّ لا يليقُ به القطفُ
تكامل فيه الحسنُ والنورُ والبها ... كبدر الدجى إذ تمّ من شهرهِ النِّصفُ
بَرَاهُ إلٰهي لي عذاباً وفِتنةً ... فما عنده عذْلٌ ولا عنده عطفُ

وقال آخر:

لكَ من قلبي المكان المصونُ ... كلُّ لومٍ عليَّ فيكَ يهونُ
قدّر اللَّهُ أن أكون شقيّاً ... بكَ والصبرُ عنكَ ما لا يكونُ
يا غزالاً بلحظِهِ يفتِنُ النا ... سَ وفي طرْفِهِ الردَى والمَنُونُ
لك صبرٌ وليس لي عنكَ صبرٌ ... فأنا اليوم هائمٌ محزونُ
قد خلعتُ العذار[6] فيكَ حبيبي ... ما أبالي بما رمتْني الظُّنونُ

---

(١) السَّبج: الخرز الأسود. أي أن شعرها أسود مثله. والثغر من لؤلؤ: يقصد الأسنان.
(٢) ففكرته قبر: أي ينظر إلى البعيد وفي العمق.
(٣) العلّ والعَلَل: الشربة الثانية، أو الشرب بعد الشرب تباعاً، المزج والخلط.
(٤) الدّعص: مفرده دعصة: كثيب الرمل المجتمع، والرّدف ج أرداف: التابع، الراكب خلف الراكب، ومن الدابة كِفْلُها أو عَجزها. يقول: إنها سمينة يعجز ردفها عن حملها.
(٥) البَهار: الجمال.
(٦) خلعت العِذَار: أي الحياء. صار يقول ويفعل وما يبالي بأي شيء.

وقال آخر:

يـا نـظرةً جـاءتْ عـلى يـاسِ ... من سـاحـرِ الـمـقـلةِ مـيّـاسِ
أطـرافُـهُ تُـعْـقـدُ من لـيـنـهـا ... وقـلبُـه كـالـحـجـرِ الـقـاسِـي
يـلومنـي الـنـاسُ عـلى حبّـهِ ... أعـانـنـي الـلَّهُ عَـلَى الـنـاسِ

وقال آخر:

يـا ويـحَ جسمٍ يـذوبُ من قَلَقِهْ ... من حبِ منْ لم أقفْ على خُلُقهْ
مـن حبِّ ظبْيٍ مُـهَـفْـهـفٍ لَـبِـقٍ ... يهتـزّ مثـلَ القضيبِ في ورقِـهْ
لـم تـرَ عـيـنـي وَلَـنْ تـرى أَبـداً ... أحسَنَ مـن نحـرهِ ومن عُـنُقِـهْ
كـأنـمـا المسـكُ حين تسـحَقُـهُ ... بمـاء وردٍ يفـوحُ من عَـرقِـهِ
أوْ خمـرةٌ في الزّجـاجِ صـافيـةٌ ... شيبتْ بمـاءِ السَّحاب في نَسَقِهِ[1]

وقال آخر:

أربـعـةٌ قـرّحـتْ فـؤادي ... فـطالَ وجْـدِي وعِـيـلَ صبْـري
مُـقْـلَةُ خِـشْـفٍ[2] وَقـدّ غُـصْـنٍ ... وطـيـبُ وردٍ وحُـسْـنُ بـدر
نـفـسـي ومـالـي فـداءُ ظـبـيٍ ... أذاب جـسـمـي ولـيـس يـدري
فـمـنْ لـصـبٍّ أسـيـر شـوقٍ ... قـتيـلُ صـبٍّ بـسيـفِ هَـجْـر

وقال آخر:

ومـا ريحُ ريحـانٍ بمسـكٍ وَعَنْـبـرٍ ... يُـعَـلُّ بـكـافـورٍ ودُهْـنَـةِ بـانِ
بـأطيبَ من ريَّـا حبيبي لـو آنني ... وجـدتُ حبيبي خـالِيـاً بمكـانِ

---

(١) نسق نَسْقاً الدرَّ ونحوه: نظمه، والكلامَ عطف بعضه على بعض وتنسَّق وتناسق وانتسق: الأشياء انتظم بعضها إلى بعض. وشيبت: أي مزجت وخلطت.

(٢) الخِشف: ولد الظبي أول ما يولد.

محاسن التزويج

روي أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني أريد أن أتزوج فادع الله أن يرزقني زوجة صالحة، فقال: «لو دعا لك جبريل وميكائيل وأنا معهما ما تزوّجت إلا المرأة التي كتب الله لك[1]، فإنه ينادي في السماء ألا إن امرأة فلان ابن فلان فلانة بنت فلانة». وقال ﷺ: «عليكم بالأبكار فإنهنّ أطيب أفواهاً وأنتق أرحاماً»[2]. قال عمر رضي الله عنه: عليكم بالأبكار واستعيذوا بالله من شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر.

قال الشاعر:

لا تَنْكِحَنَّ عجوزاً إنْ دُعِيتَ لها ... وإن حُبِيتَ[3] على تزويجها الذَّهبا

فإنْ أتوك وقالوا إنها نَصَفٌ[4] ... فإنّ أطيبَ نِصْفيها الذي ذهبا

وقال آخر:

عليكَ إذا ما كنتَ لا بدَّ ناكِحاً ... ذواتِ الثنايا[5] الغُرّ والأعينِ النُّجلِ

---

(١) الحديث: ابن عساكر عن محمد السعدي: «لو دعا لك إسرافيل وجبريل وميكائيل وحملة العرش وأنا فيهم ما تزوجتَ إلَّا المرأةَ التي كتبت لك». أنظر الجامع الصغير جـ ٢، ص ٤٣٢، حديث ضعيف.

(٢) الحديث: «عليكم بالأبكار، فإنهن أنتق أرحاماً، وأعذب أفواهاً، وأقلُّ خبًّا، وأرضى باليسير» أخرجه الطبراني في الأوسط عن جابر (الجامع الصغير جـ ٢، ص ٥٥٠٨) ومعنى أنتق أرحاماً: أي أكثر أولاداً.

(٣) حُبيت: وُهِبْتَ، أُعطيتَ.

(٤) النَّصَف ج نَصِفون وأنصاف: من كان متوسط العمر.

(٥) الثنيّ ج ثنايا: أسنان مقدم الفم. ثنتان من فوق، وثنتان من أسفل. ونجلاء: واسعة العينين.

وكلَّ هضيمِ الكَشْحِ خَفَّاقةِ الحَشَا   قَطوفَ الخُطا بلهَاءَ وافرة العقلِ [1]

وقال الحارث بن كلدة: لا تنكحوا من النساء إلا الشابة، ولا تأكلوا من الحيوان إلا الفتيّ، ولا من الفاكهة إلا النضيج.

وقال مغيرة بن شعبة: حصّنت تسعاً وتسعين امرأةً ما أمسكت واحدة منهن على حب، ولكني أحفظها لمنصبها وولدها فكنت أسترضيهن بالباه[2] شاباً، فلما أن شبت وضعفت عن الحركة استرضيتهن بالعطية.

وقال بعضهم: لذة المرأة على قدر شهوتها وغيرتها على قدر لذتها.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنما النساء لعب فإذا تزوّج أحدكم فليستحسن»[3]. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: تزوّجها سمراء ذلفاء[4] عيناء فإن فركتها فعليّ صداقها.

وقال الحجاج بن يوسف من تزوّج قصيرة فلم يجدها على ما يريد فعليّ صداقها.

وروي عن عليٍّ صلوات الله عليه أن رجلاً أتاه فقال: إني تزوجت امرأة مجنونة، فقالت المرأة: يا أمير المؤمنين إنه يأخذني عند الجماع غشية، فقال للرجل: قم ما أنت لها بأهل. وفي حديث رسول الله ﷺ قال: «إياكم وخضراء الدمن»[5] وهي المرأة الحسناء في المنبت السوء. وقال

---

(١) الكشح ج كشوح: ما بين السُّرة ووسط الظهر (الخصْر). وهَضِمَ هَضْماً: خمص بطنه ولطف كشحه ودقّ (رقيق الخصر) وامرأة خفَّاقة الحشي: أي خميصة.

(٢) قَطُوف الخُطا: بطيئة الخطو، متقاربة الخطو. بلهاء: ضعيفة العقل.

(٣) الباه: الجماع.

(٤) ذلفاء: أي ذات الأنف الصغير القصير. وعيناء: واسعة العينين. وفَرِكَ يَفْرك فَرْكاً: أبغض وقيل هو خاص ببغضة الزوجين.

(٥) الحديث ورد في مختصر المقاصد الحسنة للزرقاني ص ٧٧ وأشير إليه بأنه ضعيف.

بعضهم: لا تتزوجن حنّانة ولا أنّانة ولا منّانة ولا عشبة الدار ولا زكية القفا. فأما الحنّانة ـ فالتي قد تزوّجها رجل من قبل فهي تحنّ إليه. والأنانة ـ التي تئن [1] من غير علّة. والمنّانة ـ التي لها مال تمتن به. وعشبة الدار ـ الحسناء في أصل السوء. وكيّة القفا ـ التي إذا قام زوجها من المجلس قال الناس: فعلت امرأة هذا كذا وفعلت كذا.

وقال محمد بن علي رضي الله عنهما: اللهمّ ارزقني امرأة تسرّني إذا نظرت وتطيعني إذا أمرت وتحفظني إذا غبت.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا خطب أحدكم امرأة فلا جناح عليه أن ينظر إليها وإن كانت لا تعلم»[2]. وقال بعض الشعراء في تزويج الشبه:

إذا أردتَ حرّةً تبغيها ... كريمةً فانظرْ إلى أخيها
يُنْبِيكَ عنها وإلى أبيها ... فإنّ أشباهَ أبيها فيها

وقال آخر:

إذا كنتَ مرتاداً لنفسكَ أيّماً[3] ... لنجلك فانظرْ منْ أبوها وخالُها
فإنهما منها كما هيَ منهما ... كما النعلُ إنْ قِيستْ بنعلٍ مثالُها

وقال آخر:

إذا كنتَ عنْ عينِ الصبيّةِ باحثاً ... فأبصرْ ترى عينَ الصبيِّ فذالكا

---

(١) تَئِنُّ، الأنين: الصوت من ألم ومرض.

(٢) عن أبي حميد الساعدي أخرجه ابن حبان والطبراني حديث حسن (الجامع الصغير جـ ١، ص ٩٠).

(٣) الأيّم: المرأة التي فقدت زوجها، والرجل الذي فقد زوجته كلاهما: أيّم.

قال خالد بن صفوان لدلّال: أُطلب لي امرأة بكراً أَو ثيباً كبكر، حَصَاناً[1] عند جارها، ماجنة عند زوجها، قد أدّبها الغنى وذلّلها الفقر، لا ضَرَعة[2] صغيرة ولا عجوزاً كبيرة، قد عاشت في نعمةٍ وأدركتها حاجة، لها عقل وافر وخلق طاهر، وجمال ظاهر، صلتة الجبين سهلة العرنين، سوداء المقلتين خَدَلَّجَةُ الساقين، لفّاء[3] الفخذين، نبيلة المقعد كريمة المحتد، رخيمة المنطق، لم يداخلها صلف[4] ولم يشن وجهها كلف، ريحها أرج ووجهها بهج، لينة الأطراف ثقيلة الأرداف لونها كالرق وثديها كالحُقِّ[5] أعلاها عسيب وأسفلها كثيب، لها بطن مُخَطَّف وخصر مرهف، وجيد أتلع ولب مشبع تتثنّى تثنّي الخيزران وتميل ميل السكران، حسنة المآق في[6] حسن البراق لا الطول أزرى بها ولا القصر. قال الدلال: إستفتح أبواب الجنان فإنك سوف تراها.

وقال أيضاً: لا تتزوج واحدة فتحيض إذا حاضت، وتنفس إذا نفست وتعود إذا عادت وتمرض إذا مرضت، ولا تتزوج اثنتين فتقع فيما بين

---

(١) الحَصَان: المرأة العفيفة.

(٢) الضَّرع: الضعيف: يقال: مُهرٌ ضَرعةَ: لم يقو على العدْو.

(٣) صَلْت: يقال أصلت السيف أي جرَّده من غمده وجبين صَلْت: أي واضح مستوٍ بارز، والعرنين: الأنف، خَدَلَّجة الساقين: أي ممتلئة الساقين. لفَّاء الفخذين: أي ضخمة الفخذين.

(٤) الصَّلَف: العُجب والتكبر والادعاء بما ليس فيه. والكلْف: السواد في صفرة.

(٥) الرقّ: الماء الرقيق في البحر أو في الوادي لا غُرز له، والحُقُّ بالضم معروف. العسيب: جريدة النخل المستقيمة، والكثيب من الرمل: القطعة تنقاد مُحْدَودبة، وبطن مخطَّف: ضامر قليل اللحم.

(٦) أتلع العنق: طويله. واللب ج لباب: العقل الخالص من الشوائب، أو ما ذكا من العقل، فكل لب عقل، ولا يعكس. المآق ج مؤقي ومأقي على القياس: مقدم العين، وقيل مؤخرها، وقيل الاثنان. البراق: من برق: لمع.

الجمرتين ولا تتزوج ثلاثاً فتقع بين أثافي[1]، ولا تتزوج أربعاً فيحقرنك ويهرمنك ويفلسنك، فقال له رجل: حرّمت ما أحل الله، فقال: طمران[2] وكوزان ورغيفان وعبادة الرحمٰن.

وعن صالح بن حسان قال: رأيت امرأة بالمدينة يقال لها حوّاء، وهي التي علّمت نساء المدينة النقع[3] (وهو النخر) والحركة والغربلة والرهز وكانت لها سقيفة تتحدث إليها رجالات قريش، ولم يكن في المدينة أهل بيت إلا وتأخذ صبيانهم وتمصهم ثديها أو ثدي إحدى بناتها، فكان أهل المدينة يسمّونها حواء. ولم يكن بالمدينة شريف ممن يجلس في سقيفتها إلا وأوصل إليها في السنة ثلاثين وسقاً[4] وأكثر من طعام وتمر مع الدنانير والدراهم والخدم والكساء، فجاءها ذات يوم مصعب بن الزبير وعمرو بن سعيد بن العاص وابن لعبد الرحمٰن بن أبي بكر فقالوا لها: يا خالة قد خطبنا نساء من قريش ولسنا ننتفع إلا بنظرك إليهن، فأرشدينا بفضل علمك فيهن، فقالت لمصعب: يا ابن أبي عبد الله ومن خطبت؟ قال: عائشة بنت طلحة قالت: فأنت يا ابن الصديق؟ قال: أم القاسم بنت زكرياء بن طلحة، قالت: فأنت يا ابن أبي أحيحة؟ قال: زينب بنت عمرو بن عثمان، فقالت: يا جارية عليّ بمنقلي ـ تعني خفّيها ـ فأتتها بهما فخرجت ومعها خادم لها، فأتت عائشة بنت طلحة فقالت: مرحباً بك يا خالة فقالت: يا بنية إنا كنا في مأدبة لقريش، فلم تبق امرأة لها جمال إلا ذكرت وذكر

---

(١) الأثافي: حجارة الموقد.

(٢) الطمر: الثوب العتيق البالي. وفي الحديث: «رب ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبرّه». الكوز: أناء معروف يقال له كوز إذا كان بعروة، وكوب إذا لم يكن له عروة.

(٣) النقع: الماء المجتمع، ماء البئر المجتمع فيها قبل أن يُستقى. وهو النّخر: إدخال اليد في منخر الناقة ودلكه لتدرَّ. والرَّهز: حركة الجماع.

(٤) الوسق: ستون صاعاً، أو حمل بعير.

جمالك، فلم أدر كيف أصفك فتجردي لأنظرك فألقت درعها ثم مشت فارتج كل شيء منها ثم أقبلت على مثل ذلك، فقالت: فداك أبي وأمي خذي ثوبيك، وأتتهُنَّ جميعاً على مثل ذلك، ثم رجعت إلى السقيفة فقالت: يا ابن أبي عبد الله، ما رأيت مثل عائشة بنت طلحة قط ممتلئة الترائب، زجاء العينين، هدبة الأشفار، مخطوطة المتنين، ضخمة العجيزة، لفاء[1] الفخذين، مسرولة الساقين، واضحة الثغر، نقية الوجه فرعاء الشعر، إلّا أنني رأيت[2] خلتين هما أعيب ما رأيت فيها، أما إحداهما فيواريها الخف وهي عظم القدم والأخرى يواريها الخمار[3] وهي عظم الأذن. وأما أنت يا ابن أحيحة، فما رأيت مثل زينب بنت عمرو فَراهَةً قط، إلا أن في الوجه ردَّة[4]، ولكني مشيرة عليك بأمر تستأنس إليه وهي ملاحة تعتز بها. وأما أنت يا ابن الصديق، فوالله ما رأيت مثل أم القاسم، ما شبهتها إلا بخوط بانة[5] تتثنى أو خشف ينقلب على رمل، ولم أرها إلا فوق الرجل وإذا زادت على الرجل المرأة لم تحسن لا والله إلا من يملأ المنكبين فتزوجوهن.

---

(١) الترائب: أعلى الصدر، زجّاء العينين: رقّ حاجباها مع طول. هدبة الأشفار: طويلة شعر الجفنين، والأشفار: منابت شعر الجفن. مخطوطة المتنين: المتن الظهر أي جانبي الظهر جميلان. العجيزة: العجز ج أعجازٍ: مؤخر الشيء، والعجيزة خاصة بالمرأة ولا يقال للرجل إلا على وجه التشبيه والعجز لهما جميعاً.

(٢) مسرولة الساقين: أي مغطّيان بالسراول. امرأة فرعاء وفارعة: طويلة الشعر والفرع: هو الشعر.

(٣) الخِمار: ما تغطي به المرأة رأسها.

(٤) الفراهة: الملاحة والحسن. الردَّة: القبح مع شيء من الجمال يقال: «في وجهه ردَّة» أي قبح مع شيء من الجمال.

(٥) الخوط: الغصن الناعم، أو كل قضيب، والبانة: ج البان: شجر معتدل القوام يشبه به القدُّ لطوله.

وقال أعرابي في أخت له تزوجت بغير كفء:

ولو ركبتْ ما حرَّم اللَّهُ لم يكنْ بأقبَح عند اللّهِ مما استحلَّتِ

قال: وكان بالمدينة رجل قد أعطي جودة الرأي، ولم يكن فيها من يريد إبرام أمر إلا شاوره، فأراد رجل من قريش أن يتزوج فأتاه فقال: أنا أريد أن أضم إلي أهلاً فأشر علي، قال: اِفعل تُحَصِّنْ دينك وَتَصُنْ مؤونتك، وإياك والجَمال البارعَ! قال: ولِمَ نهيتني وإنما هو نهاية ما يطلب الناس؟ قال: لأنه ما فاقَ الجمالُ إلا لَحِقَهُ قوْلٌ أما سمعتَ قول الشاعر:

ولن تُصادِفَ مرعىً مونِقاً[1] أبداً إلا وجدتَ به آثارَ مأكولِ

قيل: وكانت جارية من بنات الملوك تكره التزويج، فاجتمع عندها نسوة فتذاكرن التزويج، وقلن لها: ما يمنعك منه؟ قالت: وما فيه من الخير؟ قلن: وهل لذة العيش إلا في التزويج؟ قالت: فلتصف كل واحدة منكن ما عندها فيه من الخير حتى أسمع، فقالت إحداهن: زوجي عوني في الشدائد، وهو عائدي دون كل عائد إن غضبت عطف، وإن مرضت لطف، قالت: نعم الشيء، هذا. قالت الأخرى: زوجي لما عَناني كاف، ولما أسقمني شاف، عَرَقُه المسك المداف، وعناقه كالخلد[2] ولا يمل طول العهد. قالت: هذا خير منه. قالت الأخرى: زوجي الشعار[3] حين أبرد وأنيسي حين أفرد. فتزوجت، فقلن لها: يا فلانة كيف رأيت؟ قالت: أنعم النعيم وسروراً لا يوصف ولذة ليس منها خلف.

---

(١) مونقاً: أي حسناً مُعجباً يقال: روضة أنيق وأنيقة.

(٢) المداف: داف الشيءَ يديفه: خلطه. والمداف: المخلوط بغيره. الخلد: دوام البقاء في دار لا يخرج منها.

(٣) الشِّعار: ما وليَ شعر جسد الإنسان من الثياب، وفي المثل: هم الشِّعار دون الدثار، والدثار الثوب الذي فوق الشعار يقال لمن هم أقرب.

أمثال في التزويج

قيل: إن أول من قال: لا هَنَكَ[١] أنقيت ولا ماءك أبقيت: الضب بن أروى الكلاعي وذاك أنه خرج من أرضه، فلما سار أياماً حار في تلك المفاوز التي تعسفها وتخلف عن أصحابه، وبقي فرداً يعسف فيها ثلاثة أيام، حتى دُفع إلى قوم لا يدري من هم فنزل عليهم وحدثهم، وكان جميلاً، وإن امرأةً من أفاضل أولئك هويته فأرسلت إليه أن اخطبني فخطبها، وكانوا لا يزوّجون إلا شاعراً، أو رجلاً يزجر[٢] الطير، أو يعرف عيون الماء، فسألوه فلم يحسن شيئاً من ذلك فلم يزوّجوه، فلما رأت المرأة ذلك زوجته نفسها على كره من قومها فلبث فيهم ما لبث، ثم إن رجلاً من العرب أغار عليهم في خيل فاستأصلهم، فتطيّروا[٣] بضب وأخرجوه وامرأته وهي طامث[٤]، فانطلقا واحتمل ضب شيئاً من ماء ومشيا يوماً وليلة إلى الغد، حتى اشتد الحر وأصابهما عطش شديد، فقالت له: ادفع إلي السقاء[٥] حتى أغتسل به فإنا ننتهي إلى الماء ونستقي، فاغتسلت بماء في السقاء ولم يقع منها موقعاً[٦]، وأتيا العين فوجداها ناضبة وأدركهما العطش فقال ضب: لاهنك أنقيت ولا ماءك أبقيت. فذهبت مثلاً. ثم استظلّا تحت شجرة كبيرة: فأنشأ ضب يقول:

---

(١) فرج المرأة.

(٢) الزَّجر: العِيافة وهو ضرب من التكهن. والزجر للطير: هو التيمُّن والتشاؤم بها والتفاؤل بطيرانها كالسانح والبارح.

(٣) الطِّيَرَةُ والطِّيرة: ما يتشاءم به من الفال الرديء.

(٤) الطَمث: الحيض.

(٥) السِّقاء: وعاء من جلد للماء واللبن ونحوهما.

(٦) لم يقع منها موقعاً: أي لم يجامعها.

تـالـلَّهِ مـا ظُلَّةٌ[1] أصـابَ بـهـا سـوادَ قـلبي قـارعُ الـعُـطْبِ
ظـلَّ كئيـبَ الـفـؤادِ مـضـطربـاً وتـكتسـي مـن غـدائـرٍ قُـلْبِ[2]
أنْ يعرفَ الماء تحت صمّ صفاً[3] أو يخبرَ الناسَ منطقَ الخُطْبِ
أخـرجـنـي قـومُـهـا بـأنَّ رحـاً دارتْ بشؤمٍ لـهمْ عـلى قُـطْبِ[4]

فلما سمعت ذلك فرحت وقالت: قم فارجع إلى قومي فإنك شاعر، فانطلقا راجعين حتى انتهيا إليهم، فاستقبلوهم بالسيف والعصا فقال لهم ضب: اسمعوا شعري، ثم إن بدا لكم أن تقتلوني بعد فافعلوا، فتركوه فصار فيهم عزيزاً.

وقيل: إن أوّل من قال: في الصيف ضيعت اللبن، قتول بنت عبد، وكانت تحت رجل من قومها فطلّقها وإنها رغبت في أن يراجعها فأبى عليها، فلمّا يئست خَطَبها رجل يقال له: عامر بن شوذب، فتزوّجها فلما بنى بها، بدا للزوج الأول مراجعتها وهوى بها هوى شديداً فجاء يطلبها ويرنو بنظره إليها ففطنت به فقال:

أَتـركْـتَـنـي حـتـى إذا عُـلِّقْتُ أبـيضَ كـالـشَّـطنْ[5]

---

(١) الظُّلَّة: الغاشية، ما سترك من فوق، عذاب يوم الظُّلة. سمي يوم الظُّلَّة لأن الله بعث غمامةً حارةً فأطبقت عليهم وهلكوا. كل ما أطبق عليك فهو ظُلَّة.

(٢) الغديرة: ج غدائر: الذوائب للنساء. يصف نفسه بأنه حزين، غشي قلبه السواد في حين أن زوجته تتدلى غدائرها القُلب المعقوفة في أسفلها، أي في أوج زينتها.

(٣) صفاة ج صفا وصفوات ج صفوان: والصفواء: الحجر الصلد الفخم يقال: «فلان لا تقرع له صفاة» أي لا يناله أحد بسوء.

(٤) يقول: إن قوم زوجته أخرجوه لأن الحرب التي دارت على قطبها. جلبت عليهم الشؤم، شبَّه الحرب برحى الطاحون، وقطب الرحى: هو حديدة في الطبق الأسفل يدور عليها الطبق الأعلى.

(٥) الشَّطن: الحبل. تقول إنها أحبت فتىً أبيض جميلاً.

أنْشأتَ تطلبُ وصْلَنَا في الصيفِ ضيّعتِ اللبن[1]

فذهبت مثلاً. فقال لها زوجها الأول واسمه الأشق: فهل بقي شيء؟ قالت: نعم فاصْله[2] عن جميع مالك وطلاقي فإن فصلته تزوّجتك فرضي بذلك، ثم راجع نفسه فقال لها ذلك، فقالت: أما إذا ضننت[3] بمالك فانطلق إلى مكان إذا أنت تكلمت سمع زوجي كلامي وكلامك، ثم آقعد كأنك لا تشعر به وقل:

لحا اللَّهُ بنتَ العبدِ إنّ وِصالَها — وصالُ مَلولٍ لا تدومُ على بعلِ
تُحدّثُني أنْ سوفَ تقتلُ عامراً — لأن لم يكنْ في مالِه عامرٌ مثلي
فهيهاتَ تزويجُ التي تقتلُ الفتى — إذا ما أبتْ يوماً وإن كان من أجلي
فتقتُلُني يوماً إذا هويتْ فتىً — سوايَ وإن اليومَ منْ وصلها مُجلي

فانطلق الأشق ففعل ما أمرته به، فسمعه عامر فوقع في قلبه قوله وقد كان عرف حبها له فصدّق ذلك، ودخل عليها فطلّقها وتزوّجها الأشق.

وذكروا أن بطناً من قريش اشتدت عليهم السَّنة، وكنت فيهم جارية يقال لها: زينب من أكمل نسائهم جمالاً، وأتمهن تماماً، وأشرفت فرآها شابٌ يقال له عروة فوقعت في قلبه فجعل يطالعها ولا يقدر على أكثر من ذلك فاشتد وجده بها، فلما انقضت السنة وأرادوا الرجوع إلى منازلهم دعا بعض جواري الحي فقال: يا ابنة الكرام هل لك في يد تتخذين بها عندي شكراً؟ قالت: ما أحوجني إلى ذلك! قال: تنطلقين إلى خيمة فلانة كأنك

(١) في الصيف ضيَّعتِ اللبن: يضرب لمن يطلب شيئاً قد فوَّته على نفسه.
(٢) فاصِلْهُ: فاوضْهُ.
(٣) الضَّنّ: البخل، والضَّنين: البخيل.

تقتبسين ناراً فإذا أنت جلست فقولي حيث تسمع زينب:

ألا هــلْ لنــا قبــل الـتفــرّقِ لـيلةٌ ... ويــومٌ فتقضي كـلُّ نفسٍ مُنــاهــا

فانطلقت الجارية ففعلت ذلك فلما سمعت زينب قولها وكانت تفلّي رأس زوجها وكان عنده أخ له، فقالت مجيبة لها:

لعَمـري لقد طـال المُقامَـة ها هنـا ... لــو آنَّ لحبٍ حـاجــةً لقضــاهــا

فسمع أخو الزوج قول الجارية وجواب زينب فقال:

ألم يعلمِ الــزوجُ المفلّى بــأنهــا ... رســالــةُ مشغــوفِ الفؤادِ رجـاهــا

فانتبه الزوج لأمرهم وعرف ما أرادت فقال:

لَـحَــا اللّهُ مـن لا يسـتقـيـمُ بــوِدّه ... ومن يمنـحُ النفسَ الطروبَ هـواها

انطلقي يا زينب فأنت طالق، فخـرجت من عنده وبعثت إلى عـروة فأعلمته، وأقامت حتى انقضت عدتها ثم تزوجته.

فــي النـاشـــزة من النساء

ذكـروا أن الأخطل[1] كـانت عنده امـرأة وكان بهـا معجباً فـطلّقها، وتزوج بمطلقة رجل من بني تغلب وكانت بالتغلبي معجبة، فبينا هي ذات يوم جالسة مع الأخطل إذ ذكرت زوجها الأول فتنفست الصعداء ثم ذرفت

---

(١) الأخطل: هو غياث بن غوث التغلبي ويكنّى أبا مالك ويشبَّه من شعراء الجاهلية بالنابغة الذبياني مـدح معاويـة ويزيـد ومن بعدهمـا من خلفاء بني مروان حتى مات. قال عنه مسلمـة بن عبد الملك: ثـلاثة لا أسـأَلُ عنهم أنا أعلم العـرب بهم الأخطل والفـرزدق وجرير، فأما الأخطل فيجيء سابقاً أبداً. وأما الفرزدق فيجيء مرة سابقاً ومرة ثانياً، وأما جرير فيجيء سابقاً مرة وثانياً مرة، وسُكّيتاً مرة.

دموعها فعرف الأخطل ما بها فذكر امرأته الأولى وأنشأ يقول:

كـلانـا على وجْـدٍ يبيتُ كـأنمـا بجنبيـهِ من مسّ الفِـراشِ قـروحُ
على زَوجها الماضي تنـوحُ وزوجُها على الـطَّلّةِ الأولى كـذاك ينـوحُ

قيل: وخاصمت امـرأة زوجها إلى زيـاد، فجعلت تعيبه وتقـع فيه، فقال الزوج: أصلح الله الأمير إن سر المرأة كبرهـا، إن المرأة إذا كبـرت عقم رحمها وبذأ لسانها وساء خلقها، والرجل إذا كبر استحكم رأيه وقـلّ جهله، قال: صدقت وحكم له بها.

وذكـروا أن امرأة أتت عبيـد الله بن زياد وكـانت ذات شحم وجسم وجمال مستعدية على زوجها وكان أسود دميم الخلقـة فقال: ما بال هـذه المرأة تشكوك؟ قال: أصلح الله الأمير سلها عما ترى من جسمها وشحمها أمن طعـامي أم من طعام غيـري؟ قالت: من طعـامك أفتمن علي بـطعام أطعمتنيه والكلاب تأكل؟ قال: سلها عن كسوتها من مالي هي أم من مال غيري؟ قالت: من مالك أفتمن علي بثوب كسوتنيه؟ قال: وسلها عما في بطنها مني هو أم من غيري؟ قالت: منك ووددت أنه في بطني من كلب. قال الرجل: أصلح الله الأمير فما تريد المرأة إلا أن تطعم وتكسى وتنكح، قال: صدقت فخذ بيدها.

قال: خرج رجل مع قتيبة بن مسلم إلى خراسان وخلّف امرأة يقـال لها هند من أجمل نساء زمانها فلبث هناك سنين، فاشتـرى جاريـة اسمها جمانة وكانت له فرس يسميه الورد فوقعت الجارية منه موقعاً فأنشأ يقول:

ألا لا أبـالي اليـومَ مـا فعلتْ هنـدُ إذَا بقِيتْ عنـدي الجمـانـةُ والـوردُ
شديدُ مناطِ القُصْرِيَيْنِ[1] إذا جـرى وبيضـاءُ مثـلُ الـرِّئم زيَّنهـا العِقـدُ

(١) القصريين: ضلعان يليان الترقوتين. والرِّئم: رئمة ج أرْآم وآرام: الظبي الأبيض يقول: =

فـهـذا لأيـامِ الـهِـيَـاج وهـذه		لحاجة نفسي حينَ ينصَـرف الجندُ

فبلغ ذلك هند فكتبت إليه:

ألا أقْـرِهِ مني السـلامَ وقـل لـه:		عُنينـا بِفِتْيـانٍ غَـطارِفـةٍ مُـردِ
فهـذا أَميـرُ الـمؤمـنيـن أميـرُهُـمْ		سبـانا وأغنـاكمْ أراذلَـةَ الجُنـدِ
إذا شـاء منهمْ نـاشىء مـدَّ كفَّـه		إلى كَبِدٍ ملساءَ أو كَفَـلٍ نَهْـد[1]

فلما قرأ كتابها أتى به إلى قتيبة فأعطاه إياه، فقال لـه: أبعدك الله هكذا يفعل بالحرة؟ وأذن له في الانصراف.

قال: وسمع عمر بن الخطاب امرأة تنشد وتقول:

فمنهنَّ مـن تُسـقى بـعـذْبٍ مُبَـرَّدٍ		نُقـاخٍ[2] فتلكمْ عند ذلـك قَـرّتِ
ومنهنَّ من تشقـى بـأخضـرَ آجـنٍ		أجـاجٍ[3] فلولا خشيـةُ اللّهِ فَـرّتِ

فأمر بإحضار زوجها فوجده متغيّر الفم فخيّره جارية من المغنم أو خمسمائة درهم على طلاقها فاختار الخمسمائة فدفعت إليه وخلّى سبيلها.

وحكي عن الفضل بن الربيع[4] أنه كان بمكة ومعه الفرج الرخجي، وكان الفضل صبيحاً ظريفاً والفرج دميماً قبيحاً، فخرجا إلى الطواف، ثم

= لا يهمه أمر هند ما زال عنده فرسه الورد القوي السريع الجري وجُمانة التي تشبه الظبي الأبيض. فهذه لحاجة نفسه بعد انصراف الجند، وذاك لأيام الهياج والحروب.

(١) الكَفِل النَّهد: الضجر أو الردف النافر المرتفع، والكِفْل ج أكفال: ما يحفظ الراكب من خلفه.

(٢) النُّقاخ: الماء البارد الصافي. أجَنِ الماء: تغيَّر طعمه ولونه فهو آجِنٌ وأجِنٌ.

(٣) أجاج: مالح، مر.

(٤) الفضل بن الربيع وزير الخليفة الأمين كان أبوه معتوق الخليفة عثمان رضي الله عنه وكان خصماً للبرامكة.

انصرفا إلى بعض طرقات مكة، وقعدا يتغديان، فبينما هما كذلك على طعامهما، إذ وقفت عليهما امرأة جميلة بهيّة حسنة شُكْلة[1] وعليها برقع فرفعته عن وجهها فإذا وجه كالدينار وذراع كالجمار، فسلّمت وقعدت وجعلت تأكل معهما، قال الفضل: فأعجبني ما رأيت من جمالها وهيئتها فقلت: هل لك من بعل؟ قالت: لا، قلت: فهل لك في بعل من أصحاب أمير المؤمنين حسن الخَلق والخُلق؟ قالت: وأين هو؟ فأشار إلى فرج فقالت: جوابك عند فراغنا، فلما أكلت قالت للفضل: تقرأ شيئاً من كتاب الله؟ قال: نعم، قالت: أفتؤمن به؟ قال: نعم، قالت: فإن الله يقول: ﴿ومنْ يكُنِ الشيطانُ له قريناً فساءَ قريناً﴾[2] فضحك الفضل، ودخل على الرشيد فأخبره، فأمر بإحضارها، فلما نظر إليها أعجب بها فتزوجها وحملها إلى مدينة السلام.

قال: وحج إسماعيل بن طريح فوقفت عليه أعرابية جميلة، قال: فقال لها: هل لك أن تزوجيني نفسك؟ فقالت من غير توقف:

بكى الحسبُ الزاكي بعينٍ غزيرةٍ　　　من الحسبِ المنقوص أن يُجمعا معا

وانصرفت.

قال العتبي[3]: كنت كثير التزوج، فمررت بامرأة فأعجبتني، فأرسلت إليها ألك زوج؟ قالت: لا. فصرت إليها فوصفت لها نفسي وعرّفتها موضعي فقالت: حسبك قد عرفناك. فقلت لها: زوجيني نفسك، فقالت: نعم، ولكن ها هنا شيء تحتمله، قلت: وما هو؟ قالت: بياض في مفرق

---

(١) الشُكْلة: الحمرة في بياض.

(٢) سورة النساء الآية ٣٨.

(٣) العتبي: هو محمد أبو النصر عاش في خراسان، مؤرخ حجة في أخبار الدولة الغزنوية له التاريخ اليمني، وهو تاريخ السلطان «يمين الدولة» محمد بن سبكتكين.

رأسي، قال: فانصرفت. فصاحت بي: اِرجع. فرجعت إليها فأسفرت عن رأسها فنظرت إلى وجه حسن وشعر أسود فقالت: إنا كرهنا منك عافاك الله ما كرهت منا. وأنشدت:

أرى شيبَ الرجالِ من الغواني بموضِعِ شيبهنَّ من الرجالِ

وعن عطاء بن صعب قال: جاءت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت: يا أمير المؤمنين، لا أنا ولا زوجي، فقال لها: وما لك من زوجك؟ قالت: مُرْ بإحضاره، فأحضر. فإذا رجل قذر الثياب قد طال شعر جسده وأنفه ورأسه، فأمر عمر أن يؤخذ من شعره ويدخل الحمام ويكسى ثوبين أبيضين ثم يؤتى به ففعل به ذلك، ودعا المرأة فلما رأت الزوج قالت: الآن، فقال لها عمر: اتقي الله وأطيعي زوجك. قالت: أفعل يا أمير المؤمنين، فلما ولّت، قال عمر: تصنّعوا للنساء فإنهن يحببن منكم ما تحبون منهن. ويقال: إن المرأة تحب أربعين سنة وتقوى على كتمان ذلك، وتبغض يوماً واحداً فيظهر ذلك بوجهها ولسانها، والرجل يبغض أربعين سنة فيقوى على كتمان ذلك وإن أحب يوماً واحداً شهدت جوارحه.

ما جاء في نساء الخلفاء

علي بن محمد بن سليمان قال: أبي يقول: كان المنصور شرط لأم موسى الحميرية أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى[1] وكتبت عليه بذلك كتاباً أكّدته وأشهدت عليه بذلك فبقي مدة عشر سنين في سلطانه يكتب إلى الفقيه بعد الفقيه من أهل الحجاز وأهل العراق، وجهد أن يفتيه واحد منهم في

(١) السُّرِّيَّةُ ج سراريّ: الأَمَةُ التي تقام في البيت. والأغلب أن اشتقاقها من السر. يتسرَّى يتزوج سُرِّيَّة.

التـزويج وابتيـاع السراري، فكـانت أم موسى إذا علمت مكـانـه بـادرتـه وأرسلت إليه بمال، فإذا عرض عليه أبو جعفر الكتب لم يفته، حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد، فأتته وفاتها وهو بحلوان فأهديت إليه مائة بكر. وكان المنصور أقطع أم موسى الضيعة المسماة بـالرحبة فـوقفتها قبل موتها على المُولَّدَات[1] الإناث دون الذكور فهي وقف عليهن إلى هذا الوقت.

حـدثنا يحيى بن الحسن عن محمـد بن هشام قـاضي مكة، قـال: كانت الخيزران لرجل من ثقيف، فقالت لمولاها الثقفي: إني رأيت رؤيا، قـال: وما هي؟ قـالت: رأيت كـأن القمـر خـرج من قُبلي وكـأن الشمس خرجت من دُبري، قال لها: لست من جواري مثلي أنت تلدين خليفتين، فقدم بها مكة فباعها في الرقيق، فاشتريت وعرضت على المنصور، فقال: من أين أنت؟ قالت: المولد مكة والمنشأ بـجَرَش[2] قال: فلك أحد؟ قالت: ما لي أحد إلا الله ومـا ولدت أمي غيـري، قال: يـا غلام اذهب بهـا إلى المهدي وقل له تصلح للولد، فأتى بها المهدي فوقعت منه كل موقع، فلما ولدت موسى وهارون قالت: إن لي أهل ببيت بَجرش، قال: ومن لـك؟ قالت: لي أختان اسمهما أسماء وسلسل ولي أم وأخوان، فكتب فأُتيَ بهم فتزوج جعفر بن المنصور سلسل فولدت منه زبيدة واسمها سكينة تـزوجها الرشيد وبقيت أسماء بكراً فقال المهدي للخيزران: قد ولدت رجلين وقد بـايعت لهمـا ومـا أحب أن تبقي أمــة وأحب أن أعتقــك وتخــرجي إلى مكـة، وتقدمي فـأتزوجـك. قالت. الصـواب رأيت، فأعتقهـا وخرجت إلى

---

(١) المُولَّدات: مفردها مولَّدة: وهي المولودة من أب عربي وأم أعجمية.

(٢) جرش: بلدة في المملكة الأردنية على سفح جبل عجلون في الجنوب الشرقي كانت إحدى المدن العشر الفلسطينية، ازدهرت في العهد الروماني، وفيها من هذا العهد آثار رائعة.

مكة، فتزوج المهدي أختها أسماء ومهرها ألف ألف درهم، فلما أحس بقدوم الخيزران استقبلها، فقالت: ما خبر أسماء؟ وكم وهبت لها؟ قال: من أسماء؟ قالت: امرأتك، قال: إن كانت أسماء امرأتي فهي طالق، فقالت له: طلقتها حين علمت بقدومي، قال: أما إذ علمت فقد مهرتها ألف ألف درهم ووهبت لها ألف ألف درهم ثم تزوج الخيزران .

قال: كانت نخلة جارية الحسين الخلال قبل أن يتولى المتوكل الخلافة تقعد بين يديه وتغنّيه فولدت للحسين ابناً، فلما ولّي المتوكل الخلافة طرقه ليلاً، فقال الحسين: زرتنا جعلت فداك، قال: اشتهيت أن أسمع غناء نخلة، فأخرجها إليه مطمومة[1] الشعر، فقال: يا خلال أليس قد ولدت منك ابناً؟ قال: بلى . قال: فأنا أحب أن تعتقها، قال: فإنها حرة، قال: فاشهد أني قد تزوجتها قومي يا نخلة، فاشتد ذلك على الحسين، فعوّضه منها خمسة عشر ألف دينار وحول إليه نخلة. قيل: ووصف للمتوكل ابنة لسليمان بن القاسم بن عيسى بن موسى الهادي وعدّةً من الهاشميات، فحُمِلن إليه وعُرِضن عليه، فاختارها من بينهنَّ وصرف البواقي ونزلت منه منزلة حتى ساوى بينها وبين قبيحة في المنزلة وكانت جارية لها لباقة وملاحة، ووصفت له ريطة بنت العباس بن علي، فحملت إليه فتزوجها، ثم سألها أن تطمَّ شعرها وتتشبه بالمماليك فأبت عليه، فأعلمها إن لم تفعل فارقها، فاختارت الفرقة فطلقها. ووُصِفت له عائشة بنت عَمْروٍ بن الفرج الرخجي، فوجه في جوف الليل والسماء تهطل إلى عَمْروٍ أن أحمل إليَّ عائشة، فسأله أن يصفح عنها.فإنها القيِّمَةُ بأمره، فأبى. فانصرف عَمْرو وهو يقول: اللّهم قني شر عبدك جعفر ثم حملها بالليل فوطأها ثم ردّها إلى منزل أبيها. قال: وكان الهادي يشاور من أصحابه

(١) مطمومة الشعر : مقصوصة الشعر .

عبد العزيز بن موسى، وعيسى بن دأب، والعزيزي، وعبد الله بن مالـك، فخرج ذات يوم إليهم وهو مغضب كأنـه جمل هـاج منتفخ الأوداج منتقـع اللون فأقبل حتى جلس في مجلسه وكان العزيزي أجرأهم عليه، فقـال: يا أمير المؤمنين إنا نرى بوجهك ما كدّر علينا عيشنا وبغّض الدنيا إلينا فإن رأى أمير المؤمنين أن يخبرنا بالسبب فإن كان عندنا حيلة أعلمناه بها، وإنْ تكن مشورة أشرنا بها وإن أمكن احتمال الغم عنه وقيناه بأنفسنا وحملنا الغم عنه، قال: فأطرق طويلاً والعزيزي قائم فقال له: اِجلس يا عزيزي فإني لم أر كصـاحب الدنيـا قط أكثر آفـاتٍ وأعظم نـائبـةً ولا أنغص عيشـاً، قـال العزيزي: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: لبانة بنت جعفر بن أبي جعفر قد علمتم مـوقعها مني وإثـرتها عنـدي كلمتني بإدلال فـأغلظت فلم يكن لها عندي احتمال ولا عندها إقصار حتى وثبت عليها وضـربتها ضـرباً مـوجعاً قال: وسكت. فقال ابن دأب: يـا أمير المؤمنين، إنـك والله لم تأتِ منكـراً ولا بِدْعاً قد كان أصحاب رسول الله ﷺ يؤدّبون نساءهم ويضربونهن. هذا الزبير بن العوّام حواري رسول الله ﷺ وابن عمته، وثب على امرأته أسماء بنت أبي بكر وهي أفضل نساء أهل زمانها فضربها في شيء عتب عليها فيه ضرباً مبرحاً حتى كسر يدها وكان ذلك سبب فراقها، وذلك أنها استغاثت بولدها عبد الله فجاء يخلصها من أبيه فقال: هي طالق إن حلت بيني وبينها ففعل، وبانت منه. وهذا كعب بن مالك الأنصاري عتب على امرأته وكانت من المهاجرات فضربها حتى حال بنوها بينه وبينها فقال:

لـولا بَنُـوهـا حـولَهـا لخبـطْتُهـا[1] كـخبْـطةِ فَـرُّوجٍ ولـم أتـلعـثـمِ

قال فَسُرِّيَ[2] عن موسى الغضب وطابت نفسه ودعا بالطعام فأكلنـا

---

(١) خبط: ضرب، والشجرةَ شدَّها ثم نفض ورقها، والليلَ سار فيه على غير هدى.

(٢) سُرّي عنه: تجلّى همه، ذهب عنه الغضب والهم.

وأمر له بعشرة آلاف درهم وثلاثين ثوباً، فتلهّفت وتعجّبت من انقطاعي عن الحديثين وهما في بالي وأنا أعلم بهما منه.

ما جاء في النساء المطلقات

قيل: كانت أم الحجّاج بن يوسف، الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود وكانت عند المغيرة بن شعبة فرآها يوماً تتخلّل بكرة[1]، فقال: أنت طالق، والله لئن كان هذا من غداء يومك لقد شرهت، وإن كان من عشاء أمسك لقد أنتنت. فقالت: لا يبعد الله غيرك، والله ما هو إلا من السواك، فخلف عليها بعده يوسف أبو الحجاج فأولدها الحجّاج، وفيها أشعار منها:

أهاجتك الظعائنُ يومَ بانوا[2] ... بذي الزِّيِّ الجميلِ من الأثاثِ؟
ظعائنُ أُسلِكتْ نَقْبَ المُنَقَّى ... تُحثّ إذا وَنَتْ أيَّ احتثاثِ
كأنَّ على الحدائج يومَ بانوا ... نِعاجاً ترتعي بقَلَ البِراثِ[3]
تؤمل أن تلاقي أهل بُصرَى ... فيا لكَ من لقاءٍ مُستراثِ
تُهيِّجُنا الحمامُ إذا تداعى ... كما سَجَعَ النوائحُ بالمراثي

وفي زينب أخت الحجّاج يقول النميري[4]:

ولم ترَ عيني مثلَ سربٍ رأيتُهُ ... خرجْنَ من التنعيم[5] مُعتمراتِ

(١) خلَّل بَينهما: فرَّج بينهما، الأسنان نزع ما بينها من طعام: والكُرَّةُ: البعر العفن تُجلى به الدروع.

(٢) الظعينة: الهودج فيه امرأة أم لا، وظُعْنٌ وظعائن وأظعان: المرأة ما دامت في الهودج وبانوا: رحلوا، غابوا. النَّقب: الطريق، وقيل: الطريق الضيق في الجبل.

(٣) حداجة ج حدائج: ما تركب فيه النساء على البعير كالهودج. البِراث: جبل من رمل سهل التراب لينه.

(٤) النميري: هو عبد الله بن نمير الثقفي.

(٥) التنعيم: موضع في الحلّ يبعد عن مكة ثلاثة أميال، وهو ميقات العمرة لأهل مكة. معتمرات: يلبسن ما يغطّي رؤوسهن.

ولما رأتْ ركبتَ النميريّ أعـرضتْ   وكنَّ مِنْ أنْ يـلْقَيْنَـهُ حَـذراتِ
تضوَّع مسكاً بطنُ نعمانَ[١] إذ مشتْ   بــه زينَبُ في نِســوةٍ عَــطِراتِ
مــررنَ بفــخٍّ [٢] ثم رحنَ عشيَّــةً   يـلبّيـنَ للرحـمٰـنِ مُـؤتـجـراتِ
دعتْ نسوةً شمَّ العرانينِ[٣] بُدَّناً   نــواعمَ لا شعـثــاً ولا غَبــراتِ
فــأدْنَيْنَ لمــا قمنَ يحجبنَ دونهــا   حِجابــاً من القَسِّيِّ والحِبــراتِ[٤]
أجـلّ الذي فـوقَ السمواتِ عـرشُه   أوانسَ بــالبـطحــاءِ مُعتجَــراتِ[٥]
يُخْبِينَ أطــرافَ البَنــانِ من التُّـقى   ويخـرجْنَ بـالأسحـارِ معتمـراتِ[٦]

عوانة، عن محمد بن زياد عن شيخ من كندة قال: خرج الحارث بن سليل الأسدي زائراً لعلقمة بن حفصة الطائي فلما قدم عليه، بصر بابنة له يقال لها: الزباء، وكانت من أجمل نساء أهل عصرها فأعجب بها، فقـال لأبيها: أتيتك زائـراً وقد ينكـح الخاطب ويكـرم الطالب ويفلح الـراغب، فقال: أنت امرؤٌ كريمٌ يقبل منك الصفو ويؤخذ منك العفو، فأقم ننظر في أمرك، ثم انكفأ إلى أهله فقال: إنّ الحارث بن سليـل سيّد قـومه منصبـاً

---

(١) بطن نعمان: وادي عرفات ويقال له: نعمان الأراك، ونعمان الأكبـر. أما الأصغـر فهو نعمان الغَرْقَد بالمدينة.
(٢) الفخّ: المِصْيَدة، ومؤتجرات: أي طالبات الأجر والثواب من الله.
(٣) العرنين ج عرانين: الأنف كله أو ما صَلُبَ منه. وَبَدن بُدْناً وَبَدَناً وَبدُن بدانَةَ: عظمٍ بدنه بكثرة اللحم فهو بـدين وهي بدينـة ج بُدَّن . وشعث الشعرُ شَعَثاً وشعـوثةً كـان متلبداً فصاحبه أشعث م شعثاء ج شعْث .
(٤) القِسّيّ : ثياب من كتان مخلوط بحرير نسبت إلى موضع بين العريش والفرماء من أرض مصر أو هي القزّية فأبـدلت الزاي سينـاً. والحِبَرَة ج حِبَـر وحِبرات: ضـرب من البرود اليمانية .
(٥) معتجرات: أي ممتنعات عن الرجال، ورجل عجير: لا يأتي النساء.
(٦) معتمرات : أي يقمن بأعمال العمرة في مكة.

وحسباً وبيتاً فلا ينصرفن من عندنا إلا بحاجة فأريدي ابنتك عن نفسها، فخلت بالزباء فقالت: يا بنية أي الرجال أحب إليك؟ الكهل الجحجاح[1]، الفاضل المنَّاح، أم الفتى الوضّاح؟ قالت: الرموز[2] الطماح، قلت: يا بنية إن الشيخ يميرك [3] ولا يغيرك، وليس الكهل الفاضل الكثير النائل كالحدث السن الكثير الظن، قالت: يا أماه أخشى الشيخ أن يدنّس ثيابي، ويشمت بي أترابي ويبلي شبابي، قال: فلم تزل بها أمّها حتى غلبتها على رأيها، فتزوجها الحارث بن سليل على خمسين ومائة من الإبل وألف درهم، وابتنى بها ثم رحل بها إلى قومه. فبينا هو جالس ذات يوم وهي إلى جانبه، إذ أقبل فتية من بني أسد يتبخترون، فلما نظرت إليهم تنفّست الصعداء وبكت، فقال: ما شأنك؟ قالت: ما لي وللشيوخ الناهضين كالفروخ؟ قال: ثكلتك أمّك تجوع الحرّة ولا تأكل بثدييها[4] ـ فذهبت مثلاً ـ أما وأبيك لرب غارة شهدتها، وخيل وزعتها، وسبية أردفتها، وخمرة شربتها اِلحقي بأهلك فأنت طالق. وقال:

تهزَّأتْ أنْ رأتني لابساً كِبَراً ... وغايةُ الناسِ بين الموتِ والكبرِ

فإنْ يكنْ قد علا رأسي وغيَّره ... صَرْفُ الزمانِ وتغيير من الشَّعَرِ

فقد أروحُ للذاتِ الفتى جَذِلاً ... وقد أصيدُ بها عِيناً من البقرِ[5]

عنّي إليكِ فإني لا توافِقُني ... عورُ الكلامِ ولا شُرْبٌ على الكَدَرِ

---

(١) الجَحْجَاح: السيد المسارع إلى المكارم.

(٢) الرموز: وردت في بعض النسخ الزمور ولا معنى لهما في هذه الجملة وأرى أن تكون [الراموز] أي البحر، الأصل، النموذج أو[الرميز] أي الكثير الحركة المبجَّل المعظم.

(٣) ما رعيا له مَيْراً وأمارهم وامتار لهم: جلب لهم الطعام. أعالهم.

(٤) المعنى: تجوع الحرة وفي بعض النسخ تموت الحرة . . . أي لا ترضع بالأجرة وهو مثل يضرب للمروءة مع الحاجة.

(٥) العِين من البقر: ثور بقر الوحش الذي عظم سواد عينيه في سعة.

قال: وقال الحجاج لابن القرية: ما تقول في التزويج؟ قال: وجدت أسعد الناس في الدنيا وأقرّهم عيناً وأطيبهم عيشاً وأبقاهم سروراً وأرخاهم بالاً وأشبههم شباباً من رزقه الله زوجة مسلمة أمينة عفيفة حسنة لطيفة مطيعة، إن ائتمنها زوجها وجدها أمينة وإن قتر عليها وجدها قانعة، وإن غاب عنها كانت له حافظة، تجد زوجها أبداً ناعماً وجارها سالماً ومملوكها آمناً وصبيها طاهراً قد ستر حلمها جهلها وزيّن دينها عقلها، فتلك كالريحانة والنخلة لمن يجتنيها وكاللؤلؤة التي لم تثقب والملكة التي لم تفتق، قوّامة صوّامة ضاحكة بسّامة إن أيسرت شكرت وإن أعسرت صبرت، فأفلح وأنجح من رزقه الله مثل هذه. إنما مثل المرأة السوء كالحمل الثقيل على الشيخ الضعيف يجرّه في الأرض جرًّا فبعلها مشغول وجارها متبول[1] وصبيّها مرذول وقطّها مهزول، قال: يا ابن القرية، قم الآن فاخطب لي هند بنت أسماء ولا تزيدن على ثلاث كلمات فأتاهم فقال: جئت من عند من تعلمون والأمير يعطيكم ما تسألون أفتنكحون أم تدعون؟ قالوا: أنكحنا وغنمنا، فرجع إلى الحجّاج فقال: أصلح الله الأمير صلاح من رضي عمله ومدّ في الخيرات أجله وبلغ به أمله، جمع الله شملك وأدام طَوْلك[2] وأقرّ عينك ووقاك حينك وأعلى كعبك وذلّل صعبك وحسن حالك على الرفاء والبنين والبنات والتيسير والبركة وأسعد السعود وأيمن الجدود[3] وجعلها الله ودوداً ولوداً وجمع بينكما على الخير والبركة، فتزوّجها الحجاج ثم إنه دخل ذات يوم عليها وهي تقول:

وما هندُ إلا مُهْرةٌ عربيّةٌ سليلةُ أفراسٍ تحلّلها بغلُ

---

(١) المَتْبول: من ذهب عقله.

(٢) الطَّوْل: القدرة، الغنى، الفضل، العطاء.

(٣) الجَدّ ج جدود: الحظ، الحظوة، الرزق.

فـإِنْ نُتِجَتْ مهراً كـريماً فبـالْحِـرَى   وإن يك إقراف فما أنجبَ الفحلُ[1]

فخرج من عندها مغضباً ودعا ابن القرية فدفع إليه مـائة ألف درهم وقال: أُدخل على هند وطلقها عني ولا تزد على كلمتين وادفع إليها المال، فحمل ابن القرية المال ودخل عليها فقال: إن الأمير يقـول: كنت فبنتِ، وهذه المائة ألف صداقك، فقالت: يا ابن القريـة ما سـررت به إذ كـان، ولا جزعت عليه إذ بان، وهذا المال بشارة لك لما جئتنا به، فكـان القول أشد على الحجّاج من فراقها. وذكروا أن عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كانت عنده عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، فأحبّها حباً شديداً فأمره أبوه بفراقها وأن يطلّقهـا تطليقـة واحدة، ففعـل ثم ندم على فعله، فقال:

فلم أرَ مثـلي طلّق اليـــومَ مثـلَهـــا   ولا مثلَهـــا في غيـرِ جُـرْمٍ تُـــطلّقُ
لهـــا خُلُقٌ سهـــلٌ وحُسنٌ ومنْـصِبٌ   وخَلْقٌ ســـويٌّ مـا يُعـــاب ومنـــطقُ
أعـــاتِـــكَ قلبي كـــلَّ يـــومٍ ولـيلةٍ   إليـــكِ بمـــا تخفي القـلوبُ مُعَـلَّقُ
أعـاتِـكَ مـا أنسـاكِ مـــا ذرَّ شـارق   ومـــا لاح نجمٌ في السمـــاءِ محلّقُ

فسمع أبو بكر ذلك فرقّ له، وأمره بمراجعتها. وعن علي بن دعبل قال: حدّثني أبي قال: خرجت ومعي أعرابيٌ ونبطيٌ[2] إلى موضعٍ يقـال

---

(١) القِرفة: الهُجْنَة: المُقْرفُ: الذي دانى الهُجْنَةَ من الفرس وغيره الذي أمه عـربية وأبـوه ليس كذلك لأنَ الإقراف إنما هو من قبل الفحـل، والهجنة من قبـل الأم. وفي الحديث: «أنه ركب فرساً لأبي طلحة مُقْرفاً». والمقرف من الخيل الهجين: وهو الذي أمه بِرْذَوْنة وأبوه عربي وقيل: بالعكس.

(٢) نبطيّ ج أنباط قوم من العجم كانوا ينزلون بين العراقين سُمُّوا نبطاً لاستنباطهم ما يخرج مـن الأرض، ثم استعمل في أخلاط النـاس وعوامّهم ومنـه يقال: «كلمـة نبطيّـة» أي عاميَّة.

له : بطياثاً من أمصار دجلة متنزّهين ، فأكلنا وشربنا فقال الأعرابي : قل بيت شعر فقلت :

نلنا لـذيـذَ العيشِ في بـطيـاثـا

فقال الأعرابي : لـمـا حثثنـا أقـدحـاً ثـلاثـا

فقال النبطي : وامـرأتـي طـالـق ثـلاثـا

ومـا زال يبكي حتى الصباح فقلت لـه: ما يبكيـك؟ فقـال: ذهبت امرأتي بقافية. قال إسحاق بن إبـراهيم الموصلي: كنت أنـا والحسين بن الضحاك يوماً عند المعتصم وحضرت قينة[1] تعـرض عليه، فـأعجب بها فقال للمدنيين: كيف تـرونها؟ فقـال أحدهم: امـرأته طـالق إن كان رأى مثلها، وقال آخر: امرأتـه طالق إن لم، وسكت فقـال المعتصم: إن لم؟ قـال: لا شيء، فضحك وقـال لـه: ويحـك مـا دعـاك إلى طـلاق أهلك بلا سبب؟ فقال: يا أمير المؤمنين، كلنا قد طلّق امرأته بلا سبب. ومما قيل في ذلك من الشعر:

رحـلـتْ أمـيّـةُ بـالـطلاقِ ونـجـوتُ مـن رِقِّ الـوِثـاقِ

بـانـتْ فـلـم يـجـزعْ لـهـا قـلبي ولـم تـدمَـعْ مـآقـي

لـو لـم أُرَحْ بـفـراقـهـا لأرحـتُ نـفـسـي بـالإبـاقِ[2]

وخـصـيْـتُ نـفـسـي لا أريـد حـلـيلةً حـتـى الـتـلاقـي

وقال آخر:

رأيـتَ أثـاثَهـا فـطمعتَ فـيهـا وقـد نصبتْ لغيـرك بـالأثـاثِ

فـطلّقـهـا وَعـدِ النـفسَ عـنـهـا سـريعـاً إنّ نفسَـك في الْـتواثِ

(١) القَيْنة ج قيان: المغنية، الماشطة.

(٢) أبق العبد إباقاً: هرب من سيده.

وإلّا فالسلامُ عليكَ إني سآخذُ من غدٍ لك في المراثي

محاسن وفاء النساء

قال الكسروي: كتب بلاش بن فيروز إلى ملك الهند يخطب ابنته، فلم ينعم له وردّ رسوله خائباً، فتجشّم وسار إليه في خيله ورجله فلما اصطفت الخيلان دعاه بلاش إلى المبارزة وقال: إنه عارٌ على الملوك أن يوردوا جنودهم الهلاك ويفوزوا بأنفسهم، فبرز إليه ملك الهند. فاختلفت بينهما ضربتان فمنعت بلاشاً حصانة درعه وضرب بلاش الهندي على عاتقه فقطع حبله حتى انتهى السيف إلى ثندوته[1] فخرّ ميتاً وانهزمت خيله، فافتتح بلاش مدينته وأمر ثقاته فأحدقوا بقصر ابنة الملك، فلما احتوى على أمواله بعث إلى ابنة الملك أن تأتيه، فقالت للرسول وهي تبكي: قل للملك المزين بالحلم المحبّب في رعيته السعيد بالظفر إنك قد ملكتني وصرت ممن يستحق عطفك ورأفتك فإن رأيت أن تطيب نفساً عن النظر إلي حتى ترجع إلى دار مملكتك فافعل، فانصرف الرسول إلى بلاش فأخبره فأجابها إلى ما سألت وسار وحملها حتى قدم دار المملكة فهيّأ لها مقصورة مفردة عن سائر حرمه فأنزلها فيها وأمر لها بعتيق الديباج وفاخر الجوهر وأسفاط من الذهب والصلات والجوائز والأثاث ما لم يأمر لغيرها من نسائه، واستأذنها في الدخول عليها فأذنت له، فدخل عليها وأقام عندها سبعة أيام ولياليها عجباً منه بها لا يحير إليها جواباً ولا يخف عن صدر مجلسها، فخرج من عندها اليوم الثامن وقد وقع في قلبه ما أظهرت من خفّة مجلسه عليها، ولبثت أشهراً لا يدخل عليها، فقالت يوماً لحاضنتها: ما أعجب أمر الملك بذل دمه في طلبي حتى إذا ظفر بي سلا عني، انطلقي حتى تسألي عن عدة نسائه وأيهن أكرم عليه وآئتيني بعلم

---

(١) الثندوة: ثدي الرجل.

ذلك، فانطلقت حتى عرفت ذلك وانصرفت، فقالت: إني وجدت له أربعمائة امرأة ما بين أمةٍ وحرّة وليس فيهن أكرم عليه من ابنة سائس من سواسه، أعجبته فتزوّج بها، فقالت: انطلقي إليها وأقرئيها مني السلام، وأعلميها أني أريد مؤاخاتها والانقطاع إليها. فانطلقت الحاضنة إلى ابنة السائس فأبلغتها رسالة مولاتها، فقالت لها: أقرئيها مني السلام وأعلميها أني قد أحببتها وأجبتها إلى ما سألت فتصير إلي، فانصرفت فأخبرتها بما قالت، فتهيّأت بأحسن هيئة وأقبلت إليها، ودخلت عليها فرفعت مجلسها وأَقبلت عليها فذكرتْ حبها لها ورغبتها في مواصلتها. فردّت عليها ابنة السائس أحسن الرد وأعلمتها سرورها بذلك. ثم تحدثتا ساعة وانصرفت وجعلت الهندية تأتيها غباً[1] وتظهر الأُنس بها. فلما أنست بها قالت لها: أنت قد استلبت قلب الملك وقهرت جميعنا بفضلك وليس لواحدة منا نصيب، فأعلمينا الأمر الذي فضلتِنا به لنزداد سروراً بما أوتيت ومحبة لك والانقطاع إليك، قالت: إني لما عرفت ضعف نسبي وقلّة جمالي علمت أنه لا يرجع الملك مني إلى شيء أحظى به عنده مثل المؤاتاة في الخلوة وأن أبسطه إذا همّ بالحركة وأستميل قلبه باللطف وفضل الخدمة، فلما رآني على ذلك مستمرّة ورأى من سائر نسائه أنفة الأكفاء وزهو الجمال وخيلاء الملك، وعلمت أني إن أخذت ما أخذته مع خمول نسبي وقلّة جمالي ودقة خطري لا يليق بي مثل الذي يليق بهن، ففضّلني على جميع نسائه بذلك. فلما سمعت ابنة الملك ذلك علمت أن قلوب الرجال لا تستمال إلا بالمؤاتاة وسرعة الإجابة في الباه عند المشغلة، فعزمت أن تجعل ذلك عدة لاستعطاف قلب الملك. فانصرفت إلى قصرها وقالت لبعض جواريها: اذهبي إلى فلانة ـ تعني ابنة السائس ـ فإن رأيت الملك

---

(١) غِبًّا: مرة بعد مرة، يوماً بعد يوم.

عندها فأعلميها أني عليلة من وجع عرض لي، فانطلقت الجارية فإذا الملك عندها، فأخبرتها بذلك فرقّ الملك لها وذكر غربتها وَقَتْله أباها فقال لابنة السائس: ما ترين في إتيانها؟ فقالت: أيها الملك إنه ليس في نسائك من لها عندي مثل منزلتها، فصر إليها فإنها غريبة قد فارقت أهلها وهي في موضع رحمة، فقام الملك حتى دخل عليها وانتهى إلى باب مجلسها، فقامت إليه تمشي بأحسن هيئتها متكسّرة في حليها وزينتها عبقة بطيبها وعطرها، فقبلت بين عينيه وأخذت بيده حتى أجلسته في صدر فرشها، وجعلت تقبل يديه ورجليه ضاحكة إليه مظهرة السرور به فجذبها إلى نفسه ودعاها إلى المضاجعة، فأتته ولم يرد في الخلوة شيئاً إلاّ أجابته إليه، فلما قضى حاجته نازعها إلى المحادثة فقال: أين ما ذكر رسولك من شدة وجعك؟ قالت: يا سيدي كنت متوجعة لفراقك حتى شفاني لقاؤك وقلت ذلك لما نالني من تباريح الشوق إليك وطول صدودك وسلوتك، ثم أخذ معها في المداعبة وأقام عندها سبعة أيام فبينما هما يتلاعبان ويتذاكران ويتعانقان، إذ دخلت جارية لابنة السائس فحيّت الملك بتحية الملوك ثم قالت للهندية: إن سيدتي ـ تعني ابنة السائس ـ تقول: قد اجتمع فيك ثلاث خصال: الأولى الغدر بمعلمتك، والثانية فضل تطاولك، والثالثة كفران النعمة للمنعم، وإني عن قريب رادتك من الملك إلى غصص الغيظ، فأفحمتها وهملت عيناها ونظرت إلى الملك كالمستغيثة به، فقال لها الملك: يا حبيبتي ما تنكرين من أمتك قد وهبتها لك وجميع ما تملك، فتجلّى عنها غمّها فقالت لرسولتها: اِنطلقي إليها فأعلميها أن الملك قد وهبها وما تملك لي وقولي لها: أرجعك فحش نفسك إلى لؤم حسبك وإهمال أدبك، ائتني الساعة بصغار المذلة ورقة العبودية. فلما أبلغها الرسول ذلك أقبلت فدخلت عليها فحيّت الملك وقامت بين يديه، فقالت لها الهندية: ما كان أعظم زهوك في رسالتك، قالت: يا سيدتي أتأذنين لي

في الكلام؟ قالت: تكلّمي، قالت: أيتها السيدة لست متوجّهة إليك بشيء هو أملك بك من حلمك، ولا أعطف علي من فضلك، ولم يظلم من رفع فوقي من هو أفضل مني، وكلّ فرع يرجع إلى أصله، وكل زهر ينسب إلى سنخه[1]، فقالت: صدقت فدعي عنك كلام الأدب. فقد ملكتك على رغم أنفك وأنا مزوجتك من فلان خادمي فليس لك فضل عليه، قالت ابنة السائس: من اعتاد معالي الأمور لم تطب نفسه بأسفلها ومن صاحب العظماء أَبَتْ غريزته الأدنياء، وإنما ترقبت عطفك ورجوت حسن نظرك فأما إذا عزمت على هذا فقد طاب الموت وما الذي أستبقي منك؟ ثم قالت: أيها الملك إن جذل المسرة منك لا يستقر ويقع موقعه إلا بعد المخالفة عندك فاحترس من هذه الهندية، فإنها لا تؤمن عليك لأنها ليست من جنسك فيعطفها عليك الرحم، ولا من أهل مملكتك فتعرف تطولك عليها، وإنما هي شبيهة بموتورة قد قتلت أباها وهدمت عزّها، فاحترس منها ولا يلهينك موقعها من قلبك، فإنها متى احتالت في قتلك لم يكن في أيدينا من الظفر إلّا قتلها، كما كان من أمر الثعلب وعظيم الطير. فقال الملك: وما كان من حديثهما؟ قالت: يقال: إن ثعلباً جاع في ليلة، فرقي شجرة ليأكل منها فسال الوادي الذي فيه تلك الشجرة بسيلٍ شديد فاقتلعها والثعلب عليها، ثم رفعها ووضعها حتى ألقى الثعلب إلى أرض بعيدة من أرضه، فأصبح وقد ألقاه السيل إلى سفح جبل كثير الأشجار مثمر الأغصان، وعلى تلك الأشجار جنس من الطير لا يحصى عدداً، فأقعى إلى شجرة قصياً مقشعراً لا يعرف أرضه ولا يقدر على مؤالفة الدواب. فمر به عظيم الطير فقال له: ما أنت؟ فقال: أنا دابة سال بي السيل فألقاني في جبلكم وقد أصبحت غريباً، فقال له عظيم الطير: فهل لك حرفة؟ قال:

---

(١) السِّنخ، ج أسناخ وسنوخ: الأصل.

نعم أعرف الثمار إذا بلغت حد بلوغها وأصنع للطير أكناناً[1] في الأرض تكنّ فيها فراخها من الحر والبرد. فقال له عظيم الطير: قد أدركت عندنا بغيتك فأقم عندنا نواسيك ونعرف حقّ مجاورتك. فأقام الثعلب عند ملك الطير فكان يعرّفهم الثمار المدركة ويحفر لهن بمخاليبه قبوراً في الأرض يفرّخن فيها، وكان الثعلب إذا جنّ عليه الليل وقرم[2] إلى اللحم أدخل يده في جحر من تلك الأجحرة فأخرج طيراً أو فراخه فأكله ودفن ريشه. وجعلت الطير تتفقّد ما كان يأكل واحداً بعد واحد، فقال بعضها لبعض: ما فقدنا أفاضلنا إلّا منذ صارت هذه الدابة بين أظهرنا، وما كانت هذه الطير تطيل الغيبة وما ندري ما دهاها. فقال لها عظيمها: إن هذا حسد منكن لهذه الدابة فلا تغفلن ما أصبحتن فيه من فضل المطعم وما فيه فراخكن من هذه الأكنان التي لا يخاف عليها برد فيها ولا حرّ. فقالت الطير: أنت سيّدنا وأبصَرُ بالأمور منّا. قال: وعليّ أن أقطع هذا القول وأبيّن حق ذلك من باطله بنفسي. فلما أظلم الليل نزل من الشجرة فدخل بعض تلك الأكنان وأقبل الثعلب على العادة التي اعتادها إلى ذلك الكن فأدخل يده فقبض على رأس الملك، فقال الملك للثعلب: لقد نَصَحَتْني الطير لو قبلت نصحها. قال الثعلب: أنت هو؟ قال: نعم، قال: ما ظننت أن يبلغ من حمقك كلّ هذا؟ قال ملك الطير: دعني أردك في منزلتك بحسب ما رأيت من فضل علمك ولطيف حيلتك. قال له الثعلب: إنّ أبويّ أدّباني أن لا أعلق أنيابي بشيء وأتركه، إذ ليس من جهلك أن لا تتجزأ من الثمار ومن الأكنان بما كان آباؤك يكتفون به، ولم ترض حتى اختبرت أمري بنفسك ولم تجعل التغرير في ذلك بغيرك ثم أكله ودفن ريشه. وفقدت الطير

---

(١) أكناناً، الكن ج أكنان وأكنة: البيت، وقاء كل شيء وستره وهي هنا العش للطائر.

(٢) قَرِمَ قَرَماً إلى اللحم: اشتدت شهوته له. ويقال: «قَرِمْتُ إلى لقائه» أي اشتقت إليه.

عظيمها فاستوحشت، وضربت الثعلب ضرباً بمخاليبها ومناقيرها حتى قتلته، ولم يصلن في عظيم خطر ملكهن إلى أكثر من قتل الثعلب فاحترس من هذه الهندية. قالت الهندية: إنما تقرعين المرأة بأربعة رجال: بأبيها وأخيها وولدها وبعلها، وأفضل النساء المختارة بعلها على جميع أهلها والمؤثرة له على نفسها فكيف بمن ذهب أبوها وأخوها فبقي بعلها أفتحبّ أن تهلكه؟ على أن مثلك في رداءة همّتك وخبث نيّتك مثل الغراب والحمامة.

قال الملك: وما كان من حديثهما؟ قالت: زعموا أن غراباً أَلِفَ مطبخاً لبعض الملوك، فأخذ من أطيب اللحمان التي قد صارت فيه شيئاً، فظنّوا أن الغراب أخذه لقلّة وفائه ولؤم جوهره فطردوه عن مطبخهم وقالوا: ما نرجو من هذا الغراب وهو من الطيور التي تعاف ويتطير منها؟ فأفشى ذلك الغراب أمره إلى حمامة قد كانت بينهما معرفة وَفَزِعَ إلى رأيها وأخبرها ما كان فيه من نعيم المأكل والمشرب، فقالت له الحمامة: اِنطلق بي حتى تريني هذا المطبخ. فانطلق حتى أتى سطح المطبخ، فقالت الحمامة: إني أرى هذا البيت ليس فيه موضع مدخل فاحفر لي بمنقارك قدر ما أدخل فإنّ منقاري يضعف عن ذلك، فحفر الغراب في سقف البيت بمنقاره حتى دخلت فيه الحمامة وتوسّطت في البيت فأعجبهم حسن خلقها وصفاء لونها فجعل لها خازن المطبخ موضعاً تأوي إليه فلبثت في ذلك البيت قريرة عين فناداها الغراب ما هكذا قدّرت فيك! فقالت الحمامة: لو وفيت لك حل بي غدرك وإنّ القوم عرفوا وفائي وحسن جواري وعرفوا غدرك وقلة وفائك ونكث عهدك فهذا مثلي ومثلك يا ابنة السائس، إني لو وفيت لك أرداني غدرك وقتلني مكرك! قالت ابنة السائس: أيتها السيدة إنّ الذي سمعت مني كان لشدة الأنفة فأردت أن أنفي عن نفسي الذي أردت من إنكاحي خادمك فلاناً، قالت الهندية: لا بد من ذلك، فقالت ابنة السائس: من اعتاد معالي الأمور لم تطب نفسه بأسافلها الآن استعذبت الموت فعمدت

إلى سم كان معها فقذفتهُ في فيهـا فخرّت ميتـة، ووفت الهندية لزوجهـا فأفلحا.

ومنهن: شيرين امرأة أبرويز. فإن شيرويه بن أبرويز لما قتل أباه وتوطّد له المُلْك، بعث إلى شيرين يدعوها إلى نفسه فامتنعت عليه وأبت أن تجيبه إلى ذلك، فغصبها ضياعها وعقارها وذخائرها وأموالها وقذفها بكل فاحشة ورماها بكل معضلة، فلما بلغها ذلك هان عليها مـا أخذه من أمـوالها مـع ما رماها به فبعثت إليه وقالت: أيها الرجل إن لم يكن مما سألت بد فاقضِ لي ثلاث حوائج حتى أتابعك على ما تـريد، فقـال: وما هـذه الحوائـج؟ قالت: أحدها: أن تردّ علي ضيـاعي وأموالي، والثانية: أن تصعـد منبرك بمحضر مرازبتك وأساورتك وعظماء أهل مملكتك وتتبرّأ مما قذفتني بـه، والثالثة: إن أباك أودعني وديعة فتأمر أن يفتح لي باب الناووس حتى أردها عليه، فأجابها إلى ذلك وأمر بفتح باب الناووس لها ومعها خاتم وفيه سم ساعة فنشرته في فيها وعانقت قبر زوجها فماتت.

ضـــــده

قيل: كان لكسرى أبرويز خال يقال له: بسطام، فحالف على كسرى وجمع جمعاً كثيـراً وواقع[1] أبـرويز، فلمـا أعيت أبرويـز الحيلة فيه دعـا بكردي أخي بهرام جور ويقـال إن كردياً كان غلاماً له ربَّاه وبلغ منه مبلغ الرّجال، وكان من خاصّته والناصحين له فقال له: قد ترى ما نـزل بنا من هذا العدو بسطام، وقد رأيت رأيـاً إن طابقتني عليـه رجوت الـظفر. قـال كردي: وما ذاك أيها الملك؟ أخبرني فما شيء يزيـدك الله به عـزاً ويزيـد أعداءَك به ذلاً إلا بادرت إليه بنصح وصدق لعظيم حقك ووجوب طاعتك،

---

(١) واقع وِقاعاً ومُواقعةً: حاربَ.

قال له كسرى: قد عرفت حال كرديّة أختك امرأة بسطام وجراءة قلبها، وبسطام يأوي إليها كل ليلة إذا انصرف عن الحرب، وأنا جاعلٌ لها عهد الله وميثاقه وذمّة أنبيائه إن هي أراحتني من بسطام واحتالت لي في قتله أن أتزوجها وأجعلها سيدة نسائي، وأبلغ في إكرامها والسموّ بها أفضل ما بلغ ملك بامرأته. قال كردي: يا أيها الملك ما أشك في قدرتها عليه فاكتب إليها بخطك بما رأيت لأوجّهه في الكتاب إليها مع امرأتي أرجيّة فإنّ لها عقلاً ورفقاً وبصيرة، فكتب كسرى بخطه «بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا كتاب لكرديّة بنت بهرام جستاسب كتبه لها كسرى أبرويز بن هرمز، إن لك عندي عهد الله وذمته وذمة أنبيائه ورسله إن أنت قتلت بسطام وأرحتِني منه أتزوج بك وأجعلك سيدة نسائي وأبلغ من كرامتك ما لا يبلغ ملك من الملوك لأحد وأشهد الله على ذلك وكفى بالله شهيداً». وكتب كسرى بخطه وختمه بخاتمه يوم كذا من شهر كذا، فسارت أرجية حتى دخلت عسكر بسطام كهيئة الزائرة لكرديّة بالنظر إليها وكان بينهما قرابة، فلما جلست وسكنت دفعت إليها كتاب كسرى وقالت لها: يا ابنة عم أجيبي الملك إلى ما سألك واغنمي بذلك الرجوع إلى وطنك، فرغبت لشدة شوقها إلى أهلها فأجابتها إلى ذلك، وانصرفت أرجية إلى عسكر كسرى وعرّفت زوجها ما كان بينها وبين كرديّة فمضى كردي إلى كسرى فأعلمه، ثم إن بسطام دخل على كرديّة فأتته بعشاء فتناول منه، ثم أتته بشراب فسقته وجعلت تحدّثه وتظهر له المحبة حتى مضى ثلث الليل فنام بسطام، فلما استثقل نوماً، قامت إليه كرديّة بسيفها فوضعته على ثندوته[1]، ثم اتكأت فأخرجته من ظهره فمات، وعمدت من ساعتها إلى دوابها فحملت حشمها وأثقالها على البغال، وخرجت نحو عسكر كسرى وقد كانت وجّهت مع أرجيّة إلى أخيها

---

(١) الثَّندوة: ثدي الرجل.

أن يجلس لها على الطريق، فلما وافته سار معها حتى أدخلها على كسرى، ففرح بذلك فرحاً شديداً. فلما أصبح أصحاب بسطام ورأوه قتيلاً ولُّوا هاربين على وجوههم، فانصرف كسرى إلى المدائن فاتخذ لكرديّة تاجاً مكللاً بالدر وصنوف الجوهر وأعدّ لها وليمة عظيمة دعا فيها جنوده فطعموا وشربوا، ثم دعا كردياً أخاها فزوّجه إياها، ومهرها وأعطاها خاتماً فصّه من الكبريت الأحمر يضيء في الليلة الظلماء كما يضيء السراج. فلما دخل بها كسرى ونظر إلى جمالها وعقلها سرَّ بها وأعطاها الأموال وأقطعها الضياع، وأكرم أخاها كردياً وولّاه أرض فارس وبلغ بها رفعه إياها وتشريفه لها ما لم تبلغه امرأة قبلها ولا بعدها. ثم إن كرديّة قالت لكسرى: يا سيدي أخرج بنا إلى الميدان لألعب بين يديك بالكرة والصولجان[1]، فخرج معها إلى الميدان وخرجت امرأته شيرين وخواص نسائه، ودعا بخيل فأسرجت وركبت وركب هو، وجعلت تلاعبه بالصوالج، وتناولت السيف وركضت في الميدان ولعبت بالسيف لعباً معجباً، ثم أخذت الرمح فلعبت به، فقالت شيرين: أيها الملك ما يؤمنك من هذه الشيطانة؟ قال: هيهات إنها أعرف بحقنا وأشد حبّاً لنا من أن نخافها على أنفسنا، فلما نزلت قال كسرى: لنا في كل ربعٍ من أرباع مملكتنا قائد في اثني عشر ألف امرأة وقد جعلتك قائدة عليهن، قالت: يا سيدي ما للنساء والفروسية؟ وإنما علينا أن نتزيّن لك ونتطيّب ونسرّك بأنفسنا، وأردت بما كان مني سرورك وتسلية همومك، فأمر كسرى بحمل طعامه وشرابه إلى منزلها وبقي عندها أسبوعاً لم يخرج إلى الناس، ولم يأذن لأحد بالدخول عليه، ثم خرج من عندها إلى منزل شيرين، فأتاه صيّاد بسمكة عظيمة فأعجب بها، وأمر له بأربعة آلاف درهم، فقالت له شيرين: أمرت لصياد بأربعة آلاف درهم فإن أمرت بها لرجل من الوجوه،

---

(١) الصولجان ج صوالجة مؤنثه صولجانة: العصا المعقوفة الرأس ومنها «صولجان الملك».

قال: إنما أمر لي بمثل ما أمر للصياد، فقال: كيف أصنع وقد أمرت له؟ قالت: إذا أتاك فقل له: أخبرني عن السمكة: أذكر هي أم أنثى؟ فإن قال: أنثى فقل: لا تقع عيني عليك حتى تأتيني بالذكر، وإن قال: ذكر فقل: مثل ذلك، فلما غدا الصياد على الملك، قال له: أخبرني عن السمكة أذكر هي أم أنثى؟ قال: بل أنثى. قال: فأتني بذكرها فقال عمّر الله الملك، إنها كانت بكراً لم تتزوج بعد. قال الملك: زه زه[1] وأمر له بأربعة آلاف درهم وأمر أن يكتب في ديوان الحكمة: إن الغدر ومطاوعة النساء يورثان الغرم. قال: وكان الموبذان إذا دخل على كسرى قال: عِشْتَ أيها الملك بسعادة الجد ورزقت على أعدائك الظفر وأعطيت الخير، وجُنِّبت طاعة النساء، فغاظ ذلك شيرين وكانت أجمل نساء عصرها وأتمّهن عقلاً فقالت لكسرى: أيها الملك إن هذا الموبذان قد طعن في السن ولست مستغنياً عن رأيه ومشورته، وقد رأيت لحاجتك إليه أن أهب له مسكدانة جاريتي وقد عرفت عقلها وجمالها فإن رأيت أن تسأله قَولَها فافعل. فكلّم كسرى الموبذان في ذلك، فهش للجارية لمعرفته بجمالها وفضلها فقال: قد قبلتها أيها الملك لإيثارها إياي بأفضل جواريها. فقالت شيرين لمسكدانة: إني أريد أن تأتي هذا الشيخ فتبدي له محاسنك وتجيدي خدمته فإذا هش لمضاجعتك فامتنعي عليه حتى توكفيه[2] وتركبيه وتعلميني الوقت الذي يتهيأ لك ذلك حتى لا يعود أن يريد في تحيّة الملك ـ ووقيت طاعة النساء ـ فقالت مسكدانة: أفعل يا سيدتي، ثم انطلقت إلى الشيخ فصارت عنده في داره التي يحلّها من قصر الملك، فجعلت تخدمه وتبرّه وتظهر له الكرامة، وهي مع ذلك تبرز له محاسنها وتكشف له عن

(١) زه زهْ: كلمة استحسان فارسية.
(٢) وكَّف وأوكف الحمار: وضع عليه الإكافة: أي البرذعة.

صدرها ونحرها، وتبدي له ساقيها وفخذيها فارتاح الموبذان وشرح صدره لمضاجعتها فجعلت تمتنع عليه فيزداد في ذلك حرصاً. فلما ألحّ عليها قالت له: أيها القاضي ما أنا بمجيبتك إلى ما سألت حتى أوكفك وأركبك، فإن أجبتني إلى ذلك صرت طوع يدك فيما تريد. فامتنع عليها أياماً وبقيت تتزين له بزينتها وتكشف له عن محاسنها حتى عيل صبره فقال لها: اِفعلي ما أحببت، فهيأت له برذعة صغيرة وإكافاً صغيراً وحزاماً وثفراً[1]، وأقامته عرياناً على أربع وَوَضعت على ظهره البرذعة والأكاف وجعلت الثفر تحت خصيتيه وهي قائمة وركبته وهي تقول: خر، خر، وأرسلت إلى سيّدتها شيرين لتعلمها بذلك. فقالت شيرين للملك: اِصعد بنا إلى ظهر بيت الموبذان لننظر من الروزنة[2] ما يكون بينه وبين الجارية، فصعدا ونظرا فإذا هي قد ركبته فوق الأكاف فناداه كسرى: ويحك أي شيء هذا؟ فرفع الموبذان رأسه ونظر إلى الروزنة ورأى الملك فقال: هو ما كنت أقول لك في اجتناب طاعة النساء، فضحك كسرى وقال قبّحك الله من شيخ وقبّح مستشيرك بعد هذا.

حديث الزباء

ومنهن: الزباء[3]، واسمها هند، وملكت الشام بعد عمها

---

(١) الثَفر: سيْر من الجلد في مؤخر السرج.

(٢) الرَّوزنة: الكوَّة.

(٣) الزبّاء أو الزبًا: بنت عمر بن الظرب بن حسان بن أذينة بن سميدع، الملكة المشهورة في العصر الجاهلي، صاحبة تدمر وملكة الشام والجزيرة يسميها الإفرنج (زنوبيا) أمها يونانية من ذرية كليوباترة ملكة مصر، غزيرة المعارف مولعة بالصيد والقنص تحسن لغات عصرها. وليت تدمر بعد وفاة زوجها أذينة وفي خاتمة أمرها قتلت جذيمة الوضاح ملك العراق قاتل أبيها فاحتال ابن أخت له يدعى عمرو بن عدي حتى دخل قصرها وهمّ بقتلها فامتصت سماً قاتلاً. (أنظر الأعلام لخير الدين الزركلي: جـ٣، ص ٤١، دار العلم للملايين طبعة ١٩٨٠م).

الصنّور، وكان جذيمة الأبرش[1] قتل عمها، فبعث إليها جذيمة يخطبها فأظهرت البشر والسرور لرسوله، وكتبت إليه بالقدوم عليها لتزوّجه نفسها، فاستشار نصحاءه، فقالوا: أيها الملك: إن تزوجت بها جَمَعْتَ ملك الشام وملك الجزيرة إلى ملكك. فاستخلف ابن أخيه عمرو بن عدي وسار في ألف فارس من خاصّته، فلما انتهى إلى مكان يسمّى «بقة» وهو حد مملكتها ومملكته، نزل في ذلك المكان واستشار أصحابه أيضاً في المصير إليها والانصراف، فزيّنوا له الإلمام بها وقالوا: إنك إن انصرفت من ههنا أنزله الناس منك على جبن ووهن. فدنا منه مولى له يقال له قصير بن سعد فقال له: أيها الملك لا تقبل مشورة هؤلاء وانصرف إلى مملكتك حتى يتبين لك أمرها فإنها امرأة موتورة، ومن شأن النساء الغدر، فلم يحفل بقوله: ومضى حتى اقتحم مملكتها فقال قصير: « ببقة حرم الأمر[2] » ثم أرسلها مثلاً، فلما بلغ المرأة قدومه عليها أمرت جنودها فاستقبلت الملك، فقال قصير: أيها الملك إني رأيت جنودها لم يترجّلوا لك كما يترجل للملوك، ولست آمن عليك فاركب العصا وانج بنفسك، والعصا كانت فرساً لجذيمة لا يشقّ غبارها. فلم يعبأ جذيمة بقوله، وسار حتى دخل المدينة وأمرت الزباء بأصحابه أن ينزلوا فأنزلوا، وأخذت منهم أسلحتهم ودوابهم، وأذنت لجذيمة فدخل عليها وهي في قصر لها، ولم يكن معها في قصرها إلا الجواري، فأومأت إليهن بأن يأخذنه، واجتمعن

---

(١) جذيمة بن الأبرش أو الوضاح من مشاهير ملوك العرب في بلاد الفرات السفلى ينسبون إليه تأسيس الحيرة والأنبار.

(٢) بقة: موضع بالعراق قريب من الحيرة كان به جذيمة الأبرش ومنه المثل: « ببقة حزم الأمر » أي قضي الأمر ولا مجال للندم وقد ورد هذا المثل في لسان العرب ج ١ « خلفت الرأيَ ببقّة » قاله قصير بن سعد اللخمي لجذيمة الأبرش فيما أشار عليه أن لا يسير إلى الزبَّاء فلما ندم على سيره إليها قال قصير ذلك.

عليـه ليكتّفنّه[١] فـامتنع عليهن، فلم يـزلن يضربنـه بالأعمـدة حتى أثخَنَّه وكَتَّفْنَهُ. ثم دعت بِنطْعٍ[٢] فأجلسته فيه، وكشفت عن عورتها، فنظر جذيمة فـإذا لها شعـرة وافية، فقـالت: كيف ترى عـروسك أشـوار[٣] عروس أم ما ترى؟ قال: أرى بظراً[٤] ناتئاً ونبتاً فاشياً ولا أعلم ما وراء ذلك. قالت: أما إنه ليس من عدم المواسي ولا لقلة الأواسي[٥] ولكنه شيمة من أناسي، ثم أمـرت به فقـطعت عروقـه فجعلت دماؤه تشخب في النـطع، فقالت: «لا يحزنك ما ترى فإنه دم هراقه[٦] أهله» فـأرسلتها مثـلاً. واحتال[٧] قصيـر للعصا حتى وصل إليها وركبها ثم دفعها فجعلت تهوي به كأنهـا الريـح، وكان المكان الذي قصد فيه جذيمة مشرفاً على الطريق، فنظر جذيمة إليه وقد دفع الفرس فقال: لله حـرم على رأس العصا فلم تـزل دماؤه تشخب حتى مات، ثم أمرت بـأصحابـه فقتلوا بأجمعهم. وكـان عمرو بن عـدي يركب كل يوم من الحيرة فيأتي طريق الشام يتجسّس عن خبره وحاله فلم يبلغه أحد خبره، فبينا هو ذات يوم في ذلـك إذ نظر إلى فـرس مقبل على الطريق فلما دنـا منه عـرف الفرس وقـال: «يا خيـر ما جـاءت به العصـا» فذهبت مثلاً، فلما دنا منـه قصير قـال له: مـا وراءك؟ قال: قتـل خالـك وجنـوده جميعاً فـاطلب بثأرك، قـال: «وكيـف لي بها وهي أمنـع من عُقـاب

---

(١) ليكتفنَّه: أي ليوثقنه، يقيّدنه.
(٢) النِّطع بالسكون والفتح: بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو بقطع الرأس.
(٣) الشُّورة أو الشُّوار والشّيار: الحسن والجمال يقال: كأنـه من الشور: أي عـرض الشيء وإظهاره، الهيئة.
(٤) البظر: ما بين إسكتي المرأة ج بظور.
(٥) المواسي: المعين: آساه: عزَّاه، وتأسّى: تعزَّى.
(٦) هراق الماءَ: صبَّه. وأصل الكلمة: أراق يريق إراقة.

الجو؟» فذهبت مثلاً. ثم إن قصيراً أمر بأنف نفسه فجدع، ثم ركب وسار نحو الزباء فاستأذن عليها فقيل لها: إن مولى لجذيمة وقهرمانه وأكرم الناس عليه قد أتاك مجدوعاً، فأذنت له فدخل عليها قالت: من صنع بك هذا؟ قال: أيتها الملكة هذا فعل عمرو بن عدي، اتهمني وتجنّى علي الذنوب وزعم أني أشرت على خاله بالمصير إليك، حتى فعل بي ما ترين ولم آمنه أن يقتلني فخرجت هارباً إليك، وقد أتيتك لأكون معك وفي خدمتك ولي جداء وعندي غناء، قالت: نعم، أقم فعندي لك ما تحب، وولّته نفقتها. فخف لها ورأت منه الرشاقة فيما أسندته إليه. فأقام عندها حولاً ثم قال لها: أيتها الملكة إن لي بالعراق مالاً كثيراً فإذا أذنت لي في الخروج لحمله فافعلي، فدفعت إليه مالاً كثيراً وأمرته أن يشتري لها ثياباً من الخز والوشي ولآلىء وياقوتاً ومسكاً وعنبراً والنجوجا[1]. فانطلق حتى أتى عمراً فأخبره فأخذ منه ضعفي مالها وانصرف نحوها فاسترخصت ما جاء به، وردته الثانية والثالثة فكان يأخذ في كل مرة مثل أضعاف ما لها فيشتري جميع ما تريد فتسترخصه، ووقع قصير بقلبها فاستخلفته ثم بعثته في الدفعة الرابعة بمالٍ عظيمٍ وأمرته أن يشتري أثاثاً ومتاعاً وفرشاً وآنيةً. فانطلق إلى عمرو فقال: قد قضيت ما علي وبقي ما عليك، فقال: وما الذي تريد؟ قال: أخرج معي في ألفي فارس من خدمك وكونوا في أجواف الجواليق على كل بعير رجلان، فانتخب عمرو ألفي فارس من أصحابه، فخرج وخرجوا معه في الجواليق[2] كل رجل بسيف، وكان يسير النهار فإذا أمسى الليل فتح الجواليق ليخرجوا ويطعموا ويشربوا ويقضوا حوائجهم، حتى إذا كان بينه وبين مدينتها مقدار ميل تقدّم قصير حتى دخل عليها وقال: أيتها الملكة

---

(١) النُّجوجا: أي الأنجوج والنيجوج: العود الذي يُتَبخَّر به.

(٢) جولق، ج جوالق وجواليق: وعاء، العِدْل من صوف أو شعر (فارسية).

اصعدي على القصر لتنظري ما أتيتك به. فصعدت فنظرت إلى ثقل الأحمال على الجمال فقالت:

ما لِلجِمال مَشْيُها وئيداً أَجَنْدلاً[1] يحملن أم حديدا
أم صرفاناً[2] بارداً شديدا

فأجابها قصير سراً وقال:

بل الرجال جثّماً قعودا

فقال: لما عليها من المتاع الثقيل النفيس، فأمرت بالأحمال فأدخلت قصرها وكان وقت المساء فقالت: إذا كان غداً نظرنا إلى ما أتيتنا به، فلما جنّ عليهم الليل فتحوا الجواليق وخرجوا فقتلوا جميع من في القصر، وكان لها سربٌ[3] قد أعدّته للفزع والهرب إن حل بها روع تخرج إلى الصحراء. وقد كان قصير عرف ذلك المكان ووصفه لعمرو فبادر عمرو إلى السرب فاستقبلته الزباء فولّت هاربة نحو السرب، فاستقبلها بالسيف فمصّت فصّها وكان مسموماً وقالت: بيدي لا بيدك يا عمرو ولا بيد العبد، فقال عمرو: يده ويدي سواء وفي كليهما شفاء وضربها بسيفه حتى قتلها، وأقبل قصير حتى وقف عليها فجعل يدخل سيفه في فرجها ويقول:

ولو رأوني وسيفي يومَ أدخِلُه في جَوْفِ زبَّاءَ ماتوا كلُّهم فرحا

وغنم عمرو وأصحابه من مدينتها أموالاً جليلة وانصرفوا إلى الحيرة. فكان الملك بعد خاله جذيمة. وعمرو هذا هو جد النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدي.

---

(١) جندلة ج جنادل: الصخر العظيم.
(٢) الصَّرَفَان: الموت.
(٣) السَّرَب: جحر الوحش، وهو هنا: الطريق المحفور تحت الأرض، النفق.

ومنهن صاحبة الجعد بن الحسين أبي صخر بن الجعد وكان جعد قد طعن في السن وكان يكنّى أبا الصموت وكانت له وليدة سوداء، فقالت: يا أبا الصموت زعم بنوك أن يقتلوني إذا أنت متّ قال: ولِمَ ذاك؟ قالت: ما لي إليهم ذنب غير حبك فأعتقني، فأعتقها فبقيت يسيراً ثم قالت: يا أبا الصموت هذا عرابة من أهل عدن يخطبني، قال: ما هذا ظني بك، قالت: إنما أريد ماله لك فقال: إئتني به فجاءت به فزوّجها منه فولدت منه وقربته من مال جعد وكانت تأتي الجعد فتخضب رأسه ثم قطعته فقال الجعد:

أبلغْ لديكَ بني عَمْرٍو مغلغلةً[1]	عوفاً وعمْراً فما قولي بمردودِ
بأن بيتيَ أمسى فوق داهيةٍ	سوداءَ قد وعَّدتْني شرَّ موعودِ
تُعطي عُرابةَ بالكفّينِ مُخْتَضَباً	من الخَلُوقِ[2] وتُعطيني على العودِ
أمسى عُرابَةُ ذا مالٍ وذا ولدٍ	من مال جعدٍ وجعدُ غيرُ محمودِ

ومنهن: امرأة مروان بن الحكم، وكانت أم خالد بن يزيد بن معاوية وهي ابنة هشام بن عتبة، فأراد مروان الخروج إلى مصر فقال لخالد: أعرني سلاحك فأعاره، فلما رجع قال له خالد: ردّ علي سلاحي فأبى عليه، وكان مروان فحّاشاً فقال له: يا ابن الربوخ الرطبة، فجاء خالد إلى أمّه فقال: هذا ما صنعت بي سبّني على رؤوس الملأ وقال لي: كيت وكيت قالت: أسكت فإني أكفيك أمره. فجاء مروان فرقد عندها فأمرت جواريها فطرحن عليه الشواذكين - يعني الملاحف - ثم غططنه حتى قتلنه

---

(١) رسالة مغلغلةً: محمولةً من بلدٍ إلى بلد.

(٢) الخلوق: نوع من الطيب معظم أجزائه من الزعفران. المعنى تعطي عرابة ملء كفيها الطيب الصافي وتعطيه العود الذي لا طيب فيه. وبمعنى آخر كل شيء لعرابة ولا شيء له.

وخرجن يصحن: وا أمير المؤمنيناه فدعا عبد الله بامرأة أبيه ليقتلها فقالت: إن الذي يبقي عليك من العار أعظم من قتل أبيك: قال: وما ذاك؟ قالت: يقول الناس: إن أباك قتلته امرأة، فأمسك عنها.

محاسن مكر النساء

ذُكر: أن الحجّاج بن يوسف أرِقَ ذات ليلة، فبعث إلى ابن القَرِيّة فقال: إني أرقت فحدثني حديثاً يقصر علي طول ليلي، وليكن من مكر النساء وفعالهن. فقال: أصلح الله الأمير، ذكروا أنّ رجلاً يقال له عمرو بن عامر من أهل البصرة كان معروفاً بالنسك والسخاء، وكانت له زوجة يقال لها: جميلة، وله صديق من النساك فاستودعه عمرو ألف دينار وقال: إن حدثت بي حادثة ورأيت أهلي محتاجين فأعطهم هذا المال، فعاش ما عاش ثم دُعِيَ فأجاب[1]. فمكثت جميلة بعده حيناً ثم ساءت حالها وأمرت خادمتها يوماً ببيع خاتمها لغداء يوم أو عشاء ليلة فبينا الخادمة تعرض الخاتم على البيع إذ لقيها الناسك صديق عمرو فقال: فلانة؟ قالت: نعم، قال: ما حاجتك؟ فأخبرته بسوء الحال وما اضطرت إليه مولاتها من بيع خاتمها، فهملت عيناه دموعاً ثم قال: إن لعمرو قبلي ألف دينار فأعلمي بذلك صاحبتك، فأقبلت الجارية ضاحكة مستبشرة وهي تقول: رزق حلال عاجل من كد مولاي الكريم الفاضل. فلما سمعت مولاتها ذلك سألتها عن القصة، فأخبرتها فخرّت ساجدة وحمدت ربّها، وبعثت بالجارية إلى الناسك فأقبل الناسك ومعه المال، فلما دخل الدار كره أن يدفع المال إلى أحد سواها فخرجت فلما نظر إلى جمالها وكمالها أخذت مجامع قلبه وفارقه النهي وذهب عنه الحياء وأنشأ يقول:

قد سلبتِ الجسمَ والقلبَ معاً وَبَرَيْتِ العظمَ مما تَلْحَظينْ

---

(١) دعي فأجاب: أي مات.

فـارددي قـلبَ عـمـيـدٍ واقـبــلـي صِـلَـةَ الضّـعفَـيْنِ مـمــا تــرتجـين

فأطرقت جميلة لقوله طـويلاً، ثم قـالت: ويحك ألست المعـروف بالنسك المنسوب إلى الورع؟ قال: بلى، ولكن نور وجهـك سلّ جسمي فتداركيني بكلمة تقيمين بها أودي فهذا مقام اللائذ بك. قالت: أيها الرائي المخادع أخرج عني مذموماً مدحوراً، فخرج عنها وقد هـام قلبه وأضحت جميلة تعمل الحيلة في استخراج حقّها. فأتتْ الملك ترفع إليـه ظلامتهـا فلم تصل إليه، فأتتْ الحاجب فشكت إليـه فأعجب بهـا إعجابـاً شديـداً وقال: إنّ لوجهك صورة أرفعها عن هذا ولا يجمل بمثلك الخصومة، فهل لك في ضعفي مـالك في ستر ورفق؟ فقالت: سوأة لامرأة حرة تميل إلى ريبة، فانصرفت إلى صاحب الشرطة فـأنهت ظلامتهـا إليه، فـأُعجب بها وقال: إن حجتك على الناسك لا تقبـل إلا بشاهـدين عدلين، وأنـا مشتر خصومتك إن أنت نزلت عند مسرّتي. فانصرفت عنه إلى القاضي فشكت إليه فأخذت بقلبه وكاد القاضي يجن إعجاباً بها، وقال: يـا قرّة العين إنـه لا يزهد في أمثالك فهل لك في مواصلتي وغناء الدهر؟ فانصرفت وبـاتت تحتال في استخراج حقها فبعثت الجارية إلى نجّار فعمل لها تابوتاً بثلاثـة أبواب كـل منهـا مفرد ثم بعثت الجارية إلى الحاجب أن يأتيها إذا أصبح، وإلى صاحب الشرطة أن يأتيها ضحوة، وإلى القـاضي أن يأتيهـا إذا تعالى النهار، وإلى الناسك أن يأتيها إذا انتصف النهار، فأتاها الحاجب فـأقبلت عليه تحدّثـه، فما فـرغت من حديثهـا حتى قالت لهـا الجاريـة: صاحب الشرطة بالباب، فقالت للحاجب: ليس في البيت ملجـأ إلاّ هذا التـابوت فآدخل أي بيت شئت منه، فدخل الحاجب بيتاً من التابوت، فأقفلت عليه ودخل صاحب الشرطة، فأقبلت جميلة عليه تضـاحكه وتـلاطفه فمـا كان بأسرع من أن قالت الجارية: القاضي بالباب فقال صاحب الشـرطة: أين أختبىء؟ فقالت: لا ملجأ إلاّ هذا التابوت وفيه بيتان فآدخل أيهما شئت،

فدخل فأقفلت عليه فلما دخل القاضي قالت: مرحباً وأهلاً وأقبلت عليه بالترحيب والتلطيف، فبينا هي كذلك إذ قالت الجارية: الناسك بالباب فقال القاضي: ماذا ترين في ردّه؟ فقالت: ما لي إلى ردّه سبيل، قال: فكيف الحيلة؟ قالت: إني مدخلتك هذا التابوت ومخاصمته فاشهد لي بما تسمع واحكم بيني وبينه بالحق قال: نعم، فدخل البيت الثالث فأقفلت عليه. ودخل الناسك فقالت له: مرحباً بالزائر الجاني كيف بدا لك في زيارتنا؟ قال: شوقاً إلى رؤيتك وحنيناً إلى قربك؛ قالت: فالمال ما تقول فيه؟ أشهد الله على نفسك بردّه أتبع رأيك، قال: اللّهم إني أشهدك أن لجميلة عندي ألف دينار وديعة زوجها، فلما سمعت ذلك هتفت بجاريتها، وخرجت مبادرة نحو باب الملك فأنهت ظلامتها إليه، فأرسل الملك إلى الحاجب وصاحب الشرطة والقاضي، فلم يقدر على واحد منهم فقعد[1] لها وسألها البيّنة، فقالت: يشهد لي تابوتٌ عندي، فضحك الملك وقال: يحتمل ذلك لجمالك فبعث بالعجلة فوضع التابوت فيها، وحمل إلى بين يدي الملك، فقامت وضربت بيدها إلى التابوت، وقالت: أعطي الله عهداً لتنطقنّ بالحق وتشهدنّ بما سمعت أو لأضرمنّك ناراً، فإذا ثلاثة أصوات من جوف التابوت تشهد على إقرار الناسك لجميلة بألف دينار، فكبر ذلك على الملك فقالت جميلة: لم أجد من المملكة قوماً أوفى ولا أقوم بالحق من هؤلاء الثلاثة فأشهدتهم على غريمي، ثم فتحت التابوت وأخرجت الثلاثة نفر وسألها الملك عن قصتها فأخبرته وأخذت حقها من الناسك، فقال الحجاج: لله درّها ما أحسن ما احتالت لاستخراج حقها.

قال: وكان يعقوب بن يحيى المدائني ويحيى كاتب سهل بن رستم

---

(١) فقعد لها: أي جلس ليقضي لها.

يتحدثان إلى مهدية جارية سليمان بن الساحر، فقال يعقوب يوماً ليحيى: أنا أشتهي أن أرى بطن مهدية فقال يحيى: ما تجعل لي إن أنا احتلت لك بحيلة حتى تراه؟ قال: ما شئت، قال: برذونك[1] هذا، قال: نعم، قال: فتوثّق منه وأتى مهدية فقال لها: كان لي برذون فاره فنفق[2]، وأنت لو شئت لحملتني على برذون فاره، قالت: أنا أفعل وأشتريه لك بما بلغ الثمن، قال: أنت قادرة عليه بغير الثمن قالت: كيف ذلك؟ فأخبرها بالقصة فقالت: قد حملك الله على البرذون وأربحك النظر إلى بطن حسن. فإذا كان غداً، فتعال أنت ويعقوب فاجلسا، فإن سليمان يعبث بوصيفته فلانة كثيراً فإذا فعل ذلك وجئت أنا، فقل أنت: يا مهدية لو علمت ما صنع فلان لقتلته، قال: نعم، فلما جاءت مهدية قال لها: إن أمر سليمان مع وصيفته أشنع مما تقدرينه، فوثبت مستشيطة غضباً وقالت: مثلك يا ابن الساحر يفعل هذا مرة بعد أخرى وشقّت جيبها إلى أن جاوزت أسفل البطن وهي قائمة فنظر إلى بطنها فتأملناها ساعة وهي تشتمُ ابن الساحر، فقام إليها يتراضاها ويسكنها ويعقوب يقول: وابرذوناه فأخذه منه يحيى.

وعن المساور قال: كان عندنا بالأهواز رجل متأهل، وكانت له أرض بالبصرة، وكان في السنة يأتيها مرة أو مرتين فتزوج بها امرأة ليس لها إلا عم في الدار، وكان يكثر الانحدار بعد ذلك إلى البصرة، فأنكرت الأهوازية حاله، فدسّت من يعرف خبره، ثم احتالت وبعثت من أورد خطاً لعم المرأة البصرية، وسألت من كتب كتاباً من عم البصرية إلى زوجها على خطه بأن ابنة أخيه توفيت، ويسأله القدوم لأخذ ما خلفت، ودست الكتاب مع إنسان شبيه بالملّاح. فلما أتى بالكتاب خرج إليه فدفع الكتاب ولم يشك أن

---

(١) برذونة ج براذين: دابة ضخمة تُتخذ للحمل.

(٢) الفارِهُ: البيّن الفراهة، أي الملاحة والحسن. نفق: أي مات.

امرأته البصرية ماتت، فقال لامرأته: اجعلي لي سفرة، قالت: ولِمَ؟ قال: أريد الخروج إلى البصرة، قالت: وكم هذه البصرة؟ قد رابني أمرُك وما أشك أن هنالك امرأة فأنكر ذلك، فقالت: إن كنت صادقاً فاحلف بطلاق كل امرأة لك غيري، فقال في نفسه: تلك قد ماتت، وليس عليّ أن أحلف بطلاقها فأرضي هذه فحلف لها بطلاق كل امرأة له سوى الأهوازية، فقالت الأهوازية: يا جارية هاتي السفرة فقد أغناه الله عن الخروج، قال: وما ذلك؟ قالت: قد طلّقت الفاسقة وقصّت عليه القصة فعرف مكرها وأقام.

مساوىء مكر النساء

وذكروا: أن لقمان بن عاد صاحب لبد خرج يجول في قبائل العرب، فنزل بحيٍّ من العماليق، فبينا هو كذلك إذ ظعن القوم فظعن معهم فسمع بامرأة تقول لزوجها: فلان لو حملت سفطي[1] هذا حتى تجاوز به الثنية، فإن فيه من متاع النساء ما لا بد لهنَّ منه، ولعل البعير يقع فيتكسر، وذلك من لقمان بمنظر ومسمع، فقال: أفعل. فاحتمله على عاتقه فلما انحدر وجد بللاً في صدره فشمه، فإذا هو ريح بول قد جاء من السفط الذي على رأسه، ففتح السفط فإذا هو بغلام قد خرج منه يعدو، فلما نظر لقمان قال: يا إحدى بنات طبق ـ وبنات الطبق أن تأتي الحية السلحفاة فتلتوي عليها فتبيض بيضة واحدة، فتخرج منها حية شبراً أو نحوه لا تضرب شيئاً إلا أهلكته ـ فتبعه لقمان حتى لحقه فجاء به يحمله واجتمع الناس إليه وقالوا: يا لقمان أحكم فيما ترى، فقال: ردّوا الغلام في السفط يكون له مثوى حتى يعلم أن العقاب فيما أتى، وتحمله المرأة بفعلها، حملوها ما حملت زوجها ثم شدوه عليها فإن ذلك جزاءُ مثلها، فعمدوا إلى الغلام فشدوه في

---

(١) السَّفط: وعاء كالقفّة أو الجُوالق، ما يعَبَّأ فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء.

السفط ثم شدوه في عنق المرأة ثم تركوهما حتى ماتا، ثم فارقهم لقمان، فأتى قبيلة أخرى فنزل بهم، فبينا هو كذلك إذ بصر بامرأة قد قامت عن بنات لها، فسألت إحداهن: أين تذهبين؟ قالت: إلى الخلاء، ثم خرجت إلى بيوت الحي فعارضها رجل فمضيا جميعاً، ولقمان ينظر فوقع الرجل عليها وقضى حاجته منها. فقالت المرأة: هل لك أن أتماوت على أهلي فإنما هو ثلاثة أيام أكون في رجمي[1] ثم تجيء فتستخرجني فنتمتع، فقال الرجل: اِفعلي، وكان اسمه الخلي وزوج المرأة اسمه الشجي. فقال لقمان: «ويلٌ للشجيّ من الخلي» فذهبت مثلاً، فلم تلبث المرأة إلَّا أياماً حتى تماوتت على أهلها وكان الميت منهم إذا مات تجعل فوقه الحجارة ولم تكن إذ ذاك قبور، فلما كان اليوم الثالث جاءها خليلها فأخرجها وانطلق بها إلى منزله وتحول الحي من ذلك المكان وخافت المرأة أن تعرف فجزّت شعرها وتركت لنفسها جمة، فبينا هم كذلك إذ خرج بنات المرأة، فإذا هن بامرأة جالسة ذات جمة[2] فقالت الصغرى: أمي والله. قالت الوسطى: صدقت والله، قالت المرأة: كذبتما ما أنا لكما بأم، قالت الكبرى: صدقت والله، لقد دفنا أمنا غير ذات جمة ما كان لأمنا إلا لمة[3]، قالت الصغرى: هَيْكِ أنكرت أعلاها أما تعرفين أخراها؟ فتعلقت بها فقالت الأم: «صغراهن مرَّاهنَّ» فذهبت مثلاً. واجتمع الناس وجاء زوج المرأة فارتفعوا إلى لقمان فقالوا: احكم بيننا فقال لقمان: «عند جهينة الخبر اليقين» فذهبت مثلاً. وكان يلقب بجهينة فقال لقمان للمرأة: أخبرك أم

---

(١) الرَّجْمة والرُّجمة ج رُجَم ورجام: حجارة تنصب على القبر (كان الميت فيهم إذا مات تجعل فوقه الحجارة ولم تكن إذ ذاك قبور).

(٢) الجُمَّة: مجتمع شعر الرأس.

(٣) اللِّمة ج لِممٌ ولِمام: الشعر المجاوز شحمة الأذن قد يكون سمي بذلك لأنه شامَّ المنكبين وقاربهما.

تخبرينني؟ قالت: بل قل، قال: إنك قلت لهذا: إني متماوتة على أهلي فإذا دفنوني في رجمي جئت فاستخرجتني وأتنكّر لهم فلا يعرفونني فنتنعم ما بقينا، فاعترفت المرأة، فقيل للقمان احكم بيننا قال: اِرجموها كما رَجمت نفسها، فَحُفِرَ لها حفرة وألقوها فيها ورجموها وكانت أول مرجومة في العرب. ثم إن زوجها تعلق بالخلي فقال: يا لقمان هذا فرّق بيني وبين أهلي، فقال لقمان: لكل ذكر أنثى، ولكل أول آخر، فرّق بينك وبين أنثاك، وتفرّق بين ذكره وبين أنثييه[1] فقطع ذكره فمات.

محاسن الغيرة

رُوي أنه إذا أُغِيرَ الرجل في أهله أو في بعض مناكحه أو مملوكته فلم يَغِرْ بعث الله جلّ اسمه إليه طيراً يقال له القرقفنة حتى يسقط على عارضة بابه، ثم يمهله أربعين صباحاً يهتف به: إن الله غيور يحبّ كل غيور، فإن هو تغير وأنكر ذلك وإلّا طار حتى يسقط على رأسه، فيخفق بجناحيه على عينيه ثم يطير عنه فينزع الله منه روح الإيمان وتسمّيه الملائكة الديّوث[2].

وقال النبي ﷺ: «باعدوا بين أنفاس الرجال والنساء فإن كانت المعاينة واللقاء كان الداء الذي لا دواء له». ورُوي أن امرأة ذات عقل ورأي حملت من فاجر فقيل لها في ذلك، فقالت: قرب الوساد وطول السواد. تريد قرب مضجعه منها وطول مسارته إياها، وقال ﷺ: «النساء حبائل الشيطان»[3]

---

(١) أُنْثَيَيْه: خصيتيه.

(٢) الديُّوث: القوَّاد على أهله. والذي لا يغار على أهله.

(٣) النساء حبائل الشيطان: ليس حديثاً وهو من أقوال حكماء العرب (أنظر العقد الفريد: جـ ٤، ص ١٧٧).

وقال سعيد بن مسلم: لأن يرى حرمتي ألف رجل على حال تكشف وهي لا تراهم أحب إلي من أن ترى حرمتي رجلاً مواجهة.

وقيل لعقيل بن علفة: ألا تزوج بناتك؟ فقال: أجيعهن فلا يأشرن[1] وأعريهن فلا يظهرن، فوافق إحدى كلمتيه قول النبي ﷺ: «الصوم وجاء السيئة»[2]. والآخر يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اِستعينوا عليهن بالعري». وغاية أموال الرجال وكسبهم وهمهم وما يملكون إنما هو مصروف إلى النساء فلو لم يكن إلا ما يعد لهن من الطيب والحلى والكساء والفرش والآنية كان في ذلك ما كفى، ولو لم يكن إلا الاهتمام بالحفظ والحراسة وخوف العار من خيانتهن والجناية عليهن لكان في ذلك المؤونة العظيمة والمشقة الشديدة، غير إن أولى الأشياء بالرجال حفظهن وحراستهن، فليس شيء لهن أصلح من مباعدتهن عن الرجال وقمعهن بالعري والجوع. ومن حق الملوك أن لا يرفع أحد من خاصتها وبطانتها رأسه إلى حرمة لها صغرت أم كبرت، فكم من فيل وطيء هامة عظيم وبطنه حتى بدت أمعاؤه؟ وكم من شريف وعزيز قوم قد مزّقته السباع ونهشته؟ وكم من جارية كريمة على قومها عزيزة في أهلها قد أكلها حيتان البحر وطير الماء؟ وكم من جمجمة كانت تصان وتعل بالمسك والبان قد ألقيت بالعراء وغيبت جثتها في الثرى بسبب الحرم والخدم والغلمان؟ ولم يأت الشيطان أحداً قط من باب حتى يراه بحيث من يهوى مستقيم اللحم والأعضاء هو أبلغ من

---

(١) الأشر: البطر.

(٢) الحديث: الصوم وجاء السيئة لم أره بلفظه وإنما ورد قول النبي ﷺ: «يا معشر الشّباب من استطاع منكم الباءة (أي الجماع) فليتزوج فإنه أغضُّ للبصر وأحصنُ للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» حديث صحيح متفق عليه. ومعنى الوَجْء: أن تُرضّ أنثيا الفحل (أي خصيتاه) رضًا شديداً يذهب شهوة الجماع وينزل في قطعه منزلة الخصيّ.

مكيدته وأحرى أن يرى فيه أمنية من هذا الباب إذ كان من ألطف مكائده وأدق وساوسه وأجل تزاينه. وقيل لابنة الخس لم زنيت بعبدك ولم تزن بحرّ؟ قالت: طول السواد وقرب الوساد. وقيل: لو أن أقبح الناس وجهاً، وأنتنهم رائحة، وأظهرهم فقراً، وأسقطهم نفساً، وأوضعهم حسباً، قال لامرأة تمكن من كلامها ومكنته من سمعها: والله يا مولاتي لقد أسهرت ليلي وأرقت عيني، وشغلتني عن مهم أمري، فما أعقل أهلاً ولا ولداً. ولو كانت أبرع الناس جمالاً، وأكملهم كمالاً، وأملحهم ملاحة، وإن كانت عينه تدمع بذلك، ثم كانت تكون مثل أم الدرداء، أو معاذة العدوية، أو رابعة القيسية، لمالت إليه وأحبته. ومنها قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أضربوهن بالعرى، فإن النساء يخرجن إلى الأعراس، ويقمن في المناحات، ويظهرن في الأعياد، ومتى كثر خروجهن لم يعد بد من أن يرين من هو من شكلهن، ولو كان بعلهن أتم حسناً وأحسن وجهاً والذي رأت أنقص حسناً، ولكان ما لا تملكه أظرف عندها مما تملكه ولكان ما لم تملكه أو تستكثر منه أشد لها اشتغالاً واجتذاباً».

قال الشاعر:

وللعيْنِ ملْهًى بالنساءِ ولم يَقُدْ هوى النفس شيءٌ كاقتياد الطرائفِ

وكانت الأكاسرة إذا امتحنت الخاصة من أصحابها، وخف الواحد عنهم على قلب الملك، وكان الرجل عالماً بالحكمة موضعاً للأمانة في الدماء والفروج والأموال على ظاهرة، فيأمره أن يتحوّل إلى منزله، وأن تفرّغ إليه حجرة، وأن لا يُتَحَوَّلَ إليه امرأة ولا جارية ولا حرمة. ويقول له: أريد بك الأنس في ليلي ونهاري، ومتى كان معك بعض حرمك قطعك عني فاجعل منصرفك إلى منزلك في كلِّ خمس ليال، فإذا تحوّل الرجل أنس به وخلا معه وكان آخر من ينصرف من عنده فيتركه على هذه الحالة

أشهراً. إمتحن أبرويز رجلاً من خاصته بهذه المحنة، ثم دسّ إليه جارية من بعض جواريه ووجّه معها إليه بألطاف وهدايا، وأمرها أن لا تقعد عنده في أول مرة فأتته بألطاف الملك وقامت بين يديه، ولم تلبث أن انصرفت، حتى إذا كانت المرة الثانية أمرها أن تقعد هنيهة وأن تبدي عن محاسنها حتى يتأملها ففعلت، ولاحظها الرجل وتأملها، وجعل الرجل يحد النظر إليها ويسر بمحادثتها، ومن شأن النفس أن تطلب بعد ذلك الغرض من هذه المطايبة، فلما أبدى ما عنده قالت: أخاف أن يعثر علينا، ولكن دعني حتى أدبر في هذا ما يتم به الأمر بيننا، ثم انصرفت فأخبرت الملك بذلك وبكل شيء جرى بينهما. فلما كانت المرة الثالثة أمرها أن تطيل القعود عنده وأن تحدثه وإن أرادها على الزيادة في المحادثة أجابته إليه ففعلت، ووجّه إليه أخرى من خواص جواريه وثقاتهن بألطافه وهداياه فلما جاءت قال لها: ما فعلت فلانة؟ قالت: اعتلّت، فاربدّ لون الرجل ثم لم تطل القعود عنده كما فعلت الأولى، ثم عاودته فقعدت أكثر من المقدار الأول وأبدت بعض محاسنها حتى تأملها، وعاودته في المرة الثالثةوأطالت القعود والمضاحكة والمهازلة فدعاها إلى ما في تركيب النفس من الشهوة، فقالت: أنا من الملك على خُطًى[1] يسيرة ومعه في دار واحدة، ولكن الملك يمضي بعد ثلاث إلى بستانه الذي بموضع كذا فيقيم هناك فإن أرادك على الذهاب معه فأظهر أنك عليل وتمارض، فإن خيّرك بين الانصراف إلى نسائك أو المقام ههنا فاختر المقام وأخبره أنك لا تقدر على الحركة، فإن أجابك إلى ذلك جئت من أول الليل فأكون معك إلى آخره. فسكن الرقيع[2] إلى قولها. وانصرفت الجارية فأخبرت الملك بكل ما دار بينهما، فلما كان في

---

(١) خطا خَطْواً: فتح ما بين قدميه ومشى، الخُطوة: ج خطى وخطوات.

(٢) الرَّقيع: الأحمق.

الوقت الذي وعدته أن يخرج الملك فيه دعاه الملك، فقال للرسول: أخبره أني عليل، فلما جاء الرسول وأخبره تبسّم وقال: هذا أول الشر فوجّه إليه محفة يحمل فيها، فأتاه وهو مصعب، فلما بصر به قال: والمحفة الشر الثاني، فبيَّن العصابةَ فقال: والعصابة الشر الثالث، فلما دنا من الملك سجد فقال له: متى حدثت بك هذه العلة؟ قال: هذه الليلة قال: فأي الأمرين أحب إليك؟ الانصراف إلى نسائك لتمريضك أم المقام ههنا لوقت رجوعي؟ قال: المقام ههنا أيها الملك أوفق لقلة الحركة، فتبسم أبرويز وقال: حركتك ههنا إن تركت أكثر من حركتك في منزلك، ثم أمر له بعصا الزناة التي كان يرسم بها من زنى، فأيقن الرجل بالشر، وأمر أن يكتب ما كان من أمره حرفاً حرفاً فيقرأ على الناس إذا حضروا وأن ينفي إلى أقصى مملكته، وتجعل العصا في رأس رمح يكون معه حيث كان ليحذر من يعرفه منه. فلما خرج الرجل من المدائن متوجّهاً به نحو فارس أخذ مدية كانت مع بعض الموكلين به فجب بها ذكره، وقال: من أطاع عضواً صغيراً من أعضائه أفسد عليه جميع أعضائه، فمات من ساعته.

وفيما يذكر عن أنوشروان، أنه اتّهم رجلاً من خاصته في بعض حرمه، فلم يدر كيف يقتله لا هو وجد أمراً ظاهراً يحكم بمثله الحاكم فيسفك به دمه، ولا قدر على كشف ذنبه لما في ذلك من الهوان على الملك والملكة، ولا وجد عذراً لنفسه في قتله غيلة إذ لم يكن في شرائع دينهم ووراثة سلفهم، فدعا الرجل بعد جنايته بسنة في خلوة فقال: قد حزبني[1] أمر من أسرار ملك الروم وبي حاجة إلى علمها، وما أجدني أسكن إلى أحد سكوني إليك، إذ حللت من قلبي المحل الذي أنت به،

---

(١) حَزَبَ حَزْباً: الويل والغمّ أصابه واشتد عليه، يقال: نزلت به حوازب الخطوب، أي الشدائد.

وقد رأيت أن تحمل لي مالاً إلى هناك للتجارة وتدخل بلاد الروم فتقيم بها، فإذا بعت ما معك حملت مما في بلادهم من تجاراتهم وأقبلت إلي، وفي خلال ذلك تصغي إلى أخبارهم وتطلع إلى ما بنا الحاجة إلى معرفته من أمورهم وأسرارهم فقال: أفعل أيها الملك وأرجو أن أبلغ في ذلك محبة الملك ورضاه. فأمر له بمال، وتجهز الرجل وخرج بتجارته فأقام في بلاد الروم حتى باع واشترى وفهم من كلامهم ولغتهم ما عرف به مخاطباتهم وبعض أسرار ملكهم، وانصرف إلى أنوشروان بذلك فأراه الإيثار به وزاد في بره ورده إلى بلادهم وأمره بالمقام والتربّص بتجارته. ففعل حتى عرف واستفاض ذكره فلم تزل تلك حالة ست سنين، حتى إذا كانت السنة السابعة أمر الملك أن تصور صورة الرجل في جام[1] من جاماته التي يشرب فيها وتجعل صورته بإزاء صورة أنوشروان، ويجعل مخاطباً لأنوشروان ومشيراً عليه وإليه ويدني رأسه من رأس الملك في تلك الصورة كأنه يسارّه، ثم وهب ذلك الجام لبعض خدمه وقال: إن الملوك يرغبون في مثل هذا الجام، فإذا أردت بيعه فادفعه إلى فلان إذا خرج نحو بلاد الروم بتجارته وقل له: يبيعه من الملك نفسه فإنه ينفعك، فإن لم يمكنه بيعه من الملك باعه من وزيره أو بعض خاصته. فجاء غلام الملك بالجام وقد وضع الرجل رجله في الركاب، فسأله أن يبيع جامه من الملك وأن يتخذ عنده بذلك يداً. وكان الملك يعز ذلك الغلام، وكان من خاصة غلمانه وصاحب شرابه فأجابه إلى ذلك، وأمر بدفع الجام إلى صاحب خزانته وقال: احفظه فإذا صرت إلى باب الملك فليكن مما أعرضه عليه، فلما صار إلى باب الملك دفع صاحب الخزانة إليه الجام فعرضه على الملك فيما عرض عليه، فلما وقع الجام في يد الملك نظر إليه ونظر إلى صورة

---

(١) الجام ج جامات وأجوام: الكأس (فارسية).

أنوشروان فيه وإلى صورة الرجل وتركيبه عضواً عضواً وجارحة جارحة فقال للرجل :أخبرني هل يصور مع صورة الملك رجل خسيس؟ قال: لا، قال: فهل تصور في آنية الملك صورة لا أصل لها ولا علّة؟ قال: لا، قال: فهل في دار الملك اثنان يتشابهان في صورة واحدة حتى يكون هذا كأنه ذاك في الصورة وكلاهما نديما الملك؟ قال: لا أعرفه، قال له: قم قائماً فقام فوجد صورته في الجام فوجدهما بحكاية واحدة فضحك ولم يجسر الرجل أن يسأله عن سبب ضحكه إجلالاً له وإعظاماً. فقال ملك الروم: الشاة أعقل من الإنسان إذ كانت تخفي مديتها وتدفنها، وإنما أهديت إلينا مديتك بيدك، فقال للرجل: تغديت؟ قال: لا، قال: قرّبوا له طعاماً، قال: أيها الملك أنا عبدٌ والعبد لا يأكل بحضرة الملك، قال الملك: أنت عبدٌ ما دمت عند ملك الروم مطلعاً على أموره متتبعاً لأسراره، ملك إذا قدمت بلاد فارس ونديم ملكها. أطعموه فأطعم وسقي الخمر حتى إذا ثمل قال: من سير ملوكنا أن لا نقتل الجاسوس إلّا في أعلى موضع نقدر عليه ولا نقتله جائعاً ولا عطشاناً فأمر به فأصعد إلى سطح كان يشرف منه على كل من كان في المدينة إذا صعد فضربت عنقه هناك، وألقيت جثّته من ذلك السطح ونصب رأسه للناس، فلما بلغ ذلك كسرى أمر صاحب الجرس أن يضرب بأجراس الذهب ويمر على دور نساء الملك وجواريه ويقول: كل نفس ذائقة الموت، كل أحد إذا وجب عليه القتل ففي الأرض يقتل إلّا من تعرّض لحرمة الملك فإنه يقتل في السماء فلم يدر أحد من أهل المملكة ما أراد به حتى مات.

ومثله في أخبار العرب

ذكروا أنه كان لطسم وجديس ملك يقال له: عمليق. ظلوم غشوم، وكانت لا تزفّ جارية إلى زوجها إلا بدأوه بها فافترعها وردّها إلى بعلها. ثم

إن رجلاً من جديس تزوج غفيرة بنت غفّار عظيم جديس ورئيسها، فلما أرادوا أن يهدوها إليه بدأوا بها عمليق فأدخلوها عليه ومعها القيان يتغنين ويضربن بالدفوف ويقلن:

إبدي بعمليقَ ومعْهُ فاركبي   وبادري الصبحَ بأمرٍ معجِبِ
فسوف تلقيْنَ الذي لم تطلبي   ولم يكن من دونِهِ من مذهبِ

فجعلت تقول وهي تزف:

ما أحدٌ أذلُّ من جديسِ   أهكذا يفعل بالعروسِ؟
يرضى بهذا يا لقومي حرّ   من بعد ما أهدى وسيقَ المهرُ؟
لأَنْ يُلاقي المرءُ موتَ نفسِهِ   خيرٌ له من فِعْلِ ذا بِعِرْسِهِ

فلما دخلت عليه افترعها، ثم خلّى سبيلها فخرجت ووقفت على أخيها الأسود بن غفار وهو قاعد في نادي قومه وقد رفعت ثوبها عن عورتها وأنشأت تقول:

أيصلُحُ ما يُؤتى إلى فَتَياتِكُمْ   وأنتمْ رجالٌ كَثْرَةً عَدَدَ الرَّملِ؟
وَتَرْضَوْنَ هذا يا لقومي لأختِكُمُ   عشيَّةَ زُفَّتْ في النساءِ إلى البعْلِ؟
فإنْ أنتُم لم تغضبوا بعدَ هذهِ   فكونوا نساءً في المنازلِ والحَجْلِ[1]
ودونكمُ طيبَ النساءِ وإنما   خُلِقتمْ جميعاً للتزيُّنِ والكُحْلِ
فلو أننا كنا رجالاً وكنتمُ   نساءً لكنا لا نقيم على ذَحْلِ[2]
فَقُبْحاً لبعلٍ ليس فيه حَمِيَّةُ   ويختال يمشي بيننا مِشْيَةَ الفحْلِ

(١) الحَجْل والحِجْل: ج أحجال وحجول: القيد، والحَجَلَة ج حجال وحجل: ستر يضرب للعروس في جوف البيت.
(٢) الذَّحْل: الثأر.

فموتوا كراماً أو أصيبوا عدوّكمْ بداهيةٍ توري ضِراماً من الجزلِ[1]
وإلّا فخلُّوا داركُمْ أو ترحَّلوا إلى بلدٍ قَفْرٍ خَلاءٍ من الأهلِ
ولا تخرجوا للحربِ يا قومُ إنها تقومُ بأقوامٍ شدادٍ على رجلِ
فيهلِكُ فيها كلُّ وَغْدٍ مواكلٍ ويسلَمُ فيها ذو الطعّانِ وذو القتلِ

فلما سمعت جديس شعرها أنفت أنفاً شديداً وأخذتهم الحمية، فتآمروا بينهم وعزموا على اغتيال الملك وجنوده فقالوا: إن نحن بادأناهم بالحرب لم نقوَ عليهم لكثرة جندهم وأنصارهم فاتفقوا على ذلك، ثم إن الأسود أتى الملك فقال: إني أحب أن تجعل غداءك عندي أنت وجنودك، فقال عمليق: إن عدد القوم كثير وأحسب أن البيوت لا تسعهم فقال الأسود: فنخرج لهم الطعام إلى بطن الوادي. ثم قال لقومه: إذا اشتغل القوم بالأكل فسلّوا سيوفكم واعملوا على أن تحملوا حملة رجل واحد واقتلوهم عن آخرهم. وهيّأ الأسود ما احتاج إليه من الطعام، وجاء الملك فلمّا أكبّ القوم على الأكل بادرت جديس إلى سيوفهم، ثم حملت على الملك وعلى جنوده والأسود يرتجز ويقول:

يا صُبحةً يا صُبْحة العروسِ حتى تمشَّتْ بِدمٍ جميسي
يا طسمُ ما لقيتِ من جدِيسِ هلكتِ يا طَسْمُ فهيْسِ هيْسِ[2]

فقتلوه وجنوده جميعاً.

قيل ومثله الفطيون ملك تهامة والحجاز، فإنه سلك مسلك عمليق في ملك طسم جديس في أمر النساء، فأمر أن لا تزف من اليهود في مملكته امرأة إلا وبدأوه بها، فلبث على ذلك عدة أحوال حتى زوجت امرأة من

---

(١) الجَزْل: الكثير، والجِزال والجَزال: صرام النخل وجزُّه يقال: هذا زمن الجِزال.
(٢) الهيْس: أخذك الشيء بكثرة، وهيْسِ هيْسِ: كلمة تقال عند إمكان الأمر والإغراء به.

اليهود من ابن عم لها وكانت ذات جمال رائع، وكانت أخت مالك بن عجلان من الرضاعة، فلما أرادوا أن يهدوها إلى زوجها خرجت إلى نادي الأوس والخزرج رافعة ثوبها إلى سرتها، فقام إليها مالك بن العجلان فقال: ويحك وما دهاك؟ فقالت: وما يكون من الداهية أعظم من أن ينطلق بي إلى غير بعلي بعد ساعة؟ فأنف من ذلك أنفاً شديداً فدعا ببزة امرأة فلبسها، فلما انطلقوا بالمرأة إلى الفطيون صار كواحدة من نسائها اللواتي ينطلقن بها متشبهاً بامرأة وقد أعد سكيناً في خفّه، فلما دخلت المرأة على الفطيون مال مالك إلى خزانة في ذلك البيت فدخلها، فلما خرجت النساء ودخلت المرأة قام إليها ليفترعها، فخرج إليه مالك بالسكين فوجأه فقتله ثم قال لليهود: دونكم جنوده فاقتلوهم فاجتمعت عليهم فقتلوهم عن آخرهم.

ومنه أخبار وأمثال: ذكروا أن أول من قال: «العجب كل العجب بين جمادى ورجب» عاصم بن المقشعِرّ الضبي، وذلك أن الخنيفس بن خشرم كان أغير أهل زمانه وأشجعهم، وكان لعاصم أخ يقال له عبيدة عزيز في قومه فهوي امرأة كانت تأتي الخنيفس، فبلغ الخنيفس ذلك فتواعد عبيدة، وركب الخنيفس فرسه وأخذ رمحه وانطلق يتربّص عبيدة حتى وقف على ممره فأقبل عبيدة وقد قضى من المرأة وطراً وهو يقول:

ألا إنَّ الخُنَيْفِسَ فاعْلَمُوهُ ... كما سمَّاه والدُهُ لعينُ
بهيمُ اللونِ محتقرٌ ضئيلٌ ... لئماتٌ خلائقُهُ ضَنينُ[1]
أيوعِدُني الخنيفسُ من بعيدٍ ... ولمَّا يلْقَ مأْبَضَهُ الوتينُ[2]

(١) بهيم اللون: أسود اللون. ضنين: بخيل.
(٢) الأبْضُ: الشدُّ بالإباض: وهو عقال يُنْشب في رسغ البعير وهو قائم فيرفع يده فتُثْنى بالعقال إلى عضده وتُشَدُّ. والمأبَضْ: كل ما يثبت عليه فخذك، باطناً المرفقين في يدي البعير. الوتين: عرق في القلب يجري منه الدم إلى العروق كلها.

لهوْتُ بجارتيهِ وحاد عني ... ويزْعُمُ أنهُ أَنِفٌ شَفُون (١)

فعارضه الخنيفس وهو يقول:

أيا آبْنَ المُقْشعرِّ لَقيتَ ليْثاً ... له في جوفِ أيْكَتِهِ عرينُ (٢)

تقولُ له صددْتَ حذارِ حينٍ ... وإنك نَشْوُ أبطالٍ مبين (٣)

وإنك قد لهوت بجارتينا ... فهاك عبيد لاقاك القرين

ستعلم أيُّنا أحمى ذِماراً (٤) ... إذا قَصُرتْ شِمَالُك واليمين

لهوتَ بها لقد أُبْدِلتَ قبراً ... وباكيةً عليك لها رنين

فقال عبيدة: أذكرك الله وحرمة خشرم، فقال: والله لأقتلنك فقتله، فلما بلغ أخاه عاصماً خرج إليه ولبس أطماراً وركب فرسه، وكان في آخر يوم من جمادى فأقبل يبادر دخول رجب لأنهم كانوا لا يقتلون في رجب أحداً، فانطلق حتى وقف بباب خنيفس ليلاً، وقال: أجب المرهوق قال: وما ذاك؟ قال: «العجب كل العجب بين جمادى ورجب» وإني رجل من ضبَّةَ غصب أخ لي امرأة فخرج يستنقذها فقتل، وقد عجزت عن قاتله، فخرج الخنيفس مغضباً وأخذ رمحه وركب وانطلق معه، فلما نحا به عن قومه دنا منه فقنعه بالسيف فأبان رأسه.

ويقال: إن أول من قال: «سبق السيف العذل» ضمضم بن عمرو اللخمي، كان يهوى امرأة فطلبها بكل حيلة، فأبت عليه وطلبها عزيز بن

(١) الأنف: الأنفة، عزة النفس. والأنف: المترفع المتنزه عن العار. شَفون ج شُفُن: الغيور الذي لا يفتر طَرْفَه عن النظر من شدة الحذر.

(٢) الأيْك: الشجر الكبير الملتف واحدته (أيكة) والعرين: مأوى الأسد.

(٣) الحيْن: الهلاك، المحنة. نَشْوٌ: من نشا ينشو في بني فلان، رُبّيَ.

(٤) الذِمار: كل ما لزمك حمايته والدفاع عنه وإنْ ضيَّعتَه لزمك اللوْم.

عبيد بن ضمضمة فآتته وتأبت على ضمضم ، وكان ضمضم من أشد قومه بأساً فاغتاظ لذلك . وانطلق ليلة وهو متقلّد سيفه حتى صار بمكان يراهما إذا اجتمعا ولا يريانه ، فلمّا نام الناس وطال هدوء ضمضم إذا العزيز قد أقبل على فرسه وهو يقول :

أُمامُ تُوليني[1] وتأبى بنفسها على ضمضمٍ تَعْساً وَرَغْماً لضمضمِ

وضمضم يسمع فنزل وربط فرسه ونزل إلى ناحية خبائها فصدح صدوح الهام وكان آية ما بينهما فخرجت إليه فعانقها وضمضم ينظر ثم واقعها فلما رآها مشى إليهما بالسيف وهو يقول :

ستعلم أني لستُ أعشق مبغضاً فكان بنا عنها وعنك عَزاءُ

وقتله . فعلم القوم بضمضم فأخذوه ، فلما أصبح أبرز إلى النادي ليقتل ، فجعلوا يلومونه على قتله ابن عمه فقال : «سبق السيف العذل» .

ويقال: إن أول من قال: «خير قليل وفضحت نفسي» فائرة امرأة مرة الأسدي وكانت من أجمل النساء في زمانها وكان زوجها غاب عنها أعواماً، فهويت عبداً له حبشياً يرعى إبلها، فأمرته أن يحضر مضجعها وكان زوجها منصرفاً قد نزل تلك الليلة منها على مسيرة يوم فبينا هو يطعم ومعه أصحابه، إذ نعق غراب فأخبره أن امرأته لم تعهر قط ولا تعهر إلا تلك الليلة ، فركب فرسه ومرّ مسرعاً وهو يرجو إن هو منعها تلك الليلة أمنها فيما بقي ، فانتهى إليها حين قام العبد عنها، وندمت وهي تقول: «خير قليل

---

(١) توليني : من وَلِي يلي فلاناً : دنا منه وقرب (وهو قليل الاستعمال) . وأُمام (أمامة) اسم امرأة قال الشاعر :

أيوعدني والرَّملُ بيني وبينه؟ تبيَّنْ رويْداً، ما أمامةُ من هندِ؟

وأولاه المعروف : صنعه إليه .

وفضحت نفسي» فسمعها زوجها وهو يرعد[1] لما به من الغيظ، فقالت لـه: ما يرعدك؟ فقـال يعلمها أنه قد علم خير قليل وفضحت نفسي، فشهقت شهقة خرّت ميتة فقتل زوجها العبد وجعل يقول:

لعمـركِ مـا تعتـادُني منـكِ لـوعـةٌ ولا أنـا من وجـدٍ بـذكـراكِ أسهـدُ

قيـل وكانت هنـد بنت عتبة تحت الفـاكه بن المغيـرة المخزومي، وكان الفاكه من فتيان قريش، وكان له بيت ضيافة يغشاه الناس من غير إذن. فخلا ذلك البيت يـوماً، فضجـع الفاكـه وهند فيـه، فخرج الفـاكه لبعض حوائجه وأقبل رجل ممن كان يغشى ذلك البيت فولجه، فلمـا رأى المرأة ولّى هارباً فرآه الفاكه وهو خارج من البيت فأقبل إلى هند فضـربها بـرجله وقـال: من هذا الـرجل الـذي خرج من عنـدك؟ قـالت: مـا رأيت أحـداً ولا انتبهت حتى نبهتني، فقال لها: إلحقي بأهلك، فتكلّم الناس فيها فقال لها أبوها: يا بنية إن الناس قد أكثروا فيك فأصدقيني، فإن كان الرجل في قوله صادقاً سببت له من يقتله فتنقطع عنك القالة، وإن كان كاذباً حاكمته إلى بعض كهّان اليمن. فحلفت له بما يحلفون به في الجاهلية أنه لكاذب، فقال عتبة للفاكه: يا هذا إنك رميت ابنتي بأمر عظيم فحاكمني إلى بعض كهّان اليمن. فخرج عتبة في جماعـة من بني عبد منـاف، وخرج فـاكه في جماعة من بني مخزوم وأخرجوا معهم هنداً ونسوة معها، فلما شارفوا البلاد قالوا: غداً نردُّ على الكاهن فتغير لون هند فقال لها أبوها: إني أرى ما بك فهلّا كان هذا قبل خروجنا؟ قالت: لا والله يا أبتـاه ما ذلـك لمكروه ولكن سنأتي بشراً يخطىء ويصيب فلا نأمن من أن يسومني مما يكون فيه سُبَّة[2]

---

(١) يرعد: يرتجف، يهتز من الغيظ أو الخوف.

(٢) السُّبَّةُ: من يكثر الناس سبَّهُ، العار.

على باقي عمري. قال: إني سوف أختبره قبل أن ينظر في أمرك فأخذ حبة من حنطة فأدخلها في إحليل[1] فرسه وأوكى عليها بسير[2] فلما دخلوا على الكاهن قال له عتبة: ما كان مني في طريقي؟ قال: ثمرة في كمرة، قال: أحتاج إلى أبين من هذا، قال: حبة بر في إحليل مهر، قال: صدقت فما بال حال هؤلاء النسوة؟ فجعل يدنو من إحداهن فيضرب بمنكبها، حتى أتى إلى هند فضرب بمنكبها وقال: انهضي غير رسحاء[3] ولا فاحشة ولتلدين ملكاً يقال له: معاوية. فوثب إليها الفاكه فأخذ بيدها، فنزعت يدها من يده وقالت: إليك عني والله لأجهدن أن يكون ذلك من غيرك، فتزوجها أبو سفيان بن حرب فجاءت بمعاوية.

قيل: وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعسّ[4] بنفسه فسمع امرأة تقول:

ألا سبيلَ إلى خمرٍ فأشربها ... أم هل سبيلي إلى نصرِ بْنِ حجَّاج؟
إلى فتىً ماجدِ الأخلاقِ ذي كرمٍ ... سهْلِ المحيّا كريمٍ غيرِ مَلْجاج

فقال عمر: أما ما دام عمر إماماً فلا، فلما أصبح قال: عليّ بنصر بن الحجاج فأُتي به فإذا هو رجل جميل فقال: أخرج من المدينة، قال: وَلِمَ وما ذنبي؟ قال: أخرج فوالله ما تساكنني فخرج حتى أتى البصرة وكتب إلى عمر رضي الله عنه:

---

(١) الإحليل: مخرج البول من الإنسان.
(٢) أوكى عليها بسيْر: أي شدَّ عليها بالسَّيْر، وهو قدّه من جلد مستطيلة. والوكاء: رباط القربة ونحوها، كل ما شدَّ رأسه من وعاء ونحوه.
(٣) الرَّسْحاء: المرأة القبيحة.
(٤) عسَّ عسًّا وعسساً: طاف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة. أول من اتخذ العسس بالليل هو الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

لَعَمْـري لئنْ سيّـرتني وحَـرَمْتني ولـم آتِ إثـمـاً إنَّ ذا لـحـرامُ
ومـالـيَ ذنبٌ غيـرَ ظن ظـننتَـهُ وبعضُ تصاديقِ الـظنـون إثـامُ
وإن غنّتِ الـذلفـاءُ يـوماً بمُنْيـةٍ فبعضُ أمـانيِّ النسـاءِ غَـرامُ
فـظنَّ بيَ الـظَنَّ الـذي لـو أتيتُـهُ لما كان لي في الصالحين مُقامُ
ويمنعني ممـا تمنّتْ حفيـظتي[1] وآبـاءُ صِدْقٍ سـالفـونَ كـرامُ
ويمنعهـا ممـا تمنَّتْ صَـلاتُـهـا وبيتٌ لهـا في قـومهـا وصِيامُ
فهذان حالانا، فهل أنتَ مُرجعي؟ فقـد جُبّ[2] مني غارِبٌ وسِنامُ[3]

قال: فردّه عمر بعد ذلك لما وصف من عفّته.

ويروى أيضاً أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يعسّ بالمدينة ذات ليلة إذ سمع امرأة تهتف وتقول:

تـطاولَ هـذا الليـلُ واسـودّ جـانبُـهْ وأرّقـني إذْ لا خـليـلَ أُلاعـبُـهْ
فـوالـلّهِ لـولا الـلّهُ لا ربّ غـيـرُهُ لَزُعزِعَ من هـذا السرير جوانبُهْ
ولـكنَّ ربـي والـحيـاءُ يـكـفُّـني وأكـرِم بعلي أن تـوطّا مـراكبُـه[4]

قال: فرجع عمر إلى منزله فسأل عن المرأة فإذا زوجها غائب، فسأل ابنته حفصة: كم تصبر المرأة عن الرجل؟ فسكتت واستحيت وأطرقت، فقال: أربعة أشهر، خمسة أشهر، ستة أشهر؟ فرفعت طرفها، فعلم أنها

(١) الحفيظة ج حفائظ: اسم من المحافظة والحفاظ للذبّ عن المحارم والمنع لها. الحفيظة: الغضب.
(٢) جَبَّ الشيء: قطعه.
(٣) الغارب ج غوارب: الكاهل أو بين الظهر، أو السنام والعنق. أعلى كل شيء، ومنه غوارب الماء أي أعالي موجه.
(٤) تُوطًأ: من وطىء يطأ وطأ الشيء برجله: داسه، والشيء هيَّأه وسهله، والمراكب جعله يطأها.

لا تصبر أكثر من ستة أشهر فكتب إلى صاحب الجيش أن يقفل من الغزو الرجال إذا أتت ستة أشهر إلى أهاليهم.

وغزا رجل من الأنصار وله جار يهودي فأتى امرأته واستلقى ذات ليلة على ظهره وأنشأ يقول:

وأشعثَ[1] غرَّه الإسلامُ مني — خلوْتُ بعِرسه ليلَ التمامِ
أبيتُ على ترائِبِها وَيَضْحَى — على جرداءَ لاحقةِ الحزام[2]

فسمع ذلك جار له فضربه بالسيف حتى قطعه، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: أنشد الله[3] رجلاً كان عنده من هذا علم إلا قام. فقام الرجل فحدّثه فقال: أحسنت أحسنت، وتمام الأبيات:

كأنَّ مجامعَ الرَّبلاَتِ منها — فئامٌ قد جُمِعْنَ إلى فِئامِ[4]

ومنه أخبار الشعراء

قيل: لما خرج امرؤ القيس بن حجر[5] إلى قيصر ملك الروم ليسأله

---

(١) الأشعث: ذو الشعر المُغبَّر الملبَّد. عرس الرجل: زوجته.

(٢) الترائب: موضع القلادة من الصدر، عظام الصدر، ما بين التّرقُوة إلى الثَّنْدُوة. الجرداء: الفرس رق شعره وقصر (وهذا مدح) لاحقة الحزام: أي مشدودة الحزام، ج حُزُم، والحزامة ج حزائم: ما يُشَدُّ به وسط الدابة.

(٣) أنشد الله رجلاً: أقسم عليه بالله، أسأله بالله.

(٤) الرَّبَلَة والرَّبْلة ج ربلات: أصول الأفخاذ، فئام ج فُؤم: الجماعة من الناس، ولا واحد له من لفظه، يقال: قطَّعوه فُؤَماً أي قِطعاً قِطعاً.

(٥) امرؤ القيس: ولد في نجد وتوفي في أنقرة «تركيا» صاحب المعلقة ومطلعها: «قفا نبك». هو من شعراء الجاهلية بل أولهم منزلة، كان ابن حجر الكندي ملك بني أسد قتل أبوه، فهمَّ في المطالبة بالثأر واستعادة الملك فهرب من المنذر بن ماء السماء فسمي «الملك الضليل» ولجأ إلى السموأل في تيماء واستنجد بقيصر الروم فأكرمه ومنحه إمارة فلسطين لكنه =

النصرة على بني أسد لقتلهم أباه حجر بن الحارث، راسل بنت قيصر وأراد أن يختدعها عن نفسها، وبلغ ذلك قيصر وأراد أن يقتله فتذمم من ذلك وأمر بقميص فغمس في السم وقال لامرىء القيس: اِلبس هذا القميص فإني أحببت أن أوثرك به على نفسي لحسنه وبهائه فعمل السم في جسمه وكثرت فيه القروح فمات منها فسمي ذا القروح. وقد كان قيل لقيصر قبل ذلك أنه هجاه فعندها يقول:

ظلمتُ له نفسي بأن جئتُ راغباً إليه وقد سيّرتُ فيه القوافيا
فإن أكُ مظلوماً فقِدْماً ظلمتُهُ وبالصّاع يُجزى مثلَ ما قد جَزانيا

قيل: وكان النابغة يشبب بالمتجردة امرأة النعمان بن المنذر، وكانت أكمل أهل عصرها جمالاً، فبلغ ذلك النعمان فهمّ بقتل النابغة، فهرب منه وسار حتى أتى الشام والملك بها جَبَلَةُ بنُ الأيْهم الغساني[1]، فنزل عليه وأقام عنده وكتب إلى النعمان:

حلفتُ ولم أترُكْ لِنفسك رِيبَةً وليس وَرَاء اللّهِ للمرء مذهبُ
لئن كنتَ قد بُلِّغْتَ عني خِيانةً لَمبْلِغُكَ الواشي أغشّ وأكذب

قيل: وكانت امرأة شدّاد أبي عنترة ذكرت له أن عنترة أرادها عن نفسها فأخذه أبوه فضربه ضرب التلف، فقامت المرأة فألقت نفسها عليه لما رأت ما به من الجراحات وبكته وكان اسمها سميّة فقال عنترة:

أمِنْ سُمَيَّةَ دمعُ العينِ مَذْرُوفُ؟ لو كان ذا منكِ قبل اليومِ معروفُ

= أصيب بمرض الجدري فسماه الرواة «بذي القروح» طبع ديوانه لأول مرة في باريس طبعه البارون دي سلان سنة ١٨٧٧م.

(١) جَبَلَة بن الأيهم: آخر ملوك غسان، شارك الروم في وقعة اليرموك ثم أسلم في أيام الخليفة عمر رضي الله عنه.

كـأنهـا يـومَ صـدَّتْ مـا تكلِّمُنـا ظَبْيٌ بعسفانَ ساجي العين مطروفُ[١]
قـامت تُجلّلني لمـا هـوى قِبَلي كـأنهـا صنمٌ يُعتـاد معكـوفُ[٢]
المـالُ مـالكمُ والعبـدُ عبـدكُـمُ فهل عذابُكِ عني اليومَ مصـروف؟

قيل: ولما أنشـد عبد الحسحـاس عمر بن الخـطاب رضي الله عنه قصيدته التي يقول فيها:

تُـوَسِّـدُني كفًّـا وتمضي بِمعْصَمٍ عليَّ وتنحو[٣] رِجْلَها مِنْ ورائيـا
فمـا زال بُـردي طيّبـاً من ثيـابهـا إلى الحوْلِ حتى أَنهجَ البُردُ باليا[٤]
وهبَّتْ لنـا ريـحُ الشَّمـالِ بقـوّةٍ ولا بُـرْدُ إلا درعَـهـا وردائـيـا
أميـلُ بهـا ميـلَ الـرديفِ وأتّقي بها الريحَ والشفَّانَ مِنْ عنْ شِماليا[٥]
رأت قتَبـاً رثًّـا وأخـلاقَ شَمْلةٍ[٦] وأسـودَ مما يَلبِسُ النـاسُ عاريـا
تجمَّعنَ شتَّى مـن ثـلاثٍ وأربـعٍ وواحـدةٍ حتى كَمُلْنَ ثـمـانيـا
سُليمى وسلمى والـرَّبـاب وتـرْبُهـا وأروى وريًّـا والمنَى وقـطاميـا
وأقبلن من أقصى البـلاد يَعُـدْنني إلا إنمـا بعض العـوائـدِ دائيـا

---

(١) عسفان: اسم مكان. ساجي العين: عينه ساكنة فاترة. طرف طرْفاً عينه: أصابها بشيء فدمعت، فهي مطروفة والاسم: الطَّرْفة.
(٢) جَلَّلَ الشيء: غطَّاه. يعتاد: يُزار، وعاده: زاره، يقال: عودته فاعتـاد وتعوَّد (من العادة).
(٣) تنحو: تقصد.
(٤) البُـرد: الثوب المخطَّط.
(٥) الرديف: الراكب وراء الراكب. الشَّفَّان: القرّ والمطر قال الشاعر:
ولـيـلةٍ شفَّـانـهـا عـريٌّ تـحْـجـر الـكـلبَ لـه صئـيُّ
(٦) القَتب: الرّحل. أخلاق: البالي يقال: ثوب أخلاق وثياب أخلاق: أي بالي، الشَّملة: كساء واسع يُشتمل به.

قال عمر رضي الله عنه: أنت مقتول، فلما قال:

ولقد تحدَّر من كريمةِ معشرٍ عَرَقٌ على مَتْنِ الفِراشِ وطيبُ

وجدوه شارباً ثملاً فعرضوا عليه نسوة حتى مرّت به التي يطلبونها، فأهوى إليها فقتلوه.

مساوىء شدة الغيرة والعقوبة عليها

حكي عن سليمان بن عبد الملك أنه كان في بعض أسفاره فسمر معه قوم فلما تفرقوا عنه دعا بوضوء فجاءت به جارية، فبينا هي تصب الماء على يده إذ استمدّها وأشار إليها مرتين أو ثلاثاً فلم تصب عليه، فأنكر ذلك ورفع رأسه فإذا هي مصغية بسمعها مائلة بجسدها إلى صوت غناء من ناحية العسكر. فأمرها فتنحت، فسمع الصوت فإذا رجل يغني فأنصت له حتى فهم ما غنّى، فدعا بجاريةٍ غيرها فتوضأ، فلما أصبح أذن للناس فأجرى ذكر الغناء فلم يزل يخوض فيه حتى ظن القوم أنه يشتهيه، فأفاضوا فيه وذكروا ما جاء في الغناء والتسهيل لمن سمعه وذكروا من كان يسمعه من سروات الناس فقال: هل بقي أحد يسمع منه؟ فقال رجل من القوم: عندي رجلان من أهل الأبلة محكمان، قال: فأين منزلك من العسكر؟ فأومأ إلى ناحية الغناء، فقال سليمان: إبعث إليهما، ففعل فوجد الرسول أحدهما وأقبل به، وكان اسمه سمير: فسأله عن الغناء وكيف هو فيه؟ قال: محكم، قال: متى عهدك به؟ قال: البارحة، قال: وفي أي النواحي كنت؟ فذكر الناحية التي سمع منها الصوت، قال: وما اسم صاحبك؟ قال: سنان، قال: فأقبل سليمان على القوم فقال: هدر الفحل فضبعت الناقة، ونبَّ التيس فشكرت الشاة، وهدل الحمام فزافت[1] الحمامة، وغنى

---

(١) هدر الفحل: ردَّد صوته في حنجرته. ضبعت الناقة: أسرعت في سيرها ومدَّتْ ضَبْعَيْها: =

الرجل فطربت المرأة. ثم أمر به فخصي، وسأل عن الغناء أين أصله؟ قالوا: بالمدينة وهم المخنثون، فكتب إلى عامله أن أخصِ من قبلك من المخنثين. وحدّث الأصمعي أن الشعر الذي سمعه سليمان يتغنى به هو:

محجوبةٍ[1] سمعتْ صوتي فأرَّقها ... من آخرِ الليلِ لمّا بلّها السحرُ
تُدْني على الخدِّ منها من مُعَصْفَرةٍ ... والحلْيُ باد على لَبَّاتها خَصِرُ[2]
في ليلةِ البدرِ ما يدري مُضاجِعُها ... أوجهُها عنده أبهى أم القمرُ
لم يمنعِ الصوتَ أبوابٌ ولا حرسٌ ... فدمعُها لطُروقِ اللحنِ ينحدرُ
لو تستطيعُ مشتْ نحوي على قدمٍ ... تكاد من رقّةٍ في المشي تَنْفَطِرُ

ثم دخل سليمان مضرب الخدم فوجد جارية على هذه الصفة قاعدة تبكي فوجّه إلى سنان فأحضره ووجهت الجارية رسولاً إلى سنان تحذره، وجعلت للرسول عشرة آلاف درهم إن سبق رسول سليمان فلما حضر أنشأ يقول:

اِسْتَبْقِني إلى الصباح أعتذرْ ... إنَّ لساني بالشَّرابِ منكسرْ
فأرسلِ المعروفَ في قومٍ نُكُرْ[3]

فأمر به فخصي وكان بعد ذاك يسمى الخصي.

= وهما وسط العضد والمعنى: أسرعت إليه. نبَّ التَّيس: صاح عند الهياج. شَكِرَتِ الشاة: امتلأ ضرعها فهي شَكِرَةٌ ج شَكِرات. زافت الحمامة: نشرت جناحيها وذنبها وسحبتها على الأرض.

(١) محجوبة بالرفع والتنوين: اسم امرأة، وبالكسرة مع التنوين: ورب محجوبة.

(٢) المعصفر: الثوب المصبوغ بالعصفر. الحَلْيُ: ج حُلًى وحِليّ: ما يزيَّن به من مصوغ المعدنيات أو الحجارة الكريمة. اللُّبة: المرة، موضع القلادة من الصدر لبب ج ألباب: موضع القلادة من الصدر. الخَصَر: البرْد. الخَصِرُ: البارد.

(٣) النُّكُر والنَّكِر: الفطن الداهية.

وعن علي بن يقطين قال: كنت عند موسى الهادي ذات ليلة مع جماعة من أصحابه، إذ أتاه خادم فسارَّه بشيء فنهض سريعاً فقال: لا تبرحوا، فمضى فأبطأ، ثم جاء وهو يتنفس ساعة حتى استراح ومعه خادم يحمل طبقاً مغطى بمنديل فقام بين يده، فأقبل يرعد وعجبنا من ذلك، ثم جلس وقال للخادم: ضع ما معك فوضع الطبق وقال: ارفع المنديل فرفعه فإذا على الطبق رأسا جاريتين لم أر والله أحسن من وجهيهما ولا من شعورهما فإذا على رأسيهما الجوهر منظوم على الشعر وإذا رائحة طيبة تفوح، فأعظمنا ذلك فقال: أتدرون ما شأنهما؟ قلنا: لا، قال: بلغني أنهما تحابا فوكلت هذا الخادم بهما لينهي إلي أخبارهما، فجاءني وأخبرني أنهما قد اجتمعتا فجئت فوجدتهما كذلك في لحاف فقتلتهما. ثم قال لي: يا غلام اِرفع، ورجع في حديثه كأنه لم يصنع شيئاً.

وحدثنا إبراهيم بن إسماعيل عن ابن القداح قال: كانت للربيع جارية يقال لها: أمة العزيز فأهداها للمهدي، فلما رأى حسنها وجمالها وهيأتها قال: هذه لموسى أصلح فوهبها له، فكانت أحب الخلق إليه وولدت له بنيه الأكابر، ثم إن بعض أعداء الربيع قال لموسى: إنه سمع الربيع يقول: ما وضعت بيني وبين الأرض مثل أمة العزيز، فغار موسى فدعا الربيع فتغدى معه وناوله كأساً فيها شراب، فقال الربيع: فعلمت أن نفسي فيها وإني إن رددتها من يدي ضرب عنقي فشربتها وانصرفت، فجمع ولده وقال: إني ميّت فقال الفضل ابنه: ولِمَ تقول ذلك جعلت فداك؟ قال: إن موسى سقاني شربة فأنا أجد عملها في بدني، ثم أوصى بماله ومات في يومه.

قيل: وطرب الرشيد إلى الغناء فخرج متنكراً ومعه خادمه مسرور حتى انتهى إلى باب إسحاق بن إبراهيم الموصلي فقال: يا مسرور اِقرع

الباب، فخرج إسحاق فلما رأى الرشيد انكب على رجله فقبلها، ثم قال: إن رأى أمير المؤمنين أن يدخل منزل عبده، فنزل الرشيد فدخل فرأى أثر الدعوة فقال: يا إسحاق إني أرى موضع الشرب من كان عندك؟ قال: ما كان عندي يا أمير المؤمنين سوى جاريتيَّ كنت أطارحهما، قال: فهما حاضرتان؟ قال: نعم، قال: فأحضرهما فدعا الجاريتين، فخرجتا مع إحداهما عود حتى جلستا فأمر الرشيد صاحبة العود أن تغني فغنّت:

بُنِيَ الحُبُّ على الجوْرِ فلو   أنصفَ المعشوقُ فيه لسمُجْ
ليسَ يُستحسنُ في وصف الهوى   عاشقٌ يُكثِرُ تأليفَ الحُجَج
فقليلُ الحبِّ صِرْفاً خالصاً   هو خيرٌ من كثيرٍ قد مُزِج

فقال الرشيد: يا إسحاق لمن الشعر والغناء فيه؟ قال: لا علم لي به يا أمير المؤمنين فنكس رأسه ساعة ينكت في الأرض، ثم رفع رأسه وأخذ العود من حجر هذه فوضعه في حجر الأخرى ثم قال لها غني فغنّت:

إنْ يُمسِ حَبْلُكَ بعد طولِ تواصُلٍ   خَلَقاً وأصبحَ بيتُكُمْ مهجورا
فلقد أَراني والجديدُ إلى بلًى   زمناً بوصلكَ راضياً مسرورا
كنتَ الهوى وأعزَّ من وطِىءَ الحَصى   عندي وكنتُ بذاكَ منكَ جديرا

فقال: يا إسحاق لمن الشعر والغناء فيه؟ قال: لا علم لي يا سيدي، فرد المسألة على الجارية فقالت: لستّي. قال: ومن ستّك، قالت: عليّة أخت أمير المؤمنين، فنكس رأسه ساعة ثم وثب وقال لمسرور خادمه: اِمض بنا إلى منزل عليّة. فلما وقف بالباب قال: استأذن يا مسرور، فخرجت جارية فلما رأت الخليفة رجعت تبادر تعلم ستّها، فخرجت تستقبله وتفديه فقال: يا عليّة هل عندك ما نأكل؟ قالت: نعم يا سيدي قال: وما نشرب؟ قالت: نعم، فدخل وجلس، فقدمت إليه الطعام فأكل حاراً وبارداً ورطباً ويابساً، ثم رفع الطعام، ووضع الشراب والطيب وأنواع

الرياحين، ودعت جواريها وكـان عندهـا ثلاثـون جارية يغنين، فألبستهن أنواع الثياب وصفّتهن في الإيوان، وتناول الرشيد الشراب فأمـر الجواري يغنين ثم سقى أختـه حتى أخذ الشـراب منها واحمـرت وجنتاهـا وفتـرت أجفانها وكانت من أجلِّ النساء فضرب الرشيد إلى حجـر بعض الجواري في أخذ العود وقال: يا عليّة بحياتي غنّي:

بُنيَ الحبُّ على الجوْرِ فلو

فعلمت أنها داهية فبكت، فصاح الرشيد فخرج الجواري وبقي هو وهي فدفعها وأخذ وسادة فجعلها على وجهها، وجلس عليهـا فاضـطربت اضطراباً شديداً ثم بردت فنحى الوسـادة عنها وقـد قضت نحبها، فخـرج وقال للخادم: إذا كان غداً فادخل وعزني وركب متوجهاً إلى قصره، فلما كان الغد عزاه مسرور فبكى فقال:

قـبْـرٌ عـزيـزٌ عـلـيـنـا ... لـو أنَّ مـنْ فيـه يُـفْـدى

أسـكـنـتُ قـرَّة عـيـنـي ... ومـهـجـةَ الـنفسِ لـحـدا

مـا إنْ أرى لـي عـلـيـهـا ... مـن الـتـوجُّـعِ بُـدّا

ومنه ما حكي عن البهائم، قال شيخ من بني قشير: كنّا في نتاج[1] فامتنع فرس من حجـر[2] فشددنا عينه فنزا عليها، فلما فرغ فتحنـا العصابة فرأى الحِجْرَ وكانت أمه فعمد إلى ذكره بأسنانه فقطعه.

ومنه في خفة الغيـرة قال سليمـان بن داود الهاشمي لابنـه: لا تكثر الغيـرة على أهلك فترمى بـالشر من أجلك وإن كـانت بـريئـة، ولا تكثـر

---

(١) النتاج: اسم لما تضعه البهائم، يقال: بالناقة نتاج أي حمل.

(٢) الحِجْر: الفرس الأنثى لم يدخلوا فيه الهاء لأنه اسم لا يشركها فيه المذكـر ج أحجار وحجورة، وحجور، ومعنى أحجار الخيل: ما يتخذ منها للنسل (لا يفرد لها واحد).

الضحك فيستخفك فؤاد الرجل الحليم، وعليك بخشية الله فإنها غلبت كل شيء.

وقال عبيد الله بن جعفر لابنته: إيـاك والغيرة فـإنها مفتـاح الطلاق، وإياك وكثرة العتب فإنه يورث البغضاء، وعليك بالكحل فإنه أزين الزينة، وأطيب الطيب الماء.

قيل: وكان كسرى أبرويز يتعشق امرأة رجل كان من مرازبته يقال له: البارجان وكانت تأتيه سراً فبلغ زوجها ذلك فأمسك عن امـرأته واجتنبهـا، ودخل إلى كسرى ذات يوم، فقال له كسرى: بلغني أن لك عين ماء عذبة، وإنك قد اجتنبتها فلا تقربها، ففطن فقال له: أيها الملك بلغني أن الأسد ينتاب تلك العين فاجتنبتها خوفاً منه، فـأعجب كسرى بمقـالته، وأمـر أن يتخـذ له تـاج لا قيمة لـه، ثم دخل كسـرى دار نسائـه، فقاسمهن نصف حليهن فـاجتمع من الجـوهر مـا لا يحصى فبعث به إلى امـرأة البـارجـان بالقادسية، ووقع ذلك الجوهر إلى السَّـائـب بن الأقرع وكان على المقسم فباعه وَجُعِـلَ للمسلمين بكتاب عمـر بن الخطاب رضي الله عنـه، وقال: كنت أغار على امرأتي، فأشرفت علي يوماً وأنا مع جارية لي، فلقيت منها أذى حتى حلفت أن أبيع الجارية، فخرجت أريد شراء حـوائج لي ومعي الجارية، فأتيت دكان خلَّالٍ لشرْيِ الخلّ فوجدته خالياً، فقلت له: يا هذا تأذن لي في ملامسة جاريتي هذه في دكانك فإني أريـد بيعها؟ قـال: نعم جعلت فـداك أدخل حيث شئت، فـدخلت فـأصبت من الجـاريـة، فلمـا خـرجت إذا الخلّال قـد كمن ناحيـة وهو في قميص قـد أنعظ[1] فقـال: فرغت؟ قلت: نعم، قال: بسم الله أتأذن لي جعلت فداك؟ قلت: ويلك مـا تريـد؟ قال: أقضي وطـري منها قلت: يـا ابن الفاعلة حـرمتي، قال:

---

(١) نعظَ الذكر: قام وانتشر.

لا يضرك شيئاً فإني أسرع ثم وثب كأنه السبع فضاربته حتى تخلصت الجارية بعد كل جهد.

قال: ودخل رجل من بني زهرة من أهل المدينة على قينة فسمع غناءها عند مولاها فخرج مولاها في حاجة ثم رجع، فإذا جاريته على بطن الزهري فقامت مذعورة فقعدت تبكي فقال: ما يبكيك؟ قالت: لأنك لا تقبل لأجله عذراً قال: يا زانية لو رأيتك على قفاك قلت: صريع مغلوب، ولو رأيتك على وجهك لقلت: وعاء مكبوب إنما رأيتك فارساً مصلوباً.

وحكي عن ثمامة أنه قال للمهدي: إن النساء شققن شقاً، وإن هشيمة نقبت نقباً وكانت هشيمة امرأة ثمامة، فسأله المهدي أن ينزل عنها ففعل، وأقام المهدي حتى انقضت عدتها ثم تزوجها وبنى بها ثم طلقها، وخرج إلى بيت المقدس فلما انقضت عدّتها راجعها زوجها.

وقال أبو طاهر أنشدني بعض الشعراء يهجو بني القعقاع:

بني القعقاعِ أكرمُكمْ لئيمٌ ... وأعظمُ مجدكمْ رَكبٌ حليقُ
وأنتمْ في نسائكِمُ اتّساعٌ ... وفي أخلاقكمْ نَكَدٌ وضيق

وعن عبد الله بن ياسين قال: كان في المهدي غزل وشدة حب للخلوة بالنساء فبلغه عن ابنة لأبي عبيد الله كاتبه جمال فقال للخيزران: استزيريها، فزارتها وجاءت إليها فقالت لها: هل لك في الحمام؟ قالت: نعم، فلما دخلت الحمام وافاها المهدي فبرزت له ولم تستتر عنه، فقال لها المهدي: أنا وليك فزوجيني نفسك، فقالت: أنا أمتك، فتزوجها ونال منها، فلما انصرفت أخبرت إخوتها بما كان، فقالوا: أمسكي عنه، فلما كان بعد مدة قالوا لها: استزيري الخيزران فاستزارتها فلما صارت إليها

قـالت: هل لـك في الحمام؟ قـالت: نعم، فلما دخلتـا معـاً مـا شعـرت الخيزران إلا ببني أبي عبيد الله قد عمدوا عليها فاستترت عنهم، فقالـوا: لو أردنا أن نفعل كما فعلتم بحـرمتنا لفعلنـا ولكنا لا نستحـل، فقالت لهم: والله لو رمتم ذلك لأمرت الخدم بقتلكم فانصرفوا، فلما رجعت الخيزران أخبـرت المهـدي بـذلـك، فكـان السبب في قتـل المهـديِّ محمـدَ بـن أبي عبيـد الله على الزندقة. وبلغـه أيضاً عن عـونة بنت أبي عـون جمال وهيئة فقال للخيزران: استنزيريها فاستنزارتها. فقالت لها الخيزران: هل لك في الحمام؟ قالت: نعم، فلمـا دخلتا مـا شعرت إلا بـالمهدي قد وافاها فاستترت بـالخيزران وقـالت: والله لئن دنوت مني لأضـربن بالكـرنيب[1] وجهك، فقال: ويلك إنمـا أردت أن أتزوجك. قالت: لا سبيـل إلى ذلك فانصرف عنها، فأخبرت أباها فقال: أحسنت في فعلك.

محاسن القيادة

الحسن الجرجاني قال: حدثني سهم بن عبد الحميد الحنفي قال: خرجت من الكوفـة أريد بغـداد، فلما نـزلت بسط غلمانـنـا وهيأوا غـداءنا، فإذا نحن برجـل حسن الوجـه والهيئة على بـرذون فاره، فصحت بـالغلمان فأخذوا دابته، فدعوت بالغداء فبسط يده غير محتشم وما أكرمته بشيء إلا قبله، وكنا كذلـك إذ جاء غلمـانه بثقـل كثير وهيـأة جميلة، فتناسبنـا فإذا هو طريح بن إسماعيل الثقفي، فارتحلنا في قافلة منـا لا يدرك طـرفاهـا، فقال طريح: ما حاجتنا إلى هذا الزحام؟ وليست بنا إليهم وحشة، ولا علينا خوف، فإذا خلونا بالخانات والطرق كان أروح لأبداننا، قلت: ذلك إليك، فنزلنا من الغد الخان وتغدينا وإلى جانبنا نهر ظليل بالشجر فقال: هل لك أن تستنقع فيه؟ فمررنا إليه فلما نزع ثيابه إذا بين جنبيه آثار ضرب كثير فوقع

---

(١) الكرنيب: المجيع وهو تمر يُعجن باللبن.

في نفسي منه شر، فنظر إلي ففطن وتبسم وقال: قد رأينا ذعرك بما ترى وحديث ذلك يجري إذا سرنا بالعشية، فلما سرنا قلت له: الحديث، قال: نعم، قدمت من عند الوليد بن يزيد بالغناء واليسار، وكتب إليَّ يوسف بن عمر فلما أتيته ملأ يدي خيراً فخرجت مبادراً إلى الطائف، فلما امتد بي الطريق وليس يصحبني فيه أحد عنَّ لي[1] أعرابي على قعود[2] له فحدث أحسن الحديث وروى الشعر فإذا هو شاعر فقلت: من أين أقبلت؟ قال: لا أدري: قلت: وما القصة؟ قال: أنا عاشق لامرأة قد أفسدت علي عيشي وقد حذرني أهلها وجفاني لها أهلي وإنما أستريح بأن أنحدر إلى الطريق مع منحدر وأصعد مع مصعد، قلت: فأين هي؟ قال: ننزل غداً بإزائها، فلما نزلنا أراني طريقاً عن يسار الطريق فقال: ترى ذلك الطريق؟ فقلت: أراه. قال: فترى الخيم التي هناك؟ قلت: نعم، قال: فإنها في الخيمة الحمراء فأدركتني[3] أريحية الحدث فقلت: والله إني آتيها برسالتك، فمضيت حتى انتهيت إلى الخيم، فإذا امرأة ظريفة جميلة كأنها مهرة عربية فذكرته لها فزفرت زفرة كادت تنتقض أضلاعها، قالت: أو حيٌّ هو؟ قلت: نعم تركته في رحلي وراء هذا الطريق. قالت: بأبي أنت وأمي أرى لك وجهاً حسناً يدلّ على الخير فهل لك في أمر؟ قلت: نعم فقير إليه، قالت: إلبس ثيابي فأقم مكاني ودعني حتى آتيه وذلك عند مغربان الشمس فإنك إذا أظلم الليل، أتاك زوجي فقال لك: يا فاجرة ويا هنة ابنة الهنة[4] فيوسعك شتماً فأوسعه صمتاً، ثم يقول في آخر كلامه اقمعي سقاءك يا عدوّة الله

---

(١) عنَّ له: ظهر له.

(٢) القَعُود: البكر الذكر من الإبل حين يركب، أي يمكن ظهره من الركوب.

(٣) فأدركتني الأريحية: خَصلة تجعل الإنسان يرتاح إلى الأفعال الحميدة وبذل العطايا.

(٤) الهَن بتخفيف النون وقد تشدَّد في الشعر: كناية عن « الشيء »، وهو هنا بمعنى الفَرْج.

فضع القمع في هذا السقاء، وإياك وهذا السقاء الآخر فإنه واهٍ. قلت: نعم فأجبتها إلى ما سألت، فجاء الزوج على ما وصفت وقال: إقمعي سقاءك فحيّرني الله أن تركت الصحيح وقمعت الواهي، فما شعر إلا باللبن يتسبسب[1] بين رجليه فعدا إلى كسر الخيمة وحل متاعه، وتناول رشاء من قِدٍّ مدبوغ[2] ثم ثناه باثنتين فجعل لا يتقي رأساً ولا وجهاً ولا رجلاً حتى خشيت أن يبدو له وجهي فتكون الأخرى فألزمت وجهي الأرض فعمل بظهري ما ترى، فلما تغيّب عني جاءت المرأة باكية فرأت ما بي من الشر واعتذرت وأخذت ثيابي وانصرفت.

قال: وحدّث بهذا الحديث محمد بن صالح بن عبد الله بن الحسين ابن علي بن أبي طالب صلوات الله عليه بسر من رأى سنة أربعين ومائتين وكان حمل من البادية إلى المتوكل فأطلقه وكان أعرابياً فصيحاً فعجب منه وكان حسن الوجه نجيباً قلَّ ما رأيت في الفتيان مثله، قال: كان منّا فتى يقال له: الأشتر بن عبد الله وكان سيد بني هلال وأحسنهم وجهاً وأسخاهم كفاً، وكان معجباً بجارية يقال لها جيداء، بارعة الجمال. فلما اشتهر أمرهما وظهر خبرهما وقع الشر بين أهل بيتيهما حتى قتل بينهما القتلى، فافترقوا فريقين. فلما طال على الأشتر البلاء جاءني يوماً وقال: يا نمير هل فيك خير؟ قلت: عندي ما أحببت. قال: فساعدني على زيارة جيداء، قلت: بالحب والكرامة فانهض إذا شئت، قال: فركبنا وسرنا يوماً وليلة والغداة حتى المساء فنظرنا إلى أدنى سربٍ لهم فأنخنا رواحلنا في شعبٍ وقعدنا هناك، وقال: يا نمير إذهب وانشد

---

(١) سبسب الرجُل الماءَ: أسهل. وتسبْسَبَ الماءُ: سال. وقمَع السّقاءَ أو القِرْبة: ثنى فمها إلى خارجها، ربطها. والسقاء: وعاء من جلد للماء واللبن ونحوهما.

(٢) الرشاء ج أرشية: الحبل عموماً أو حبل الدَّلو، وهو هنا من القدّ: أي الجلد.

واذكر لمن يلقاك أنك طالب ضالّة، ولا تعرض بذكري بشفة ولا لسان إلى أن تلقى جاريتها فلانة راعية الضأن فتقرئها مني السلام وتسألها عن الخبر وتعلمها بمكاني. قال: فخرجت لا أتعدّى ما أمرني به حتى لقيت الجارية فأبلغتها الرسالة وأعلمتها بمكانه وسألتها عن الخبر؟ فقالت: هي مشدّد عليها محتفظ بها وعلى ذلك فموعدكما عند الشجرات اللواتي عند أعقاب البيوت مع صلاة العشاء، فانصرفت فأخبرته، ثم قدنا رواحلنا حتى أتينا الموعد في الوقت الذي وعدتنا فيه فلم نلبث إلّا قليلاً حتى إذا جيداء تمشي، فدنت منا فوثب إليها الأشتر فتصافحا وسلّم عليها، ووثبت مولياً عنهما فقالا أقسمنا عليك إلا رجعت فوالله ما بيننا من ريبة ولا قبيح نخلو به دونك، فانصرفت إليهما وجلست معهما فقال الأشتر: ما فيك حيلة يا جيداء فنتزود منك الليلة؟ قالت: لا والله ما إلى ذلك سبيل إلا أن أرجع إلى الذي تعلم من البلاء والشر، فقال: لا بد من ذلك ولو وقعت السماء على الأرض، قالت: فهل بصاحبك خير؟ قلت: بلى وهل الخير إلّا عندي فاسألي ما بدا لك فإني منته إليه ولو كان في ذلك كله ذهاب نفسي فألبستني ثيابها وأخذت ثيابي، ثم قالت: إذهب إلى خبائي فادخل في ستري فإنّ زوجي يأتيك مع العتمة فيطلب منك القدح ليحلب فيه فلا تعْطِهِ من يدك فكذلك كنت أفعل فيحلب ثم يأتيك بالقدح ملآناً لبناً فيقول: هاك فلا تأخذه منه حتى يطيل عليك نكدك، ثم خذه أو ذره حتى يضعه، ثم يستبد بردائه ولست تراه حتى يصبح. فذهبت ففعلت ما أمرتني به، حتى جاء بالقدح فيه اللبن فأطلت نكدي عليه، ثم أهويت لآخذه فاختلفت يدي ويده وانكفأ القدح فاندفق منه اللبن فقال: إن هذا لطماح[1] مفرط،

---

(١) طمح طمحاً وطِماحاً وطموحاً به: ذهب به، وفي الطلب أبعد، والدابة نشزت وجمحَت والمرأة على زوجها جَمَحَتْ. فهي طامح ج طوامح.

وضرب يده إلى جانب الخباء فاستخرج سوطاً فضربني مقدار ثلاثين سوطاً حتى جاءت أمّه وأخواته فانتزعوني منه ولا والله ما فعلوا ذلك حتى زايلتني روحي، وهممت أن أوجره[1] بالسكين، فلما خرجوا عني وهو معهم قعدت كما كتب الله، فما لبثت أن جاءت أم جيداء، فحدثتني وهي تحسبني ابنتها فألقيتها بالسكوت وتغطيت بثوبي دونها فقالت: يا بنية إتّقي الله ولا تتعرضي للمكروه من زوجك فذلك أولى بك. ثم خرجت من عندي فقالت سأرسل إليك أختك تؤنسك وتبيت الليلة عندك، فلم ألبث أن جاءت الجارية تبكي وتدعو على من ضربني وأنا لا أكلمها، ثم اضطجعت إلى جانبي، فلما استمكنت منها شددت يدي على فمها وقلت: يا هذه تلك أختك مع الأشتر وقد قطع ظهري بسببها، وأنت أولى من سترٍ عليها فاختاري لنفسك ولها فوالله لئن تكلمت لتكونن فضيحةً شاملةً، ثم رفعت يدي عن فيها فاهتزت مثل القصبة من الروع وباتت معي ونلت منها الشهوة التامة ورافقتني أصلح رفيق رافقته ولم أذق شيئاً ألذ مما ذقت منها قط، فلم نزل نتحدث وتضحك مني ومما بليت به حتى برق النور وجاءت جيداء، فلما رأتنا ارتاعت وقالت: من هذا عندك؟ قلت: أختك قالت: وما السبب؟ قلت: هي تخبرك فإنها عالمة به، وأخذت ثيابي وأتيت صاحبي فأخبرته بما أصابني وكشفت له عن ظهري فإذا فيه ما الله به عليم. فقال: لقد عظمت منّتك عندي ووجب شكرك وخاطرت بنفسك فلا حرمني الله مكافأتك.

وروي عن رجل من بني عامر: أنه خرج وهو غلام، وكان ذا جمال وهيأة صاحب غزل، فهجم على قوم يتحملون وقد شدّوا أثقالهم وبرزوا. وإذا امرأة جميلة قد تخلّفت على جمل لها لإصلاح شأنها. قال: فوقفت عليها فإذا هي أحسن خلق الله وجهاً وأغزله وأملحه فتلاقينا كلاماً غير كثير،

---

(١) وَجَرَهُ: طعنه في فمه.

فقالت: أسألك شيئاً فهل لك به علم؟ قلت: سلي، فقالت: أيها أحسن جُردة[1] الرجل أم المرأة؟ قلت: الرجل. قالت: بل المرأة، فإن أحببت أن تعلم ذلك عملته. قلت: وكيف أعلمه؟ قالت: أتجرّد لك من ثيابي وأرميها عني ثم أمشي حتى أبلغ الأكمة ثم أقبل حتى آتيك فتعطيني عهد الله وميثاقه لتفعلن كما فعلت؟ فقلت: لك عهد الله إن فعلت لأفعلنه. قال: فألقت ثيابها عن أحسن ما نظرت إليه قط بياضاً ونظافةً وحسناً فلما انتهت إلي قالت: الوفاء. قلت: الوفاء ونعمة عين. فخلعت ثيابي وأنا كأبهى الفتيان وأهيئهم حتى مضيت بعد الغابة، فلما انتصف بي المدى سمعت خرخرة جملي، فإذا هي قد جالت على ظهره لابسة ثيابي متنكّبة قوسي قد لزمت المحجّة[2] فناديتها فلم تعرج علي، ولبست ثيابها وتخمرت بخمارها وركبت بعيرها وزجرته فانبعث بي أثر الحي وأخذت شق الوحشي[3] حتى ما أراها، وجعلت أكف عن الجمل إذ خشيت أن ألحق الظن حتى رأوني من بعيد وجعلوا ينادون: ويحكِ أقبلي! وأنا صامت لا أتكلم ولا أتقدم فلما طال عليهم أمري بعثوا بجارية لهم مولدة. فأقبلت تعدو حتى أتتني ونشطت خطام الجمل من يدي، وأنا متبرقع أحسن الناس وجهاً وعيناً، فنظرت الجارية في وجهي ساعة ثم قالت: لقد أمسيتِ حديدة الطرف، وقادت الجمل حتى أتت الحي، فقالت أم الجارية: يا بنية لقد استحيت من الناس مما دعوتك العشية، ثم تأملت ونظرتْ وسائرُ النساء وقالت إحداهن: والله إنه لرجل فطن وأنزلتني العجوز وأدخلتني الستر وقالت: من أنت لا أفلحت؟ قلت: بل ابنتك لا أفلحت ولا أنجحت

---

(١) الجُردة: العُرْي.

(٢) المحجَّة: جادَّة الطريق أي وسطه سميت بذلك لأنها تُقْصد.

(٣) الشق الوحشي: أي الجانب الأيمن من كل شيء، الجانب الذي يركب منه الراكب، أو يحتلب الحالب لأنه لا يؤتى الركوب والحلب والمعالجة إلا منه، فإنما خوفه منه.

وقصصت عليها قصتها فقالت: نشدتك الله إلا أعرتني نفسك هزيعاً من الليل؟ فإنا كنا على أن نبني بابنتي صاحبة الجمل الليلة وما في الحي رجل غير زوجها، وهو إنسان فيه لوثة ولا بد من أن أدخلك عليه فإنك غلام أمرد فلا ينكرك، ولا أراه أقوى منك إن اعتركتما فلك عندي يد بيضاء. وأقبلت وأخت لابنتها وخالتها فألبسنني ثوب العروس وطيبنني ثم دلفن بي نحو الرجل بعيد العتمة وقالت أمها: أنا لك الفداء تجلد ساعة بالامتناع فإنه منصرف عنك وستأتيك الكافرة[1]، فأدخلتني على مثل الأسد إلا أن به لوثة كما قالت: فاعتركنا حتى أعيى وكف عني، وطال بي الليل حتى سمعت خرخرة جملي فلم ألبث إلّا هنيهة حتى جاءت أمها وخالتها وهي معهما، فجعلتها مكاني وفتشت عن سرها فإذا هي قد ظلت مع إنسان كانت تهواه، وأتيت ثيابي فنهضت مبادراً لا ألوي على شيء حذراً مما لقيت.

قيل: وملك النعمان بن المنذر أربعين سنة فلم تر منه سقطة غير هذه وهو أنه ركب يوماً فبصر بجارية قد خرجت من الكنيسة فأعجبته لجمالها فدعا بعدي بن زيد وكان نديمه ووزيره فقال له: يا عدي لقد رأيت جارية لئن لم أظفر بها إنه الموت ولا بد من أن أتلطّف أو تتلطف لي حتى تجمع بيني وبينها قال: ومن هي؟ قال: سألت عنها فقيل: هي امرأة حكم بن عمرو رجل من أشراف الحيرة، قال: فهل أعلمت أحداً؟ قال: لا، قال: فاكتمه فإذا أصبحت فجِدْهُ لِحَكَمٍ كرامة وبراً[2]، فلما أذن للناس بدأ به، فأجلسه معه على سريره وكساه فاستعظم الناس ذلك، فلما أصبح بدأ أيضاً بالإذن له وجمَّله فأنكر الناس ذلك فقالوا: ما هذا إلا لأمر، فصنع به ذلك أياماً، ثم قال له عدي: أيها الملك عندك عشر نسوة فطلّق إحداهن ثم قل

---

(١) الكافرة ج كافرات وكوافر: الدنان وهي أوعية الخمر.

(٢) فجدْهُ لحكم كرامةً وبراً: أي أكرمه وقرِّبه إليك.

له: فليتزوجها. ففعل، فلما دخل عليه قال: يا حكم ما كانت نفسي تسمح بهذا لولد ولا لوالد فتزوج فلانة فقد طلّقتها، فخرج حكم إلى عدي فقال: يا أبا عويمر ما صنع الملك بأحد ما صنع بي وما أدري بما أكافيه. قال عدي: طلّق امرأتك كما طلّق لك امرأته ففعل، وحظي بها عدي عنده وعلم حكم أنه قد مكر به في امرأته وفيه يقول الشاعر:

مـا في البـريّـةِ من أنثى تُعـادِلُهـا   إلاّ الـذي أخـذَ النعمـانُ مِنْ حَكَمِ

وحدّث الفضل بن العباس عن الزبير بن بكار عن محمد بن بشير الخارجي قال: قدم علينا رجلان من أهل المدينة يصيدان ومعهما نسوة والفساطيط[1] مضروبة، وكان سليمان بن عبد الله الأسلمي وابن أخ له مقيميْن بناحية الروحاء، فأرسل النسوة إلى سليمان وابن أخيه: أما لكما حاجة في الحديث؟ فرد الرسول: إن يكن لنا فيه حاجة فكيف لنا بذلك مع أزواجكن؟ فقلن: إنما خرج أزواجنا للصيد وقد بلغنا أن لكم صباحاً يعرف من طلب الصيد ما لا يعرفه غيره، فلو طرح لهم شيئاً من ذكره لأسرعوا إليه وتخلفتم وتحدثتم ما شئتم يعنين به محمد بن بشير. فمضى إليه سليمان وابن أخيه فقالا: يا أبا محمد أرسل إلينا النسوة بكذا وكذا وسألنني أن أخرجك إلى الصيد، فقلت: لا والله لا أفعل ولا أتعب ولا أنصب وأنتم تتلهون وتتحدثون، أنا الذي أشد حباً وأكثر صبابةً وشوقاً، فأرسلا إلى النسوة بمقالتي فأرسلن إليّ رسولاً وعاهدنني لئن أخرجتهم ليحتلن لي حتى أخلو معهن ليلة حتى الصبح، فصرت إليهم وذكرت لهم الصيد فخرجوا معي فما زلت أحدثهم بالصدق حتى أخذت في الكذب مما

---

(١) الفساطيط: مفردها فُسطاط وفيه لغات، فستاط وفسّاط: ضرب من الأبنية، مدينة مصر، وهي هنا بمعنى بيوت من الشَّعر ضربت للصيادين.

يضارع الصدق حتى أفنيته فأقمت معهم ثلاثة أيام ولياليها ثم انصرفوا من غير أن اصطدنا شيئاً فقلت في ذلك:

إني انطلقتُ معي قومٌ ذوو حسبٍ ... ما في خلائقهمْ زهو ولا حمقُ
إني لأعجبُ منهمْ كيف أخدعُهُمْ ... أمْ كيف آفك قوماً ما بهم رهقُ؟[1]
أظلّ في الأرضِ أُلهيهمْ وأُخبرهمْ ... أخبارَ قومٍ وما كانوا ولا خُلِقوا
ولو صدقتُ لقلتُ القومُ قد دخلوا ... حين انطلقنا وإني ساعة انطلقوا
فلو أجاهدُ ما جاهدتُ دونكمُ ... في المشركين لأدركتُ الألى سبقوا
إن كنتُ أبدأ جاري من حلائلكم ... والدهر ذو عنف أيامه طرقُ[2]
فإن كل جديد عائد خَلَقاً ... فلن يعود جديداً ذلك الخَلَقُ[3]

قال: فظفر أصحابي بالحديث والمغازلة وأنا بالجهد والخيبة مع أتم القيادة والتعب وكذب المحادثة.

وحدثنا وهب بن سليمان عن عمه الحسن بن وهب قال: خرج محمد بن عبد الملك الزيات من عند الواثق[4] ومزيد بن محمد بن

---

(١) الإفك: الكذب والأفيكة: الكذبة الكبيرة، أفَّاك وأفيك وأفوك: الكذاب. آفكه: جعله يأفك، أفِكَ الناسَ: كذبهم وحدَّثهم بالباطل. الرَّهَق: الإثم والتُّهمة، حَمل المرء على ما لا يطيقه.

(٢) الحليل ج إحلاء م حليل وحليلة ج حلائل: الزوج لأنه يحل مع امرأته وتحل معه. الطريق: ج طُرُق وأطرق وأطرقة: السبيل، الدأب والعادة. يقول: الدهر عنيف شديد قليل الرفق وأيامه طُرُق توصلنا إلى أن يصبح جديدنا بالياً والبالي لن يعود جديداً.

(٣) الخَلَق: البالي.

(٤) الواثق: هو هارون الواثق بالله ابن المعتصم آخر خلفاء العصر العباسي الأول. حكم الدولة العباسية أقل من ست سنين ولم يول عهده أحداً وسئل في مرض موته أن يوصي بالخلافة لولده فرفض وقال: «لا أتحمل أمركم حياً وميتاً» وبموته انتهى العصر الذهبي للدولة العباسية.

أبي الفرج الهاروني وكيل عبد الله بن طاهر[1]، فإذا بجارية حسناء في منظرة لها[2]، فلما بصرت به ورأت مركبه وكان جميلاً ظريفاً أومأت إليه بالسلام وأومأت بيدها إلى صدرها فأعجب بها، فلما صار إلى منزله، دخلت إليه فرأيته بخلاف ما عهدت وكان لا يكتمني شيئاً فقلت: ما لي أراك مدلهاً[3] يا أبا الحسن؟ قال: رأيت شيئاً أنا فيه مفكر ثم أنشأ يقول:

وا بأبي مُخَضَّبٌ أوما إلينا بيدهْ
أومي بها يخبرُني راحتُهُ في كَبِدهْ
إن الضنَّى في جسدي يخبرُني عن جسده
فليس للحاسدِ إلاَّ خصلةٌ منْ حسده

ثم شرح لي القصة، ثم انصرفت من عنده ووافيت مولى الجارية فسألته أن يبيعها فقال: أشتريتها للأمير عبد الله بن طاهر وليس إلى بيعها من سبيل، فلم أزل حتى اشتريتها بخمسين ألف درهم ووجّهت بها إليه وكتبت إليه:

هذا مُحِبُّكَ مطويٌّ على كَمَدِهْ عبَرى مدامعُه تجري على جسدهْ
له يدٌ تسألُ الرحمٰنَ راحتُها مما به ويدٌ أخرى على كبدِهِ

فقبلها وحسن موقعها عنده فولّاني خراج ديار ربيعة فأصبت فيها ألف ألف درهم.

قال السجستاني: أرق الرشيد ذات ليلة فوجه إلى عبد الملك

---

(١) عبد الله بن طاهر: قائد سياسي وشاعر حكم البلاد ما بين مصر والرّقة ثم استقل بحكم خراسان.
(٢) . المَنْظَرة: ما ارتفع من الأرض أو البناء ونظرت منه.
(٣) المدلَّه: الساهي القلب، الذاهب العقل من عشق ونحوه.

الأصمعي وإلى الحسين الخليع[1] فأحضرهما وشكا إليهما مدافعة نومه وشدّة أرقه وقال لهما: عللاني بأحاديثكما وابدأ أنت يا حسين، قال: نعم يا أمير المؤمنين خرجت في بعض السنين منحدراً إلى البصرة وممتدحاً لآل سليمان، فقصدت محمد بن سليمان بقصيدتي فقبلها وأمرني بالمقام، فخرجت ذات يوم إلى المربد وجعلت المهالبة طريقي فأصابني حرّ وعطش، فدنوت من باب دار كبير لأستسقي، فإذا أنا بجارية أحسن ما يكون، كأنها قضيب يتثنى، وسْناء العينين، زجاء الحاجبين، مهفهفة[2] الخصر، حاسرة الرأس، مفتوحة الجِربّان، عليها قميص لاذ جُلّناري[3]، ورداء عدني، قد علت شدة بياض بدنها حمرة قميصها، تتلألأ من تحت القميص بثديين كرمانتين، وبطن كطي القباطي، وعكن مثل القراطيس، لها جمة جعدة[4] بالمسك محشوة، وهي يا أمير المؤمنين مقلدة خرزاً من ذهب والجوهر يزهر بين ترائبها، وعلى صحن جبينها طرة كالسبج وحاجبان مقرونان وعينان كحلاوان وخدان أسيلان وأنف[5] أقنى تحته ثغر كاللؤلؤ وأسنان كالدر وقد غلب جربانها سواد المسك والغالية ودابر العود الهندي

---

(١) الحسين الخليع: حسين بن الضحاك. ولد في البصرة، من شعراء بغداد، رفيق أبي نواس باللهو وشرب الخمر ونظم الشعر.

(٢) الوسن: النعاس، وسْناء العينين: ناعسة العينين فاترتهما. زجاء الحاجبين: رقيقة الحاجبين في طول. مهفهفة الخصر: دقيقة الخصر.

(٣) الجِربّان: طوق القميص، غمد السيف، حمائل السيف، حدُّه (فارسية) وهي هنا بمعنى طوق القميص. لاذ: من اللاّذة: ثوب حرير أحمر صيني. الجلّنار: زهر الرمان.

(٤) القباطي ج قبطية: الثوب من ثياب مصر رقيقة بيضاء. وفي الحديث: أنه كسا امرأة قبطية فقال: «مرها فلتتخذ تحتها غلالة لا تصف حجم عظامها». العكنة ما انطوى وتثنّى من لحم البطن سمناً. القراطيس ج قرطاس: الصحيفة التي يكتب فيها، الجُمّة: مجتمع شعر الرأس.

(٥) السَّبج: الخرز الأسود، الأسيل: الليّن الأملس. والأقنى: من الأنوف ما به قنًى: أي ما ارتفع وسط قصبته وضاق منخره.

على لبتها عبق الخلوق وهي والهة حيرى واقفة في الدهليز وجائية[1] تخطر في مشيتها قد خالط صرير نعلها أصوات خلخالها كأنها تخطر على أكباد محبيها فهي كما قال الأفوه الأودي[2] :

ليس منهــا مــا يُقــالُ لهــا   كَمُـلتْ لــو أنَّ ذا كَــمُــلا
كــلُّ جُـزءٍ من محــاسنهــا   كــائنٌ من حــسنـهــا مِثَـلا
لــو تـمنَّـتْ في بَــراعـتهــا   لم نجــدْ في حسنها بَــدلاً

فهبتها والله يا أمير المؤمنين، ثم دنوت منها لأسلم عليها فـإذا الدار والدهليز والشارع قد عبقت بالمسك. فسلّمت عليها، فردت السـلام بلسان منكسر وقلب حزين محرق، فقلت لها: يا سيدتي إني شيخ غريب أصابني عطش فأمري لي بشربة من ماء تؤجري. قالت: إليك عني يا شيـخ فإني مشغولة عن سقي المـاء وادّخار الأجـر، فقلت لها: يـا سيدتي لأيـة علة؟ قالت: لأني عاشقة من لا ينصفني وأريد من لا يريدني ومع ذلك ممتحنـة برقباء فوق رقباء. قلت لها: يا سيدتي هل على بسيط الأرض من تريدينه ولا يريدك؟ قالت: إنه لعمري على ذلك الفضـل الذي ركب الله فيـه من الجمال والدلال، قلت لها: يا سيدتي فما وقـوفك في الـدهليز، قـالت: هو طريقهُ وهذا أوان اجتيازه، قلت لها: يا سيدتي هل اجتمعتما في خلوة في وقت من الأوقات أم حب مستحدث؟ فتنفست الصعداء وأرخت دموعها

---

(١) الغالية ج غوال : أخلاط من الطيب . دابر العود الهندي : الـدابر : الأصـل أي العود الهندي الأصيل . اللبّـة : موضـع القلادة من الصـدر . الخَلُوق : ضرب من الـطيب معظم أجزائه الزعفران .

(٢) الأفوه الأودي: هو الشاعر صَلاءة بن عمرو من مذحج ويكنّى أبا ربيعة وهو القائل:

لا يَصْلُح القوم فوضى لا سَراةَ لهم،   ولا سَــراةَ إذا جـهّــالـهـم ســادوا

على خديها كطل على ورد، وأنشأت تقول:

وكنـا كغُصنَيْ بـانـةٍ وسطَ روضـةٍ   نشمّ جنـا اللّذاتِ في عيشـةٍ رَغْـدِ
فـأفردَ هـذا الغصنَ مِنْ ذاكَ قـاطـعٌ   فيـا منْ رأى فـرداً يحنّ إلى فـردِ

قلت لها: يا هذه ما بلغ من عشقك هذا الفتى، قالت: أرى الشمس على حائطهم أحسن منها على حائط غيرهم، وربما أراه بغتة فأبهت وتهرب الروح عن جسدي وأبقى الأسبوع والأسبوعين بغير عقل. قلت لها: عزيزٌ علي وأنت على ما بك من الضنى وشغل القلب بالهوى وانحلال الجسم وضعف القوى ما أرى بك من صفاء اللون ورقة البشرة فكيف لو لم يكن بك من الهوى شيء أراك كنت مفتنة[1] في أرض البصرة؟ قالت: كنت والله يا شيخ قبل محبتي لهذا الغلام تحفة الدلال والجمال والكمال ولقد فتنت جميع ملوك البصرة وفتنني هذا الغلام، فقلت: يا هذه ما الذي فرّق بينكما؟ قالت: نوائب الدهر وأوابد الحدثان ولحديثي وحديثه شأن من الشأن وأنبيك أمري: إني كنت افتصدت[2] في بعض أيام النيروز فأمرت فزين لي وله مجلس بأنواع الفراش وأواني الذهب ونضدنا الرياحين والشقائق والمنثور وأنواع البهار، وكنت دعوت لحبيبي عدة من متظرفات البصرة فيهن من الجواري جارية شهران، وكان شراؤها عليه من مدينة عمان ثمانمائة ألف درهم، وكانت الجارية ولعت بي، وكانت أول من أجابت الدعوة وجاءتني منهن، فلما حصلت عندي رمت بنفسها عليّ تقطّعني عضاً وقرصاً ثم خلونا نتمزز القهوة إلى أن يدرك طعامنا ويجتمع

---

(١) الفتنة: إعجابك بالشيء. فتن فتوناً فهو فاتن وهي مفتنة بفتح الميم. موضع فتنة وبضمها: تثير إعجاب من رآها.

(٢) افتصدت: الفصد شق عرق الناقة ليستخرج دمه فيشرب والفصيد: دم كان يوضع في معًى ويشوى وكان أهل الجاهلية يأكلونه. النيروز: الربيع (فارسية).

من دعونا، فتارةً هي فوقي وتارةً أنا فوقها، فحملها السكر على أن ضربت يدها على تكتي فحلتها ونزعت هي سراويلها وصارت بين فخذي كمصير الرجال من النساء، فبينا نحن كذلك إذْ دخل علي حبيبي وقد التزق قرطي بخلخالي [١]، فلما نظر إلينا اشمأز لذلك وصدف عني وعنها صدوف[٢] المهرة العربية إذا سمعت صلاصل[٣] اللجم وعض على أنامله وولّى خارجاً، فأنا يا شيخ منذ ثلاث سنين أسل سخيمته[٤] وأستعطفه فلا ينظر إليّ بعين ولا يكتب إليّ بحرف ولا يكلم لي رسولاً. قلت لها: يا هذه أفمن العرب هو أم من العجم؟ قالت: هو من جلّة[٥] ملوك البصرة. قلت: من أولاد أنيابها[٦] أو من أولاد تجّارها؟ قالت: من عظيم ملوكها. قلت لها: أشيخ هو أم شاب؟ فنظرت إلي شزراً[٧] وقالت: إنك لأحمق، أقول هو مثلِ القمر ليلة البدر أمرد أجرد وطرة رقعاء كحنك الغراب[٨] تعلوه شقرة في بياض عطِرُ لباسٍ، ضارب بالسيف طاعن بالرمح لاعب بالنرد والشطرنج ضارب بالعود والطنبور، يغني وينقر على أعدل وزن لا يعيبه

---

(١) القُرط ج أقراط: ما يعلَّق في شحمة الأذن من درةٍ، الحلَق. الخَلْخَال: ج خلاخل: حلية تلبس في الرِّجل كالسِّوار في اليد.

(٢) صدف: انصرف ومال، أعرض وصدَّ.

(٣) صلصل صلصلةً: صوَّت اللجام، أو الحلي، والرعد صفا صوته، الجرس رجَّع صوته.

(٤) السخيمة ج سخائم: الضغينة. يقال: سللت سخيمته باللطف والترضي: أي أفرجت ضغينته من صدره.

(٥) جِلَّة ج جليل يقال: قوم جِلَّة: أي عظام سادة.

(٦) أنيابها: ناب القوم ج أنياب: سيدهم.

(٧) الشزْر: شزر شزراً الرجلَ وإليه: نظر إليه بجانب عينه مع إعراض. عين شزراء: محمرَّة من الغضب.

(٨) الطرَّة: ما غشَّى الجبهة من الشعر. رقعاء: كالرقعة في الثوب، حنك الغراب: منقاره وقيل: سواده: يقول غرَّة جبهته كحنك الغراب أي سوداء.

شيء إلا انحرافه عني لا نقصاً لي منه، بل حقداً لما رآني عليه.

قلت: يا هذه وكيف صبرك عنه. فأنشأت تقول:

أمَّا النهارُ؟ فمستهامٌ والهٌ ... وجفونُ عيني ساجفاتٌ[1] تدمعُ
والليلَ قد أرعى النجومَ مفكِّراً ... حتى الصباحِ ومقلتي لا تَهْجَعُ
كيف اصطباري عن غزال شادن[2] ... في لحظ عينيهِ سِهامٌ تصرعُ
وجهٌ يضيءُ وحاجبان تقوَّسا ... وكأن جبهته سِراجٌ يلمعُ
وبياضُ وجهٍ قد أشيبَ بحمرةٍ ... في وجنتيه كأنه مستجمعُ
والقَدّ منه كالقضيب إذا زها ... والغصن في قنوائه[3] يترعرعُ
نمَّتْ خلائقه وأُكْمِلَ حسنُه ... كمثال بدرٍ بعد عشرٍ أربعُ

قلت لها: يا سيدتي ما اسمه وأين يكون؟ قالت: تصنع به ماذا؟ قلت: أجهد في لقائه وأتعرف الفضل بينكما في الحال. قالت: على شريطة. قلت: وما هي؟ قالت: تلقانا إذا لقيته، وتحمل لنا إليه رقعة. قلت: لا أكره ذاك. قالت: هو ضمرة بن المغيرة بن المهلب بن أبي صفرة، يكنّى بأبي شجاع وقصره في المربد الأعلى وهو أشهر من أن يخفى، ثم صاحت في الدار: يا جواري، دواة وقرطاساً وشمرت عن ساعدين كأنهما طومارا فضة[4]، ثم حملت القلم وكتبت: بسم الله الرحمٰن الرحيم، سيدي تركي الدعاء في صدر رقعتي ينبىء عن تقصيري، ودعائي إن دعوت يكون هجنة فلولا أن بلوغ المجهود يخرج عن حد

---

(١) سجف سجْفاً البيت: أرخى عليه ستراً، الجفون مسجفات: مسدلات، فاترات.

(٢) الشادن: ابن الظبية.

(٣) القنواء: الشجرة الطويلة.

(٤) طامورج طوامير: الصحيفة.

التقصير لما كان لما تكلفته خادمتك من كتب هذه الرقعة معنى مع إياسها منك وعلمها بتركك الجواب، سيدي فجد بنظرة وقت اجتيازك في الشارع إلى الدهليز تحيي بها أنفساً ميتة أسرى، واخطط بخط يدك بسطها الله بكل فضيلة رقعة فاجعلها عوضاً من تلك الخلوات التي كانت بيننا في الليالي الخاليات التي أنا ذاكرتها. سيدي، ألست لك محبة وبك مدنفة؟ فإن رجعت مولاي إلى الأشبه بك وأنقذتني من عوارض التلف كنت لك خادمة ولك شاكرة. فلما فرغت من الكتاب يا أمير المؤمنين ناولته إياي فقلت لها: يا سيدتي قد وجب حقك علي ولزمتك حرمتي لطول وقوفي عليك وكنت قد سألت شربة ماء، قالت: أستغفر الله ما فهمنا عنك، ثم صاحت في الدار أخرجن إلينا شراباً من ماء وغير ماء، فما كان إلا أن أقبل ثلاثون وصيفة بأيديهن الطاسات والجامات وأقداح مملوءة ماء وثلجاً وفقاعاً[1] وشراباً، فشربت الماء ثم قلت: يا سيدتي مع قدرتك على هذا من استواء الحال وكثرة الخدم والعبيد والجواري فلمَ لا تأمرين إحدى الجواري أن تقف مراعية للغلام حتى إذا مرّ أعلمتك فتخرجين إليه؟ قالت: لا تغلط يا شيخ فتمثلت:

عبالةُ[2] عُنْقِ الليثِ من أجل أنَّه إذا رام أمراً قام فيه بنفسِهِ

ثم انصرفت عنها يا أمير المؤمنين، فلما أصبحت غدوت على محمد بن سليمان فوجدت مجلسه محتفلاً بالملوك وأبناء الملوك، ورأيت غلاماً قد زان المجلس وفاق من فيه حسناً وجمالاً قد رفعه الأمير فوقه فسألت عنه فقيل: ضمرة بن المغيرة فقلت في نفسي بالحقيقة حل

(١) الفقّاع: شراب يتخذ من الشعير أو من الأثمار سمي به لما يعلوه من الزَّبد.
(٢) عبُل عَبالة: ضخم.

بالمسكينة ما حل هو والله قاتلها فيما أرى، ثم قمت فقصدت المربد ووقفت على باب داره، فإذا هو قد ورد في موكب جليل فوثبت إليه وبالغت في الدعاء والثناء، ثم دنوت منه وفاوضته في الذي جرى بيني وبينها وناولته الرقعة فلما قرأها ضحك ثم قال: يا شيخ قد استبدلنا بها فهل لك في أن تنظر إلى البديل؟ قلت: نعم. فصاح في الدار: يا جواري أخرجن إلينا لذيذاً، فما كان إلا أن طلعت جارية وضئية الكمَّين[1]، ناهدة الثديين، تمشي مشية مستوحل[2] ترتج من دقة خصرها على كبر عجزها[3] ذات فخذين وعجيزتين تختطفان الأنفس اختطافاً على رأسها بطيخة من الكافور[4]، مكتوب على جبينها:

آهٌ من الحبِّ آهٌ ما أقتلَ الحبَّ وأضناهُ

ودون ذلك مكتوب:

عيَّارةٌ[5] ميَّاسة في الخُطَى رخيمةُ الدّلِّ صَيُودُ للرجالِ

وقد كتبت بالغالية[6] على عصابتها ثلاثة أسطر وهي:

إذا غضبتْ رأيتَ الناسَ قتلى وإن رَضِيَتْ فأرواحٌ تعودُ

---

(١) وضيئة الكمَّين: الوضاءة الحسن والبهجة يقال: وضؤت فهي وضيئة. والكم من القميص مدخل اليدين ومخرجهما. يقصد بالكمين: اليدين.

(٢) مشية مستوحل: أي الذي يمشي في أرض موحلة، بثقل وفتور.

(٣) العجز: مؤخر الجسم، عجز بيت الشعر: الشطر الثاني منه. وعجيزة المرأة: عجزها ولا يقال للرجل إلَّا على التشبيه، والعجز لهما جميعاً.

(٤) الكافور: طلع النخل أو وعاؤه. كافور الكرم: الورق المغطّي لما في جوفه من العنقود شبهه بكافور الطلع لأنه ينفرج عما فيه أيضاً.

(٥) عيَّارة: كثيرة التجوّل والطّواف. ميَّاسة: تتمايل وتتبختر.

(٦) الغالية ج غوال: أخلاط من الطيب.

لهـا في عينهـا لحـظاتُ سـحـرٍ   تُـميتُ بِهـا وتُـحيي من تـريـدُ
وتَسبي العـالـمينَ بمـقـلتيـهـا   فـكـلُّ العـالـمينَ لهـا عـبـيـدُ

فناولها الرقعة وقال: اِقرئي وأجيبي صاحبتك، فلما قرأت الرقعة اصفرّت وعرقت ومزّقتها وضربت بها في وجه الغلام وغابت في الستر، فقال لي: أما أنت يا شيخ فاستغفر الله مما مشيت فيه. قلت: بل أنت استغفر الله من هجرانك إياها وتركك إتيانها والله ما أرى لها في البشر نظيراً. قال: لا أفعل ولو أنها في حسن يوسف وكمال حواء، فخرجت يا أمير المؤمنين وأنا أجرّ ذيلي حتى وردت عليها فاستأذنت ودخلت فبدأت بي فقالت: ما وراء الشيخ؟ قلت: البؤس واليأس قالت: لا عليك فأين الله والقدر؟ ثم أمرت لي بخمسمائة دينار وعشرة أثواب وخرجت من عندها وأنا ممتدح لآل سليمان، فلم يكن لي والله إلا معرفة خبرها في العام الذي عدت فيه إلى البصرة فوردت عليها فوجدت على بابها أمراً ونهياً وأسباباً لا تكون إلا على باب الخلفاء، فاستأذنت فدخلت فإذا فوق رأسها ثلاثون رجلاً من شيوخ وشبان وخدم وقوف بسيوفهم، فلما نظرت إلي عرفتني، ووثبت إليّ وقبلت رأسي وقالت: يا شيخ الحمد لله الذي جعل العبيد بالصبر ملوكاً، وجعل الملوك بالتيه عبيداً، إن الذين تراهم وقوفاً أصحاب ضمرة يسلون سخيمتي ويسألونني الرجوع له، والله لا نظرت إليه في وجه ولو أنه في حسن يوسف وكمال حواء، فسجدت يا أمير المؤمنين شماتة بضمرة وتقرباً إلى الجارية، فقال بعض حجّاب ضمرة: مهلاً يا شيخ فمن طاب محضره طاب مولده، ثم انصرفوا فناولتني خريطة فيها أوراق فقالت: هذا أول ما ورد علينا منه فإذا فيها ثوب خز أبيض يقق[1] مكتوب فيه بماء

---

(١) يقَّ يَقَّ يُقوقةً: ابيضّ. اليققُ والقطعة منه يَقَقَةٌ: القطن يقال: أبيض يقق: أي شديد البياض.

الذهب: بسم الله الرحمٰن الرحيم، لولا تغاضيَّ عليكِ أدام الله حياتك لوصفتُ شطراً من غدركِ ولبسطت سوط عتبي عليك وحكمت سيف ظلامتي فيك إذ كنت الجانية على نفسك، والمظهرة لسوء العهد وقلة الوفاء المؤثرة علينا فخالفت هواي وفرشت نفسك لها على حالتي جد وهزل وصحو وسكر والمستعان الله على ما كان من سوء اختيارك ولقد ضمنت رقعتي هذه أبيات شعر أنت المتفضلة بالنظر إليها وهي:

قَطَّع قلبي فراقُكمْ قِطَعاً ... وكِدتُ أقضي لبَيْتِكُمْ جَزِعا

ما تُكحِلُ العين بالرُّقادِ ولا ... ينامُ جنبي في الليل مُضْطَجِعا

لا عيشَ لي مُذ نأتْ ولا وَجَدَتْ ... عيناايَ في الأرض قطُّ متَّسعا

قلت لها: أفلا تحدثيني كيف سليت عنه وابتلي؟ قالت: كيف لا أحدثك؟ اَفْتَصَدَتْ[1] تفاحةُ جارية محمد بن سليمان، فدعينا إلى خورنق[2] لمحمد بن سليمان فلما طعمنا دعت لنا بالشراب، فبينا نحن كذلك إذا بحراقة[3] سلطانية قد وردت وفيها عدة من أبناء الملوك وفيهم هذا العيار[4] ولا علم لي بمكانِهِ، وكنت حملت العود وغنيت:

أبْلَى فُؤادي وشَفَّني الأَرَقُ ... والدمعُ منْ مُقلَتَيَّ يَستبِقُ

من حبِّ ظبْيٍ أغنَّ ذي دَعَجٍ[5] ... وقلبُهُ للشّفاءِ منطبق

فلما وجبت العتمة انصرفنا وأبطأت الجارية، وأتاني هؤلاء القوم من

---

(١) افتصدت: سبق شرح معناها في ص ٣٠١.

(٢) الخورنق: القصر معرَّب خورنكاه: أي موضع الأكل.

(٣) حرَّاقة: سفينة أو مركبة فيها مرامي نيران يرمى بها العدو.

(٤) العيَّار: الكثير التجول والطَّواف.

(٥) ظبي أغن: يخرج صوته من خياشيمه. دعجت العينُ صارت شديدة السواد مع سعتها فصاحبها أدعج وهي دعجاء ج دُعج.

عنده يسلون سخيمتي ويستعطفونني عليه، ثم انصرفت عنها يا أمير المؤمنين ودخلت الحمام من ساعتي، فما كان إلا أن دخلت حتى أتاني غلامي فقال: جماعة من جلة الناس قد طرقوا دارك يطلبونك، فلبست ثيابي وخرجت مسرعاً فإذا بضمرة قد كبس داري في عدة من الرؤساء فقال: والله لا برحنا حتى تنفق علينا الخمسمائة دينار التي أخذتها من الجارية سيدتي، قلت: أي والله بالسمع والطاعة، ثم جذبني إلى نفسه فلم يزل يناظرني في أمرها حتى أقبل المساء ثم انصرف إلى رحله، فلما كان من الغد وردت له رقعة مع خادم وكيس فيه ألف دينار واستزارني فقبلت ذلك وصرت معه إليه، فلما نظر إليّ تنحّى عن مقعده وأقعدني ثم قال: هذا قد أعددته للنيروز لسيدتي هدية، وأنت أولى من تجشم[1] مع الخادم إليها. قلت: السمع والطاعة. ثم صاح في الدار: هاتوا الهدية، فإذا مائة تخت من ثياب، وصندوق من ذهب مقفل عليه، فقال: في التخت والصندوق مبلغ ثلاثين ألف دينار، وأنت أولى من تفضل بالإيصال فصرنا إليها واستأذنا، فلما مثلنا بين يديها أنكرتني وقالت: من الشيخ؟ قلت: الخليع شاعر العراق ومعي هدية عبدك ضمرة، فصاحت في الدار تلك، فإذا جارية كأنها الظبية المنفلتة من الشبكة. قالت لها: خذي هذه الهدايا وفرّقيها على جواري الدار، ثم قالت: أيطمع الخِنَّوْص[2] من أن يجتمع معي بعد قبولي الهدية في ثلاثين سنة؟ قلت لها: العفو عند المقدرة يعدل عتق رقبة. قالت: ففي خمس عشرة سنة؟ قلت لها: أنقصيها أولى بك، قالت: في ثلاث سنين؟ قلت لها: حطة[3] أخرى وقد اجتمعنا.

---

(١) جشم جشْماً وجَشامةً الأمرَ: تكلفة بمشقة.

(٢) الخِنَّوْص م خِنَّوصة ج خنانيص: ولد الخنزير.

(٣) الحِطَّة: الوضع، أي أنزل المدة مرة أخرى.

قالت: لا والله لا آكل ولا أشرب حتى آتيه، وأمرت أن يسرج لها وبادرت إلى باب ضمرة مبشراً، فما وصلت وأسمعت صلاصل اللجم فإذا هي قد سبقتني في جواريها وخدمها، فدخلت فإذا هما يتعانقان ويتعاتبان فقلت: يا سيدتي ما أنتما إلى شيء أحوج منكما إلى خلوة. قالا هو ذاك، فانصرفت عنهما ثم بكّرت عليهما فإذا هي في المرقد الأول جالسة عليها جبة وشيء مطير وهي تعصر الماء عن ذوائبها وتصلح قرونها[1] فاستحيتني وقالت: لا تفكرن في ريبة فوالله ما صلينا البارحة حتى بعثت إلى عبد الرحمٰن بن أبي ليلى القاضي فزوّجت نفسي سيدي ولكن صر إليه فإنه في المرقد الثاني، فصعدت إليه فلما نظر إليّ وثب إليّ وقبّل بين عيني وقال: يا شيخ قد جمع الله بيني وبين سيدتي بك، ثم دعا بداوة وقرطاس وكتب إلى ابن نوح الصيرفي في ثلاثة آلاف دينار، فرجعت إليها فقالت: بماذا برّك سيدي؟ فأقرأتها الرقعة، فقالت: نعجل إليك مثلها، فدعت بمال وطيار[2] ووزنت ثلاثة آلاف دينار ودعت بعشرة أثواب من ثياب مصر وقالت: هذه وظيفتك[3] علينا كل عام فخرجت من عندها وأخذت مرفوعي من آل سليمان وانصرفت إلى العراق. وكان الرشيد متكئاً فاستوى جالساً وقال: أوه يا حسين لولا أن ضمرة سبقني إليها لكان لي ولها شأن من الشأن.

ومنه مع الشعراء

قال: استأذنت بِنْتٌ لعبد الملك بن مروان في الحج، فأذن لها وكتب إلى الحجّاج يأمره بالتقدم إلى عمر بن أبي ربيعة أن لا يذكرها في

(١) القرون: منبت الذوائب.
(٢) الطيَّار: الميزان.
(٣) الوظيفة: ما يُعَيَّن من مال أو طعام ورزق وغير ذلك.

شعره. فلما بلغ عمر مقدمها لم يكن له همة إلا أن يتهيأ بـأجمل مـا يقدر عليه من الحلل والثياب، وضربت لها قبة في المسجد الحرام فكانت تكون فيها نهاراً فإذا أمست تحوّلت إلى منزلها لتنظر إليه وتجلس بإزاء القبة، وقد خبر عمر بشأنها فإذا أرادت الطواف أمرت جواريها فيسترنها بـالمطارف[1] فكانت تتطلع إلى عمر كثيراً، وكانت تسأل من دخل عليها عنه رجاء أن يكون قد قال شيئاً، فلم يفعل حتى قضت الحج ورحلت ونزلت من مكـة على أميال، فأقبل راكبٌ من مكة فسألته من أين أقبلت؟ قال: من مكة، قالت: عليك وعلي فرقة أنت منها لعنة الله. قال: ولِمَ يا ابنة عبد الملك؟ قالت: قدمنا مكة فأقمنا أشهراً فما استطاع الفاسق عمر بن أبي ربيعة أن يزوّدنا من شعره أبياتاً كنا نلهو بها في سفرنا هذا، قال: فلعله قد فعل. قالت: فاذهب إليه واسأله ولك في كل بيت تأتيني به منه عشرة دنانير، فأقبل الرجل وأتى عمر بن أبي ربيعة فأخبره الخبر فقال له: فعلت ولكن أحب أن تكتم علي قال: افعل. ثم أنشده:

راع الـفـؤادَ تـفـرُّقُ الأحـبـابِ ... يـومَ الرحيـل فهـاجَ لي أطـرابي[2]
فـظللتُ مكتئبـاً أكفـكفُ عَـبْـرة ... سَحًّا تفيض كـوابـلِ الأسـرابِ[3]
لـمـا تنـادوا لـلرحيـل وقـرَّبـوا ... بُـزْلَ الجمـالِ لِـطِيَّةٍ وَذهـابِ[4]
كـاد الأسى يقضي عليـكَ صبـابـةً ... والـوجهُ منـكَ لبَيْنِ إلْفِـكَ كـابي[5]

---

(١) المطارف، واحدها مِطرف: أردية من خز مربعة منقوشة.
(٢) الطرب ج أطراب: وهو خِفَّة تعتري الإنسان من فرح أو حزن.
(٣) العبْرة: الدمعة. سحَّ سَحًّا الماء: صبَّه صبًّا متتالياً غزيراً. الأسراب مفردها سرب: القناة يدخل منها الماء. الماء السائل.
(٤) البازل ج بُزْل: البعير الذي طلعت أنيابه. الطِّية: هيئة الطيّ، الناحية والجهة.
(٥) كبا يكبو كَبْواً لوجهه: انكبَّ على وجهه.

قالتْ سُكينةُ[١] والدموعُ ذوارفٌ ... منها على الخدّينِ والجِلبابِ
ليتَ المُغيريَّ[٢] الذي لم نَجْزِهِ ... فيما أطالَ تَصَيُّدي وطِلابي
كانت تردُّ لنا المنى أيامُنا ... إذ لا نُلام على هوًى وتَصابي
وأيامَ نكتُمُ ودَّنا ونودُّه ... سراً مخافةَ منطقِ المُغتابِ
أُخبِرْتُ ما قالتْ فبتُّ كأنما ... يُرْمَى الحَشَا بنوافِذِ النشّابِ
فبعثتُ جاريتي وقلتُ لها اذهبي ... قولي لها في خِفيَةٍ وقَرابِ[٣]
أسعيد[٤] ما ماءُ الفراتِ وطيبُهُ ... مني على ظمأٍ وطيبِ شَرابِ
بألذَّ منكِ وإن نأيْتِ وقلَّ ما ... ترعى النساءُ أمانةَ الغُيَّابِ
إنْ تبْذُلي لي نائلاً[٥] أشْفي به ... سقمَ الفؤادِ فقد أطلتِ عذابِي
وَعَصَيْتُ فيكِ أقاربي فتقطَّعت ... بيني وبَينَهُمُ عُرى الأسبابِ
فبقيتُ كالمُهريقِ فضلةَ مائه ... في حرِّ هاجرةٍ لِلمْعِ سَرابِ[٦]

ثم أتى إليها بالأبيات فأعجبت بها وأمرت جواريها بحفظها، ثم وفّت له بما وعدت وسلمت إليه في كل بيت عشرة دنانير.

وقال: أخبرنا محمد بن خلف قال: أخبرني أبو بكر العامري قال: حدثني موسى بن عمر بن أفلح مولى فاطمة بنت الوليد بن عبد شمس بن

---

(١) سعيدة: [سُكَيْنَة] أنظر ديوان عمر شرح محمد محيي الدين عبد الحميد المكتبة التجارية الكبرى بمصر طبعة ثانية ١٩٦٥ ص ٤٣٥.
(٢) المغيري: يقصد نفسه نسبة إلى حذيفة بن المغيرة.
(٣) بقراب: أي بقرب.
(٤) أسعيد: [أَسُكَيْنَ].
(٥) النائل: العطيّة والمعروف.
(٦) المهريق: المريق من أراق يريق. والسراب: الآل يكون نصف النهار لاطئاً بالأرض لاصقاً بها كأنه ماء جار ﴿ يحسبه الظمآن ماء ﴾.

المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قال: حدثني بلال مولى ابن أبي عتيق قال: قام الحارث بن عبد الله بن عباس بن أبي ربيعة من الحج فأتاه ابن أبي عتيق، فقال: كيف تركت أبا الخطّاب؟ فقال: هجرت الثريا عمر فقال:

مَنْ رسولي إلى الثريا فإني ... ضِقتُ ذَرْعاً بِهجْرِها والكتابِ

سلبتْني مجَّاجةُ المِسكِ عقلي ... فسلوها بما يحِل اغتصابي؟[1]

أبرزوها مثلَ المَهَاةِ تهادى ... بين خمسٍ كواعبٍ أترابِ[2]

وهْيَ مكنونَةٌ تحيَّر منها ... في أديم الخدّينِ ماءُ الشبابِ[3]

وتكنَّفْنَها كواعِبُ بِيضٌ ... واضحاتُ الخدودِ والأقرابِ[4]

في سِخابٍ من القَرَنْفُلِ والدرِّ ... نفيسٍ واهاً له من سخابِ[5]

قلتُ لما ضربن بالسَّجف دوني ... ليس هذا لو دنا بثوابِ[6]

فتبدَّتْ حتى إذا جُنَّ قلبي ... حالَ دوني ولائدُ بالثيابِ[7]

حين شبّ القتولَ والعنقَ منها ... حسنُ لون يرف كالزريابِ[8]

ذكَّرتني بِبَهْجةِ الشمس لما ... طلعتْ في دُجُنَّةٍ وسحابِ

---

(١) مجاجة المسك: نفاثة المسك، يفوح منها المسك. بما يحل: [ماذا أحلَّ] أنظر ديوان عمر ص ٥٨.

(٢) المهاة: البقرة الوحشية تشبه بها المرأة في سعة العينين. والترب ج أتراب من ولد معك وفي سنك. وأكثر ما يستعمل في المؤنث.

(٣) الأديم: الجلد.

(٤) القرب ج أقراب: الخاصرة.

(٥) السّخاب: القلادة من قرنفل.

(٦) السجف: سجف البيتَ: أرخى عليه سَجْفاً، الستر عموماً.

(٧) وليدة ج ولائد: الجارية الصغيرة.

(٨) الزرياب: الذهب أو ماؤه.

دُمْيَــةٌ عــنــد راهــبٍ وقــســيــسٍ صوَّروها في مـذبحِ المـحـرابِ
فــارجحنَّتْ في حسنِ خَلْقٍ عميم تتهـادى في مَشيهـا كـالـحُبـابِ[1]
ثم قــالــوا تحبّهــا؟ قـلتُ: بهْــراً عـدَدَ الرمـلِ والحصا والـتُّرابِ[2]

وقال لغلامه: انطلق بكتابي هذا إلى أبي عتيق بالمدينة فادفعه إليه، فأقبل الغلام بالكتاب حتى دفعه إليه، فلما قرأه قال: والله أنا رسوله إليها، فسار حتى قدم مكة لا يعلم به أهله، فأتى منزله فوجده غائباً فانطلق غلام عمر إلى عمر، فقال: إن رجلاً قدم وهو يطلبك من شأنه وهيئته كذا، قال: ويحك ذلك ابن أبي عتيق اِذهب إليه فقل له: إن مولاي يأتيك الآن، وكان عمر على فرسخين بل على رأس ثلاثة أميال من مكة، فأتاه الغلام فأخبره فقال: أسرج لي أنت برذون عمر فإن دابتي قد تعبت وكلّت، فأسرجـه له فركب وأتى الحي فصهل البرذون وسمعت الثريا صهيله، فقالت لجواريها: هـذا هو برذون الخبيث عمر، ثم دعت ببغلة لهـا فوضعت عليهـا رحلها فخرجت فإذا هي بابن أبي عتيق فقالت: مرحباً بعمي ما جاء بـك يا عم؟ قال: أنت والفاسق جئتما بي. قالت: أما والله لو بغيرك تحمَّل علينا ما أجبناه ولكن ليس لك مدفع أمر ربنا نحوه، فأقبل حتى انتهى إلى عمر فخرج عمر إليه وقبل يده ثم قال: اِنزل جعلني الله فداك، فقال: ماء مكة عليّ حرام حتى أخرج منها، ثم دعا ببغلته فركبها وانصـرف إلى المدينـة وخلا عمـر بالثريا.

وحـدّث الزبيـر بن بكار عن أبي محـرم عن إبراهيم بن قـدامة قـال عمر بن أبي ربيعة: ألا أحدثك حديثاً حلواً، قال: قلت: نعم. قال: بينا

---

(١) ارجحنَّت: مالت واهتزت. الحُباب: الحيَّة.
(٢) بهـراً: معنى بهراً في هـذا البيت: جمًّا.

أنا جالسٌ إذ جاءني خالد الخريت، فقال: يا أبا الخطاب، هل لك في هند وصواحبها فقد خرجن إلى نزهة؟ قلت: وكيف لي بذلك؟ قال: تلبس لبسة أعرابي وتعتم عمامته وتركب مركبه كأنك ناشد ضالة، قال: ففعلت، وجئت حتى وقفت عليهن أنشد ضالتي فقلن: اِنزل، فنزلت وقعدت أحادثهن وأغازلهن، فلما رمت النهوض قالت لي هند: إجلس لا جلست أنت، ألا ترى أنك وقفت علينا غريباً؟ ونحن والله وقفنا على غربتك نحن بعثنا خالداً وخدعناه وأطعمناه في أنفسنا حتى جاء بك، فقال خالد: صدقن والله خدعنني وخدعنك، فجلست وتحدثنا فأنشدتهن فقالت هند: يا سيدي لقد رأيتني منذ أيام وقد أصبحت عند أهلي فأدخلت رأسي في جيبي ونظرت فإذا هو ملء الكف ومنية المتمني فناديت يا عمراه يا عمراه، قال عمر: فقلت يا لبيك يا لبيك ثلاثاً ومددت في الثالثة صوتي فضحكت وحادثتهن ساعة ثم ودعتهن وانصرفت فذلك قولي:

عرفتُ مصيفَ الحيِّ والمتربَّعا ... ببطنِ حُلَيّاتٍ دوارسَ بَلْقعا[1]

إلى السفح من وادي المُغَمّسِ بَدّلتْ ... معالمُهُ وَبْلاً ونكباءَ زعزعا[2]

لهندٍ وأترابٍ لهندٍ إذِ الهوى ... جميعٌ وإذ لم نَخْشَ أن يتصدَّعا

---

(١) عرفت مصيف الحي والمتربَّعا: وردت في ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ١٧٧: ألم تسأل الأطلال والمُتَرَبَّعا. الأطلال ج طلل: وهو ما بقي ظاهراً على سطح الأرض من آثار الديار، المتربع: المنزل الربيعي.. بطن حُليات: موقع قرب المُغَمَّس على طريق الطائف. دوارس: ج دارس الذي انمحت معالمه. البلقع ج بلاقع: الأرض القفر. دار بلقع: أي مقفرة.

(٢) الشَّرى: موضع قريب من مكة ذكره عمر في الكثير من شعره. الوبْل: المطر الكثير. النكباء: الريح التي تنحرف عن مهاب الرِّياح القُوَّم وتقع بين ريحين مثلاً: بين الصبا والشمال ونكباء الصبا والشمال تسمى أيضاً: النكباء. والزعزع: التي تحرك الأشياء بشدة وتقلقها.

وإذ نحن مثلُ الماءِ كانَ مِزاجُهُ إذا صفّق الساقي الرحيقَ المُشَعْشَعا[1]
وإذ لا نطيعُ الكاشحينَ ولا نرى لواشٍ لدينا يطلبُ الصَّرمَ مطمعا

وقال عمر: ما رأيت يوماً غابت عواذله وحضرت عواذره بأحسن من يومنا ولا صبوة كصبوتنا ولا قيادة كقيادة خالد ولا أملح ولقد وصفت ذلك في شعر، فقلت في تمام ما تقدم:

أتاني رسولٌ من ثلاثِ حرائرٍ ورابعةٍ يزكو لها الحسنُ أجمعا
فقلتُ لمُطْريهنَّ في الحُسْنِ إنما ضَرَرْتَ فهل تسْطِيع نفعاً فتنفعا؟
لئنْ كانَ ما حَدَّثتَ حقاً فما أرى كمثل الألى أطْريتَ في الناس أربعا[2]
وهيّجتَ قلباً كان قد ودَّع الصِّبا وأشياعَه فاشفعْ عسى أن تُشفَّعا
فقال: تعال انظرْ، فقلتُ: فكيف بي أخافُ مقاماً أن يشيعَ فَيَشْنُعا
فقال: اكتفلْ ثم التثمْ فأتِ باغياً فسلّمْ ولا تُكثرْ بأنْ تتورَّعا[3]
فإني سأُخفي العينَ عنكَ فَلَا تُرى مخافَةَ أن يَفْشُو الحديثُ فَيُسْمَعَا
فأقبلتُ أهوي مثلَ ما قالَ صاحبي لموعِدِهِ أُزجي قعوداً مُوقَّعا[4]
فلما تواقفنا وسلّمتُ أشرقت وجوهٌ زهاها الحسنُ أن تتقنَّعا
تَبالَهْنَ بالعِرفانِ لما عَرَفْنَني فقلنَ أمرُؤٌ باغٍ أكلَّ وأوضعا[5]
فلما تنازعنَ الأحاديثَ قلنَ لي: أخِفْتَ علينا أن نغرّ ونُخدعا؟

---

(١) صفّق الساقي: مزج الخمرة وخلطها: الرحيق: الخمرة.
(٢) الأُلى: اللاتي: والإطراء: المدح.
(٣) اكتفلِ: اركب الكِفْل وهو من مراكب النساء. والتثم: ضع اللثام على وجهك باغياً: طالباً.
(٤) أهوي: أسرع، أزجي: أسوق. القعود: ما يقتعده الراعي في كل حاجة.
(٥) تَبَالَهْنَ: تظاهرن بالبله وما بهن بله. أكلَّ: أتعب راحلته وأضعفها. أوضع: سار حثيثاً.

فمـا جئتنا إلاّ عَلَى وَفْقِ مـوعـدٍ — على مـلأٍ منـا خـرجنـا لـه معـا
رأينـا خـلاءً من عيـونٍ ومجلسـاً — دميثَ الثرى سهلَ المَحَلّةِ مُمرعـا[1]
وقلن: كـريمٌ نـال وصـل كـرائمٍ — فحُقَّ لـه في اليـوم أن يتمتعـا
وفيهن هنـدٌ تكمـل الهمّ والمنـى — وإخداع عيني كلما رمتُ مهجعا

قال: ولما أنشد عمرُ بن أبي ربيعة ابنَ أبي عتيق قصيدته التي يقول فيها:

فَـبَـعَـثْـنَـا طَـبَّـةً مُـحْـتَـالَـةً — تمـزج الجِـدَّ مِـراراً بـاللَّعِبْ[2]
تـرفـعُ الـصَـوتَ إذا لانتْ لـهـا — وَتَـرَاخَى عنـد سَوْرات الغَضَبْ

قال ابن أبي عتيق: امرأتي طـالق إن لم يكن الناس في طلب مثـل هذه منذ قتل عثمان، يجعلونها خليفة فلم يقدروا عليها وأنت تريدها قوّادة.

قال: ولما هجا كثير[3] بني ضمرة فقال:

ويُحشـرُ نـورُ المسلمينَ أمـامهم — ويُحشَـرُ في أستاه ضَمْـرَةَ نـورُهـا

اشتدت بنو ضمرة عليه وعلى عزة وأرادوا قتله، ووضعوا لـه العيون فمكث شهراً لا يصل إليها فالتقى جميل وكثير، فشكـا أحدهما إلى صاحبه ما يلقى، فقال جميل: أنا رسولك إلى عَزَّة فأخبرني ما كان بينكما، قال: آخِرُ ما لقيتُها بالطَّلْحةِ مع أتراب لهـا. قال: فـأتاهم جميـل[4] وهو ينشـد

---

(١) الدَّميث: السهل الممهد. والممرع: المخصب.
(٢) الطَّبَّة: الحاذقة الخبيرة بطرق الحيلة. تَـراخى: تتراخى أي تتهـاون. سورات الغضب ج سورة: الشدة.
(٣) كُثَيِّر: كثير عَزَّةَ شاعر أقام في المدينة، غالى في تشيعه وقال بالرجعة والتناسخ وبإمامـة المهدي محمد بن الحنفية، تَغَزَّل بعزَّة فسمي بها.
(٤) جميل: شاعر من بني عذرة تغنى بمعشوقته بُـثَيْنَـة حتى عرف بجميل بثينة، في شعره صدق العاطفة وبساطة التعبير مما حبَّبه إلى المغنّين توفي في مصر.

ذوداً[1] له ففطنت عزة فقالت: تحت الطلحة[2] ألتمس ذوداً هناك فانصرف جميل فأخبر كُثَيِّراً. فلما كان في بعض الليل أتيا الطلحة فأقبلت عزة وصاحبة لها فتحدثا ملياً، وجَعَل كثيّر يرى عَزَّةَ تنظر إلى جميل وكان جميلاً وكثيّر دميماً فغضب كثيّر وغار عليها وقال لجميل: انطلق بنا قبل أن يصبح علينا الصبح فانطلقا فعند ذلك يقول:

رأيتُ ابْنَـةَ الشِّبليِّ عَـزَّةَ أصبحتْ كمُحْتطبٍ ما يلقَ بالليلِ يَحْطِبِ
وكـانـتْ تُمـنِّيـنَـا وتَـزْعَـمُ أنـنـا كبيْضِ الأَنُوقِ في الصفا المُتَغَيِّبِ[3]

ثم قال كثير لجميل: متى عهدك ببثينة؟ قال: في أول الصيف بوادي الدوم ومعها جواريها يغسلن ثياباً، فخرج كثير حتى أناخ بهم وهو يقول:

وقلت لهـا: يا عـزُّ أرسلَ صـاحبي على بُعـدِ دارٍ والـرسـولُ مـوكَّـلُ
بـأن تجعلي بيني وبينَـكِ مـوعِـداً وأن تـأمـريني بـالـذي فيـه أفعلُ
أما تـذكـرينَ العهـدَ يـومَ لقيتكمْ بأسفلَ وادي الـدوْم والثوبُ يُغسلُ

فعلمت بثينة ما أراد فصاحت إخسأ إخسأ، فقال عمّها: ما دهاك يا بثينة؟ قالت: إن كلباً يأتينا من وراء هذا التل فيأكل ما يجد ثم يرجع، فرجع كثير، قال لجميل: قد وعدتك التل فدونك. فخرج جميل وكثير حتى انتهيا إلى الدومات وقد جاءت بثينة فلم تزل معه حتى برق الصبح، وكان كثير يقول: ما رأيت مجلساً قط أحسن منه.

---

(١) الذّود: الإبل لا يتجاوز عددها الثلاثين ولا يقل عن الثلاث.
(٢) الطلحة ج طلح: شجر عظيم من شجر العضاه له شوك وصمغ ترعاه الإبل.
(٣) بيض الأَنُوقِ: الأَنُوقِ: الرَّخمة. وفي المثل: «أعزُّ من بيض الأَنُوق» لأنها تحرزه فلا يكاد يَظفر به لصعوبة الصعود والوصول إلى أوكارها في أعالي الجبال والأماكن الصعبة. والصفاة ج صفا: الحجر الصلد الضخم.

حدثنا عمر بن شبة عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال: حدثني شيخ من خزاعة قال: ذكرنا ذا الرّمة[1] وعندنا عصمة بن مالك الفزاري وهو يومئذٍ ابن عشرين ومائة سنة فقال: إياي فاسألوا عنه، كان من أظراف الناس خفيف العارضين آدم[2] حلو المضحك إذا أنشد اختصر. وأتاني يوماً فقال: إن مية منقرية وإن بني منقر أخبث حي وأعلمه بأثر، فهل عندك من ناقة يزورها عليها؟ قلت: أي والله عندي اثنتان. قال: فسرنا فخرجنا حتى أشرفنا على الحي وهم خلوف، فعرف النساء ذا الرمة فعدلن بنا إلى بيت مي وأنخنا عندهن فقلن لذي الرمة: أنشدنا يا أبا الحارث فقال: أنشدهن، فأنشدتُهن قوله:

نظرتُ إلى أظْعانِ ميٍّ كأنها ... ذُرى النَّخلِ أو أثْلٌ تمِيد ذوائبُهْ[3]
فأشعَلَتِ النيرانَ والصدرُ كاتمٌ ... بمغرورقٍ نَمَّتْ عليه سواكبُهْ
بكى وامِقٌ جاءَ الفِراقُ ولم تَجُلْ ... جوائلُها أسرارُه ومعاتبُهْ[4]

فقالت ظريفة: منهن أبكي اليوم فمررت فيها حتى انتهيت إلى قوله:

إذا سرحَتْ من حبِّ ميٍّ سوارحٌ ... على القلبِ آبْته جميعاً عَوازِبُهْ[5]

---

(١) ذو الرُّمَّة: غيلان بن عقبة بن بهيش ويكنى أبا الحارث، شاعر بدوي، أحد عشاق العرب المشهورين وصاحبته مية عاصر جرير والفرزدق وله ديوان شعر.

(٢) آدم: سواد مع بعض الصفرة.

(٣) الأثل: واحدته أثلة. شجر من فصيلة الطرفائيات يكثر قرب الماء في الأراضي الرملية أوراقه دقيقة وأزهاره عنقودية، الظعينة ج أظعان وظعائن: الهودج أو الزوجة ما دامت في الهودج.

(٤) الوامق: العاشق المحب. جائل ج جوائل: ما سفرته الريح من حطام النبات وسواقط ورق الشجر فجالت به. يقال: «أجلْ جائلتك» أي: «اقض ما أنت فيه». يقول: جاء الفراق فبكى لأنه لم يتمكن من الإفضاء لحبيبته بما يكنه قلبه من حب وعتاب.

(٥) سرحت الماشية سرْحاً وسروحاً: سامت والسارح والسارحة سواء: الماشية ج سوارح. =

فقالت الظريفة: قتلته قتلك الله فقالت: ما أصحه وهنيئاً له. فتنفس ذو الرمة تنفساً كادت حرارته تساقط لحمي ثم مررت فيها حتى انتهيت إلى قوله:

وقد حلفتْ باللَّهِ ميَّةُ ما الذي ... أقولُ لها إلّا الذي أنا كاذبُهْ
إذاً فرَماني اللَّهُ من حيثُ لا أرى ... ولا زالَ في أرضي عَدوٌّ أحاربُهْ

فالتفتت مي إلى ذي الرمة فقالت: ويحك خف عواقب الله. ثم أنشدت إلى أن انتهيت إلى قوله:

إذا نازعتكَ القولَ ميَّةُ أو بدا ... لك الوجهُ منها أو نضا الدِّرعَ سالبُهْ
فيا لكَ من خدٍّ أسيلٍ ومنطق ... رخيمٍ ومن خَلْقٍ يُعلِّلُ جاذِبُهُ[٦] [١]

فقالت تلك الظريفة: أما القول فقد نازعتك، والوجه فقد بدا لك، فمن لنا بأن يَنْضُرَ الدرع سالبه؟ فقالت لها مي: قاتلك الله ما أنكر ما تجيئين به اليوم، فتحادثنا ساعة ثم قالت تلك الظريفة: ما أحوج هذين إلى الخلوة فنهضت وسائر النساء فصرت إلى بيت قريب منهما حيث أراهما فما ارتبت بشيء ولا رأيت أمراً كرهته فلبث ساعة ثم أتاني ومعه قارورة وثلاث قلائد فقال: هذا طيب زودتناه مي وقلائد أتحفتك بها ابنة الجودي،

= آب: عاد، رجع بعد غياب. عوازب ج عازب من لا أهل له وتكون بمعنى: ذهب وبَعُد: عزبت الإبل: أبعدت في المرعى، وعزب الرجل بإبله: إذا رعاها بعيداً من الدار التي بها الحي لا يأوي إليهم. يقول: إذا سرحت (خطرت) يقص ذكريات حب مي على قلبه (تشبيهاً بسروح الماشية) تعود إلى قلبه جميع عوازب الذكريات التي كانت بعيدة.

(١) نضا نضواً الثوب: خلعه وألقاه عنه. الأسيل: الأملس. الخَلْق: الصورة والهيئة التي خلقها الله وهي في كلام العرب: ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه. يقول: إذا تبادلت الحديث مع ميَّة أو نظرت إلى وجهها أو خلعت ثيابها فإنك ترى خداً أملس ناعماً وتسمع حديثاً رخيماً وترى جسداً جذاباً يشغل رائيه.

فكنا نختلف إليها حتى انقضى المربع ودعانا الصيف فرحلوا قبلنا، وأتاني ذو الرمة فقال: قد ظعنت مي فلم يبق إلا الديار والنظر إلى الآثار، فاخرج بنا إلى دارها فخرجت معه حتى إذا وقفنا عليها أنشأ يقول:

ألا فاسلمي يا دارَ مَيّ على البلى ولا زال مُنهّلاً بجرعائكِ[1] القطرُ

حتى أتى على آخرها ثم انهملت عيناه بعبرة، فقلت له: ما هذا؟ قال: إني لجليد وإن كان مني ما ترى، فما رأيت أحداً أحسن شوقاً وصبابةً وعزاءً منه.

وعن سليمان راوية أبي نواس: قال: كنت مع أبي نواس أسير حتى انتهينا إلى درب القراطيس، فخرج من الدرب شيخ نصراني وخلفه غلام كأنه غصن بانٍ يتثنى كأحسن ما رأيت فقال: يا سليمان أما ترى الدرّة خلف البعرة؟ ثم قال: هل لك أن تأخذ مني رقعة فتوصلها إليه. قلت: بلى، فكتبها ودفعها إلي فأوصلتها إليه فإذا أملح غلام وأخفه روحاً، فقال: من صاحب الرقعة؟ قلت: أبو نواس. قال: أين هو؟ قلت: على باب درب القراطيس. قال: فليقف مكانه حتى أروح . وكان في الرقعة:

تمرّ فأسْتحييكَ أنْ أتكلَّما وَيَثْنيكَ زَهْوُ الحُسْنِ عنْ أنْ تُسَلِّما
وَيَهْتَزُّ في ثوبيْكَ كلَّ عشيّةٍ قضيبٌ من الريحان أَضحى منعَّما
فحسبُكَ أنَّ الجسمَ قد شفّه الهوى وأنَّ جفوني فيك قد ذَرَّفَتْ دما
أليس عجيباً عند كلِّ موحّدٍ غَزَالٌ مسيحيٌّ يُعذِّبُ مسلما؟
فلولا دخولُ النارِ بعد تنصّرٍ عبدتُ مكانَ اللَّهِ عيسى بنَ مريما

وحدثنا الجماز قال: كنت يوماً على باب عدي الدراع فمر بي

---

(١) جرعاء ج جرعاوات وأجارع: رملة مستوية لا تنبت شيئاً.

أبو نواس شبيهاً بالمجنون فإذا خلفه غلام كأنه مهر عربي فقلت له: مالك؟ فقال:

إن الرزيَّةَ[1] لا رَزِيَّـةَ مثلَهـا عَـوَزُ المكـانِ وقـد تهيَّـا المـركَبُ

فعدلت به وبالغلام، فأقاما سائر يومهما.

قال: وكان عبيد الله بن يحيى يتعشق غلاماً من دار المتوكّل[2] يقال له رشيق فلا يصل إليه، حتى طال ذلك عليه، وكان أبو الأخطل يخلفه في الموكب وينبسط إليه، فقال له عبيد الله يوماً: يا أبا الأخطل من لي برشيق؟ فقال: الصفر[3] الصِّغار، والبيضُ الصِّحاح. وجعل عبيد الله يلقى رشيقاً في الدار فيخلو به ويسارّه ويعطيه مائة دينار في كل لقية إلى أن علم رشيق بما في نفس عبيد الله، وكان يتعذر عليهما الاجتماع لقضاء الوطر واللذة. فركب أمير المؤمنين يوماً ومعه أبو الأخطل فطلب عبيد الله وتعمد أبو الأخطل رشيقاً فرده إليه، فلما ظفر به في منزله خالياً قضى حاجته منه وركب يريد أمير المؤمنين مسرعاً فوصل إلى الموكب وقد تصبب عرقاً فقال أبو الأخطل:

لا خَيْـرَ عنـدي فـي الـخـلـيـلِ ينـامُ عـن سَهَـرِ الـخـلـيـلِ

---

(١) الرزية ج رزايا: المصيبة، يقول: المصيبة التي لا أجد مثيلاً لها أن أجد المركوب ولا أجد المكان.

(٢) المتوكل على الله: الخليفة الأول في العصر العباسي الثاني جعفر بن المعتصم ولد (بفم الصلح) وهو إقليم على قناة كبيرة تعرف بهذا الاسم تأخذ من دجلة، ويكنى أبا الفضل ولّاه أخوه الواثق إمارة الحج ثم حدَّ من نفوذه ثم حبسه من أجل منام رآه فُسِّر له على أنه ينازعه الخلافة، ثم أصبح خليفة، قيل فيه الخلفاء ثلاثة: أبو بكر يوم الردّة وعمر بن عبد العزيز في رده المظالم، والمتوكل في إحياء السنّة.

(٣) الصُّفرة: من الألوان معروفة، وهي أيضاً: السَّواد ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كأنه جمالاتٌ =

قـولـوا لِأكْـفـرِ مـنْ رأيـتُ ... لـكـل مـعـروفٍ جـليـلِ
هـل تـشـكـرنَّ لـيَ الـغَـدا ... ةَ تلطُّفي لـك في الرسـولِ؟
إذْ نـحـنُ فـي صيـدِ الـجبـا ... ل وأنت في صيْـدِ السهـول

ما قيل فيه من الشعر:

وتمشّيتَ في الجميـل فـأسـرعْتَ ... وإنْ كنتَ لستَ تَـأتي جميـلا
إنَّ مـنْ مـدَّ لـلقـيـادةِ رِجْـلاً ... لـحـرِيٌّ بـأنْ يكـون نـبيـلا

وقال آخر:

لَـهُـوَاهُ لائْـتـلاف ... وَمـلاهُ[1] لاخـتـلافِ
ليس يقـرأ من كتـابِ الله ... إلا لإيـلافِ

وقال آخر:

إن الـرّقـاشـيَّ مِـنْ تـكـرمـهِ ... بـلّغـه اللَّهُ منتـهـى هِـمَـمِـه
يَـبـلُغُ مـن بِـرِّهِ ورأفـتِـهِ ... حُمْـلان أضيـافِهِ على حُـرَمِـه[2]

ومن محاسن ذلك حدثنا علي بن الحسين بن علي بن عثمان بن علي بن الحسن قال: كانت ضمير جارية مولدة لميمونة بنت الحسن بن علي بن زيد، فأدّبتها وعلمتها الغناء فبرعت فيه، وكانت من أحسن الناس وجهاً وبدناً وأبرعهم غناءً وضرباً فأعطيت بها مولاتها عشرة آلاف دينار، فلما أرادت أن تبيعها وأحضر المال، بكت وقالت: يا سيدتي رَبَّيتِني

= صُفْرٌ﴾ سورة المرسلات الآية ٣٣. وقد يكون السواد مع الصفرة ويسمى أصحم، فإذا زاد سواده على الصفرة فهو آدم، فإن اشتد سواده فهو أدهم.

(١) مَلَهَ: رجل مليه ومُمْتَله: ذاهب العقل. يقول: هواه للعشق والغرام وعقله للخلاف ولذلك لا يقرأ من كتاب الله إلاَّ سورة لإيلاف قريش.

(٢) حملان أضيافه على حُرمه: بلغت به الرأفة على ضيوفه فأغْراهم بزوجاته.

واتَّخَذْتِنِي ولداً ثم تريدين بيعي فأتغرّب عنك ولا أرى وجهك؟ قالت: أشهد الله ومن حضر أنك حرة لوجه الله. فلما ماتت ميمونة خطبها آل أبي طالب وغيرهم فغلب عليها جعفر بن حسن بن حسين فتزوجها وأحبها حباً شديداً، فقدم بها البصرة فقال علي بن الحسين وكان يجالسها ويسمع غناءها: أردت الخروج إلى الرضا[1] بخراسان، فودعت جعفراً وخرجت فأقمت بالأهواز أياماً أتهيأ للخروج على طريق فارس فورد علي كتاب جعفر: أنه قد وقع بينه وبين ضمير شر وأنها قد أغلظت له حتى تناولها ضرباً وأنها على مفارقته وسألني القدوم لأصلح بينهما، فقال علي بن الحسين: وكانت لي حاجة بالرضا وكنت أرجو لذلك في وجهي منه ومن المأمون الغنى. فلما قرأت كتابه لم أعط صبراً حتى انصرفت راجعاً إلى البصرة. فجئت إلى جعفر فأوقعت به شتماً وعذلاً ثم أرسلت إليها: أقسمت عليك بحقي ألا رجعت؟ فخرجت مرهاء[2] شعثة[3] وسخة الثياب حتى جلست، فجلست بينهما فأقبل جعفر يعطيني من نفسه لها كل ما أريد وهي ساكتة ثم قلت: يا جارية هاتي العود فأخذته فأصلحت منه حتى تغنّت وهي تبكي ودموعها تكف:

أرتجي خالقي وأعلمُ حقاً ... أنه ما يشاء ربي كفاني
لا تلمني وارفُقْ خليلي بشأني ... إنه ما عَناكَ يوماً عَناني

قال علي بن الحسين: فوالله ما رأيت أحسن منها ولا أرقّ من غنائها

(١) الرضا: هو علي الرضا العلوي. صاهره الخليفة المأمون وولّاه عهده تقرباً بالعلويين بتأثير من وزيره الفضل بن سهل، وقد أثارت مبايعة علي الرضا غضب العباسيين فنادوا بخلع المأمون وبايعوا إبراهيم بن المهدي بالخلافة في بغداد وظل خليفة لمدة سنتين وقد مات علي الرضا في طريقه إلى بغداد.

(٢) المُرْهة: البياض لا يخالطه لون غيره، والمرهاء: البيضاء مؤنث الأمْره.

(٣) الأشعث م شعثاء ج شعث: من كان شعره ملبّداً مُغَبّراً منفوشاً.

بهـذا الصوت فمـا برحت حتى اصـطلحا وألهتني والله عن الغنى فـأقمت بالبصرة.

وعن الكلبي قـال: بينا عمـر بن أبي ربيعة يـطوف بالبيت في حـال نسكه فإذا هو بشاب قد دنا من شابة ظاهرة الجمال فألقى إليها كلامـاً. فقال عمر: يا عدوّ الله في بلد الله الحرام وعند بيته تصنع هذا؟ فقال: يا عمّاه إنها ابنة عمّي وأحبّ الناس إلي وإني عندها لكذلك ومـا كان بيني وبينهـا من سوء قط أكثر مما رأيت. قال: ومن أنت؟ قال: أنا فلان ابن فلان. قال: أفلا تتزوجها؟ قال: أبى علي أبوها. قال: ولمَ؟ قال: يقول ليس لك مال. فقال: انصرف والقني. فلقيه بعد ذلـك، فدعـا ببغلة فـركبها ثم أتى عم الفتى في منـزله فخـرج إليـه فـرحـاً ورحّب وقـرب فقـال: مـا حـاجتـك يا ابن الخطاب؟ قال: لم أرك منذ أيام فاشتقت إليك. قال: فانزل، فأنزله وألطفه. فقال له عمـر في بعض حديثـه: إني رأيت ابن أخيك فـأعجبني تحركه وما رأيت من جماله وشبابه. قال له: أجل ما يغيب عنك أفضل مما رأيت. قال: فهل لك من ولد؟ قال: لا، إلا فلانة. قال: فما يمنعك أن تزوِّجه إياها؟ قال: إنه لا مال له. قال: فإن لم يكن له مال فلك مال. قال: فإني أضن به عنه. قال: لكني لا أضن به عنه فزوّجه واحتكِم، قال: مائة دينار. قال: نعم. فدفعها عنه وتزوّجها الفتى وانصرف عمـر إلى منزلـه، فقامت إليه جارية من جـواريه فـأخذت رداءه وألقى نفسـه على فراشهـا، وجعل يتقلب فأتته بطعام فلم يتعرض له فقالت: أظنـك والله قد وجـدت بعض ما كان يعرض لك من حكم النساء فلا تكتمهـا. فقال هـاتي الدواة فكتب:

تَـقُـولُ ولـيـدتـي لـمَّـا رأتْـنـي طَـرِبْتُ وكنتُ قد أقصـرتُ حينا[1]

---

(١) الوليدة: الجارية. أقصرت: كففتُ وتركت.

أراكَ اليومَ قد أحدثْتَ شوقاً | وهاجَ لكَ الهوى داءً دفينا
وكنتَ زَعَمْتَ أنَّكَ ذو عَزاءٍ | إذا ما شئْتَ فارقتَ القرينا[١]
بِرَبِّكَ هل أتاك لها رسول | يسرك أم لقيت لها خدينا؟[٢]
فقلتُ شكا إليَّ أخٌ مُحِبٌّ | كبعض زَمانِنا إذْ تَعْلَمينا
وذو القلبِ المُصاب ولو تَعَزَّى | مشوقٌ حين يَلْقَى العاشقينا
فقصَّ عليَّ ما يلقى بهند | وأشبه ذاك ما كنا لقينا
فكمْ مِنْ خُلّةٍ أعْرضْتُ عنها | وكنتُ بودها دهراً ضنينا[٣]
أردتُ فِراقَها فَصبرْتُ عنها | ولو جُنّ الفؤادُ بها جُنونا

قال: وقال عمر بن أبي زبيعة: بينا أنا خارج محرماً إذ أتتني جارية كأنها دمية في صفاء اللّجين في ثوب قصب كقضيب على كثيب[٤]، فسلّمت علي وقالت: أنت عمر بن أبي ربيعة فتى قريش وشاعرها؟ قلت: أنا والله ذاك. قالت: فهل لك أن أريك أحلى الناس وجهاً؟ قلت: ومن لي بذلك؟ قالت: أنا والله لك بذلك على شريطة. قلت: وما هي؟ قالت: أعصبك وأربط عينيك وأقودك ليلاً. قلت: لك ذاك. قال: فاستخرجت معجراً[٥] من قصب عجرتني به وقادتني حتى أتت مضرباً، فلما توسّطته فتحت العجارة عن عيني، فإذا أنا بمضرب ديباج أبيض مزرّر بحمرة مفروش بوشي كوفي، وفي المضرب ستارة مضروبة من الديباج الأحمر،

---

(١) القرينا: أي الرفيق والصاحب أو الزوج.
(٢) الخدين: الصاحب.
(٣) خُلَّة: صاحبة وخليلة. الشطر الثاني من البيت ورد في ديوان عمر: من أجلكُمُ وكنت بها ضنينا بدلاً من: وكنت بودها دهراً ضنينا.
(٤) اللُّجَيْن: الفضة (مصغراً لا مكبر له) الكثيب: ج كثبان وكثب وأكثبة: التل من الرمل.
(٥) المِعْجر والعِجارج معاجر: ثوب تلفُّه المرأة على رأسها ثم تجلبب فوقه بجلبابها.

عليها تماثيل ذهب، ومن ورائها وجه لم أحسب أن الشمس[١] تطلع من جبينها وتغرب في شقائق خدها. قالت: أنت عمر بن أبي ربيعة فتى قريش وشاعرها؟ قلت: أنا ذلك يا منتهى الجمال. قالت أنت القائل:

بينما يَنْعتنني أبصرنني دونَ قيدِ الميلِ يعدو بي الأغرْ
قالتِ الكبرى: أما تعرفْنَ ذا؟ قالت الوسطى: بلى هذا عمر
قالتِ الصُّغرى وقد تيّمتُها قد عرفناهُ وهل يخفى القمر؟[٢]

قلت: أنا والله قائلها يا سيدتي. قالت: ومن هؤلاء؟ قلت: يا سيدتي والله ما هو عن قصد مني ولا في جارية بعينها ولكني رجل شاعر أحبّ الغزل وأقول في النساء. قالت: يا عدو الله يا فاضح الحرائر أنت قد فشا شعرك بالحجاز وأنشده الخليفة والأمراء ولم يكن في جارية بعينها؟ يا جواري أخرجنه فخرجت الوصائف فأخرجنني ودفعنني إلى الجارية فعجرتني وقادتني إلى مضربي فبتّ بليلة كانت أطول من سنة، فلما أصبحت بقيت هائماً لا أعقل ما أصنع فما زلت أرقب الوقت، فلما كان وقت المساء، جاءتني الجارية وسلّمت علي وقالت: يا عمر هل رأيت ذلك الوجه؟ قلت: أي والله. قالت: فتحب أن أريكه ثانية؟ قلت: إذا تكرمت فتكونين أعظم الناس علي منّة، فقالت على الشريطة. فاستخرجت المعجر

---

(١) أن الشمس تطلع: ورد في نسخة ثانية: «أن الشمس وقعت على مثله حسناً، وجمالاً، فقامت كالحَجِلة، وقعدت قبالتي وسلّمت عليَّ فخيّل لي أن الشمس تطلع إلى آخر الجملة».

(٢) الأبيات الثلاثة وردت في ديوان عمر ص ١٥١ مختصرة في بيتين هما:

بينما يذكْرنني أبْصرنني دون قيد الميل يعدو بي الأغرْ
قلن: تعرفن الفتى؟ قلن: نعم قد عرفناه وهل يخفى القمر؟

الأغر: الفرس الذي في جبهته بياض.

وعجرتني وقادتني فلما توسطت المضرب فتحت العصابة عن وجهي فإذا أنا بمضرب ديباج أحمر مدثر ببياض مفروش بفرش أرمني، فقعدت على نمرقة[١] من تلك النمارق فإذا أنا بالشمس الضاحية قد أقبلت من وراء الستر تتمايل من غير سكر، فقعدت كالخجلة فسلّمت علي وقالت: أنت عمر بن أبي ربيعة فتى قريش وشاعرها؟ قلت: أنا ذاك. قالت: أنت القائل:

ونـاهـدةِ الثَّـديينِ؛ قلتُ لهـا آتَّكي ... على الرمل في ديمومة[٢] لم تَوَسّدِ
فقالت: على آسم اللّهِ أمرُكَ طاعةٌ ... وإنْ كنتُ قد كُلِّفْتُ ما لم أُعَوَّد
فما زلتُ في ليلٍ طويلٍ مُلَثّماً ... لذيذَ رُضابِ المسك كالمُتَشَهّدِ
فلما دنا الإصباحُ قالتْ: فضحْتني ... فقمْ غيرَ مَطرودٍ، وإن شئتَ فآزْدَد
فما آزدَدْتُ منها واتشحت بمرطها ... وقلت لعينيَّ آسفحا الدمعَ من غدِ[٣]
فقامتْ تُعفِّي بالرِّداءِ مكانَها ... وتطلُبُ شذْراً من جُمانٍ مُبَدّدِ[٤]

قلت: أنا قائلها. قالت: فمن الناهدة الثديين؟ قلت: يا سيدتي قد سبق في الليلة الأولى، والله ما هو مني قصد ولا في جارية بعينها ولكني رجل شاعر أحب الغزل وأقول في النساء. قالت: يا عدو الله أنت قد فشا شعرك بالحجاز ورواه الخليفة وتزعم أنه لم يكن في جارية بعينها؟ يا جواري ادفعنه، فوثبت الجواري فأخرجنني ودفعنني إلى الجارية

---

(١) نمرقة ج نمارق: الوسادة الصغيرة يتّكأ عليها.

(٢) في ديمومة: من دام دوماً ودواماً وديمومةً: ثبت وامتدَّ واستمرَّ. والجبَّانة ج جبابن: ما استوى من الأرض في ارتفاع ولا شجر فيه، المقبرة، الصحراء.

(٣) المِرط: كل ثوب غير مخيط، كساء من صوف أو غيره يؤتزر به.

(٤) عفا: محا. يقول: قامت فامَّحى بالرداء أثر جلوسها، أي أنها تلبس ثوباً طويلاً. الشُّذرة: القطعة ج شذرات وشذور. والجُمان: اللؤلؤ. ويقصد بالجمان المبدَّد: الدموع.

فعجرتني وقادتني إلى مضربي فبتّ في ليلة كانت أطول من الليلة الأولى، فلما أصبحت أمرت بخلوق فضرب لي وبقيت أرقب الوقت هائماً. فلما كان وقت المساء جاءتني الجارية فسلّمت علي، وقالت: يا عمر هل رأيت ذلك الوجه؟ قلت: أي والله. قالت: أفتحب أن أريكه الثالثة. قلت: إذاً تكونين أعظم الناس علي منّة. قالت: على الشريطة. قلت: نعم فاستخرجت المعجر وعجرتني به وقادتني حتى أتت بي المضرب فلما توسّطته فتحت العصابة عن عيني فإذا أنا في مضرب ديباج أخضر مدثر بحمرة مفروش بخزّ أحمر وإذا أنا بالشمس الضاحية قد أقبلت من وراء الستر كحور الجنان فسلّمت علي وقالت: أنت عمر بن أبي ربيعة فتى قريش وشاعرها؟ قلت: أنا ذاك. قالت: أنت القائل:

نعبَ الغرابُ ببَيْنِ ذاتِ الدُّملُجِ ... ليتَ الغرابَ ببيْنِها لم يشحجِ[1]
ما زلتُ أتبعهمْ وأتبعُ عيسهم ... حتى دُفِعْتُ إلى ربيبةِ هَوْدجِ[2]
قالت: وعيش أخي وحرمة والدي ... لأنبهنّ الحيَّ إن لم تخرجِ
فتناولت رأسي لِتَعْلَمَ مسَّهُ ... بِمُخضَّبِ الأطرافِ غيرِ مُشنَّجِ
فلثْمت فاها آخذاً بقرونها ... شُرْبَ النزيفِ ببرْدِ ماء الحشْرجِ[3]

قلت أنا قائلها: قالت: يا عدو الله أنت الذي فضحتها ونفسك، وجهي من وجهك حرام إن عدت إلي، يا جواري أخرجنه فوثبت إلي الوصائف وأخرجنني ودفعنني إلى الجارية فعجرتني وقادتني وقد كنت عند خروجي من مضربي ضربت يدي بالخلوق وأسدلت عليها ردائي. فلما صرت إلى باب مضربها أخرجت يدي ووضعتها على جانب المضرب

---

(١) الدملج ج دمالج: حلي يلبس في المعصم. والمشحج: صوت الغراب إذا أسنَّ.
(٢) العيس: الإبل البيض يخالط بياضها سواد خفيف.
(٣) الحشْرج: الكوز الدقيق يُبرَّد به الماء.

وضعاً بيناً، فلما أصبحت صحت بغلماني وغبيدي ولي ألف عبد: من أتاني بخبر المضرب الذي ضرب فيه بكذا وكذا فهو حر لوجه الله. فلما كان في وقت المساء أتت وليدة سوداء، فقالت: قد عرفت المضرب وهو لرملة أخت عبد الملك بن مروان فأعتقتها وأمرت لها بمائتي دينار، وأمرت بمضربي فقلع وضرب بحذاء مضربها، وكتب بالخبر إلى عبد الملك بن مروان فكتب إليها بالرحيل فركبت هودجها وركبت فرسي فزاحمتها في بعض الطريق فأشرفت عليّ من هودجها، فقالت: إليك عني أيها الرجل، قلت: خاتم أو قميص أذكرك به، فقالت لبعض جواريها ألقي إليه قميصاً من قمصي فأخذته وأنا أقول:

فلا وأبيكَ ما صوتَ الغواني ... ولا شربَ التي هيَ كالفُصوصِ[1]
أردتُ برحلتي وأريدُ حظاً ... ولا أكلَ الدَّجاجِ ولا الخبيصِ[2]
قميصٌ ما يُفارقُني حياتي ... أنيسٌ في المُقامِ وفي الشُّخوصِ

وجعلت أنزل بنزولها وأركب بركوبها حتى كنا من الشام على ثلاث مراحل فاستقبلها عبد الملك في خاصته، فدخل إليها ثم قال: يا رملة ألم أنهك أن تطوفي بالبيت إلاّ ليلاً يحفّك الجواري، ويحف الجواري الخدم، ويحف الخدم الوكلاء لئلا يراك عمر بن أبي ربيعة، قالت: والله وحياة أمير المؤمنين ما رآني ساعة قط فخرج من عندها فبصر بمضربي، فقال: لمن المضرب؟ قيل: لعمر بن أبي ربيعة، قال: عليَّ به فأتيته بلا رداء ولا حذاء فدخلت عليه وسلّمت عليه فقال: يا عمر ما حملك على الخروج من الحجاز من غير إذني؟ قلت: شوقاً إليك يا أمير المؤمنين وصبابة إلى

---

(١) الفصوص ج فص: حَبَب الماء.
(٢) الخبيص: الحلواء المخبوصة.

رؤيتك، فأطرق ملياً ينكت في الأرض بيده ثم رفع رأسه فقال: يا عمر هل لك في واحدة؟ قلت: وما هي يا أمير المؤمنين؟ قال: رملة أزوجكها. قلت: يا أمير المؤمنين وإن هذا لكائن؟ قال: إي ورب السماء. ثم قال: قد زوّجتك فادخل إليها من غير أن تعلم. فدخلت عليها، فقالت: من أنت؟ هبلتك[1] أمك. فقلت: يا سيدتي أنا المعذب في الثلاث، فارتحلت وأنا عديلها فأنشأت أقول:

لَعمري لقد نلتُ الذي كنتُ أرتجي ... وأصبحتُ لا أخشى الذي كنتُ أحذرُ
فليسَ كمثلي اليومَ كِسرى وهُرْمُزٌ ... ولا المَلِكُ النعمانُ مثلي وقيصرُ

فلم أزل معها بأحسن عيش وغبطة.

محاسن الدبيب

الأصمعي قال: أخبرني رجل من بني أسد أنه خرج في طلب إبل قد ضلّت، فبينا هو يسير في بلاء وتعب وقد أمسى في عشية باردة إذ رفعت له أعلام، قال: فقصدت بيتاً منها فإذا أنا بامرأةٍ جميلةٍ ذات جزالة[2] فسلّمت فردت علي السلام ثم قالت: أدخل، فدخلت فبسطت لي ومهدت وإذا في حجرها صبي أطيب ما يكون من الولدان. فبينا هي تقبله، إذ أقبل رجل أمام الإبل دميم المنظر ضئيل الجسم كأنه بعرة دمامةً واحتقاراً، فلما بصر به الصبي هش إليه وعدا في تلقائه فاحتمله وجعل يقبله ويفديه. فقلت في نفسي: أظنه عبداً لها. فجاءني ووقف بباب الخيمة وسلّم فرددت عليه السلام، فقال: من ضيفكم هذا؟ فأخبرته فجلس إلى جانبها وجعل يداعبها

---

(١) هبلتك أمك: ثكلتك أمك.

(٢) الجزالة: جودة الرأي، والجزلة من النساء العظيمة العجيزة والاسم من ذلك الجزالة، والجزيل: العظيم، وعطاء جزيل إذا كان كثيراً والكلمة هنا تعني: عظيمة العجيزة.

فطفقت أنظر إليها تارة وإليه أخرى أتعجب من اختلافهما، كأنها الشمس حسناً وكأنه القرد قبحاً، ففطن لنظري وقال: يا أخا بني أسد أترى عجباً؟ قال: تقول أحسن الناس وجهاً وأقبح الناس وجهاً فليت شعري كيف جمع بينهما؟ أخبرك كيف كان ذلك، قلت: ما أحوجني إلى ذلك: قال: كنت سابع إخوتي كلهم لو رأيتني معهم ظننتني عبداً لهم وكان أبي وإخوتي كلهم أصحاب إبل وخيل، وكنت من بينهم مطروحاً لكل عمل دَني للعبودية تارة ولرعي الإبل أخرى، فبينا أنا ذات يوم تعب مكتئب إذ ضلّ لنا بعير، فتوجه إخوتي كلهم في بغائه فلم يقدروا عليه، فأتوا أبي وقالوا: ابعث لنا فلاناً ينشد لنا هذا البعير. فدعاني أبي وقال: اخرج فانشد هذا البعير. فقلت: والله ما أنصفتني ولا بنوك أما إذا الإبل درّت ألبانها وطاب ركوبها فأنتم جماعة أهل البيت أربابها وإذا ندَّت ضلَّالها فأنا باغيها، فقال: قم يا لكع[1] فإني أراه آخر يومك. فغدوت مقهوراً خلق الثياب حتى أتيت بلاداً لا أنيس بها فطفقت يومي ذلك أجول القفر، فلما أمسيت رفعت لي أبيات فقصدت أعظم بيت منها فإذا امرأة جميلة مخيلة للسؤدد والجزالة[2] فبدأتني بالتحية وقالت: انزل عن الفرس وأرح نفسك فأتتني بعشاء فتعشيت، وأقبلت هذه تسخر مني وتقول: ما رأيت كالعشية أطيب ريحاً منك ولا أنظف ثوباً ولا أجمل وجهاً، فقلت: يا هذه دعيني وما أنا فيه فإني عنك في شغل شاغل، فأبت علي. وقالت: هل لك أن تلج على السجف إذا نام الناس؟ فأغراني والله الشيطان، فلما شبعت من القرى وجاء أبوها وإخوتها فضجعوا أمام الخيمة قمت ووكزتها برجلي. قالت: ومن أنت؟ قلت: الضيف، قالت: لا حياك الله أخرج عليك لعنة الله، فعلمت أني

---

(١) اللُّكع: الصبي الصغير، الأحمق، العبد، اللئيم.

(٢) مخيلة للسؤدد: أي خليقة بالمجد، والجزالة هنا بمعنى: جودة الرأي.

لست في شيء من أمرها فولّيت راجعاً، فواثبني كلب لهم كأنه السبع لا يطاق فأراد أكلي فأنشب أنيابه في مدرعة صوف كانت علي، وجعل يمزقني فردّني القهقرى وتعذر علي الخلاص، فأهويت أنا والكلب من قبل عقبي في بئر فأحسن الله إلي أنه لا ماء فيه، فلما سمعت المرأة الواغية أتت بحبل فأدلته وقالت: ارتق لعنك الله فوالله لولا أنه يقتص أثري غداً لوددت أنها قبرك، فاعتنقت الحبل فلما كدت أن أتناول يدها قضى أن تهور ما تحت قدميها فإذا أنا وهي والكلب في قرار البئر، بئر أيما بئر؟ إنما هي حفرة لا طي لها ولا مرقاة كأشد بلية بنا، الكلب ينبح من ناحية، وهي تدعو بالويل والثبور من ناحية، وأنا منقبع قد برد جلدي على القتل من ناحية، فلما أصبحت أمها فقدتها فلما لم ترها أتت أباها فقالت: يا شيخ أتعلم أن ابنتك ليس لها أثر يحس؟ وكان أبوها عالماً بالآثار تابعاً لها، فلما وقف على شفير البئر ولّى راجعاً فقال لولده: يا بني أتعلمون أن أختكم وضيفكم وكلبكم في البئر؟ فبادروا كالسباع فمن بين آخذٍ حجراً وآخر سيفاً أو عصاً، وهم يومئذٍ يريدون أن يجعلوا البئر قبري وقبرها، فلما وقفوا على شفير البئر قال أبوهم: إن قتلتم هذا الرجل طولبتم بدمه وإن تركتموه افتضحتم، وقد رأيت أن أزوّجها إياه، فوالله ما يقدح لها في نسب ولا في حسب، ثم قال لي: أفيك خير؟ فلما شممت روح الحياة وثاب إليَّ عقلي. قلت: وهل الخير كله إلا فيّ؟ فهات احْتكمْ[1]. فقال: مائة بكرة وبكرة[2] وجارية وعبد، فقلت: لك ذلك وإن شئت فازدد. فأُخرجَتْ أولاً، والكلب ثانياً، وأُخْرِجْتُ ثالثاً فأتيت أبي، فقال: لا أفلحت فأين البعير؟ قلت: اربع[3]

---

(١) احتكم: بمعنى أحكم. حكّمه في الأمر أي أجاز حكمه فيه يقال: حكّمته في مالي: إذا جعلت إليه الحكم فيه فاحتكم عليه في ذلك.

(٢) بكرة ج أبكار: الفتي من الإبل.

(٣) اربعْ: توقّفْ، يقال: اربع عليك أو على نفسك: أي توقّف.

عليك أيها الشيخ فإنه كان من القصة كيت وكيت، قال: أفعل والله ولا أخذلك. فدعا بالإبل فأعد منها مائة بكرة وبكرة وسقناها مع جارية وعبد وأخذتْ منه هذه غرة نفسها[1]، قال: هي والله كذلك وجعلت تصدف عن حديث زوجها صدوف المهرة العربية سمعت لجامها، وربما قالت: لا أطاب الله خبرك.

ضده في مساوىء الدبيب

قال: وقيل لخراش الأعرابي: حدِّثنا ببعض هناتك، قال: خرجت في بغاء ذود لي فدفعت في عشية شاتية إلى أخبية كثيرة، فضافوا وحيوا ورحبوا، فلما أردت النوم أقاموا فتاة لهم من موضع مبيتها، وجعلوني مكانها لئلا أتأذى بالغنم، وإني لمضطجع إذا أنا بيد إنسان يجامشني[2] ويريد في الظلمة مؤاتاتي فقعدت، فإذا أنا برجل يمد يده ومعه علبة فيها أرنب مشوية، فأخذتها وجعلتها في شيء كان معي، ثم مد يده ثانياً فناولته يدي فأقبضني على غرمول كمثل الوتد، فلم أنفر منه ولم أره وحشة وجردت ما عندي، وتناولت يده فأقبضته على مثل ما أقبضني عليه ففطن، ورمى بملحفة خز كانت عليه ووثب مذعوراً، فنفرت الإبل وهاجت الغنم، وكدت أغشى لما بي من الضحك وأخفيت ما بي وكتمته، فلما أصبحت ركبت راحلتي ومعي الملحفة والعلبة والأرنب، فلما امتد الضحى إذا أنا بإبل فأخذت نحوها فإذا شاب حسن الهيئة فسلمت فرد السلام، ثم قال: إن كان معك ما نأكل نصب من هذا الرطب، فأخرجت العلبة فلما رآها عرفها وقال: إنك هو؟ قلت: وما هو؟ قال: صاحب البارحة، قلت: نعم

---

(١) الغرّة: غرّة الشيء أوله وأكرمه، الغُرَّة: العبد أو الأمة، يقصد أخذت مهرها.

(٢) الجمش: المغازلة، ضَرْبٌ بقرص ولعب. وجمشه: قرصه ولاعبه.

إن كنت إياه، قال: الحمد لله الذي أتى بك إذ لو لم تأت لظننت أني أوسوس، وذلك أني لصاحبة الستر عاشق، وتعلم ما فعلت وفعلت البارحة ولا تطيقت له حتى ابتلاني الله بك البارحة، وجعلت أقول حين أقبضتني عليه أتراها تحولت رجلاً؟ وإني لفي شك من أمري حتى أتاني الله بك. فأكلت أنا وهو الأرنبَ وشربنا من اللبن وصرنا أصدقاء.

حدثنا الأصمعي قال: أتى خالد بن عبد الله أعرابي فأضافه وأحسن إليه وبذل له صحن الدار، فلما كان في بعض الليل أشرف عليه يتعاهدُ منه ما كان يتعاهد من ضيفه فإذا هو قد دبّ على جارية وهو على بطنها فأعرض عنه، فما لبث الأعرابي أن فرغ وقام يمسح فيشلته[1] بالحائط. فضربته عقرب فصاح واستغاث وأشرف خالد عليه وهو يقول:

وداري إذا نامَ سُكَّانُها ... تُقِيمُ الحدودَ[2] بها العقْربُ
إذا غَفِلَ الناسُ عن دينهمْ ... فإنَّ عقاربَنا تغضبُ

قال: وكان أعرابي ضيفاً لقوم فنظر إلى جارية جميلة فدبّ إليها فإذا عجوز في صحن الدار تصلي فعاد إلى فراشه، ثم عاودها فنبح الكلب، ثم عاد إليها فإذا القمر قد طلع، فأنشأ يقول:

لم يَخْلُقِ اللَّهُ خَلْقاً كنتُ أكرهُهُ ... إلا العجوزَ وعينَ الكلبِ والقمرِ
هذا يصيحُ وهذا يُستضاءُ بهِ ... وهذه شَيْخَةٌ قَوَّامَةُ السَّحَرِ

وقال: وشرب سعيد بن حميد البصري عند راشد فدبّ على غلامه فكتب إليه سعيد:

ما سمعنا من قَبْلِها بأديبٍ ... بارعِ الظَّرفِ ماجدٍ قَمْقامِ[3]

---

(١) الفيشلة: الحشفة.

(٢) الحدود ج حد: العقوبة، القصاص.

(٣) القمقام: السيد، الأمر العظيم، العدد الكثير، وهي هنا: السيد.

ضَـلّ عنه وهْـوَ المهـذبُ علمـاً فتكـاتُ الكؤوسِ بـالأحـلامِ[1]

أين مـا جاء من حـديثِ رسول اللَّهِ مــولاي سـيـدِ الـحـكـامِ؟

مـا على مُثْقِلٍ من النومِ والسَّكـرا نِ عـيبٌ فـيمـا أتـى من أثـامِ[2]

ثـم أين الـذي بـه حَـكَـمَ الـمـأ مونُ في الظَّرفِ منه والإسلامِ؟

أيُّـمـا مـاجـدٍ أراد سُـروراً بـاجتمـاع من معشـر النَّـدامِ[3]

فعليـهِ طيُّ البِسـاطِ بمـا قـد سنّـهُ السُّكـرُ من قبيـحٍ وذامِ

حُلْتَ بيني وبين عقلي بـأرطـا لـك والمتـرعـات من كـل جامِ[4]

ثم وكَّلتَ في العَسُـوفِ[5] رشيقـاً فسقـاني بِـطَرْفِـهِ والمُـدامِ

ثـم بـاكـرْتَـني بعُـتْبِـكَ والـلّوْ مِ لقد حدتَ عن سبيلِ الكرامِ

وتـغضَّبْـتَ أنـني قُـدتُ عـمْـراً ثـم ثَـنَّـيْـتُ بعـده بـغَـرامِ

هـل رأيتَ الإلَـهَ يـأخـذُ مجنـونـاً بِسُكْــرٍ أوحـالمـاً في منـامِ؟

لن تـراني معـاشـراً لـك مـا عشتَ ولــو دمت عـائشـاً ألفَ عـامِ

أو تُـرى تـائبـاً وتستغـفـرَ اللّهَ لِمـا كـان من شنيـعِ الكـلامِ

فأجابه راشد فقال:

يـا أبـا جعفـرٍ سليـلَ المعـالي ونجيـبَ الأخـوالِ والأعمـامِ

---

(١) الظَّرف: الكياسة. الوعاء.

(٢) فتكات مفردها فتك: فتك يفتك فتكاً فهو فـاتك: جـريء شجاع وفتـك به: انتهـز منه فرصة فقتله: حلم ج أحلام: العقل.

(٣) الإثم: الذنب، والمأثم: الأثام وجمعه مآثم ومنه قوله تعالى: ﴿يلق أثاماً﴾ يعني عقوبة.

(٤) النّديم: الرفيق المنادم على الشراب ج ندماء ونُدمان ونِدام.
الرطل: الذي يوزن به ويكال ج أرطـال، ورجل رطـل: أحمق وتأتي بمعنى النحيف الدقيق والمراهق. والجام: الكأس (فارسية).

(٥) عسف عسفاً: الطريقَ وعن الـطريق عدل عنـه وخبـطه على غيـر هـدايـة. والعسَّـاف والعَسوف والمعسف: الشديد العسف والظلم. المدام: الخمرة.

إن يكنْ قد أتاك عنّيَ مَزْحٌ ... لم يكنْ عن حقيقةٍ في الكلامِ
أو أكنْ فيه كالذي كانَ يغدو ... بِملَام عليك في اللُّوَّامِ
إنني عالمٌ بأنَّكَ لم تأ ... تِ قبيحاً ولا ارتكابَ الآثامِ
هو ذنبُ المُدامِ لا ذنبَ خِلٍّ ... لم يزلْ حافظاً لعهدِ الذِّمامِ
ثم ذنبُ العيونِ يا ابْنَ حميدٍ ... فله الذنبُ بعد إستِ غَرامِ
قعدا في طريق أيركَ حتى ... عرَّضاه للظنِّ والاتِّهامِ
فتغمَّد أخاك بالصفـ ... ـح فالصفحُ دليلٌ على سجايا الكرامِ
إنني تائبٌ وأستغفر اللَّهَ لِما ... كان من شنيع الكلامِ

ما قيل في ذلك من الشعر:

فما أعينٌ عَشْرٌ على ساقِ نَرْجِسٍ ... تُضاحِكُ عينَ الشمسِ بالمُقَلِ الصُّفْرِ
بأحسنَ ممنْ زارني بعد هجعةٍ ... يميس هُوَيْناً في الظلامِ على ذُعرِ

قال: ودبّ رجل على قَيْنَةٍ في مجلس فغنَّت:

ماذا يُشَوِّشُ طُرَّتي ... يا قومُ في وقتِ السحرْ؟
ماذا يعالجُ تِكَّتي ... ويلاهُ عذَّبني السهر

وقال علي بن حمزة:

متورّدُ الخدّينِ من خجلٍ ... متخاذلُ الأعضاء من كسلِ
خاض الدُّجى والشوقُ يَحْمِلُه ... وأتاك يمشي غيرَ منتعلِ
ما راعني إلّا تدافُعُهُ ... كالغصنِ بين الصدرِ والكَفَلِ [1]

وقال عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

قالت: وأنبأتُها سرّي وبُحتُ بِهِ ... قد كنتَ عندي تحبُّ السَّترَ فاستترِ

---

(١) الكَفَل: من الدابة ج أكفال: العجز أو الرِّدف.

ألستَ تبصـرُ منْ حـولي فقلت لهـا غطّى هواكِ وما ألقى على بصري

محاسن الباه

حكي عن عالج جـارية مكشـوح، أنها حـدثت مولاتهـا أنها كـانت تغتسل كل يوم فسألتها عن ذلك، فقـالت: يا هـذه إنه يجب على المـرأة ما يجب على الرجل بعد احتلامه، قالت: أَوَ تَحْتَلِمين؟ قالت: إنه لا تأتي علي ليلة لا أجامع فيها إلا وأحتلم، قالت: فكيف يكون ذلك؟ قالت: أرى كأن رجلاً جامعني. ولقد رأيت ليلة كأني مررت بدكان أبي مـالك الـطحان وبغـل لـه واقف قـد أدلى ورمـاني تحتـه وأولج فـاحتملت ثم انتبهت وأنـا أجد معكة في مراق بطني[1].

قال: وكانت مهدية بنت جبير التغلبية تقول ما في بطن الرجل بضعة أحب إلى المرأة من بضعة تناط بعقد الحالبين ومنفرج الرِّجلين.

حـدثني جهم قـال: قلت لامـرأة من كلب: مـا أحب الأشيـاء من الرجال إلى النساء؟ قالت: ما يكثر الأعداد ويزيد في الأولاد.

وقال أبو ثمـامة لامـرأة من زبيدة وهي تبكي عنـد قبر. من الميت؟ قالت: كان يجمع بين حاجبي والساق ويهزني هز الصارم الأعناق، ووالله لولا ما ذكرته لك ما استهلّت بالدموع عيناي وقد كذبتـك امرأة تبكي على زوجها لغير ما أعلمتك.

قال: وركب الرشيد حماراً مصرياً وطاف على جواريـه، فقالت لـه واحدة: يا مولاي ما أكثر ما يركب هذا الحمار، قال: لأنـه يسب طيفور،

---

(١) معك معكاً: الشيء دلكه. والمعْك: الدَّلك. المرق: الذي يؤتـدم به معـروف واحدتـه: مرقة: تقول: شعرت بأن ما في بطنها من مرق يتحرك كأنه يُدْلك.

قالت: فمن يسب طيفور يركب؟ قال: نعم، قالت: ففي حِرِ أم طيفور[1]؟

قال: فنزل وواقعها وأنشد في مثله:

نـظرتُ إليهـا حين مـرّتْ كـأنهـا ... على ظهر عاديٍّ[2] فتـاةٌ من الجنِ

ولي نـظرةٌ لـو كـان يُحبِـلُ نـاظرٌ ... بِنَـظْرَتِـهِ أنثى لقـد حَـبلتْ مـني

ضده في مساوىء العنين

قال بعضهم: تزوّج العجاج امرأة يقال لها: الدهناء بنت مسحـل، فلم يقدر عليها. فشكت ذلك إلى أهلها فسألوه فراقها فأبى، وقال لأبيهـا تطلب لابنتك الباه؟ قال: نعم عسى أن ترزق ولداً فإن مات كان فرطاً[3]، وإن عاش كان قرة عين، فقدّموه إلى السلطان فأجله شهراً ثم قال:

قـد ظنَّتِ الـدهـنـاءُ وظن مِسْحَـلُ ... أن الأميـرَ بـالقضـاء يُعْجِـلُ

عن كَسَـلاتِي والحصـانُ يكسَـلُ ... عن السِّفـادِ وهـو طِـرْفٌ هيكـل[4]

ثم أقبل على امرأته فضمها إلى صدره فقالت:

تـنـحَّ لـن تَـمْلِكَـنـي بـضـمٍّ ... ولا بـتـقـبيـلٍ ولا بـشَـمِّ

قال ابن أبي الدنيا: إن أعرابياً أخبره أن امرأة منهم زفّت إلى رجل فعجز عنها فتذاكر الحي أمر الضعفاء من الأزواج عن الباه وامرأة الأعرابي تسمع

---

(١) الطيفور: الطويئر الصغير تصغير طائر. الحِسر: بكسر الحاء وتخفيف الراء الفرج.

(٢) عدا الفرس: جرى وركض.

(٣) فرط يفرط فروطاً: تقدم وسبق، والفرط ما تقدمك من أجر وعمل وفي الدعاء للطفل الميت: «اللهم اجعله لنا فَرَطاً» أي أجراً يتقدمنا حتى نرد عليه. وفرط فلان ولده وافترطه: أي مات الولد صغيراً.

(٤) السِّفاد: الجماع. والطِّرْف ج أطراف: الكريم الطرفين الأب والأم، الأصيل. والهيكل: الضخم من كل حيوان.

فتكلمت بكلام ليس في الأرض أعف منه ولا أدل على عجز الرجل عن النساء فقالت متمثلة:

تبيت المطايا حائداتٍ عن الهُدَى إذا ما المطايا لم تجدْ منْ يُقِيمُها

الرقاشي قال: حدثني أبو عبيدة قال: سمعت ناساً من الحجاز يقولون: تزوج رجل منا امرأة فعجز عنها إلا أنه إذا لامسها ابتأر فيها[1]، فقضي أن حملت وما مكثت إلا أن رأس ولدها[2]، فجلس في المجلس فقال له قائل: لقد جئت من بلل قليل. قال: جئت من بلل لو أصاب مغيض[3] أمك لكان كما قال الشاعر:

رطبُ الطباعِ إذا حرّكَت جوهَره وجدتَ أعضاءه غرقى من البللِ
ولم أهجِّنْه إلا أنه رجلُ قلَّتْ سلامتُهُ من جانب الكَفَلِ[4]

الهلالي قال: رأيت وافر بن عصام يساير المهدي، فحدثه بحديث فضحك، فقلت له: حدثني ما حدثت به المهدي. قال: سألني ما عندك للنساء؟ فقلت: ما لهن عندي إلا حديث ابن حزم. قال: وما حديثه، قلت: عمّر حتى بلغ الثمانين فتزوّج ابنة عمٍ له، فلما أهديت إليه قعد بين شقيها فأكسل وأراق على بطنها، فأقبل عليها كالمعتذر، فقال: هذا خير من الزناء قالت: كل ذلك لا خير فيه.

---

(١) بأر: أمْنَى.
(٢) رأس: أصبح رئيساً.
(٣) غاض يغيض غيضاً ومغيضاً ومغاضاً: نقص أو غار فذهب. والمغيض المكان الذي يغيض فيه الماء. وهو هنا يعني: الرحم.
(٤) هَجُنَ هُجنةً وهجونةً: كان هجيناً: الكلام دخل فيه عيب، اللئيم الذي أبوه عربي وأمه أمةٌ، ومن الخيل: الذي ولدته برذونة من حصان عربي. والكفل ج أكفال: العجز والرِّدف. يقول إنه لا يطعن في نسبه ولكنه لا يسلم من المرض لضعف بنيته.

قال: وشكت امرأة زوجها وأخبرت عن عجزه أنه إذا سقط عليها انطبق والنساء يكرهن وقوع الرجل على صدورهن. فقالت: زوجي عياياء طباقاء[1] وكل داء له دواء. وقيل في ذلك:

جَزاك اللَّهُ شرًّا مِنْ رفيقٍ ... إذا بُلِّغْتَ مِنْ رَكْبِ النساءِ
رماكَ اللَّهُ من عِرقٍ بِأفعى ... ولا عافاكَ من جُهدِ البلاء
أجُبْناً في الكريهةِ حين تَلْقى ... ونَعْظاً حين تغبر في الخَلاءِ[2]

محاسن النيروز والمهرجان

قال الكسروي: كان أول من أبدع النيروز، وأسّس منازل الملوك، وشيّد معالم السلطان، واستخرج الذهب والفضة والمعدن، واتخذ من الحديد آلات، وذلّل الخيل وسائر الدواب، واستخرج الدرّ، وجلب المسك والعنبر وسائر الطيب، وبنى القصور، واتخذ المصانع، وأجرى الأنهار، كياخسرو بن أبرويز جهان، وتفسيره حافظ الدنيا ابن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام. وكان الأصيل فيه أنه في النيروز ملك الدنيا وعمّر أقاليم إيران شهر، وهي أرض بابل، فيكون النيروز في أول ما اجتمع ملكه واستوت أسبابه فصارت سُنّة، وكان في ملكه ألف سنة وخمسين سنة ثم قتله البيوراسف، وملك بعده ألف سنة إلى أفريدون بن أثفيان وفيه يقول حبيب:

وكأنّه الضَّحّاكُ في فَتَكاتِهِ ... بالعالَمين وأنت أفْريدُونُ

فطلب البيوراسف وملك بعده ألف سنة وخمسين سنة وأسره بأرض المغرب وكبّله وسجنه بجبل دبناوند، واستوفى عدّة ما كتب الله له من

---

(١) عياياء: كالٌّ عاجز. طباقاء: من أطبق يطبق: أي يرتمي عليها بصدره.
(٢) النَّعظ: انتشار الذكر. يعني ينتشر في خلوة عن المرأة.

عمره، واتفق لأفـريدون سجن البيوراسف يوم النصف من مهرماه ومهر رُوز فسمي ذلـك اليوم المهـرجان. فـالنيروز لجم[1] والمهـرجان لأفـريدون، والنيروز أقدم من المهرجان بألفي وخمسين سنة. وقسّم جم أيـام الشهر، وجعل الخمسة الأيام الأولى للأشراف، وبعدها خمسة أيـام نيروز الملك يهب فيهـا ويصل، ثم بعـدها خمسـة أيـام لخـدم الملك، وخمسـة أيـام لخواص الملك، وخمسة أيـام لجنده، وبعـدها خمسـة أيام للرعـاع[2]، فـذلك ثـلاثون يـوماً، وابتـدع المهرجـان أفريـدون لما أسـر البيـوراسف روز مهر، وكان الملك إذا لبس زينته ولزم مجلسـه في هذين اليـومين أتاه رجل رضيٌّ الاسم مختبرٌ باليُمْن طلقُ الوجه زلقُ اللسان فيقوم قبالة الملك ويقول: اِئذن لي بالدخول، فيسأله: من أنت؟ ومن أين جئت؟ وأين تريد؟ ومن سار بك؟ ومع من قدمت؟ ومـا الذي معـك؟ فيقول: جئت من عنـد الأيمنين وأريد الأسعدين، وسـار بي كل منصـور، واسمي خجسته أقبلت معي السنة الجديدة، وأوردت[3] إلى الملك بشارة وسلاماً ورسـالةً، فيقـول الملك : اِئـذنوا لـه. فيقول لـه الملك: ادخل ويضـع بين يديه كـوبـاً من فضة، قد جمع نواحيه أرغفة قد خبزت من أنواع الحبوب من البر والشعير والدُّخْن[4] والذرة والحمص والعدس والأرز والسمسم والباقلى واللوبيـا، وجمع من كل صنف من هـذه الحبوب سبـع حبّات، فجعـل في جوانب الخـوان ووضع في وسـطه سبعة من قضبـان الشجر التي يتفـاءل باسمهـا ويتبرّك بالنظر إليها، كالخِلاف[5] والزيتون والسفرجل والرّمان منها ما يقطع

---

(١) جم: أحد ملوك فارس.
(٢) الرعاع: عامة الشعب.
(٣) أوردت : أحضرت .
(٤) الدُّخْن مفردها دُخْنة: نبات من فصيلة النجيليات له حب يقدم طعاماً للطيور والدجاج.
(٥) الخِلاف: صنف من شجر الصفصاف.

على عقدة، ومنها على عقدتين، ومنها على ثلاث، ويجعل كل قضيب باسم كورة[1] من الكور، ويكتب في مواضع ابزود وابزائد وابزون وبروار وفراخي وفراهية تأويله: زاد ويزيد وزيادة ورزق وفرح وسعة، ويوضع سبع سكرجات[2] بيض، ودراهم بيض من ضرب سنته، ودينار جديد، وضغث[3] من أسبند، ويتناول ذلك كله، ويدعو له بالخلود ودوام الملك والسعادة والعز، ولا يؤامر[4] يومه في شيء إشفاقاً من أن يبدو منه ما يكره، فجرى على سنته، وكان أول ما يقدم إليه صينية ذهب أو فضة عليها سكّر أبيض وجوز هندي مقشر رطب وجامات فضة أو ذهب، ويبتدىء باللبن الحليب الطري منه قد أنقع فيه تمر طري. فيتناول بالنارجيل[5] تميرات، ويتحف من أحب منه ويذوق ما أحب من الحلوى، وكان يرفع في كل يوم من أيام النيروز باز أبيض، وكان ممن يتيمّن بابتدائه في هذا اليوم لقمة من اللبن الصرف الطري والجبن الطري، وكان جميع ملوك فارس يتبرّكون بذلك، وكان يسرق له في كل يوم نيروز ماء في جرّة من حديد أو فضة ويقول: استرق هذا الأسعدين ويتحمل الأيمنين[6] وجعل في عنق الجرّة قلادة من يواقيت خضر، منظمة في سلك الذهب، ممدود فيها خرز من زبرجد أخضر، ولم يكن يسرق ذلك الماء إلاّ الأبكار[7] من أسافل

(١) كورة ج كور: البقعة التي تجتمع فيها المساكن والقرى.
(٢) سُكْرُجَة: الصَّحْفَةُ التي يوضع فيها الأكل. (فارسية).
(٣) الضغث: قبضة من قضبان مختلطة الرطب واليابس يجمعها أصل واحد مثل الأسل. أي الرماح. وكل حديد رهيف من سيف وسكّين.
(٤) آمر: شاور، والائتمار والاستئمار: المشاورة ويؤامر هنا بمعنى: يأمر الناس من آمر إيماراً الناسَ: كلفهم بإنشاءِ شيء أو فِعْلِهِ.
(٥) النارجيل واحدته نارجيلة: جوز الهند.
(٦) الأسعدان والأيمنان: السعد: اليُمن. واليمن: البركة ومنه التّلبية: لبيك وسعديك.
(٧) الأبكار: ج بكر: للذكر والأنثى: أول مولود لأبويه.

دارات(١) الأرحاء. وصنائع الغنى، فكان متى اجتمع النيروز في يوم السبت أمر الملك لرأس الجالوت(٢) بأربعة آلاف درهم، ولم يعرف له سبب أكثر من أن السنة جرت منهم بذلك فصارت كالجزية فكان يُبْنَى قبل النيروز بخمسة وعشرين يوماً في صحن دار الملك اثنتا عشرة أسطوانة من لبن، تزرع أسطوانة منها بُرًّا(٣)، وأسطوانة شعيراً، وأخرى أرزاً، وأخرى عدساً، وأخرى باقلى، وأخرى دخناً، وأخرى ذرة، وأخرى لوبيا، وأخرى حمصاً، وأخرى سمسماً وأخرى ماشاً(٤)، ولم يكن يحصد ذلك إلا بغناء وترنّم ولهو، وكان يوم السادس من يوم النيروز، وإذا حصد نثر في المجلس، ولم يكسر إلى روزمهر من ماء فروردين وإنما كانوا يزرعون هذه الحبوب للتفاؤل بها، ويقال أجودها نباتاً وأشدها استواءً دليل على جودة نبات ما زرع منها في تلك السنة. فكان الملك يتبرّك بالنظر إلى نبات الشعير خاصة، وكان مؤدب الرماة يناول الملك يوم النيروز قوساً وخمس نشّابات، ويناول الملك قيّمه على دار المملكة أترجة(٥)، فكان فيما يغني بين يدي الملك غناء المخاطبة، وأغاني الربيع، وأغاني يذكر فيها أبناء الجبابرة وتوصف الأنواء وأغاني أفرين، والخسرواني والماذراستاني والفهليد، وكان أكثر ما يغني العجم الفهليد مع أيام كسرى أبرويز، وكان من أهل مرو وكان من أغانيه مديح الملك وذكر أيامه ومجالسه، وفتوحه، وذلك بمنزلة الشعر

---

(١) ودارة : ج دارات : كل موضع يدار به شيء يحجره، دارة القمر : الهالة التي حوله والصنيعة ج صنائع : الإحسان. والأرحاء: مفردها رَحى : الصدر، سيد القوم، يقال: «هو رحَى قومه» أي سيدهم. يقول: ولا يسرق ذلك الماء إلا الأبكار من أسافل دارات الأسياد وصنائعهم.

(٢) جالوت: اسم رجل أعجمي.

(٣) البُرُّ: القمح.

(٤) الماش: نوع من الحبوب التي تؤكل.

(٥) الأتْرج: شجر من جنس الليمون، واحدته: أُتْرُجَّة: ويسمي العامة ثمره «الكبّاد».

في كلام العرب يصوغ له الألحان، ولا يمضي يوم إلا وله فيه شعر جديد وضرب بديع، وكان يذكر الأغاني التي يستعطف بها الملك ويستميحه لمرازبته[1] وقواده ويستشفع لمذنب، وإن حدثت حادثة أو ورد خبر كرهوا إنهاءه إليه، قال فيه شعراً أو صاغ له لحناً كما كان فعل حين نفق[2] مركوبه شبديز ولم يجسروا على إنهاء ذلك فغنى بها، وذكر أنه ممدود في أريّه[3] مادُّ قوائمه لا يعتلف ولا يتحرك، فقال الملك: هذا قد نفق إذاً. قال: أنت قلت ذلك أيها الملك. وكان يضطر بأشعاره أن يتكلم بالذي يكره عماله أن يستقبلوه به.

العلة في صب الماء: ذكروا أن العلّة في صب الماء أنه كان أول من تكلم في المهد قبل المسيح زو بن طهماسب، وكان مات أبوه على قحط شديد قد شمل الأقاليم، فتكلم ودعا الله تبارك وتعالى فسقى الناس الغيث، وأخصبت أرضهم وعاشت مواشيهم، فجعلوا صب الماء فيه سنّة. وقد حكي أيضاً عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين صلوات الله عليه أنه قال في ذلك: أن ناساً من بني إسرائيل أصابهم الطاعون، فخرجوا من مدينتهم هاربين إلى أرض العراق، فبلغ كسرى خبرهم فأمر أن يُبنى لهم حظيرة يجعلون فيها لترجع أنفسهم إليهم، فلما صاروا في الحظيرة ماتوا وكانوا أربعة آلاف نفس، ثم إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى نبي ذلك الزمان: إن رأيت محاربة بلاد كذا فحاربهم ببني فلان، فقال: يا رب كيف أحاربهم بهم وقد ماتوا؟ فأوحى الله إليه أني أحييهم لتحارب بهم وتظفر بعدوّك، فأمطر الله عز وجل ليلة صب الماء فأصبحوا أحياء فهم الذين قال

---

(١) المرزبان: الرئيس عند الفرس.
(٢) نفق: نفد وفني وقلّ. ونفقت الدابة أو الرجل: خرجت روحهما. ماتا.
(٣) الأريّ: محل تحبس فيه الدابّة.

الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمْ ٱللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾[1] قال: هؤلاء قوم أصابتهم محنة من الأزل قحطوا زماناً فهزلوا وأجدب بلدهم فغيثوا[2] في هذا اليوم برشة من مطر فعاشوا وخصبت بلادهم فجعله الفرس سنة.

صفة الأيام: قال كسرى: يوم الريح للنوم، ويوم الغيم للصيد، ويوم المطر للّهو والشرب، وقال غيره: يوم السبت يوم مكر وخديعة، والأحد يوم غرس وبناء، ويوم الإثنين يوم سفر وطلب رزق، والثلاثاء يوم حجامة، والأربعاء يوم ضنك ونحس، والخميس يوم الحج، والجمعة يوم مسجد ونساء وكساء.

في البرد: سئل بعض الحكماء عن البرد أيّه أشد؟ فقال: إذا أصبحت السماء نقية والأرض ندية والريح شامية.

محاسن الهدايا

قال: وكتب الناس في الهدايا فأكثروا من الكلام المنثور والشعر الموزون وكلٌ يكتب ويقول بمقدار عقله وعلمه حتى قالوا: إنها قرابة وصلة كالرحم الماسة والقرابة القريبة وكلحمة النسب، وأكثروا من الشفيع لقول رسول الله ﷺ: «تهادوا تحابوا»[3]. وقيل: «الهدية تفتح الباب المصمت وتسل سخيمة القلب»[4]. وروي عن عائشة أنها قالت: «اللطفة عطفة وتزرع في القلوب المحبة». قال كان رسول الله ﷺ: «يقبل الهدية ويثيب عليها

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٤٣.

(٢) الغيث: المطر، يقال: غاثهم اللّهُ، وأصابهم غيث وغاث الله البلاد: إذ أنزل بها الغيث.

(٣) الحديث: عن أبي هريرة أخرجه أبو ليلى (الجامع الصغير: جـ ١، ص ٥١٨).

(٤) الباب المصمت: المغلق، وسخيمة القلب: ضغينة القلب.

ما هو خير منها». وقال عليه الصلاة والسلام: «لو أهدي إلي ذراع لقبلت ولو دعيت إلى كراع لأجبت»[1]. وقال عليه الصلاة والسلام: «الهدية رزق من الله عز وجل فمن أُهدي إليه شيء فليقبله». وقال ﷺ: «نعم الشيء الهدية أمام الحاجة»[2]، ما أرضي الغضبان ولا أستعطف ولا أستميل الهاجر ولا توقي المحذور بمثل الهدية والبر. وقال الله عز وجل: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ. فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾[3].

وروي أن عاملاً لعلّي رضي الله عنه قدم من بعض الأطراف فأهدى إلى الحسن والحسين سلام الله عليهما ولم يهدِ إلى ابن الحنفية فقال متمثلاً:

وما شرُّ الثلاثةِ أمَّ عمروٍ   بصاحِبِكِ الذي لا تصحبينا

فأهدى العامل إليه كما أهدى إلى أخويه.

وروي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: أن قوماً من الدهاقين[4] أهدوا إليه جامات فضة فيها الأخبصة[5] فقال: ما هذا؟ قالوا: يوم نيروز. فقال: نيروزنا كل يوم فأكلوا الخبيص وأطعم جلساءه وقسم الجامات بين المسلمين وحسبها لهم في خراجهم.

---

(١) الحديث: «لو أهدي إليَّ كُراع لقبلت، ولو دعيتُ عليه لأجبت» عن أنس رواه أحمد والترمذي وابن حبان حديث صحيح (الجامع الصغير جـ ٢، ص ٤٢٩).

(٢) الحديث: «نعم الشيء الهدية أمام الحاجة» عن الحسين رواه الطبراني حديث ضعيف (انظر الجامع الصغير جـ ٢، ص ٦٧٥).

(٣) سورة النمل، الآيتان ٣٥، ٣٦.

(٤) الدهقان: بضم الدال وكسرها مع التشديد ج دهاقنة: رئيس الإقليم، التاجر (فارسية).

(٥) الخبيص والخبيصة ج أخبصة: الحلواء المخبوصة.

وقيل: إن جلساء المهدى إليه شركاؤه في الهـدية، والهـدية تجلب المودّة وتزرع المحبّة وتنفي الضغينة، وتركها يـورث الوحشـة ويدعـو إلى القطيعة. والهدية تصيّر البعيد قريباً والعدو صديقاً، والبغيض ولياً، والثقيل خفيفاً، والعبد حراً، والحر عبداً وفيها قول الشاعر:

مـا منْ صـديقٍ وإنْ أبـدى مـودّتـه ... يوماً بأنجحَ في الحاجاتِ من طَبَقِ[1]
إذا تقنَّـع بـالمِنْـدِيـلِ منـطَلِقـاً ... لـم يخشَ نـبْـوَةَ بوّابٍ ولا غَلَقِ[2]
لا تكثـرنَّ فـإنَّ النـاسَ مـذ خُلِقُـوا ... لِـرَغْبَةٍ كـل مـا يُعْـطونَ أو فَـرَقِ[3]

وقال آخر:

إذا أردتَ قضاءَ الحاجَ[4] من أحـدٍ ... قدّم لنَجْواك ما أحببتَ من سببِ
إنّ الـهـدايـا لهـا حظٌّ إذا وردتْ ... أحظى من الابْنِ عند الوالدِ الحَدِبِ

وقد قيل: كلٌ يهدي على قدره.

وذكروا أن سليمان بن داود عليهما السلام بينا يسير بالريح، إذ أتى على عشّ قنبرة فيها أفراخ لها، فأمر الريح فعدلت عن العش. فلما نزل وافق يومه ذلـك النيروز، فجـاءت تلك القنبرة حتى رفـرفت على رأس سليمان وألقت في حجره جرادة، فقيل له في ذلك، فقال: كل يهدي على قدره.

وكان مما تهديه ملوك الأمم إلى ملوك فـارس طرائف مـا في بلدهم فمن الهند: الفيلة، والسيوف، والمسـك، والجلود. ومن تبت والصين:

---

(١) الطبق ج أطباق: ما يؤكل عليه، الصحن، الإناء المعد للطعام.
(٢) النَّبوة: الجفوة، والغلق ج أغلاق: ما يغلق به الباب.
(٣) الفَرَق: الخوف والخشية.
(٤) الحاج: الحاجة.

المسك، والحرير، والسك[1] والأواني. ومن السند: الطواويس والببغاء. ومن الروم: الديباج والبسط. وكان القواد والمرازبة، والأساورة[2]، يهدون النشّاب والأعمدة المصمتة من الذهب والفضة. والوزراء والكتّاب والخاصة من قراباتهم: جامات الذهب والفضة المرصّعة بالجوهر وجامات الفضة الملوّحة بالذهب. والعظماء، والأشراف: البزاة، والعقبان، والصقور، والشواهين، والفهود، والسروج وآلاتها. وربما أهدي الرجل الشريف سوطاً فقبله. وكانت الحكماء يهدون: الحكمة، والشعراء: الشعر، وأصحاب الجوهر: الجوهر، وأصحاب نتاج الدواب: الفرس الفاره، والشهري[3] النادر، والحمار المصري، والبغال الهماليج[4]، والظرفاء: قُرَبَ الحرير الصيني مملوءة ماء ورد، والمقاتلة: القسيَّ والرماح والنشاب، والصياقلة والزرَّادون[5]: نصولَ السيوف والدروع والجواشن[6] والبيض والأسنة. وكانت نسوة الملك تهدي إحداهن: الجارية الناهدة، والوصيفة الرائقة، والأخرى الدرة النفيسة، والجوهرة المثمنة، وفص خاتم، وما لطف وخف، وأصحاب البز: الثوب المرتفع من الخز والوشي والديباج وغير ذلك، والصيارفة: نقر الذهب والفضة وجامات الفضة مملوءة دنانير، وأوساط الناس: دنانير ودراهم من ضرب سنتهم مودعة أترجة أو سفرجلة أو تفاحة، والكاتب واقف يكتب كلَّ مُهدٍ

(١) السَّك ج سكاك وسكوك: الدرع الضيقة الحلق، المسمار.

(٢) الإسوار ج أساور وأساورة: الثابت على ظهر الفرس، الرامي بالسهام، وهو عند الفرس: القائد.

(٣) الشهريّة: ضرب من البراذين: وهو بين البرذون والمُقرِف من الخيل.

(٤) الهملاج ج هماليج: البرذون الحسن السَّير يقال: دابة هملاج: أي حسنة السير في سرعة وبخترة، والذكر والأنثى سواء في ذلك.

(٥) الصَّيْقل ج صياقلة: الذي يشحذ السيوف ويصقلها. الزرَّاد ج زُرَّاد حرفة صانع الزرد.

(٦) الجوشن ج جواشن: الدرع: البيضة: الخوذة من الحديد لوقاية الرأس.

وجائزة كل من يجيزه الملك على هديته ليودع ذلك ديوان النيروز.

ومن الهدايا التي لم يسمع السامعون بمثلها هدية أبـرويز إلى ملك الروم بعقب محاربة بهرام جوبين وقد شارف الروم، فأنفذ رسولاً يستنجده وبعث إليه مائة غلام من أبناء الأتراك مختارين في صورهم ونفوسهم، في آذانهم أقـرطة الـذهب معلّق فيها حب الـدر على مراكب بسـروج الذهب منظمة باليواقيت والزمرد، وبعث معه بمائـدة من عنبر، فتحهـا ثلاثـة أذرع، مكلّلة المستدار بالدر، لها ثلاث قوائم من ذهب إحداها ساعد أسد مع كفّه، والأخرى ساق وعلٍ مع ظلفه والثالثة كف عقاب، في كـف الأسد ياقـوتة خضراء، وبين ظلفي الوعل ياقوتة حمراء، وفي كف العقاب قبجة[1] من اللازورد عيناها ياقوتتان حمراوان تتوقدان حمرة، وفي وسط المائدة جـام من جزع يماني فاخر فتحه شبر في شبر مملوء يواقيت حمر، وسفط ذهب فيه مائة درّة كل درّة مثقال، ومائة لؤلؤة كل لؤلؤة مثقال، ومائة خاتم من ذهب مرصّع بالجوهر مشبك الأعلى حشوه مسك وعنبر، ووصل رسل أبرويز إلى ملك الروم بهذه الهدية فأنجده وأرسـل إليه عشـرين ألف فارس بـالسلاح الشاك[2]، وبعث إليه بألفي ألف دينار لأرزاق جنده، وألف ثوب منسـوج وعشرين جارية من بنات ملوك الصقـالبـة بـأقبية الـديباج المـطير[3]، في

---

(١) القبج والقَبْجَة: الحجل، تقع على الذكر والأنثى وهي كلمة معربة من كبج ويؤيد ذلك قولهم: لا تجتمع الجيم والقاف في كلمة عربية ومنها أنه كما يطلق على الحجل يطلق على الكروان أيضاً كما قاله في «لسان العرب» ونبه على كونه عجمياً معرباً.

(٢) الشاكّ: يقال: شاك في السلاح: أي كان لابساً سلاحاً تاماً وغارقاً فيه، ج شكّاك.

(٣) القباء ج أقبية: ثوب يلبس فوق الثياب كأنه اشتق من «قبا» الحرفَ أو أضمه والمولدون يسمونه (القنباز). والديباج ج ديباج ودبابيج: الثوب الذي لحمته وسداه حرير (فارسية) والمطير: النظيف المغسول. والعرب تقول: خير النساء الخفـرة العطرة المَـطِرة: أي التي تتنظف بالماء، أخذ من لفظ المطر كأنها مطرت أي صارت ممطورة أي مغسولة.

آذانهن أقـرطة الـذهب المزينـة بالـدر والياقـوت، وعلى رؤوسهن أكلّة[1] الجوهر، وأنفذ إليه عشـرين مركبـاً، على كل مـركب صليب، تحت كل صليب ألف فـــارس، وألف بـرذون، وألف شهـــري، وألف بغلة، وألف نجيب، بسروج مذهبة، وأكف مذهبة، ولجم من ذهـب مصبوب، وبرادع مذهّبة، وجلال وبراقع ديباج منسوج بالذهب واللؤلؤ، وأوقر[2] البغال من السندس والإستبرق والذهب واللؤلؤ، وبعث إليه مساحة جـريب أرض[3] من ذهب، فيه نخل من ذهب سعفه الزمرد، وطلعه اللؤلؤ، وشماريخه[4] الياقوت الأحمر وكربه الجزع[5]، وبعث إليه ألف ألف لؤلؤة كل لؤلؤة بألف دينار، وبعث إليه ألف ألف درهم مثاقيله ألف ألف دينار خسرواني، واعتذر إليه من التقصير، فقابله ملك الروم عـامه المقبـل يوم النيـروز بفارس من ذهب على شهري من فضة، عينا الشهـري جـزع أبيض محدق بسـواد، وناصيته وعرفه وذنبه شعر أسود، بيد الفارس صولجان[6] من ذهب، وإلى جـانبه ميـدان[7] من فضة، في وسط الميـدان كرة عقيق أحمـر، يحمـل

---

(١) الإكليل ج أكاليل وأكلّة: التاج، عصابة تزين بالجوهر.

(٢) بَرْدعة ج برادع ويقال: بَرْذعة: كساء يلقى على ظهر الدابة. والجل ج جلال وأجلول: للدابة كالثوب للإنسان تصان بـه. وبُرقع ج براقع: مـا تستر بـه المرأة وجههـا. وأوقر إيقاراً، الدابةَ: حمَّلها ثقيلاً.

(٣) السندس: ضرب من نسيج الديبـاج أو الحريـر (فارسيـة) والاستبرق: الـديباج الغليظ (فارسية معربة) والجريب من الأرض: مقدار معلوم الذراع والمساحة وهو عشرة أقفزة: والقفيز من الأرض: مئة وأربعة وأربعون ذراعاً والجمع أقفزة وقفزان.

(٤) شمـريخ ج شمـاريخ: العِـذْق عليه بسـرٌ أو عنبٌ، غصن دقيق رخيص ينبت في أعلى الغصن الغليظ.

(٥) الكَـرب واحدتـه كَرَبـة: أصول السعف الغـلاظ العراض التي تقـطع منها. والجُـزع: واحدته: جُزعة: خرز فيه سواد وبياض.

(٦) الصولجان والصولجانة: العصا المعقوفة الرأس. ومنها صولجان الملك.

(٧) الميدان ج ميادين: فسحة متسعة معدة لسباق الخيل ولعبها.

الميدان ثوران من فضة، والشهري يبول الماء فإذا بال انحط الصولجان على الكرة فمر بها إلى أقصى الميدان، فتحرك بحركتها الثوران والميدان ويركض الفارس على عجل تحت حوافر الشهري.

فأما أهل الإسلام فلم يسمع مثل هدية حسّان النبطي إلى هشام بن عبد الملك، فإنه أهدى إليه وإلى أمهات أولاده هدايا كثيرة من الكساء والعطر والجوهر وغيرها فاستكثرها هشام وقال: بيت المال أحق بهذا، ثم أمر فنودي عليها فبلغت مائة ألف دينار، فبعث حسان أثمانها وقال: يا أمير المؤمنين قد طابت الآن هذه مائة ألف دينار تحمل إلى بيت المال فآقبل هديتي، فقبلها ونادى على مناديه حسان سيد موالي أمير المؤمنين قد طابت الآن هذه.

واستملح المأمون من أبي سلمة ذكر هدية لطيفة قال: أهدي إلى أمير المؤمنين خواناً من جزع ميلاً في ميل فقال المأمون: أوَ قبضت الهدية؟ قال: نعم. قال: أهي في داري أم داري فيها؟ قال: بل هي في منديل فدعا بهديته فإذا خوان من جزع عليه ميل من ذهب، قد صنع من مائة مثقال بطول الخوان وعرضه، فاستملحه وقبله. وأهدت أسماء بنت داود إلى أسماء بنت المنصور مائة مركن[1] من فضة فيها أنواع اللخالخ والريحان المطيب، ومائة جفنة[2] مطيبة، وأنواع من الأطعمة والأشربة وعشراً من الوصائف في قِدٍّ واحد، فقوّمت هديتها فبلغت خمسين ألف

---

(١) المِركن ج مراكن: الإجَّانة (أناء لغسل الثياب وسوى ذلك). اللخلخة ج لخالخ ضرب من الطيب.

(٢) الجفنة ج جِفن وجِفان وَجَفَنات: القصعة الكبيرة.

دينار. وبعث الحسن بن وهب إلى المتوكل بجام من ذهب فيه ألفا مثقال من العنبر وكتب إليه:

يا إمامَ الهُدَى سُعِدْتَ من الدهـ ـر بِرُكْنٍ من الإلَهِ عزيزِ
وبظلٍ من النعيمِ مديدٍ وبحرزٍ من الليالي حريزِ
لا تَزَلْ ألفَ حِجّةٍ[1] مهرجانٍ أنت تفضي به إلى النيروز
ونعيمٍ ألذَّ من نظرِ المعـ ـشوقِ من بعدِ نَبْوةٍ ونشوز[2]

قال خالد المهلبي: أهديت إلى المتوكل في يوم نيروز ثوب وشي منسوج بالذهب، ومشمة عنبر عليها فصوص جوهر مشبك بالذهب، ودرعاً مضاعفة وخشبة بخّور نحو القامة، وثوباً بغدادياً فأعجبه حسنه ثم دعا به فلبسه وقال: يا مهلبي إنما لبسته لأسرّك به، فقلت: يا أمير المؤمنين لو كنت سوقة لوجب على الفتيان تعلم الفتوة منك فكيف وأنت سيد الناس؟

وأحسن من جميع ما تقدم ذكره قول عبد الله العباسي والي الحرمين فإنه قال: هذا يوم يهدى فيه إلى السادة والعظماء، والواجب أن أهدي إلى سيّدي الأكبر، ثم دعا بعشرة آلاف دينار فقسمها على أهل الحرمين فكانت فكرته في هذا أحسن من فعله.

التلطف في الهدايا

كتب سعيد بن حميد إلى بعضهم: النفس لك والمال منك، غير أني كرهت أن أخلي هذا اليوم من سُنَّة فأكون من المقصرين، أو أدّعي أن

---

(١) الحجَّة: السنة.
(٢) النُّشوز: العصيان، الخروج عن الطاعة. نشزت المرأة بزوجها ومنه وعليه: استعصت عليه وأبغضته.

في ملكي ما يفي بحقك فأكون من الكاذبين، وقد وجّهت إليك بالسفرجل لجلالته، والسكر لحلاوته، والدرهم لنفاقه، والدينار لعزّه، فلا زلت جليلاً في العيون، مهيباً في القلوب، حلواً لإخوانك كحلاوة السكر، عزيزاً عند الملوك لا تحسن أفنيتهم إلا بك، ولا زلت نافقاً كنفاق الدرهم. وأهدى أحمد بن يوسف إلى إبراهيم بن المهدي وكتب إليه: الأمراء أعزك الله تسهل سبيل الملاطفة في البر فأهديت هدية من لا يحتشم إلى من لا يغتنم مالاً فلا أكثره تبجحاً ولا أقله ترفعاً.

هدايا النيروز: قال: كتب الحسن بن وهب إلى المتوكل في يوم نيروز بهذه الرقعة: أسعدك الله يا أمير المؤمنين بكرّ الدهور، وتكامل السرور، وبارك لك في إقبال الزمان، وبسط بيمن خلافتك الآمال، وخصّك بالمزيد، وأبهجك بكل وعيد، وشدّ بك أزر التوحيد، ووصل لك بشاشة أزهار الربيع المونق[1] بطيب أيام الخريف المغدق، وقرب لك التمتع بالمهرجان والنيروز بدوام بهجة أيلول وتموز، وبمواقع تمكين لا يجاوزه الأمل، وغبطة إليها نهاية ضارب المثل، وعمر ببلائك الإسلام وفسح لك في القدرة والمدة، وأمتع برأفتك وعدلك الأمة، وسربلك العافية، وردَّاك[2] السلامة، ودرعك العز والكرامة، وجعل الشهور لك بالإقبال متصدّية، والأزمنة إليك راغبة متشوقة، والقلوب نحوك سامية، تلاحظك عشقاً، وترفرف نحوك طرباً وشوقاً، وكتب في آخره:

فِدَاكَ الزمانُ وأهلُ الزمانِ إمامَ الهُدى بك مُستبشرينا

---

(١) المونق: أنِق أنقاً: الشيء: أحبَّه وبه أعجب، وآثره على ما سواه. فهو آنق وأنيق ومونق: أي حسناً مُعْجِباً.

(٢) ردَّى الرجل: ألبسه الرداء.

قـدِ ٱلقَـوْا إليـكَ مقـاليـدَهُـمْ | جميعـاً مـطيعينَ مستـوسقينـا[1]
ولا زِلْـتَ زَيْـنـاً لأعـيـادِنـا | وللدين كهفـاً وحِصْنـاً حَصينـا
يَعِـزُّ بـدولتِـكَ الصـالحـونَ | ويشقى بك الشركُ والمشـركونا
فـيـا رُبَّ مُـشـكـلةٍ أبـرقـتْ | فجلَّلتهـا السيفَ حقـاً يقينـا
بـصـدقِ عـزيـمـةِ مُستبصـر | وضـربٍ يَقُدُّ الطُّلى والمُتـونـا[2]
وسُـمْتَ النصـارى بشيـطانهـا | وذلَّلت منهـا الأغـرَّ البـطينـا[3]
وكـم فعْـلةٍ لـكَ في المشـركينَ | أقـرّتْ عيـونـا وأبكتْ عُيـونـا

وكتب آخر:

المِهـرَجـانُ لنـا يـومٌ نُسـرُّ بـه | يـومٌ تعظِّمه الأشـرافُ والعجمُ
وأنتَ فيـهِ لنـا بـدرٌ يضيءُ كمـا | أن السمـاءَ ببدرِ الليـلِ تَبْتسمُ

وكتب آخر:

عـيـدٌ جـديـدٌ وأنـتَ جِـدَّتُـه | يـا منْ بـه للزمـانِ تجـديـدُ
لا زال طـولُ الـزمـانِ يُـرجِعُـه | وظِـلُّ مُـلْكٍ عليـكَ ممـدودُ

وقيل للمازني: أي هؤلاء أظرف في شعره، الذي يقول:

جُـعِلتَ فِـداكَ لـلنيـروز حـقٌّ | فـأنتَ عليَّ أعـظمُ منـه حقَّـا
ولـو أهـديتُ فيـه جميـعَ مُلكي | لكـان جليلُه لـك مُستـدقَّـا[4]
فـأهـديْتُ الثنـاءَ بنـظمِ شِعـرٍ | وكـنت لـذاك مني مُستحِقَّـا

---

(١) استوسق استيساقاً: اجتمع وانقاد، الأمر: انتظم.
(٢) الطُّلْيَةُ والطُّلاة ج طُلًى: العنق. والمتن ج متون: الظهر (يذكر ويؤنث)
(٣) الأغر: السيد الكريم الأفعال. البطين: الملآن يقال: كيس بطين: أي ملآن.
(٤) المستدق من الشيء: ما دق منه واسترقّ: يقول: لو أهديت لك ما أملك لكان مهما عظم صغيراً.

أم الذي يقول :

دخلتُ السوق أبتاعُ وأستطْرفُ ما أُهدي
فما استطرفْتُ للإهدا ءِ إلا طُرَفَ الحمدِ
إذا نحنُ مدحناك رعيْنَا حُرْمَةَ المجدِ

أم الذي يقول :

وكم من مُرسَلٍ لَكَ قد أتاني بما يُهدي الخليلُ إلى الخليلِ
فأظهرتُ السرورَ وقلتُ أهلاً وسهلاً بالهدية والرسولِ

فقال: أشعرهم جميعهم وأظرفهم الذي يقول:

فواللّهِ لا أنفكُّ أُهدي شوارداً إليكَ يَحمِلْنَ الثناءَ المبجَّلا
ألذَّ من السلوى وأطيبَ نفحةً من المسكِ مفتوتاً وأيسرَ محملا

وبعث سعيد بن حميد إلى أحمد بن أبي طاهر قارورة ماء ورد وكتب:

وزائرةٍ حوريّةٍ فارسيّةٍ كَنَشْرِ حبيبٍ حاد يـ ـماً عن الصدِّ
تردُّ ربيعاً في مَصيفٍ بنفحةٍ إذا فَقَدتْ ورداً تنوب عن الوردِ
حكى نشرها منه خلائق نشره كنشر نسيم الروض في جنة الخلدِ
وشبَّهتُها في صفوها بصفائهِ لإخوانِهِ في القرب منه وفي البعدِ
وأهدتْ لنا منه النسيمَ نُسيمَةً وإنْ كان إنْ حالتْ يدومُ على عَهدِ

وعن إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال: دار كلام بين الأمين وبين إبراهيم بن المهدي. قال: فوجد عليه الأمين فهجره، فوجّه إليه إبراهيم بوصيفة مغنية مع عبد هندي فأبى الأمين أن يقبلهما فكتب إليه:

هتكتَ الضميرَ بردّ اللُّطَف[1] وكشَّفْتَ هجرَك لي فانكشفْ

(١) اللُّطَف ج ألطاف: الهديّة.

فـإن كنتَ تـحقِـدُ شيئـاً مضى		فـهبْ لـلخِـلافـة مـا قـد سلفْ
وجُـدْ لـي بـعـفـوكَ عـن زَلّـتـي		فبالفضـلِ تـأخـذُ أهـلَ الشـرفْ

فرضي عنه ودعاه للمنادمة.

هدايا الفصد

قال ابن حمدون النديم: اِفتصد المأمون فأهدى إليه إبراهيم بن المهدي جارية معها عود ورقعة فيها:

عفـوْتَ وكـان العفـوُ منك سَجِيَّـةً		كمـا كان معقـوداً بمَفْـرِقِـكَ المُلْكُ
فإنْ أنتَ أتممْتَ الرضى فهو المنى		وإن أنتَ جازيتَ المسيءَ فذا الهُلْكُ

فقال المأمون: خرف الشيخ. يوم مثل هذا يذكر الثواب والآخرة فلم يقبل الوصيفة. واغتم إبراهيم وكتب إليه مع الوصيفة:

لا والـذي تَـسْجُـدُ الـجِبـاهُ لـهُ		مـا لي بمـا دونَ ثـوْبِـهـا خبـرُ
ولا بـفـيـهـا ولا هَـمَـمْـتُ بـهـا		مـا كـان إلا الـحـديثُ والـنـظرُ

فقال المأمون: نعم الآن أقبلها فقبلها.

قال أبو القاسم بن أبي داود: كنت عند أحمد بن محمد العنوي وقد افتصد فخرج بعض الخدم ومعه طبق من فضة عليه تفاح طيب مكتوب حواليه بالذهب:

سُـرَّ الغـداةَ بـوجهـك اللَّغَبُ(١)		وجـرى بيُمْنِ فِصادِكَ الـطربُ
وتـداعـتِ العيـدانُ فـي زَجـلٍ		وتـنـاولتْ راحـاتِـهـا النُّـخَبُ(٢)

---

(١) اللغب: التعب الشديد.

(٢) العيدان مفردها عود: ذو الأوتار الأربعة الذي يُضرب به. الزجل: نوع محدث من الشعر معروف ينظمه العامة. راحاتها: أكفُّها. النخبة ج نُخب: المختار من كل شيء.

فـاشـربْ بهـذا الجام يـا مَلِكِي — شُـربـاً حثيثـاً إنـه عَـجَـبُ
وآجعلْ لمن قـد خفَّ في لَـطَفٍ — مـنْ زورُهُ يُخشى[1] ويُـرتـقبُ

فقال للخادم: أخرجها إلى الستارة[2] فخرجت وخلا ليلته بها.

وقيل: افتصد المعتصم فأهدت إليه «شمائل»[3] صينية عقيق عليها قدح أسبل عليهما منديل مطيب مكتوب عليه بالعنبر في كل ربع منه بيت شعر:

خضبَ الخليفـةُ كفَّه من فَصْـدِهِ — بـدم يحـاكي عَبْـرَةَ المشتـاقِ
تـاه الفِصـادُ فمـا يُقـام لـتيـهـهِ — إذْ صـار مُفْتَصِـداً أبـو إسحـاقِ
وتـوافتِ العيـدانُ عنـد حضـورِهِ — قُبَّ البطونِ[4] ذوابلَ الأعناق
مَلِكٌ إذا خَـطَرَ الشـرابُ ببـالِـهِ — لبس السـرورَ غـلائـلَ الإشراق[5]

فلما قرأه أمر بإحضار إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وأمره أن يجعل له لحناً، وأمر مسروراً بإخراجها من وراء الستارة، ثم لم يزل إسحاق يردّد هذه الأبيات حتى أحكمتها «شمائل» وغنّت فكأن سفط الدرّ يتناثر من فيها، وأمر لإسحاق بمال وللجارية بخمس وصائف وخمسة آلاف دينار.

المبرّد قال: أهدى اليزيدي الرشيد يوم فصد جام بلّور وشمامات غالية، وكتب إليه: يا أمير المؤمنين، تفاءلت في الشرب في الجام بجمام

---

(١) الزَّوْر: الزائر، والزَّور: أعلى الصدر، سيد القوم، الخيال الذي يُرى في الليل.
(٢) السِّتارة ج ستائر: ما يستتر به.
(٣) شمائل: اسم الجارية.
(٤) قُبُّ البطون: ضامرة البطون. القَبّ: دقة الخصر وضمور البطن ولحوقه.
(٥) الغِلالة ج غلائل: شعار يلبس تحت الثوب أو تحت الدرع.

النفس، ودوام الأنس، والغالية للغلو في السرور، والازدياد من الخير والحبور، وقلت:

دمُ الفَصْدِ من يَدِكَ العاليهْ ... يداعي لجسمكَ بالعافيهْ
كسا الدهرَ ثوباً من الأُرْجُوان[1] ... بديعَ الطِّرازيْنِ والحاشيهْ
وَعَصْفَرَ[2] صفحةَ وجهِ الربيعِ ... بصبْغٍ منْ أسْراره الجاريهْ
فكم روضةٍ نشرت وَشْيَها ... وزهرةِ روضٍ غَدَتْ زاهيهْ
إمامٌ أسالَ دمَ المكْرُماتِ ... فشجَّجَ[3] أفناءَها الحاميهْ
فلا زال في عيشةٍ راضيةْ ... ودامتْ له النعمةُ الكافيهْ

قال اليزيدي: اِفتصد المأمون فأهدت إليه «رباح» أترجة عنبر عليها مكتوب بماء الذهب:

تعالجُ منْ هَويتَ بفَصْدِ عِرْقٍ ... فأضحى السُّقْمُ في خِلَعِ[4] الخضوعِ
وجاءتْ تحفةُ الألباب تسعى ... بوردٍ فائضٍ فيضَ الدموعِ

فقال المأمون لليزيدي: ويحك ما تقول فيمن كتب هذين البيتين؟ قال: يكافأ بالدنيا وما استدقّ منها، فأمر لها بمال كثير ووصلني ببعضه.

قال: وافتصد عبد الله بن طاهر فأهدى له أبو دلف جميع ما أصاب في السوق من الورد وكتب إليه:

تضاحَكَ الوردُ في وجهي فقلتُ لهُ ... لِمْ ذا؟ فقال: أبو العبّاسِ مُفْتَصِدُ

---

(١) ثوب من الأرجوان: ثوب مصبوغ باللون الأحمر.
(٢) عصفر الثوب: صبغة بالعصفر وهو صبغ لونه أصفر.
(٣) شج شجاً الرأسَ: جرحه، كسره وشجَّجَ مبالغة شجَّه.
(٤) خِلعة ج خِلع: الثوب الذي يُعطى منحة.

فقمتُ أطلبُ ما أهديه من طُرَف — للفصد في السوقِ حتى خانني الجَلَدُ
يومُ الفِصادِ لـه أُزْرٌ مطيَّبَةٌ[1] — محجوبةٌ لا يراها الجَرْدُ والزَّردُ[2]
فاشربْ على الوردِ مسروراً بطلعتِهِ — يا آبْن الكرامِ فأنت السيِّد النَّجِدُ

قال عَمْروُ بن بانة: اعتل المعتصم فأشار عليه بختيشوع[3] بالفصد وأنا عنده، فأخرجت إليه هدايا الفصد، وكان فيما أخرج طبق صندل[4] مكتوب عليه بجزع، كما يدور عليه شمامات مسك وعنبر فأمر بقراءة ما عليه فإذا هو:

فُصِدَ الإمامُ لعلّةٍ في جسمِهِ — فشفى الإلَهُ السُّقْمَ بالفَصْدِ
وجرى إلى الطَّشْتِ[5] السّقامُ مبادراً — وجرى الشفاءُ إليه بالسعْدِ
يا مالكاً ملكَ العبادَ بجوده — إسلَمْ سلمتَ بعيشةٍ رَغْدِ

فقال: يا عمرو من يلومني على حب هذه الجارية؟ والله ما أراها إلاّ تزايدت في عيني، وخليق أن تنجب فإن لها همة، فولدت له غلاماً وكانت آثر جواريه عنده وأحظاهن لديه.

وأخبرنا إبراهيم القارىء قال: كنت عند المأمون فاحتاج إلى الفصد فقال له الأطباء: البلد بارد. فقال: لا بد لي منه ففصدوه. فلما كان وقت

---

(١) الإزار ج أُزر: كل ما سترك.
(٢) الجَرد: أخذ الشيء عن الشيء عسفاً وجَزفاً ومنه سمي الجارود وهي السنة الشديدة المحل كأنها تهلك الناس. والجرد: الترس، والزَّرد: حِلَق المِغفر والدِّرع، الدرع المزرَّدة.
(٣) بختيشوع: أسرة أطباء مسيحية من سوريا خدمت الخلفاء العباسيين في القرن الثامن، من كبارهم جبريل النسطوري له كتب نافعة في الطب والمنطق، وبختيشوع كلمة معناها: عبد يسوع.
(٤) الصَّندل: جنس شجر هندي أبيض الزهر، خشبه طيب الرائحة ومرغوب فيه جداً.
(٥) الطَّشْت لغة في الطَّست: أناء من نحاس يستعمل لغسل الأيدي (فارسية).

الظهر حضروا فراموا فجر العرق فإذا هو قد التحم، فشدوا الرباط وفيهم ميخايل، فما ظهر الدم فقال له المأمون: عقرتموني فحلّوا الرباط وعلى رأسه بختيشوع وابن ماسويه[1] فقال: ما تقولون؟ قالوا: ما ندري ما نقول. قال: فأشاروا هناك أن جلالةَ الخليفة ربما أدهشت الحاذق بالصناعة، والمتقدم في الرياسة فاعتزلوا ناحية وأبطأوا عليه، فقال لأسود كان على رأسه: اُدن فمصّ الجرح ففعل فثار الدم، فقال: اُدع هؤلاء الحاكة[2]، فجاءوا وشهدوا خروج الدم قال: أين كنتم؟ قال ابن ماسويه: لو فعل جالينوس ما زاد عليه.

قال: وافتصد أحمد بن عيسى بالري وهو أميرها فكتب إليه جعفر الشيباني: .

فَصَدْتَ بِأرضِ الرّيِّ طابَ لَكَ الفَصْدُ ... وفارق نجم النحسِ طالِعُكَ السَّعْدُ
فأعْقَبَكَ الحسنَى التي لا مَدَى لها ... ولا زال بِرديْكَ الجلالةُ والحمدُ
تَوَرَّدَتِ الدنيا بفَصْدِكَ مثلَ ما ... بِفَصْدِكَ يا آبْنَ المصطفى ضَحِكَ الوردُ
فلا أبصرتْ عيناكَ ما عشتَ شانياً[3] ... ومن كل ما تهواه لا خانك العهدُ

وفي مثله:

يا فاصداً من يدٍ جَلّتْ أياديها ... ونالَ منه الذي يرجوهُ راجيها
يدُ النَّدى هي فآرفُقْ لا تُرِقْ دَمها ... فإنَّ آمالَ طلّابِ الندى فيها

---

(١) ابن ما سويه: طبيب مسيحي اشتغل بالترجمة على عهد هارون الرشيد وكان طبيب المأمون. من تلامذته: حنين بن إسحاق.

(٢) الحائك: الذي ينسج ويحيك الثياب.

(٣) الشانىء: العدو، المبغض.

قال: وكتب الحمدوني إلى الفضل بن جعفر وقد افتصد:

ألا يا طبيبَ الفصْدِ هل أنتَ عالمٌ … بما صنعتْ كفَّاك في كفِّ ذي المجدِ؟

أسلْتَ دَماً من ساعدٍ ينثني بها … حياءُ نَدًى فاقصِدْ بذَرعكَ في الفصدِ[1]

فَداويتَ كفاً يعلم الناسُ أنها … دواءٌ من الأمحالِ في الزّمَنِ النكْدِ

ولما أتانا المخبرونَ بفَصْدِهِ … أردتُ بأن أُهدي على قدْرِ ما عِندي

وشاورتُ فاستصحبتُ آلي وجِيرتي … فلم أر أمري مِنْ ثناءٍ ومِنْ حَمدِ

وقال آخر:

تُؤَنِّقَ[2] مِنْ ثنائِكَ في الهدايا … غداةَ أردتَ فَصْدَ الباسليقِ

فلم أَرَ كالدعاء أتمَّ نفعاً … وأجملَ في مكافأة الصديقِ

وأكثرتُ الدعاءَ وقلتُ ربي … يقيكَ شرورَ آفاتِ العُروقِ

وقال آخر:

على طيب أيامِ التمتّعِ بالوردِ … فَصَدْتَ فأُصْحِبْتَ[3] السلامةَ في الفَصْدِ

ولا زلتَ لا زالتْ من اللَّهِ أنعمٌ … عليكَ قريرَ العينِ مغتبطَ الحَسْدِ[4]

---

(١) القصد: نقيض الإفراط، أي وسعك وجهدك في فَصْدِه فلا تُسِلْ كثيراً من دمه الذي هو للنَّدى والكرم. والذَّرْع: بسط اليد، يقال أبْطَرْتَ فلاناً ذَرْعَه: أي كلَّفته أكثر من طاقته.

(٢) الأنق: الإعجاب بالشيء تقول: أنقت به، وأنا آنق به، وأنا به أنِق: أي معجب، وتأنق في الأمر: إذا عمله بنيقة، يقال: هو يتأنق: أي يطلب آنق الأشياء. ولذلك أرى أن كلمة: تؤنق يجب أن تكون: تأَنَّقْ: أي اختر الأشياء الأنيقة هدية له والتي هي بمثابة ثناء عليه.

(٣) فأصْحِبْتَ: أي صاحبتك السلامة.

(٤) الحَسْد: هذه الكلمة سواء أكانت بسكون السين أو فتحها لا مكان ولا معنى لها في هذا البيت وأرى أن تكون: الجَدّ: أي الحظ والغنى والحظوة.

لقد رمتُ جَهدي طُرْفةً وهديّةً … إليكَ فكان الشكرُ أكثر ما عندي

وقال آخر:

أيها الفاصدُ العليلُ الصحيحُ … بأبي ذلكَ الجراحُ الجريحُ

إنَّ من عَلَّقَ الذراعَ من الفَصْـ … ـدِ إلى الجيدِ ذاكَ شيءٌ مليحُ

أيها الفاصدُ المهنّا له الورْ … دُ وفي وجنتيهِ وردٌ يلوح

وقال آخر:

أيها السيِّدُ الذي فَصَدَ العِرْ … قَ وأرخى دوني ذيولَ السرورِ

كم تمنيتُ أنْ أكونَ طبيباً … ومُنى الصَّبِّ تُرَّهاتُ الغرورِ

وقال آخر:

أَجْمِلْ[1] جُعِلْتُ فِداكَ بالجِلْدِ … وامنُنْ عليَّ بأجملِ الردِّ

لو عاينتْ عيناكَ مُضطربي … وتفرُّدي بالمدِّ والشدِّ

وتخشُّعي عند الطبيبِ كأنَّه … مَوْلى يريدُ عقوبةَ العبدِ

كالنارِ مِبْضَعُهُ يقلِّبُهُ … ويديرُ مُقلَةَ حازمٍ جَلْدِ

حتى اعتزمتُ على محاجَزَةٍ[2] … وصددتُ عنه أيَّما صدِّ

ما كان منْ ألمٍ شعرتُ بِهِ … إلا كموقعِ شَرْطةِ الجِلْدِ

إذ سال مُنْبعِثاً سوابِقُهُ … كالنارِ خارجةً من الزَّنَدِ

فسلِمْتُ والرحمٰنُ سلَّمني … ذو المنِّ والآلاءِ والحمدِ

ما بعد طبّاخي لِمُفتَخِر … فَخْرٌ لمن قبلي ومنْ بَعدِي

نصبَ القدورَ بنفسه كَرَماً … لِنُصِيبَ شهوتَنا على عَمْدِ

---

(١) أجملْ: اتئد واعتدل: يقول: ارفق بالجلد حين الفِصاد.

(٢) حجز حجْزاً: فصل ومنع. المحاجزة: الممانعة.

فـأجـادَ صَـنْـعَـتـهـا وعـجَّـلَـهـا   مـن غـيـرِ مـا تـعـبٍ ولا جَـهـدِ
ونـبـيـذُنَـا صـافٍ ومـجـلـسُـنـا   في الـطِّـيبِ يحكِي جنّـةَ الـخُلدِ
فَـهَلُمَّ واحـضَـرْ غيـرَ مُـحْـتَـشِـم   واجعـلْ غـذَاءَكَ سيِّـدِي عنـدي
لا تَـجْـمَـعَـنَّ عـليَّ مُـحـتَـسِـبـاً   ضَعْفَ العليـلِ وَوَحْـشَـةَ الفـردِ

محاسن الوصائف المغنيات

قال الأصمعي: بعث إليَّ هارون الرشيد وهو بالرقة[1] فحُملت إليه فأنزلني الفضل بن الربيع[2]، ثم أدخلني عليه وقت الغروب فاستدناني وقال: يا عبد الملك وجهت إليك بسبب جاريتين أهديتا إلي وقد أخذتا طرفاً من الأدب أحببت أن تبرز ما عندهما وتسير على الصواب فيهما، ثم أمر بإحضارهما، فحضرت جاريتان ما رأيت مثلهما قط، فقلت لإحداهما: ما عندك من العلم؟ قالت: ما أمر الله في كتابه، ثم ما ينظر فيه الناس من الأشعار والأخبار. فسألتها عن حروف القرآن فأجابتني كأنها تقرأ في كتاب الله. ثم سألتها عن الأشعار والأخبار والنحو والعروض، فما قصّرت عن جوابي في كل فن أخذت فيه، فقلت لها: فأنشدينا شيئاً فأنشدت:

يـا غِيَـاثَ البـلادِ في كـلِّ مَحْـلٍ   مـا يُـريـدُ الـعـبـادُ إلّا رِضـاكَ
لا ومـنْ شـرَّف الإمـامَ وأعـلى   مـا أطـاع الإلّـهَ عـبـدٌ عصـاك

فقلت: يا أمير المؤمنين، ما رأيت امرأة في نسك رجل مثلها. وخبرت الأخرى فوجدتها دونها، فأمر أن تصنع تلك الجارية لتحمل إليه في تلك الليلة، ثم قال لي: يا عبد الملك، أنا ضجر وأحب أن تسمعني حديثاً

---

(١) الرَّقَّة: قاعدة ديار مضر في الجزيرة على الفرات فتحها غياض بن غنم فيها آثار قديمة.
(٢) الفضل بن الربيع: وزير الأمين كان أبوه معتوق الخليفة عثمان رضي الله عنه، حسد البرامكة ودس الدسائس عليهم ورمى البغضاء بين الأمين والمأمون.

مما سمعت من أعاجيب الزمان تفرج به فقلت: يا أمير المؤمنين، كان لي صاحب في بدو بني فلان، وكنت أغشاه وأتحدث معه، وقد أتت عليه ست وتسعون سنة، وهو أصحّ الناس ذهناً وأقواهم بدناً، فغبت عنه، ثم أتيته فوجدته ناحل البدن كاسف البال، فسألته عن سبب تغيره، فقال: قصدت بعض القرابة فألفيت عندهم جارية قد طلت بالورْس[1] بدنها وفي عنقها طبل تنشد عليه:

محاسِنُها سِهامٌ للمنايا ... مُرَيَّشةٌ بأنواعِ الخطوبِ
ترى ريْبَ المنونِ بهنَّ سهماً ... تصيبُ بنصلِهِ مُخَّ القلوبِ

فقلت:

ففي شَفَتِي من موضعِ الطَّبلِ ترتعي ... كما قد أبحْتِ الطبلَ في جيدكِ الحَسَنْ
هبيني عوداً جوفُهُ تحتَ مَتْنِهِ ... يُمتِّعُني ما بين نحركِ والذَّقَنْ

فلما سمعت شعري، رمت بالطبل في وجهي ودخلت الخيمة، فوقفت حتى حميت الشمس على مفرقي ولم تخرج، فانصرفت قريح القلب فهذا التغير من عشقي لها، فضحك الرشيد حتى استلقى، وقال: ويلك يا عبد الملك ابن ست وتسعين يعشق؟ فقلت: قد كان هذا؟ فقال: يا عباس أعط عبد الملك مائة ألف درهم، وردّه إلى مدينة السلام فانصرفت، ثم أتاني خادم فقال: أنا رسول ابنتك ـ يعني الجارية ـ تقول لك: إن أمير المؤمنين قد أمر لها بمال وهذا نصيبك، فدفع إلي ألف دينار، ولم تزل تواصلني بالبرّ الواصل حتى كانت فتنة محمد[2]، وانقطع خبرها وأمر الفضل لي بعشرة آلاف درهم.

---

(١) الوَرْس: نبات كالسمسم أصفر يصبغ به وتتخذ منه الغُمرة (أي الزعفران).

(٢) محمد: يقصد به محمد الأمين، والفتنة التي وقعت بينه وبين أخيه المأمون وقد ذهب =

علي بن الجهم، لما أفضت الخلافة إلى المتوكل أهدى إليه الناس على أقدارهم. فأهدى إليه ابن طاهر جارية أديبة تسمّى قبيحة تقول الشعر وتلحّنه، وتحسن من كل علم أحسنه، فحلّت من قلب المتوكل محلاً جليلاً. فدخلت يوماً للمنادمة وخرج المتوكل وهو يضحك وقال: يا علي دخلت فرأيت قبيحة قد كتبت على خدها بالمسك جعفر فما رأيت أحسن منه فقل فيه شيئاً فسبقتني محبوبة وأخذت عودها فغنّت:

وكاتبةٍ بالمسكِ في الخدّ جعفرا	بنفسيَ خطُّ المسكِ من حيثُ أثَّرا
لئنْ أوْدَعَتْ سطراً من المسكِ خدّها	لقد أودعتْ قلبي من الوجدِ أسطرا
فيا مَنْ لمملوكٍ يظلّ مليكُهُ	مُطيعاً له فيما أسرّ وأجهرا
ويا من لِعَيْنَيْ من رأى مثلَ جعفرٍ	سقى اللَّهُ صوْبَ المسكراتِ لجعفرا

قال: فثقلت خواطري حتى كأني ما أحسن حرفاً من الشعر، وقلت للمتوكل: أَفَلَ فقد والله غرب عني ذهني فلم يزل يعيرني به، ثم دخلت عليه للمنادمة بعد ذلك فقال: يا علي، أعلمت أني قد غاضبت محبوبة وأمرتها بلزوم مقصورتها ومنعت أهل القصر من كلامها؟ فقلت: يا سيدي إن غاضبتها اليوم فصالحها غداً. فدخلت عليه من الغد فقال: ويحك يا علي رأيت البارحة في النوم كأني صالحت محبوبة. فقالت جاريته: شاطر يا سيدي لقد سمعت الآن في مقصورتها هينمة فقال: نَنْظُر ما هي. فقام حافياً حتى وصلنا مقصورتها فإذا هي تغني:

أدورُ في القصرِ كيْ أرى أحداً	أشكو إليه فلا يكلِّمُني

= محمد الأمين ضحيتها وذلك بسبب خلعه أخاه وتوليته ابنه موسى العهد من بعده. وقد جلس الأمين على عرش الخلافة أربع سنين وثمانية أشهر وخمسة أيام ثم قتله عبد الله بن طاهر وأرسل رأسه إلى المأمون.

فـمـنْ شـفـيـعُ لـنـا إلـى مَـلِـكٍ　　قـد زارني في الكـرى[1] يعـاتبني
حتى إذا مـا الـصبـحُ عـاد لـنـا　　عـاد إلـى هَـجْـره فـفـارقـنـي

فصفّق المتوكّل طرباً، فلما سمعته خرجت تقبّل رجليه وتمرغ خدّها فـي التراب حتى أخذ بيدها راضياً عنها.

حدث أبو علي بن الأسكري المصري، وأسكر هي القريـة التي ولد فيهـا موسى عليـه السـلام ، قـال: كنت من جـلاّس تميم بن تميم وممّن يخفف عليه، فأتى من بغـداد بجاريـة رائعة فـائقة الغنـاء فدعـا بجلسائه وقدمت الستارة[2] فغنت:

وبدا لهُ مِنْ بعـدِ ما آنْـدمل الهـوى　　بَـرْقٌ تـألَّـقَ مُـوهِنـاً لَـمَعَـانُـهُ
يبـدو كحـاشـيـةِ الـرّداءِ ودونَـهُ　　صَعْبُ الـذُّرى متـمنِّـع أركـانُـهُ
وبـدا لينـظرَ كيفَ لاحَ ولم يُـطِقْ　　نـظراً إليـه وهـدَّه هَـيَـجَـانُـهُ
فـالنـارُ مـا اشتملتْ عليـه ضلوعُـه　　والمـاءُ مـا سحَّـتْ بـه أجْفَـانُـهُ

قال: فأحسنت ما شاءت فطرب تميم ومن حضر ثم غنّت:

سيسليك مِمَّا دون دولـةِ مـفضـلٍ　　أوائـلُه مـحـمـودةٌ وأواخـرُهُ
ثنى اللَّهُ عِـطْفَيْـه وألَّفَ شخصَـه　　على البـرِّ مـذْ شُـدّت عليـه مـآزرهْ

فطرب تميم ومن حضر ثم غنّت:

أستـودعُ اللَّهَ في بغـدادَ لي قَمـراً　　بالكَرْخِ[3] من فَلَكِ الأزرار مبلغهُ[4]

---

(١) الكرى : النوم، النعاس.
(٢) الستارة : الغطاء، نوع من السجف وبالعامية (برداية).
(٣) الكرْخ: حي من أحياء بغداد في غرب المدينة.
(٤) الزر ج أزرار: الذي يـوضع في القميص، والأزرار: الخشبـات التي يدخـل فيها رأس عمود الخباء . ومبلغه : مطلعه أي موضع طلوعه وإشراقه .

فأفرط تميم في الطرب جداً وقال لها: تمني ما شئت فلك مناك. قالت: أتمنى أيها الأمير عافيته وسلامته. فقال: والله لا بد أن تتمني، قالت: على الوفاء أتمنى أن أغني هذه النوبة ببغداد. فتغيّر وجه تميم وتكدّر المجلس، وقمنا فلحقني بعض خدمه فردني فلما وقفت بين يديه قال: ويحك أرأيت ما امتحنا به؟ ولا بد لنا من الوفاء ولم أثق في هذا بغيرك فتأهب لحملها إلى بغداد فإذا غنت هناك فاصرفها، فقلت سمعاً وطاعةً، ثم أصحبها جارية سوداء تخدمها وتعادلها، وأمر بناقة لي فحمل عليها هودج وأدخلت فيه وسرنا مع القافلة إلى مكة فقضينا حجّنا، ثم لما وردنا القادسية أتتني السوداء فقالت: تقول لك سيدتي أين نحن؟ فقلت لها: نحن الآن بالقادسية فأخبرتها فسمعت صوتاً قد ارتفع ناشداً:

لمّا رأينا القادِسيَّةَ حيـ ـثُ مُجتَمعُ الرّفاقِ
وشممتُ من أرض الحجا ز نَسيمَ أنفاس العراقِ
أيقنتُ لي ولمنْ أحبـ ـبُّ بجمع شملٍ واتّفاقِ
وضحكتُ من فَرَحِ اللقا ءِ كما بكيت من الفراقِ

فصاح الناس من أقطار القافلة: أعيدي بالله فلم يسمع لها كلمة. فلما نزلنا الناصرية على خمسة أميال من بغداد في بساتين متصلة تبيت الناس فيها ثم يبكرون ببغداد. فلما قرب الصباح إذ السوداء قد أتتني مذعورة. فقالت: إن سيدتي ليست بحاضرة، فلم أجدها ولا وجدت لها ببغداد خبراً، فقضيت حوائجي وانصرفت إلى تميم وأخبرته خبرها، فلم يزل واجماً عليها، وأخبار القيْناتِ كثيرة فنقتصر منها على هذا القدر.

محاسن الجواري مطلقاً

قيل: كان يقال: من أراد قلّة المؤونة، وخفة النفقة، وحسن الخدمة، وارتفاع الحشمة، فعليه بالإماء دون الحرائر.

وكان مسلمة بن مسلمة يقول: عجبت لمن استمتع بالسراري[١] كيف يتزوج المهائر[٢]؟ وقال: السرور باتخاذ السراري، وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ الإماء أمهات أولادهم، حتى نشأ فيهم علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم وفاق أهل المدينة فقهاً، وعلماً، وورعاً، فرغب الناس في اتخاذ السراري. قال: وليس من خلفاء بني العباس من أبناء الحرائر إلّا ثلاثة: السفاح، والمنصور، والأمين، والباقون كلهم أبناء الجواري، وقد علقت الجواري لأنهن يجمعن عزّ العرب ودهاء العجم.

ضـده

إذا لم يكنْ في منزلِ المرءِ حُرَّةٌ   رأى خَللاً فيما تَولَّى الولائدُ[٣]
فلا يتخذْ منهنَّ حرٌّ قعيدةً   فهنَّ لعَمْرُ اللَّهِ شرُّ القعائدِ[٤]

وكان يقال: الجواري كخبز السوق والحرائر كخبز الدور. ومن أمثال العرب: لا تمازح أمة ولا تبك على أكمة. قال بعضهم: لا تفترش من تداولتها أيدي النخّاسين[٥] ووقع ثمنها في الموازين. وقال: لا خير في بنات الكفر وقد نودي عليهن في الأسواق ومرّت عليهن أيدي الفساق.

محاسن الموت

في الحديث المرفوع: الموت راحة[٦]. وقال بعض السلف: ما من

---

(١) السُرِّيَّة ج سراري: الأمة التي تُقام في بيت.
(٢) المهيرة: الحرَّة ج مهائر.
(٣) الوليدة ج ولائد: الأمة يقال لها ذلك ولو كانت مسنة والولائد: الشوابُّ من الجواري، والوليد: الخادم الشاب يسمى وليداً من حين يولد إلى حين يبلغ.
(٤) القعيدة ج قعائد: قعيدة الرجل، وقعيدة بيته: امرأته.
(٥) النخاس: بائع الرقيق. والنخاسة: بيع الرقيق.
(٦) الحديث: «موت الفجأة راحة للمؤمن» عن عائشة رضي الله عنها أخرجه أحمد والبيهقي (الجامع الصغير: جـ ٢، ص ٦٥٧).

مؤمن إلا والموت خير له من الحياة لأنه إن كان محسناً فالله يقول: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ﴾[1] وإن كان مسيئاً فالله تعالى جده يقول أيضاً: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوْا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً﴾[2]. وقال ميمون بن مهران: أتيت عمر بن عبد العزيز فكثر بكاؤه ومسألته الله الموت، فقلت: يا أمير المؤمنين تسأل ربّك الموت وقد صنع الله على يدك خيراً كثيراً: أحييت سنناً وأمتَّ بدعاً وفعلت وصنعت، ولبقائك رحمة للمؤمنين. فقال: ألا أكون كالعبد الصالح حين أقرّ الله عينه له أمره، قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[3] إلى قوله: ﴿وَأَلحقني بالصَّالحين﴾ فما دار عليه أسبوع حتى مات رحمه الله.

قالت الفلاسفة: لا يستكمل الإنسان حدّ الإنسانية إلَّا بالموت لأن حدّ الإنسانية أنه حد ناطق ميت. وقال بعض السلف الصالح: إذا مات استراح، والصالح إذا مات استريح منه. قال الشاعر:

ومـا المـوتُ إلَّا راحـةٌ غيـرَ أنَّـهُ ... من المنزلِ الفاني إلى المنزلِ الباقي

وقال آخر:

جـزى الله عنّا المـوتَ خيراً فـإنَّـهُ ... أبـرُّ بـنـا مِـنْ كـلِّ بَـرٍّ وأرأفُ

يعجّـلُ تخليصَ النفوسِ من الأذى ... ويُـدني مِنَ الـدارِ التي هِيَ أشـرفُ

وقال منصور الفقيه:

قد قلتُ إنْ مدحوا الحياةَ فـأسرفـوا ... في المـوتِ ألفُ فضيلةٍ لا تُعْـرفُ

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٩٨ .

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٧٨ .

(٣) سورة يوسف، الآية ١٠١ .

منها أمانُ بَقائِهِ بِلِقائِهِ وفِراقُ كلِّ مُعاشِرٍ لا يُنْصِفُ

وقال أحمد بن بكر الكاتب:

مَنْ كان يرجو أنْ يعيشَ فإنني أصبحتُ أرجو أن أموتَ فأُعْتَقا
في الموتِ ألف فضيلةٍ لو أنها عُرِفَتْ لكان سبيلُهُ أنْ يُعْشَقا

وقال لنكك البصري:

نحنُ واللّهِ في زمانٍ غشومٍ لو رأيناهُ في المنامِ فَزِعْنا
أصبحَ الناسُ فيه مِنْ سوءِ حالٍ حقٌّ مَنْ ماتَ مِنْهُم أن يُهنَّا

ضده

في الحديث المرفوع: «أكثروا ذكر هاذم اللذات»[1] يعني الموت، قال الشاعر:

يا موتُ ما أجفاكَ مِنْ نازلٍ تَنْزِلُ بالمرءِ على رُغْمِهِ
تَسْتَلِبُ العذراءَ من خِدْرِها وتأخُذُ الواحدَ من أمّهِ

وقال:

وكلُّ ذي غيبةٍ لهُ إيابُ وغائبُ الموتِ لا يؤوبُ

وقال بعضهم: الناس في الدنيا أغراض تنتصل فيها سهام المنايا.

وقال ابن المعتز: الموت كسهمٍ مرسلٍ إليك، وعمرك يقدّر سفره نحوك.

---

(١) الحديث: «أكثروا ذكر هاذم اللذات» وتتمته: «فإنه لا يكون في كثير إلاّ قلّله، ولا في قليل إلاّ أجزله» عن ابن عمر رضي الله عنهما أخرجه البيهقي حديث حسن (الجامع الصغير: جـ ١، ص ٢٠٨). وهاذم: هذم هذْماً الشيءَ: قطعه بسرعة.

وقال بعضهم: الموت أشد مما قبله وأهون مما بعده.

ونظر الحسن رضي الله عنه إلى ميتٍ يدفن فقال: إن شيئاً أوّله هذا لحقيق أن يخاف آخره، وإن شيئاً هذا آخره لحقيق أن يزهد في أوله.

وسئل بعض الفلاسفة عن الموت فقال: مفازة من ركبها ضل خبره وعفي أثره. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

تم بعون الله كتاب المحاسن والأضداد
وصلى الله على نبيه خير الخلق بياناً وأفصحهم لساناً

المراجـــع

القرآن الكريم.
صحيح البخاري بحاشية السندي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
صحيح مسلم: شرح النووي - دار الفكر - بيروت.
الجامع الصغير للسيوطي - دار الفكر - بيروت.
إحياء علوم الدين للغزالي - دار المعرفة - بيروت.
العقد الفريد لابن عبد ربه، المطبعة الأزهرية بمصر، طبعة ١٩٢٨م.
البخلاء للجاحظ. تحقيق الشيخ محمد سويد دار إحياء العلوم - بيروت.
الحيوان للجاحظ. تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٣٨م.
البيان والتبيين للجاحظ. تحقيق عبد السلام محمد هارون طبعة أولى، القاهرة ١٩٤٨م.
الشعر والشعراء لابن قتيبة. تحقيق الشيخ حسن تميم والشيخ محمد عبد المنعم العريان - دار إحياء العلوم - بيروت طبعة ثانية.
تاريخ الإسلام السياسي للدكتور حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السابعة، ١٩٦٤م.
مختصر المقاصد الحسنة للزرقاني. تحقيق الدكتور محمد لطفي

الصباغ ـ مكتب الترقية العربي لدول الخليج، طبعة أولى، ١٩٨١م.
الأعلام: لخير الدين الزركلي: طبعة ثانية، دار العلم للملايين ـ بيروت.
المحاسن والمساوىء: للإمام البيهقي. تحقيق الشيخ محمد سويد، دار إحياء العلوم ـ بيروت، ١٩٨٨م.
معجم البلدان: لابن ياقوت الحموي، دار صادر بيروت، ١٩٦٨م.
رياض الصالحين: للإمام النووي: تحقيق الألباني ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت، طبعة ثانية، ١٩٨٤م.
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: دار الكتب المصرية ـ نشر دار الكاتب العربي. تحقيق أحمد عبد الحليم البردوني، طبعة ثانية، ١٩٦٢م.
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ١٩٤٥م.
شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ المكتبة التجارية الكبرى بمصر، طبعة ثالثة، ١٩٦٥م.
المصنوع في معرفة الحديث الموضوع: علي الهروي المكي. تحقيق عبد الفتاح أبو غدة مؤسسة الرسالة، بيروت، طبعة ثانية، ١٩٧٨م.
لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت ١٩٦٨م.
القاموس المحيط للفيروزآبادي. مؤسسة الرسالة، طبعة أولى ـ بيروت، ١٩٨٦م.
المنجد للويس معلوف اليسوعي. المطبعة الكاثوليكية، طبعة ١٧، ١٩٨٦م.
أنس المطالب في أحاديث مختلفة المراتب. الشيخ محمد درويش الحوت ـ مصطفى البابي الحلبي مصر، ١٣٦٤هـ.

حسن الأثر فيما فيه ضعف أو اختلاف في حديث وخبر وأثـر للشيخ محمد درويش الحوت، مطبعة الكشاف ـ بيروت ١٩٣٤ .
ديوان الفرزدق. تحقيق إيلي حاوي، ١٩٨٣م دار الكتاب اللبناني .
المصباح المنيـر للمقري الفيومي .
صفة الصفـوة لابن الجوزي . تحقيق محمود فـاخوري والـدكتور محمـد رواس قلعجي دار المعرفة، ١٩٧٩ م .
فقه اللغة وسر العـربية للإمام أبي منصور إسماعيل الثعـالبي النيسابـوري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .
الجمع بين الصحيحين البخاري ومسـلم لمحمد العربي العزوزي : مطبعة الإنصاف ـ بيروت، ١٩٦٠م .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

كتب صدرت عن دار إحياء العلوم

- **البيان والتبيين ـ مجلدان**
  تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .
  تحقيق الأستاذ مصطفى قصاص .

- **البخلاء**
  تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
  تحقيق محمد سويد

- **رحلة ابن بطوطة**
  تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار
  تحقيق الشيخ محمد عبد المنعم العريان

- **المحاسن والمساوىء**
  تأليف الشيخ إبراهيم بن محمد البيهقي
  تحقيق الشيخ محمد سويد

- **أدب الدنيا والدين**
  تأليف أبو الحسن علي بن محمد الماوردي
  تحقيق مصطفى السقى ـ راجعه وعلَّق عليه محمد شريف سكر

- **النقد الأدبي الحديث**
حول شعر أبي العلاء المعري
تأليف الدكتور حمادة حسن أبو شاويش

- **الأذكيـاء**
تأليف الإمام الحافظ ابن الجوزي
تحقيق الشيخ عبد الرحمن الحلو

- **أخبار الحمقى والمغفلين**
تأليف الإمام الحافظ ابن الجوزي
تحقيق محمد شريف سكر

- **المفصل في علم اللغة**
تأليف الإمام أبي القاسم محمود بن عمرو الزمخشري
تحقيق الدكتور محمد عز الدين السعيدي

- **الإيضاح في علوم البلاغة**
المعاني ـ والبيان والبديع
تأليف العلامة الخطيب القزويني

- **أسرار البلاغة**
تأليف الإمام عبد القاهر الجرجاني
تحقيق الشيخ أسامة منيمنة

- **كتاب الأضداد**
تأليف محمد بن القاسم الأنباري
تحقيق الشيخ محمد شريف سكر

- **الشعر والشعراء**
تأليف أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة
قدَّم له وراجعه الشيخ حسن تميم

- **شرح ديوان امرىء القيس**
تحقيق حسن السندوبي
راجعه وشرح معانيه أسامة منيمنة

- **شرح المعلقات السبع**
تأليف أبي عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني
تحقيق محمد خير أبو الوفا

